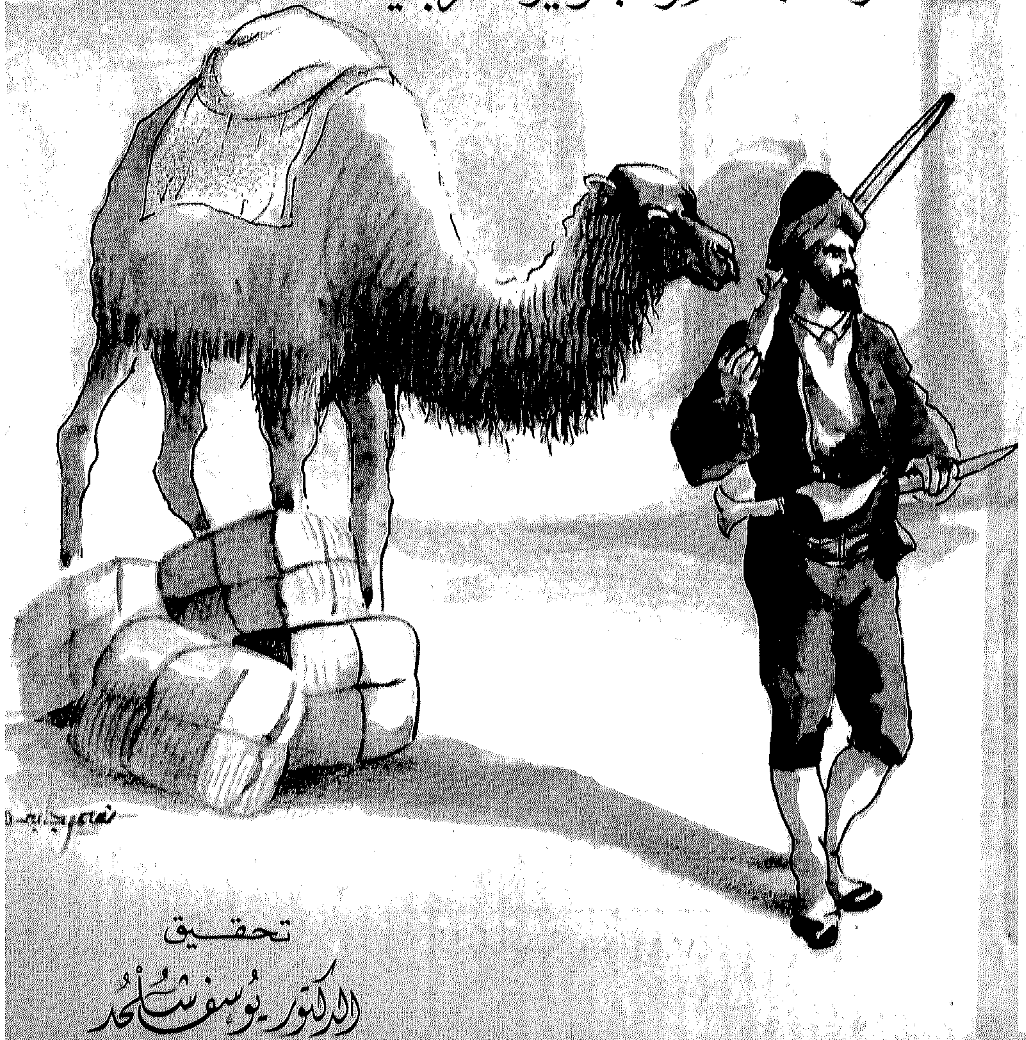
رحلة فتح الله الصايغ الحلبي

إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية



تحقيق

الدكتور يوسف شلحد

الطبعة الثانية — ١٩٩٤



دمشق ـــ اوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١

تلكس : ٤١٢٠٥٠

ص . ب : ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

رحلة فتح الله الصايغ الحلبي

إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية

الطبعة الأولى ١٩٩١

رحلة فتح الله الصايغ الحلبي

إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية

تحقيق

الدكتور يوسف شلحد

مدير أبحاث فخري

في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي - باريس

مقدمة المحقق

رحلة فتح الله الصايغ إلى البادية

إن المؤلفات عن البادية وقبائلها وأحوالها وتقاليدها وعاداتها تكاد لا تحصى. وقد اهتم بهذا الموضوع الشيق الكثير من الباحثين العرب قديماً وحديثاً[(١)] ، وقام عدد من المستشرقين بدراسات ميدانية من اشهرهم بُورْكْهارْث وموسّيلْ وجوسّانْ. ولكننا إذا رجعنا إلى فهارس الكتب التي جاء فيها وصف لحياة البادية نكاد لا نجد ذكراً لرحلة قام بها شاب سوري يدعى فتح الله الصايغ[(٢)] ، ولد بحلب، على ما يظهر سنة ١٧٩٠ ، وطالت سياحته عدة سنوات، من الثامن عشر من شهر شباط سنة ١٨١٠ إلى صيف سنة ١٨١٤ ، تجول خلالها في بادية الشام وصحارى العراق والعجم وتجاوزها، على ما يذكر، إلى حدود إيران الشرقية حيث قابل الأمير سعد البخاري رئيس قبائل عرب الهند، ثم قطع الحَماد وزار الدّرْعِيّة، عاصمة الوهابيين يومئذ.

---

(١) من الكتبة المعاصرين نذكر: روكس بن زائد العُزَيْزي، قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية، ٣ أجزاء، عمان سنة ١٩٧٣ وما بعدها؛ معلمة التراث الأردني ٥ أجزاء، عمان، سنة ١٩٨١ وما بعدها؛ حمد الجاسر، معجم القبائل المملكة العربية السعودية، جزءان، الرياض، ١٩٨١؛ أحمد وَصْفي زكريّا، عشائر الشام، جزءان، دمشق، ١٩٤٧. عمر كحّالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، خمسة أجزاء. الغزّاوي، عشائر العراق.

(٢) نكتب الصايغ، كما جاء في مذكرات المؤلف.

وتحدث الصايغ في مذكراته عن العادات والأعراف البدوية، وعن القبائل التي اتصل بها، وذكر اسماء شيوخها وعدد مقاتليها، وتكلم عن الوهابيين وحروبهم وغزواتهم على عرب الشام و وقائعهم مع الدُّرَيْعي بن شَعْلان، شيخ عرب الرُّوَلَة، و وصف الدُّرْعِيّة، كما وصف عدداً من البلدان والقرى السورية، مثل مَعَرّة النُّعْمان وحماة وحمص والقَرْيَتَيْنْ وصَدَد، وأتى على ذكر بعض الأماكن الأثرية، مثل رَسْتَن وتَدْمُر وقصر الحير الغربي.

كان فتح الله الصايغ شاباً لم يتجاوز العقد الثاني من عمرة حينما اتصل به رجل من الافرنج، في متوسط العمر، يُدْعى تيودور لاسْكاريسْ، وطلب منه أن يعلمه اللغة العربية. وكان ذلك بمدينة حلب سنة ١٨٠٩، وهي وقتئذ مركز تجاري هام، ومحط قوافل الهند والأناضول. ومع أن فتح الله المذكور كان يميل إلى التجارة، ويجهل مهنة التعليم، فإنه قَبِل هذه المهمة، لأنه كان صفر اليدين، على أثر صفقة تجارية خاسرة في جزيرة قبرص، فرضي بالشروط السخية التي عرضها عليه لاسكاريس، لا سيما بعد أن عرف أن المذكور من كبار الافرنج وأشرافهم، من أسرة بيزنطية عريقة أشتهر منها عدد من الملوك والعلماء. ولكنه على الرغم من كرم أرومته، كان يلبس الألبسة الشرقية الشعبية الزريّة، ويأكل في الأسواق.

وبعد مضيِّ ستة أشهر تعلم خلالها لاسكاريس قليلاً من العربية قراءة وكتابة، عرض على فتح الله أن يقوما برحلة في أنحاء البلاد السورية، سعياً وراء أرباح التجارة، وأعطاه الأموال لشراء البضائع التي تصلح لأهل البادية، وشرط عليه أن يطيعه طاعة عمياء، ولا يخالفه في شيء. فقبل الصايغ هذه الشروط وأخذ يعد أهبته للسفر.

غادر لاسكاريس وترجمانه حَلب إلى سَرْمين، يوم الخميس الواقع في ١٨ شباط سنة ١٨١٠، على طريق القوافل، ثم قصدا مَعَرَّة النُّعمان، ومنها إلى خان شيخون، ثم إلى حماة حيث أمر الحاكم، سليم العظم، بسجنهما بتهمة التجسس. ولكن البرطيل انقذهما سريعاً من الزنزانة، فتابعا سفرهما إلى رَسْتَن فحمص. وطابت لهما الإقامة في هذه المدينة فبقيا فيها إلى نهاية الشتاء.

وكان الصايغ على جَهْل بغايات معلمه السياسية، ويتساءل ما هو مصير

البضائع التي معهما، لأن لاسكاريس كان يمنعه من عرضها في الأسواق. ثم اتضح له شيئاً فشيئاً أن معلمه يرمي إلى هدف سياسي لا علاقة له بالتجارة، وهو التعرف بالبدو والاطلاع على أحوالهم. ولذا طلب لاسكاريس من رفيقه أن يُسَجِّل يومياً، على ورقة، جميع ما وقع ويقع لهما من حوادث، منذ مغادرتهما حلب، وهو بدوره يدوّن ملاحظاته في دفتر باللغة الفرنسية، مستعيناً بمذكرات الصائغ. ويعلمنا فتح الله أنه ظل يكتب يومياته مدة ست سنوات، إلى ما بعد وفاة لاسكاريس في القاهرة.

وتابعا رحلتهما فذهبا إلى صَدَد، قرية جميع سكانها من السُّريان النصارى، وعرضا بضاعتهما على الناس ليظنوا أن غايتهما من هذه الزيارة البيع والشراء، ثم توجها إلى القريتين، ومنها إلى تدمر، بصحبة رفيق من البدو، تعهد بإيصالهما بالسلامة. ثم ساعدتهما الظروف فتعرفا بالأمير ناصر، ابن الأمير مهنا الفاضل المعروف بالمِلْحِم، شيخ الحِسَنَة، فحلّا ضيوفاً على هذه القبيلة.

وبعد أن أقاما مدة عند عرب المِلْحِم تبين للاسكاريس، أو الشيخ إبراهيم كما تسمى عند البدو، أن الأمير مهنا وبالأولى ابنه ناصراً يتبع سياسة خرقاء ترمي إلى فرض سيطرته على القبائل بواسطة العثمانيين، مما تأباه الفردية البدوية ولا يتماشى مع الأهداف التي يتوخاها عامل نابوليون. واتضح له، بعد أن درس أحوال البادية، أن الشيخ الذي يتمكن بواسطته من تحقيق مآربه هو الدُّرَيْعي بن شَعْلان، أمير عرب الرولة. فطلب عندئذ من رفيقه ـــ الذي تسمى عبد الله الخطيب ـــ أن يبذل جهده للوصول إليه، على الرغم من المشقات وبعد المسافة، لأنه كان ضارباً خيامه في الجزيرة، قرب مدينة دير الزور.

وكان لا بُدَّ للشيخ إبراهيم من اطلاع ترجمانه على الغرض الحقيقي من هذه الرحلة: فأعلمه عندئذ أن الغاية منها الكشف عن أحوال البدو، والتعرف بكبار أمرائهم، وكسب صداقتهم، والسعي في جمع كلمتهم وأبعادهم عن العثمانيين، والعمل على معرفة الصحارى ومسالكها ومياهها، وأن الهدف السياسي هو توحيد صفوف البدو ليكونوا عوناً لجيش كبير سيمر بالشرق ويقطع الصحراء قاصداً

الهند ، وأن الدريعي بن شعلان هو الشيخ الكبير الذي يمكن الاعتماد عليه لتحقيق هذه المآرب .

وتمكنت الصحبة بين لاسكاريس والدريعي بن شعلان ، الواحد يدبّر الأمور ، والآخر يعمل على اتحاد القبائل . وأما الصايغ أو عبد الله الخطيب فكان يكتب الرسائل ويكسب القلوب بطيب لسانه . وتمكن بدهائه من ربط بعض كبار الشيوخ برباط عظيم ، على أن يكونوا يداً واحدة مع ابن شعلان في كل الأمور ، وعوناً له في خلافه مع العثمانيين والوهابيين . وتم التوقيع على وثيقة الاتحاد في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨١١م/١٢٢٦هـ .

ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتحدث عن جميع تحركات الصايغ مع عرب الرولة ، وسعيه الحثيث للحصول على موافقة أكبر عدد من القبائل على هذا الحلف ، فنراه يقطع الفرات بصحبة الدريعي ويجتمع رئيس الجلف مع شيخ عرب البصرة ، ثم ينزل على عين الوساد ، قرب نهر الخابور ، ثم يرحل إلى جبل سِنْجار ، وبعد إقامة قصيرة في تلك الربوع يعود إلى الجزيرة ، ومنها إلى غوطة الشام ويصطدم بغزو وهابي ما بين القريتين وتدمر .

ويتحدث الصايغ أيضاً عن لقاء لاسكاريس بسائح بريطاني يدعى أيضاً الشيخ إبراهيم — وهو الرحالة السويسري الإنجليزي بورْكْهارْتْ الذي اكتشف خرائب بترا — ، وعن اجتماعه مع اللادي آستَانوب ، بنت أخت رئيس وزراء إنكلترا ، ويظن أنها موفدة لتعطيل أعمال جاسوس نابوليون . ويتابع وصفه لتحركات الدريعي فنجده قرب حماة يحارب مع الأروام ، أي العثمانيين ، جيشاً وهابياً كبيراً ، يقوده عبد الله الهَدّال ، كيخيا ابن سعود ، أي المشير الأول ، وأبو نقطة . ويستمر القتال أكثر من عشرين يوماً ، وينتهي بانتصار الدريعي واندحار القوات الوهابية .

ويصف الصايغ هذه المعارك وصفاً شيّقاً ، ويتكلم عن عادات البدو عندما يطلبون النجدة من القبائل ، وعن النخوة والعطفة والقتال على ظهور الجمال ، وغير ذلك من أمور الحياة القبلية التي لا يجدها القارئ إلا عند الخبراء بأحوال البادية ، وما أقل العارفين منهم ! ولا نعلم متى كانت معركة حماة ، لأن

صاحبنا يكتفي بسرد الحوادث دون أن يذكر تاريخها. ولكن يظهر من سياق الحديث أن الغزو الوهابي كان خلال صيف سنة ١٨١٣م.

وبعد أن ربح الدريعي معركة حماة قطع الفرات، واجتاز الجزيرة، ودخل حدود العجم، ثم تابع رحيله مع لاسكاريس والصايغ وبعض أمراء البادية إلى بلاد كَرْمان، و وصل إلى نهر خُراسان وأرض الهِنْدُوان، وذلك بعد مسير اثنتين وأربعين مرحلة كبيرة، وحل أخيراً على الأمير سعد البخاري، وتمّ الاتفاق معه. ودخل أيضاً بالحلف الأمير الرُّدَيْني، شيخ عرب العجم، وهو رجل من الرافضة لا يأكل مع أهل السنة.

وهكذا توصل الدريعي إلى تحقيق مآرب لاسكاريس، فتم على يده اتحاد معظم القبائل العربية من بر الشام إلى حدود الهند، وتحالفت معه ضد الأروام أي الأتراك، واتفقت على مساعدة الجيش الذي سيمر بالشرق عَبْرَ الصحارى، وينوي السيطرة على طريق الهند.

ويذكر الصايغ أسماء القبائل التي دخلت في هذا الحلف، وأسماء شيوخها وعدد المقاتلين، ونجد جدولاً لها في آخر المذكرات، فكان المجموع خمساً وأربعين قبيلة تعد نحو ألف ألف نفس.

وعاد الدريعي إلى الجزيرة بعد أن تحالف مع عرب العجم، ثم سار مع أصحابه قاصداً برّ الشام، إذ أتتْهُ رسالة من عبد الله بن سعود يطلب حضوره إلى الدرعية. فتشاور القوم فيما بينهم وتم قرارهم على تلبية دعوة الإمام الوهابي، وعلى إرسال وفد يضمّ الدريعي وبعض ذوي قرابته والصايغ وعدداً من العبيد. أما لاسكاريس فإنه رأى من الأنسب أن يبقى مع سائر أفراد القبيلة.

ويتابع الصايغ وصف رحلته فيتحدث عن وصول الوفد إلى الدرعية ونزوله في ضيافة ابن سعود الذي كان حاقداً على الدريعي، فاستقبله استقبالاً سيئاً، ثم أمر بالحوطة عليه وعلى أعضاء الوفد. وبعد أخذ ورد تم الصلح بين الطرفين، على أن يكون الدريعي «سلطان الشمال» وابن سعود «سلطان القبلة»، وعلى أن «يكونا روحين في جسد واحد»، كما جاء في مذكرات الصايغ. فتمكن عندئذ

صاحب الرحلة من التنزه في الدرعية ، فوصفها و وصف أسواقها ونساءها ، وأتى أيضاً على وصف العاهل الوهابي ومجلسه وأحواله ، ويعد كلامه من أقدم ما قيل عن عاصمة الوهابيين . وقد ذكرت مجلة العرب[٣] تفاصيل رحلة الصايغ إلى الدرعية ، بناء على الترجمة التي قام بها المستشرق فرينل ، من الفرنسية إلى العربية ، وهي مشبعة بالأخطاء ، كما بيناه في مقال نشرته أيضاً مجلة العرب[٤] ، وأوضحناه أيضاً في الملحق المثبت في نهاية هذا الكتاب .

وقبل أن يغادر الوفدُ الدرعية وصل العلم إلى ابن سعود أن قوات محمد علي خرجت من يَنْبُع وتوجهت إلى المدينة المنورة لاحتلالها ، فلم يأبه لهذا الخبر .

أما لا سكاريس ، فقد سُرّ جداً بنتائج رحلة الصايغ إلى الدرعية ، إذ أصبح طريق الهند ممهداً أمام جيوش نابوليون ، ورأى أن التوفيق كان حليفه ، وأن بوسعه أن يعود إلى فرنسا لاطلاع الإمبراطور على نجاح مهمته . فذهب مع فتح الله من حلب إلى اسلامبول (أي استنبول) ، وهناك علم بانكسار القوات الفرنسية في روسيا . ثم تتابعت الأخبار المشؤومة وهوى عرش نابوليون ، فسافر لاسكاريس إلى أزمير لمقابلة الجنرالين سافاري ولَالْمَانْ ، وبناء على شورهما طلب الحماية البريطانية ليأمن على حياته من شر العثمانيين ، وذهب بمفرده إلى القاهرة حيث وافاه أجله . فوضع القنصل البريطاني سَالْطْ يده على مخلفات العامل الفرنسي ، بما فيها مذكراته وأوراقه .

وعلم الصايغ بوفاة أبيه الروحي أثناء إقامته مع والدته باللاذقية . ثم أتته رسالة من دُروفيتي ، قنصل فرنسا في الاسكندرية ، يطلب حضوره ، فلبّى الطلب . وحاول عبثاً أن يحصل على أوراق معلمه ، فلم ينل من القنصل البريطاني إلا الإهانة والطرد .

مذكرات الصايغ

وهكذا انتهت رحلة الصايغ التي طالت ، على زعمه ، سبع سنوات . وقد

(٣) مجلة العرب ، ج٣ ، ٤ ، س١٩ ، ١٤٠٤/١٩٨٤ ، ص١٥٢ــ١٦٨ .
(٤) مجلة العرب ، ج٩ ، ١٠ ، س١٩ ، ١٤٠٥/٨٥ــ١٩٨٤ ، ص٦٩٧ــ٧٠٦ .

عرضناها عرضاً سريعاً لا يعطي إلا فكرة خاطفة وغير كاملة عن محتوياتها، ولو أردنا أن نذكر جميع ما جاء فيها من حوادث وأخبار، وخاصة عن الوهابيين وعادات العرب لطال بنا المقام. وهي في الوقت نفسه وثيقة هامة عن أحوال بادية الشام وعن بعض القرى والبلدان السورية في أوائل القرن التاسع عشر.

ومن الجدير بالذكر أن مذكرات الصايغ التي تنشر اليوم لأول مرة باللغة العربية، عرفها الغرب منذ أكثر من مئة وخمسين سنة، وأشاد بها عدد من كبار أصحاب الرحلات (منهم اللادي بلانت) والمستشرقين، إذ تُرْجمت إلى الفرنسية على يد الشاعر الرومانتيكي لامرتين، وصَدَرَتْ في الجزء الرابع من كتابه «رحلة إلى الشرق» (الطبعة الأولى، سنة ١٨٣٥). أما القارئ العربي فما زال يجهلها، بل يجهلها أيضاً أصحاب كتب التراجم، منهم الزركلي في أعلامه إذ يقول عن فتح الله الصايغ: كان ترجماناً للقنصلية الفرنسية، ورحل من حلب في أواخر سنة ١٢٢٥ (١٨١٠) إلى بادية الشام مع المسمى تيودور لاسكاريس، فصنف بعد الرحلة «كتاب المقترب في حوادث الحضر والعرب» (انتهى). والحقيقة أن الصايغ كتب أولاً مذكراته التي اشتراها لامرتين سنة ١٨٣٢، وصنف بعد عشر سنوات الكتاب الذي ذكره الزركلي، وهو ضعيف المادة، قليل الفائدة، بخلاف المذكرات التي نالت إعجاب لامرتين، حتى أنه حرص على أن تكافئ الحكومة الفرنسية مؤلفها «لأجل الخدمات التي قدمها لعلم الجغرافيا وأخلاق الأمم»، فعينته وكيلاً في قنصليتها بحلب سنة ١٨٤٧. ونجهل أيضاً تاريخ وفاته، ويعلمنا عمر كحّالة، في معجم المؤلفين، أن الصايغ كان حياً سنة ١٢٢٥ أي سنة ١٨١٠ م. وكان عمره يومئذ عشرين سنة!.

ولا يغفل لامرتين عن ذكر الأسباب التي جعلته يهتم بمذكرات السائح السوري، ويخبرنا أيضاً كيف تم له الحصول عليها فيقول: كنت نازلاً في وسط الصحراء التي تمتد من طبريا إلى الناصرة، وكنا نتحدث عن القبائل التي التقينا بها خلال ذلك اليوم. فأعربت لدليلي عن رغبتي في التعرف بالبعض منها والعيش معها ردحاً من الزمن، وتتبع خطواتها من دمشق إلى شواطئ الفرات لكشف اللثام عن **حضارة الصحراء**، ولكن لم يبق لدينا الوقت الكافي لمثل هذه المغامرة

التي لم يَجْرُؤ أحد من المسافرين على القيام بها، إلا رجل واحد يدعى لاسكاريس، ولكنه مات وضاعت معه المعلومات التي جمعها عن أهل البادية خلال عشر سنوات.

ثم تحدث لامرتين عن لاسكاريس، وكيف التقى بالجنرال بونابارت في جزيرة مالطة، عند حملته على مصر سنة ١٧٩٨، وكيف تبعه إلى القاهرة إلى أن عاد إلى فرنسا مع بقايا الجيش الفرنسي. وبعد أن خرقت انجلترا معاهدة أمْيَان، سنة ١٨٠٣، رأي نابوليون أنه لا يستطيع أن يضرب عدوه في قعر جزيرته، بسبب تفوق الأسطول البريطاني، فحاول أن يقضي على اقتصادياته، واعتقد أنه يصيبه في الصميم إذا تمكن من أن يقطع عليه طريق الهند، كما بيّناه مفصلاً في المقدمة الفرنسية[٤]. ولأجل الوصول إلى هذا الهدف، لا بُدَّ له أوّلاً من توطيد العلاقات مع أمراء البادية ومشايخها، فأرسل لاسكاريس لهذه المهمة. ونجحت مساعي جاسوس نابوليون، ولكن حين أراد العودة إلى فرنسا، علم بسقوط الامبراطور الفرنسي، فذهب إلى القاهرة مغموماً يائساً، حيث وافاه أجله. فوضع القنصل البريطاني يده على مخلفاته، وخاصة على مذكراته وأوراقه، ولا يعلم أحد ما كان مصيرها. وختم لامرتين حديثه معرباً عن أسفه على ضياع هذه الوثائق الهامة. فقال له دليله: لعلها لم تفقد تماماً، لأنه على معرفة جيدة بالشاب الذي كان يرافق لاسكاريس، ولطالما سمعه يتحدث عن هذه الرحلة إلى البادية، وعن اليوميات التي كان يكتبها، بناء على طلب معلمه. وهكذا مكّنَت الظروفُ لامرتين من شراء مذكرات الصايغ، وتمت ترجمتها إلى الفرنسية على يده أيضاً.

ولم ينل كتاب لامرتين «رحلة إلى الشرق» نجاحاً كبيراً لضعف مادته، فسرعان ما نسيه الناس، ودخلت معه مذكرات الصايغ في خبايا الزوايا.

وكان من المنتظر أن يقبل المستشرقون على رحلة الصايغ، لما فيها من أخبار طريفة عن أحوال البادية وقبائلها، ووصفٍ لبعض القرى والبلدان السورية. إلا أن رئيس الجمعية الأسيوية شك في صحتها، فسكتت عنها مجلة هذه

(٤ مكرر)قام المحقق بترجمة هذه الرحلة إلى الفرنسية مع مقدمة إضافية، وقد تولت نشرها دار غاليمار الباريسية تحت عنوان: Le désert et la gloire.

الجمعية، وكانت يومئذ لسان حال المستشرقين، ولم تتناولها بالنقد، بل أنها لم تذكرها بخير أو شر إلا بعد وفاة الشاعر لامرتين. ويتضح من رسالة طويلة وجهها المستشرق فولْجَنْسْ فَرَيْنَل إلى رئيس الجمعية سنة ١٨٣٨، ولكن المجلة الأسيوية لم تنشرها إلا سنة ١٨٧١، إنه كان من المُسَلِّمين بصحة هذه الرحلة، ثم بدّل رأيه بعد أن عرض على ذوي الخبرة من العرب الصفحات التي جاء فيها وصفُ الدرعية وذكرُ الإمام الوهابي عبد الله بن سعود. وأصدرت المجلة الأسيوية حكمها الصارم في تقريرها السنوي لعام ١٨٧٢ (ج ٢٠، ص ٣٦) جاء فيه: إن هذه الرحلة وليدة الخيال، كتبها رجل عارف بأحوال البادية.

ولم يتساءل صاحب هذا الكلام كيف تم لبائع من صغار التجار، يكاد يجهل اللغة العربية الفصحى، مثل فتح الله الصايغ، يخشى البادية كما يخشاها كل حضري من سكان المدن، لا سيما أنه كان نصرانياً، أن يكون مطلعاً أتم الاطلاع على أحوال البدو، حتى أنه تكلم عن عادة دفن الحصى أو دفن الذنوب، يكاد يجهلها حتى المختصون بدراسة البادية، ولكن ذكرها قبله شهاب الدين العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م، في كتابه: «التعريف بالمصطلح الشريف»[٥]، فأنّى له هذه المعرفة الدقيقة بقبائلها وتقاليدها، إن لم يكن عاش معها ردحاً من الزمن. أما الأخطاء التي نددت بها المجلة الأسيوية، مما حملها على الشك في رحلة الصايغ إلى الدرعية، فإن صاحبنا بريء منها كبراءة الذئب من دم يوسف، لأن المسؤول الأول عنها هو سوء الترجمة، كما سنبينه بعد حين.

رحلة الصايغ: ما بين الحقيقة والخيال

لقد شك بعض المستشرقين في صحة رحلة الصايغ ونسبوها إلى الخيال، لأنهم اطلعوا عليها من خلال ترجمة خاطئة. ونحن نميل إلى تصديق الصايغ، وننظر إلى مذكراته نظرنا إلى جزء من التراث السوري العربي، على الرغم من أخطائه التاريخية ومبالغاته الكثيرة، لأن في وصفه دقة شاهد العيان ولأن ما كتبه يتماشى مع الواقع التاريخي.

---

(٥) انظر الهامش رقم ١٨.

كانت فرنسا تطمع بالاستيلاء على مصر من قبل قيام ثورة ١٧٨٩ ، فزارها عدد من سياحها و وصفوها ، من أشهرهم فُولْنَه الذي تجول في الشرق من سنة ١٧٨٣ إلى سنة ١٧٨٥ وكتب كتاباً قيماً عن وضعه الجغرافي والسياسي والعمراني ، وقال عن مدينة الاسكندرية أن تحصناتها الحربية عديمة الوجود[٦] . وعندما أبحرت القوات العسكرية الفرنسية متوجهة إلى مصر ، فُقِد هذا الكتاب من الأسواق . وبعد أن استولى بونابارت على الحكم ، أراد من جديد أن يقطع على انكلترا طريق الهند ، كما أثبتناه مفصلاً في المقدمة الفرنسية ، فأرسلت السلطات الكولونيل سَبَسْتِياني[٧] ، سنة ١٨٠٢ ، وفَانْسَانْ بوتان[٨] ، سنة ١٨١٠ ، للكشف عن الوضع العسكري في الشرق . ولعل القرار على مهمة لاسكاريس صدر عن نفس الدوائر الفرنسية العالية .

وهنا يقف المؤرخ وقفة الحائر المتردد ، إذْ لا يجد أي وثيقة تؤكد صحة ما ادعاه لاسكاريس ، بناء على ما ذكره الصايغ ، من أنه موفد إلى الشرق ليكسب صداقة أمراء البادية . ولم أجد في المخابرات القنصلية الفرنسية الخاصة بمدينة حلب ذكراً للاسكاريس ، مع أنه أقام في هذه البلد أكثر من سنة ، وكانت تأتيه الأموال منها ، على ما يقول الصايغ . ولكن ليس من عادة الدوائر الجاسوسية أن تعطي تعليماتها بالطرق الرسمية . ولا يمكن أن تكون هذه القصة من ابتداع السائح السوري . فأنّى لشاب لا يحسن غير البيع والشراء أن يكون عارفاً بالسياسة العالمية وعلى علم بأسماء عدد من كبار الشخصيات الفرنسية المقيمة في الشرق ، من قناصل وسفراء ، حتى أنه تحدث عن وصول الجنرالين سافاري ولَالْمانْ إلى أزمير بعد سقوط نابوليون ؟ ولا شك عندي في أن رحلة الصايغ ليست وليدة الخيال ، وإن كان الخيال لعب بها ، ولا يمكن لأي ناقد قرأ هذه المذكرات ، واطلع على دقة الوصف فيها لبعض القرى السورية والأماكن الأثرية والحياة البدوية إلا أن يُسَلِّم بحكمنا هذا . ولعلّ لاسكاريس أوهمه أنه كان موفداً من قبل نابوليون ، أو لعل

(٦) فولنه ، رحلة إلى مصر وسورية ، ص ٢٨ (بالفرنسية) ، تحقيق جان غوليه ، باريس ١٩٥٩ .

(٧) الأب لامنس ، تاريخ سورية ، ج ٢ ، ص ١٢٨ (بالفرسية) ، بيروت ، ١٩٢١ .

(٨) ج . م . كرّيه ، الرحّالون والكتبة المرنسيون في مصر (بالفرنسية) ، ج ٤ ، باريس ، ١٩٦١ وقد اغتال العلويون بوتان سنة ١٨١٥ .

بعض الشخصيات السياسية الفرنسية طلبت من لاسكاريس أن يقوم بالتمهيدات الأولية لكسب صداقة أمراء البادية، إذ بقي في مصر عدد من الفرنسيين بعد اخفاق الحملة، اعتنقوا الإسلام وخدموا أصحاب البلاد، منهم الكولونيل سَاڤ المشهور بسليمان باشا، وهو الذي أعاد تنظيم جيش محمد علي[٩]. والحقيقة أن قصة لاسكاريس من الألغاز التاريخية التي لم تجد حلاً إلى يومنا هذا. وتفيدنا رسالة وجهها قنصل فرنسا بالاسكندرية إلى وزارة الخارجية بباريس، بتاريخ ٢٣ نيسان ١٨١٧، أن السائح بوركهارت، الذي اكتشف خرائب بترا، كتب ترجمة لاسكاريس بعد وفاته بالقاهرة[١٠]. ومن المؤسف أني لم أجد أثراً لها، ولعلها لم تطبع، إلا أنها تدل على أن الرحالة السويسري البريطاني كان على اتصال بجاسوس نابوليون وينظر إليه نظرة الند للند. ونعلم من مذكرات الصايغ أن لاسكاريس التقى فعلاً بالشيخ إبراهيم صاحب «الرحلة إلى الجزيرة العربية».

ومتى سلمنا بهذه الأمور الأساسية وهي أن قصة لاسكاريس ليست وليدة الخيال وأنه رحل فعلاً مع ترجمانه فتح الله الصايغ إلى البادية واتصلا بعدد من شيوخ القبائل، اتسع علينا مجال النقد لنتبين الصحيح من الخطأ في المذكرات التي نقوم اليوم بنشرها، لأن صاحب الرحلة شوّه الحقيقة أحياناً، وتحدث بأمور هي من نسج خياله، إلا أنه صدق أيضاً في أمور كثيرة، فأفاد إفادة جمة.

وأول ما يجب الإشارة إليه هي الأخطاء التاريخية العديدة في هذه المذكرات. فالصايغ يقول أنه بعد رحلته الأولى إلى تدمر وبر الشام ذهب إلى دمشق، وكان ذلك بتاريخ ٢٣ كانون الأول سنة ١٨١٠. ثم اتصل بالدريعي بن شعلان، وتمكن من احضار معلمه الشيخ إبراهيم إلى مخيم الدريعي في صيف أو خريف سنة ١٨١١. وأثناء ذلك قامت بعض القوات الوهابية بغزوة على عرب الشام، فتبعها الدريعي وربح المعركة ضد القائد الوهابي الشهير بأبي نقطة. إلا أن أبا نقطة، حاكم عسير تهامة، توفي قبل هذا الغزو بسنتين، قتله الشريف علي حمود،

---

(٩) فيليب حتّي، ادوار جرجي، جبرائيل جبّور، تاريخ العرب (مطول) ج ٢، ص٨٥٢. دار الكشاف، بيروت، ١٩٦١.

(١٠) المخابرات القنصلية رقم ١٩، سنة ١٨١٧، ورقة ٢٠٠، باريس، وزارة الخارجية (بالفرنسية).

قائد عرب اليمن، عندما اندلعت نيران الحرب بين الوهابيين واليمنيين[١١]. ويذكر الصايغ من جديد أبا نقطة ويزعم أنه قاد حملة على بر الشام، وكان معه يومئذ عبد الله الهدّال، كيخيا ابن سعود، وذلك خلال ربيع أو صيف سنة ١٨١٣. وكان النصر أيضاً حليف الدريعي. ويتحدث من جديد عن أبي نقطة عند زيارته الدرعية، ويزعم أنه تناول معه طعام العشاء، ولكنه لا يذكر تاريخ هذه الزيارة. وإذا تتبعنا سياق الحديث يتضح لنا أن ذهابه إلى عاصمة الوهابيين كان خلال ربيع أو صيف سنة ١٨١٤، بعد سفره إلى أطراف الهند واتحاد الشيخ الرُّدَيْني مع الدريعي. وفي الوقت نفسه يعلمنا أن خبر زحف القوات المصرية على المدينة بلغ ابن سعود عند نهاية هذه الزيارة. ومن المعلوم أن الجيش المصري احتل المدينة المنورة في شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٢.

وبعد أن نجحت مساعي لاسكاريس ذهب إلى استنبول قاصداً فرنسا. ويستدل من سياق القصة أنه سافر في نهاية سنة ١٨١٤. ولكن الصايغ يخبرنا أنه علم هناك باندحار القوات الفرنسية في روسيا، ثم تتابعت الأخبار المشؤومة وبلغه تراجع نابوليون وعودته مكسوراً إلى باريس. ومن المعروف المشهور أن هذه الحوادث جرت في شتاء سنة ١٨١٣.

فيتضح من هذا النقد السريع أن الصايغ خبط بالتاريخ خَبْطَ عَشْواء، وإذا أضفنا إلى ما تقدم مغامراته العديدة المزعومة، والأخطار التي مَرَّ بها وكاد يذهب ضحيتها، وحديثه عن أثواب الحيّات، وهو أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، أصبح من اليقين لدينا أنه تساهل تساهلاً شديداً بالأمور التاريخية، وأن الناقد على حق إذا شك في صحة أقواله، ونسب عدداً منها إلى الخيال.

ولكن «لعل له عذراً وأنت تلوم». والواقع أن الصايغ كان يكتب يومياته على «ورقة طيارة»، على حسب تعبيره، وأن هي إلا مذكرة للشيخ إبراهيم تسهل عليه تسجيل الوقائع. وما أظن أن صاحبنا كان يفكر يوماً بوضع كتاب عن رحلته، لأنه كان لا يحسن اللغة العربية، ولكنه احتفظ بمذكراته، وعندما عرض

(١١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص١٦٨، القاهرة، ١٩٦٩؛ عبد الله فيلبي، تاريخ نجد، ص١٢٤، المكتبة الأهلية، بيروت (دون تاريخ).

عليه لامرتين شراءها قام عندئذ بتحريرها باللهجة الحلبية وأسبغ عليها طابع المغامرات، متتبعاً سير الحوادث. والدليل على ذلك أنه كثيراً ما يضع علامة على بعض صفحات المخطوطة تشير إلى أن الحادث الذي ذكره يجب أن يُقدم أو يؤخر. ولا عجب إذا أخطأ بالتواريخ لأنه أراد بادئ بدء سرد قصة أبيه الروحي لاسكاريس، فكتب ما علق بذاكرته، دون اهتمام كبير بالأمانة التاريخية، لاسيما وأنه وضع كتابه بعد مضي نحو خمس عشرة سنة على رحلته، فذكر القائد أبا نقطة لأن حاكم عسير تهامة كان مشهوراً بقوته وجسارته، وأخطأ بأسماء الأعلام والأنساب، بل أنه سرد حوادث من الصعب تصديقها لولا ورودها أيضاً في مصادر موثوق بها.

وهناك نقطتان أساسيتان أثارتا بنوع خاص شكوك المؤرخين، فلا بُدَّ لنا من الكلام عنهما: الأولى معركة حماة، والثانية زيارة الدرعية.

وصف الصايغ معركة حماة وصفاً رائعاً، وذكر عدد المقاتلين، فزعم أن الجيش الوهابي كان يضم نحو مئة وخمسين ألف مقاتل، أما عرب الشام، فإن جميع القبائل التي أنجدت الدريعي لا تزيد على ثمانين ألف محارب، يضاف إليها جنود الجيش العثماني الذي تصدى أيضاً للغزو الوهابي.

ولكن هل وقعت هذه المعركة حقاً؟ يعتقد الدكتور منير العجلاني أن الإمام سعود قام فعلاً بغارة على أطراف الشام سنة ١٢٢٥ هـ/١٨١٠ م(١٢). إلا أنه يظن «أن أعداد المقاتلين أعداد مبالغ فيها كثيراً، وأما المعركة، فيترجح [عنده]، بغلبة الظن، أنها وقعت. يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢٢٥ أن الإمام سعود سار في شهر ربيع الثاني إلى الشام»(١٣). أن هذه الغارة التي تحدث عنها ابن بشر قام بها الإمام الوهابي نفسه سنة ١٨١٠، أما معركة حماة فلم تكن

---

(١٢) منير العجلاني، تاريخ بلاد العربية السعودية، ج ٣، ص ٦٥، دار الكاتب العربي، بغداد (دون تاريخ).

(١٣) منير العجلاني، المصدر نفسه، ص ٢٣؛ فيلبي، تاريخ نجد، ص ١٣٧. وأخطأ ميخائيل مشاقه في تاريخ هذه الغارة، فزعم أنها كانت سنة ١٨١٧، وأن الجند الحجازي الذي أمَّ الشام أرسله محمد بن عبد الوهاب، (انظر: بلاد الشام في القرن التاسع عشر، دراسة وتحقيق سهيل زكار، ص ١٠٠، دار حسان، دمشق ١٤٠٢/١٩٨٢).

بقيادته، وحدثت، على ما يقول الصايغ، بعد هذه الغارة بثلاث سنين. وعندما علق الشيخ أحمد بن حسن بن رُشيد الحنبلي على هذه الغزوة كتب بقلمه: «هذا غير معقول، ما كسرت جيوش الوهابي عند حماة، إذ كان العرب بعضها مع بعض، اللهم...»(١٤). وهذا الكلام يشير إلى إمكانية وقوع مثل هذا الغزو، ولكنه لم يكن بقيادة الإمام سعود.

ولدينا شاهد على وقوع هذه المعركة الكبيرة في كتيب لمؤلف فرنسي كان من عملاء نابوليون في الشرق، يدعى أوغُسْتْ دي تَرْسَيَّا، طُبع سنة ١٨١٨، يقول فيه: «لما وقعت الحرب بين قبائل عنزة والفِدْعان غطت خيام الفئتين المتقاتلتين جميع المساحة بين سلمية وتدمر... وإننا نؤكد أن عدد المتحاربين في معركة السلمية [قرب حماة] التي وقعت سنة ١٨١٢، زاد على أربعين ألف فارس يحملون الرماح. غير أن العدد الذي ذكرناه أقل بكثير مما ذهب إليه بعض الأناس المعروفين بصدقهم وبعد نظرهم، وذلك لأننا نخشى أن تنسب إلينا المغالاة في الأمور». ومن البديهي أن ما يقوله الكاتب الفرنسي لا يعني إن القتال كان بين الوهابيين وعرب الشام لأن الفدعان فرع من قبائل عنزة. ولكن عنوان الكتاب يدل على أن حديث المؤلف له علاقة بالغزو الوهابي، وهو: «نبذة عن البدو وعن الملة الوهابية» (ص ١٨).

أما رحلة الصايغ إلى الدرعية، فهي التي أثارت شكوك المستشرقين بنوع خاص، وسار على خطاهم بعض المؤرخين العرب(١٥)، دون الرجوع إلى المصدر الأول أي مذكرات فتح الله الصايغ. وقد سبق واثبتنا، في مقال نشرته مجلة العرب(١٦) أن المسؤول عن الريبة التي تحوط بهذه الرحلة هو سوء الترجمة بل الترجمات العديدة أولاً من العربية إلى الافرنجية، لهجة هي خليط من الفرنسية والأسبنيولية والإيطالية والعربية والتركية، وكان يتكلم بها سابقاً بعض أهل المشرق، ومنها إلى الفرنسية، ثم قام لامرتين بتنقيح هذه الترجمة، وعنها أخذ المستشرق فرينل ليُردّ النص إلى العربية، ثم عرض هذا النص العربي الجديد على أرباب الخبرة من

(١٤) مجلة العرب، ج٣، ٤، س١٩، ١٤٠٤/١٩٨٤، ص١٦٢.

(١٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المصدر نفسه، ص٢٧٤.

(١٦) انظر الهامش رقم ٤.

العرب ليُبْدوا رأيهم فيه، فكتب الشيخ أحمد بن رُشَيْد الحنبلي معلقاً عليه: كذب هذا النصراني ولم يصدق في شيء[17]. فقبلت المجلة الأسيوية هذا الحكم الصارم، دون فحص أو تدقيق. وبعد البحث ومقابلة النصوص اتضح لي أن المُنْتَقَد، أي فتح الله الصايغ، والمُنْتَقِد، أي الشيخ الحنبلي، كلاهما على صواب، لم يكذب الأول ولم يخطئ الثاني، إلا أن الترجمات حرّفت عبارات الصايغ، وابدلت بعض معانيها، وأدخلت فيها ما لا وجود في النص العربي الأول، فأصدر الشيخ الحنبلي حكمه، وهو صادق، على كلام لم يقله الصايغ، وعلاوة على ذلك إن الشيخ الحنبلي وكان في العقد التاسع من عمره، وقع هو أيضاً في بعض الأخطاء، كما بيناه في الملحق المدرج في نهاية هذا الكتاب.

ومما لا شك فيه أن الصائغ ارتكب أغلاطاً فادحة عديدة، فكتب مكا بدلاً من مَخا، وزعم أن قبر النبي في مكة وأن سعوداً نهب هذا البلد، فخلط بين مكة والمدينة. وهنالك أيضاً مجال للشك في صحة الكتاب الذي أرسل به عبد الله بن سعود إلى الدريعي بن شعلان. ولكن علينا ألّا ننسى أن الرسالة موجهة إلى شيخ بدوي يجهل القراءة والكتابة، ولعلها صيغت عمداً بأسلوب يفهمه أهل البادية. ولكنني أميل إلى الظن أن الصايغ سجّل في مذكراته وصول كتاب من الإمام الوهابي إلى ابن شعلان، ولما صنّف كتابه، صاغ الرسالة بإنشائه العامي البدوي. ولا عجب إذا أخطأ في نسب عبد الله بن سعود، فإن خلطه بين مكة والمدينة يكفي لإظهار قلة معرفته بالأمور العربية.

أجَلْ إن الصايغ لم يكن حريصاً على الأمانة التاريخية، لأنه أراد فقط أن يكتب قصة رحلة، فنمّق وزاد، واتخذ أسلوباً روائياً، فشوّه الحقائق أحياناً. وعلى الرغم من هذه الأخطاء، فإن في كتابه من الفوائد الجمة، والأوصاف الدقيقة، والمعلومات الشيقة الهامة ما يجعله مرجعاً لكل من يدرس أحوال البادية أو يبحث عن الدعوة الوهابية، لأنه تكلم عنها مراراً، كما تكلم عن عبد الله بن سعود وأحواله. وإني أميل إلى تصديقه عندما يتحدث عن الدرعية، لأن الشكوك التي أثارتها هذه الرحلة تضمحل متى عرضناها على محك النقد السليم.

---

(١٧) مجلة العرب، ج٣، ٤، س١٩، ص١٥٤.

أهمية مذكرات الصايغ

ولكي يكون عرضنا نزيهاً وشاملاً، علينا الآن أن نظهر محاسن هذا الكتاب. بعد أن نوهنا بمطاعنه. وأول ما يسترعي النظر هو وصفه الدقيق السريع لكثير من الأمكنة، مما يدل على أنه رآها حقاً. ومن ذلك كلامه عن حمّام طبيعي قرب قرية صدد، قال: «كان مسيرنا أربع ساعات لطرف الشرق منحرف لجهة الشمال، فوصلنا و وجدنا عمارات قديمة وكثيراً من الخراب. ثم وجدنا مخدعاً بقدر غرفة كبيرة لم تزل قائمة، عمارته على الطريقة القديمة بحجار كبيرة جداً، تهدّم منها فقط قسم من الحائط من جهة الباب، فسدّ نصفه. فدخلنا الغرفة، و وجدنا طاقة من جهة الشرق طولها نحو ذراع وعرضها كذلك، بناؤها قديم جداً، ويخرج من تلك الطاقة بخار عظيم بكثرة».

بوسعنا أن نعطي أمثلة كثيرة من هذا النوع كوصفه صدد، والقريتين، وآثار تدمر، ومغارة كبيرة قرب هذه البلدة الأثرية، وكلامه عن الدرعية وريح السموم. ومن أهم ما جاء في هذا الكتاب هو حديثه عن البادية وتقاليدها وقبائلها، فهو حديث الشاهد الأمين الذي يتكلم عما رآه وسمعه وعرفه بالخبرة والمشاهدة. وقد تعرض الصايغ لنواحٍ عديدة من حياة البادية، مثل الرحيل في وقت السلم، والنساء في الهوادج، وأمامهن الفرسان الخبيرون بالضرب والطعن، والرحيل السريع في حالة الطوارئ، فَتَجِدّ القبيلة بالسير المداوم، من غير نزول ولا راحة، بل الأكل على ظهور الجمال والنوم كذلك، والنساء تعجن وتخبز على ظهور الجمال أيضاً. ويتكلم عن مكانة المرأة في المجتمع البدوي وتكريم أهل البادية لها، وعن الطب البدوي، والخوة والنخوة والعطفة، بل إنه يفرد فصلاً بتمامه لعادات أهل الوبر، ويحدثنا مطولاً عن مراسيم الزواج. ونعتقد أن الصفحات التي جاء فيها وصف حفلة زواج ابن الأمير برجس من أحسن ما كتبه الصايغ في مذكراته، ويماثلها بالدقة كلامه عن العادات المتبعة عند البدو حين طلب النجدة. ويصف أيضاً الحرب على ظهور الجمال، ويتحدث عن المعارك مع الوهابيين وعن سلاح البدو يومئذ، ونعلم أن السيف والرمح كانا من الأسلحة التي

يكثر استعمالها في البادية، وإن منهم من كان يلبس الخوذة وقميص الزرد، أما الأسلحة النارية فإن الدارج عندهم البارودة ذات الفتيل.

ومن أغرب ما جاء في مذكرات الصايغ عن أعراف البادية عادة «دفن الحصى»، ولا يكون ذلك إلا بعد الصلح التام وصفاء القلوب بين خصمين عنيدين وعدوين لدودين طال الخلاف بينهما، وجرى عليهما من جراء ذلك الأمور العظام. وعندئذ ينسى كل منهما ما مضى، ولا يطالب بثأر أو مال. ويعلمنا الصايغ كيف تتم عملية دفن الحصى وما هو مغزاها، إذ شاهد ذلك عياناً بعد أن رضي الدريعي بالصلح مع مهنا الفاضل، فوصفها ثم قال: فتعجبنا أنا والشيخ إبراهيم (لاسكاريس) من ذلك، لأننا ما كنا رأينا هذه النكتة ولا سمعنا بها. ويظهر أن هذه العادة طاعنة بالقدم، إذْ تكلم عنها، كما قلت أعلاه، شهاب الدين العمري في كتابه: «التعريف بالمصطلح الشريف»[١٨]، ووصفها أيضاً ابن ناظر الجيش في تثقيف التعريف[١٩]، والقلقشندي في «صبح الأعشى»[٢٠]. ولا نعلم أن أحداً من المختصين بالبادية وأحوالها أتى على ذكرها، مما يثبت صدق رواية الصايغ. واعتقادنا أنها زالت اليوم، غير أن ذكرها بقي محفوظاً عند بدو الأردن، فهم يقولون حَفرْ ودفن، و«حفار ودفان عليهما أدامة إلى يوم القيامة».

ولا يسعنا هنا أن نعدد جميع محاسن كتاب فتح الله الصايغ[٢١]، وفي قراءته أكبر برهان، لأنه على الرغم من أخطائه التاريخية وميل مؤلفه إلى الغلو، وثيقة حية عن بلاد الشام وباديته. وهذا الاطراء لا يعني أن صاحبه صدق في كل شيء. فقد يكون زاد في قصة لاسكاريس ونمقها، ولكنها ليست من مبتدعاته،

---

(١٨) شهاب الدين العُمَري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٦٥ وما بعدها، القاهرة، ١٣١٢.

(١٩) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، مخطوطة الاسكوريال، ورقة ٩٧ و٩٨. انظر أيضاً مقالتنا بالفرنسية: «دفن الذنوب عند العرب» مجلة تاريخ الديانات، نيسان ـــ حزيران ١٩٥٩، ص ٢١٥ وما بعدها، وأيضاً الموسوعة الإسلامية، مادة «دفن».

(٢٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ١٣، ص ٣٥٢ وما بعدها، دار الكتب السلطانية، القاهرة، ١٩١٨.

(٢١) أتينا على ذكر بعض هذه المحاسن في مجلة العــرب، ج ١١، ١٢، س ٢٠، ١٤٠٦/١٩٨٦، ص ٧٧٥ ـــ ٧٩٨.

ونراه يتحدث عن البدو وأحوالهم بدقة ومعرفة وسعة اطلاع لا تتأتى إلا لرجل عاش معهم ردحاً من الزمن.

المخطوطة

قد خلط الذين ترجموا للصائغ بين مذكراته التي نقوم بنشرها اليوم ومؤلفه الآخر الموسوم «بكتاب المقترب في حوادث الحضر والعرب». ويوجد من هذا الكتاب عدة نسخ، الواحدة منها في باريس، تحت رقم ١٦٨٥ عربي، ولعلها بخط المؤلف. أما قصة رحلته فلا يوجد منها إلا نسخة واحدة في العالم، وهي التي اشتراها لامرتين ومحفوظة أيضاً في المكتبة الوطنية بباريس، قسم المخطوطات العربية، تحت رقم ٢٢٩٨.

وتحوي هذه المخطوطة على مئة وتسع وعشرين ورقة أي على مئتين وست وخمسين صفحة، بقياس ١٥×٥ر٢١، في كل منها نحو ثلاثة وعشرين سطراً. إلا أن الورقة ١١٤/٢ ونصف الورقة ١١٦/٢ والورقة ١١٧ و١١٨ و١١٩/٢ بَقِيَتْ بيضاء. والخط غير جميل ولكنه سهل القراءة نِسْبياً. غير أنه شديد الرصّ، إلا في الورقات الأخيرة من الكتاب، واعتباراً من الورقة رقم ١١٩. وبسبب هذا الرص الشديد لم يبق في الصفحة إلا هامش ضيق جداً. ولذا عند تجليد المخطوطة، دخل عدد من الكلمات في جلد الكتاب وكذلك بعض العبارات المضافة في الهوامش، فصعبت بسبب ذلك قراءة المذكرات.

لغة المؤلف

إلا أن الصعوبة الكبرى متأتية من لغة المؤلف لأنه يكتب بلغة هي أقرب إلى اللهجة الحلبية منها إلى العربية الفصحى، ومع ذلك إننا نجد في مذكراته عدداً من التعابير الإسلامية والآيات القرآنية لحن فيها الصايغ، ونراه يحاول أن يفصح ولكنه لا يراعي مبادئ الإعراب فيقع في أغلاط نحوية ولغوية لا حصر لها. وعلاوة على ذلك أنه كثيراً ما يبدل حروفاً بحروف ويخلط بين المضخمة واللينة فتصبح

الصاد سيناً (عَسْر بدلاً من عصْر) والقاف كافاً والزين ذالاً والضاد دالاً والظاء ذالاً والعكس بالعكس فيكتب أسْتَغيظُ بدلاً من اسْتَغيثُ وحضَرَ بدلاً من حَذَر ، وركاد بدلاً من رقاد ... وكذلك يخلط بين التاء المفتوحة والتاء المربوطة ويُكْثِر من استعمال التعابير والألفاظ التي يصعب فهمها على غير الحلبيين العريقين ، وهناك أيضاً عدد من الكلمات البدوية والتركية والعجمية والفرنسية التي تحتاج أيضاً إلى شرح وتعليق ، خاصة أن طبع هذا الكتاب ، مع الأمانة التامة لنص المؤلف ، وفقاً لأصول النشر المرعية عادة ، يؤدي إلى نتائج غير مرضية بسبب كثرة الهوامش لايضاح المعنى والمبنى ، فيرمي القارئ الكتاب من يده من الملل ، مع أن الموضوع شيّق جذاب .

ولذا رأينا أن من العبث الحرص على الأمانة الحرفية في عمل لا يمتاز بصبغة أدبية أو فلسفية وأن من الأولى تنقيح نص المؤلف وإعادة صياغته أحياناً ، مع مراعاة الأصل والاحتفاظ بما يمكن حفظه من التعابير وأسلوب الإنشاء ، ولكن إتماماً للفائدة ، ذكرنا في الهوامش ، بين هلالين مزدوجين ، الكلمات الخاصة باللهجة الحلبية . ونحن بعملنا هذا لم نأت ببدعة جديدة ، إنما اتبعنا العادة المرعية في نشر اليوميات أو الحوليات المكتوبة باللهجات القديمة ، ونجد أمثالاً على ذلك أيضاً في أشهر كتب الأدب ، مثل كتاب الأغاني ، بل في كتب الحديث نفسها فكم من مرة نقرأ بعد الحديث المنقول العبارة التالية : « أو كما قال » ، ومعنى ذلك أن المحدث حفظ المعنى ولم يذكر النص بحذافيره . ومما لا شك فيه أن أهمية كتب الرحلات في موادها وليس في إنشائها . فابن بطّوطة لم يكتب رحلته ، ولكن أملاها على ابن جُزَيّ ولا نعلم إذا كان أملاها باللغة العامية أو الفصحى ، فهل ينقص ذلك من فضل مؤلفها . وكذلك الأمر برحلة ماركو بولو فهو أملاها أيضاً ، والأقرب إلى الظن أن الحديث جرى بلهجة سكان البندقية ، إلا أن كاتب الرحلة سبكها بإحدى اللهجات الفرنسية القديمة ولو طبعت اليوم بهذه اللهجة لما تمكن من قراءتها إلا عدد قليل من الناس . ومن البديهي أن مذكرات الصايغ ليست ذخراً أدبياً أو نصاً فلسفياً لنحرص عليها حرصنا على المعلقات وإن هي إلا وثيقة تاريخية وجغرافية وعمرانية هامة ، أما اللغة التي كتبت بها فثانوية بالنسبة إلى المعلومات الأساسية التي ذكرها صاحب الرحلة .

ونحن نعلم أننا من جراء هذا التصرف بنص الكتاب قد نتعرض لنقد الذين يحرصون على الأمانة اللفظية ، مع أن تصرفنا بقي محصوراً في نطاق اللغة والنحو وبذلنا ما في وسعنا لنحافظ على ألفاظ المؤلف وتعابيره بعد ردها إلى الفصحى . وجوابنا أن لولا هذا التصرف لصعب جداً نشر هذه المخطوطة . ونحن لم نقم بهذا العمل الشاق الدقيق إلا ليصبح كتاب الصايغ سهل القراءة ، على متناول يد كل ناطق بالضاد ، ولو بقي على علاته لاستفاد منه خاصة الحلبيون وعلماء اللهجات وقد راعينا حقوق هذه الفئة من الناس ، إذ ذكرنا في الهوامش كل ما له صلة باللهجة العامية ، كما افردنا فهرساً للكلمات الفنية والأجنبية مع شرحها ، وفهارس للأعلام والأماكن والقبائل .

وعلى ذكر أسماء الأعلام لا يسعنا إلا أن نردد ما كتبناه في مقدمة « بغية المستفيد » من صعوبة ضبطها ، إذ ليس لها من قاعدة ، وقد أهمل المؤلفون المعاصرون هذه الناحية ، فنكاد لا نجد أسماً مضبوطاً في « معجم القبائل القديمة والحديثة » لعُمَر كَحَّالة ، أو في « عشائر الشام » لوَصْفي زكريّا . ولكن دقة اللغات الأوروبية لا تسمح للمؤلف أو المحقق أن يختار من الأمرين ما هو أسهل عليه ، ولا بُدَّ من ضبط صحيح ، إذ عليه أن يكتب جميع الحروف الصوتية والصامتة(٢٢) .



يقول المثل الحلبي : « أعرج حلب وصل إلى الهند » . وقد حقق فتح الله الصايغ هذا القول السائر أو يكاد لأنه كان صحيح القدمين . ولكنه زاد عليه إذ ابتدأ برحلته وهو في العشرين من عمره ، و وصل إلى الهند عبر الصحراء ، بعد أن قطع بادية الشام واجتاز مفاوز العراق وإيران ، ثم ذهب إلى الدرعية عاصمة الوهّابيين ، و وصف بدقة كل ما شاهده ، وأبقى لنا مذكراته التي تعد بحق من التراث القومي السوري العربي .

---

(٢٢) أما معجم القبائل المملكة العربية السعودية للشيخ حَمَد الجاسر ، فإنه مضبوط ومشكل طبق المرام ، انظر هامش رقم ١ .

وإني سعيد بتقديم هذا العمل إلى أبناء وطني الأول وإلى كل ناطق بالضاد، وفخور بفتح الله الصايغ ابن مسقط رأسي حلب، وشاكر للشاعر الخالد لامرتين، الذي اشترى هذه المذكرات وحفظها وعمل على ترجمتها، ولفرنسا التي كرمت مؤلف هذه الرحلة، فعينته عاملاً قنصلياً في حلب.

وأشكر أيضاً كل من أعانني على إخراج هذا الكتاب إلى حيّز الوجود، وأخص بالذكر الشيخ حمد الجاسر صاحب مجلة العرب الغرّاء، لأنه كان أول من استرعى انتباهي إلى هذه الرحلة ونشر ملاحظاتي على تعليق الشيخ الحنبلي، ولا تفوتني الإشارة إلى المساعدة القيمة التي قدمها لي شيخ أدباء الأردن الأستاذ روكس بن زائد العزيزي إذ أفادني في ضبط عدد من أسماء الأعلام والقبائل. وأراني عاجزاً عن شكر ابن أختي الأب الياس ناقوز إذ كان صلة وصل بيني وبين دور النشر السورية إلى أن تكللتْ مساعيه بالنجاح إذ وافقت دار طلاس الغنية عن التعريف، المشهورة بجودة الطبع ودقة الاخراج، على تولي هذا العمل فله، ولها، ولمديرها العام سيادة اللواء اكليل الأتاسي[٢٣] كل أمتناني والسلام.

د. يوسف شُلْحُد

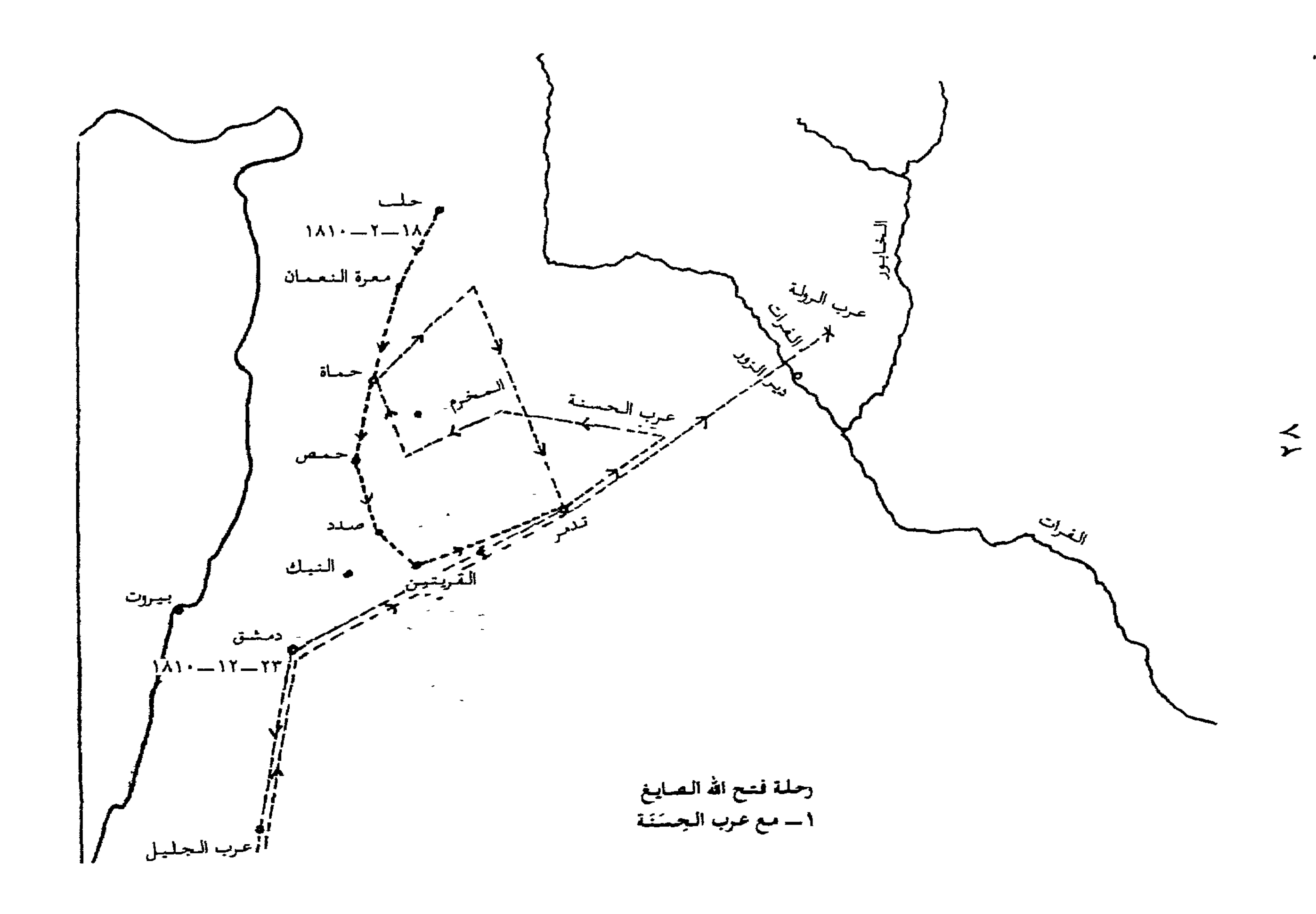
مدير أبحاث فخري في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي

مدرس الانتروبولوجيا الثقافية في جامعة

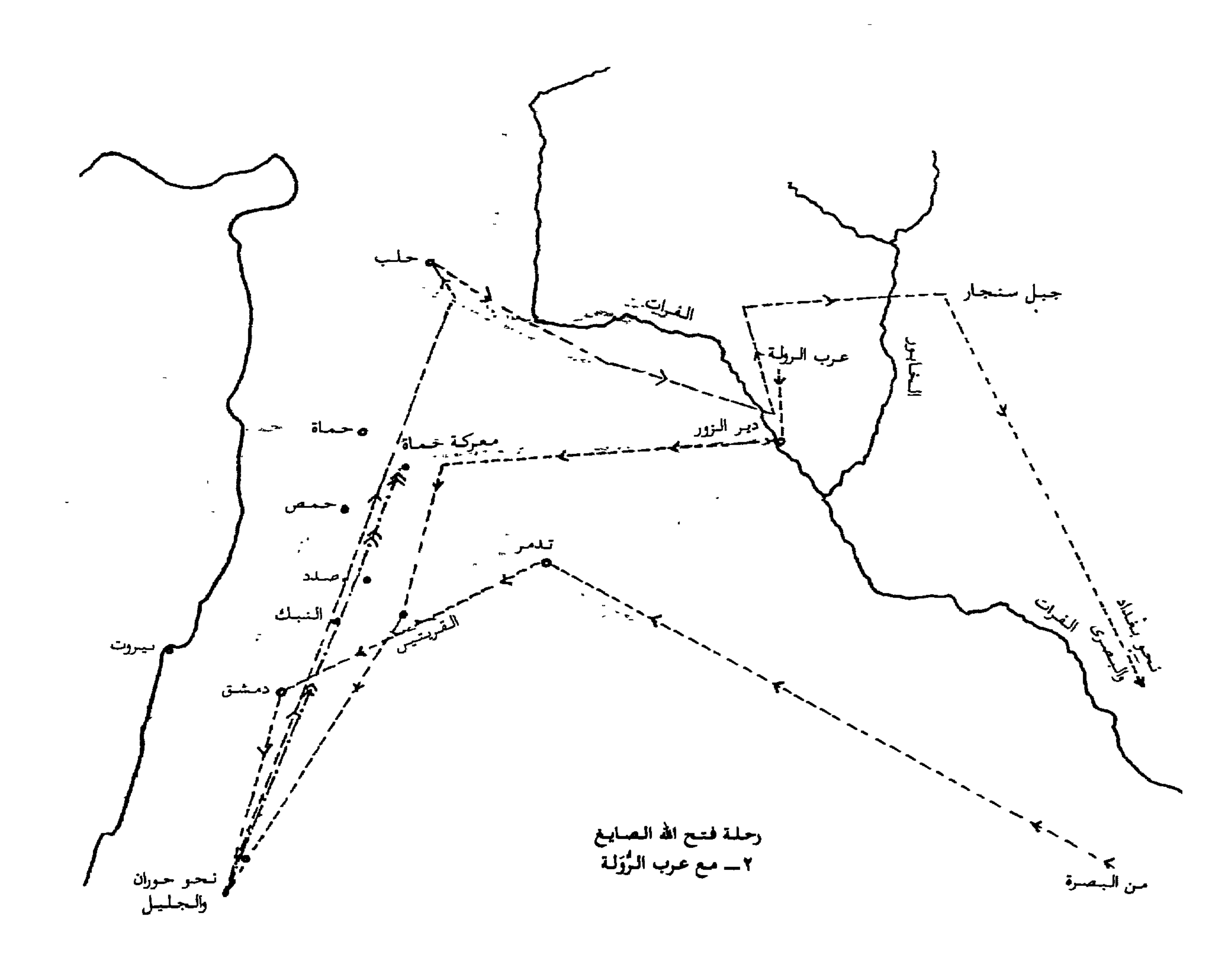
السوربون الجديدة سابقاً

---

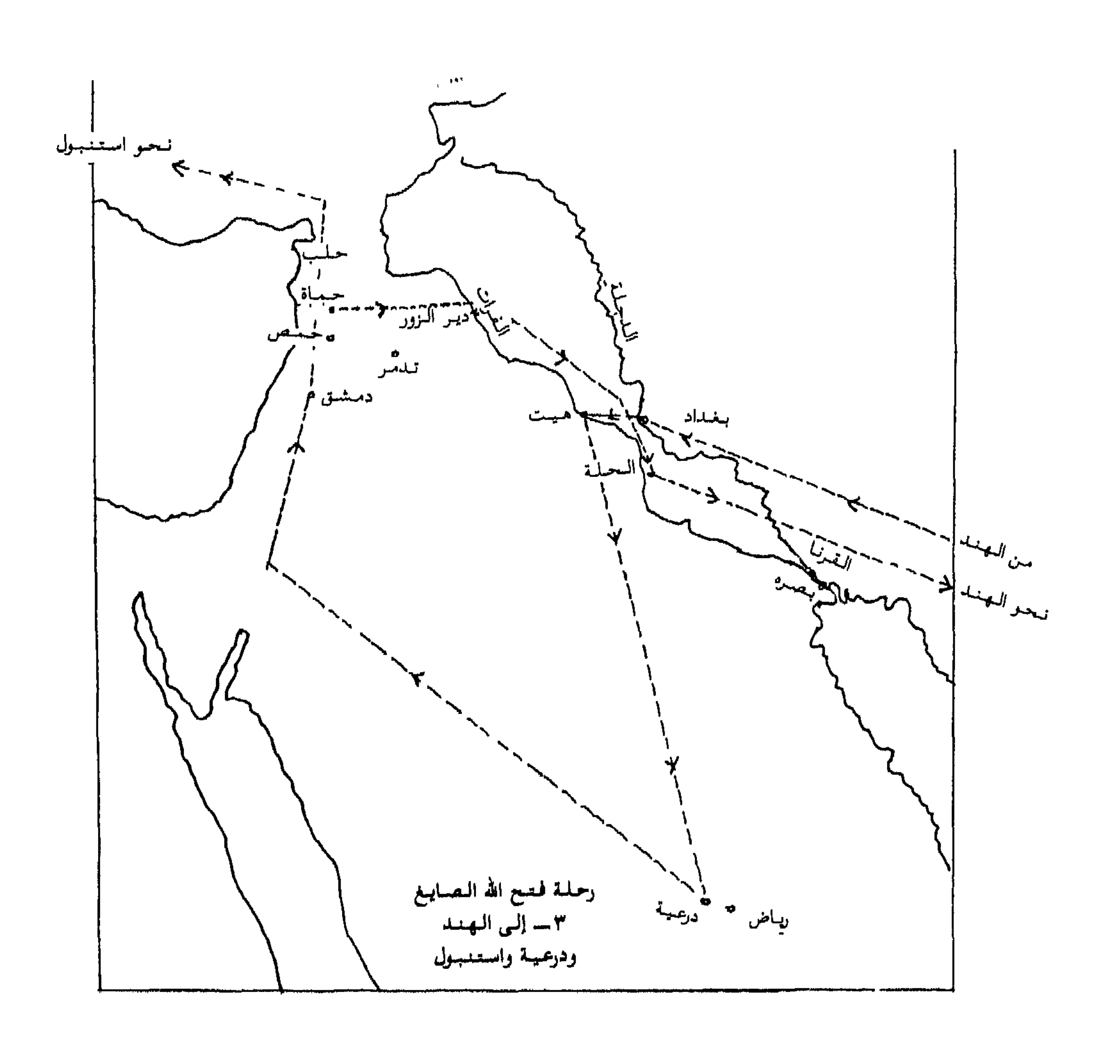
(٢٣) تم كتابة هذه السطور من قبل الدكتور يوسف شُلْحُد قبل وفاة مدير دار طلاس اللواء إكليل الأتاسي. تغمده الله برحمته.



رحلة فتح الله الصايغ
١ — مع عرب الحسنة



رحلة فتح الله الصايغ
٢ ـ مع عرب الرُّوَلة



رحلة فتح الله الصايغ
٣ ــ إلى الهند
ودرعية واستنبول

نمره ١

[صفقة تجارية خاسرة][(١)]

ورقة ٢/٢

أقول، أنا الفقير إلى الله، فتح الله ولد أنطوان الصايغ اللاتيني، من سكان[(٢)] حلب الشهباء المحروسة. فحين بلغت من العمر ثماني عشرة سنة، أردت أن أتعاطى البيع والشراء سعياً وراء أرباح التجارة. فأخذت جانبَ رزقٍ من حلب، وتوجهت إلى جزيرة قبرص، وابتدأت أبيع وأشتري مع تجارها، وذلك من ابتداء سنة ١٨٠٨ إلى ابتداء سنة ١٨٠٩. فرأيت أنه من المستحسن أن أبعث إرسالية إلى تريبسته من بضائع قبرص. فهممت بذلك واستأجرت مركب القبطان تومازو جفاليتيونه. والشحنة من نبيذ كُمُنْداري وقطن وحرير واسفنج وحنظل. وسافر المركب المذكور في ٢٨ آذار سنة ١٨٠٩ قاصداً مدينة تريبسته. فبعد سفره بقليل من الأيام، التقى بمركب إنكليز. وبما أن الحرب كانت عندئذ على أشدها، فإنه أخذه غنيمة وقاده إلى مالطه.

---

(١) جميع العناوين من المحقق، وكذلك تقسيم الكتاب وتبويبه، وعلى العموم كل كلمة أو عبارة وردت بين معكوفين [ ] هي من المحقق.

(٢) « قطّان ».

إن لغة فتح الله الصايغ أقرب إلى اللهجة الحلبية العامية منها إلى العربية الفصحى، فلكي يسهل فهم هذا الكتاب على كل قارئ عربي، لم نحتفظ بجميع الكلمات والتعابير العامية التي استعملها المؤلف، إذ قد يصعب إدراكها على غير الحلبيين العريقين. ولكن إتماماً للفائدة ذكرنا أهمها في الهوامش. فكل كلمة أو تعبير جاء بين هلالين مزدوجين « » هو من لغة الصايغ الحلبية، وكل ما جاء بين قوسين ( )، في نص الكتاب، هو أيضاً من المؤلف.

فحين بلغني ذلك اشتد علي القهر. ثم قوّمتُ حساباتي فوجدت أحوالي متأخرة جداً. فاضطررت أن أغادر جزيرة قبرص، فتوجهت إلى بلدي حلب.

وبعد دخولي إلى بلدي بقليل من الأيام، دعيت عند بعض الأحباب الإفرنج إلى العشاء، وكان هناك عدد من المدعوين غيري، ومن جملتهم واحد يعتبرونه جداً مع أنه زري الهيئة. فبعد العشاء صار بسط وانشراح، وحديث لأجل تمضية السهرة. وكان هذا الرجل الغريب الزي دائماً جالساً إلى جانبي، ويحبّ أن يسمع حديثي. فسألت بعض الحاضرين مَنْ هو هذا الرجل فأجابوني أنه من أكابر بلاد الإفرنج، يقال له الخواجة تيودور لاسْكاريسْ دي فنتيميل، من عظماء أشراف مالطة سابقاً[٣]. فبعد أن سمعتُ ذلك ازداد إعتباري له جداً، وأثناء الحديث، أعلمته أني أحب الموسيقى وأضرب على آلات الطرب. فثاني يوم للقائنا حضر إلى بيتي ومعه كمنجة قدمها لي هدية وقال لي: يا حبيبي، إنك عزيز علي، وأود أن أعاملك مثل ولدي. وبما أنك تحب الموسيقى جئت بهذه الكمنجة، وأرجو أن تقبلها مني./فقبلتها منه وصار عندي عزيزاً جداً لأنه وهبني شيئاً يسرني. ٣/١

وثاني يوم أتى إلى عندي، واستمر على هذه الحالة عدة أيام، وكان دائماً حديثه معي بحكايات وأمور غريبة، حتى فهم عقلي وأطباعي جيداً. ثم بعد ذلك قال لي يا ولدي أريد منك أن تعلمني اللسان العربي[٤]، قراءة وكتابة وحديثاً، وأنا أعطيك كل شهر مئة غرش، تعلمني ساعة فقط، فأخذني العجب من ذلك، وقلت في نفسي أنا لا أستحق هذه الإجرة، ولا جرت العادة، في بلادنا أن تعطى مثل هذه الإجرة للمعلم. فابتدأت أعلمه ساعة كل يوم، على حسب الشرط الذي صار بيننا، وأقمنا علَى هذه الحالة ستة أشهر.

ثم بعد هذه المدة كان تعلم نوعاً ما، وصار يتكلم ويقرأ ويكتب قليلاً، فقال لي: يا ولدي الحبيب أنت دائماً عينك بالمتجر، وتحب البيع والشراء وأرباح التجارة، فقم بنا نتسوق بعض البضائع التي تنفق في نواحي بلاد حماة وحمص وضيعهما. ولكن يا حبيبي، أريد منك أن تعاهدني بالله أنك تمشي معي بموجب ما أقول لك، ولا تخالفني. فكان جوابي: الذي تريده أنا أعمل به. فقال: أريد منك عدم البحث والتفتيش عن جميع

(٣) في السطور الأخيرة من هذه الصفحة من المخطوطة بياض، سقطت بسببه عدة كلمات. إنما المعنى واضح.

(٤) «لسان العرابي».

ما أقول وأفعل ، أريد منك أيضاً طاعة عمياء ، مهما قلت لك تفعله من غير مراجعة ولا سؤال عن سبب فعل ذلك ، ولو ظهر لك أن ذلك خلاف لما يجب أو يقتضي عمله ، عليك أن تفعله وتبقى ساكناً وسوف ترى ثمرة قولي . فكنت تارة أضحك في قلبي ، وتارة أراجع حالي وأقول في نفسي لا بد من أمر كبير للغاية .

ثم ابتدأنا نتسوق . فقلت له يا سيدي ماذا تريد أن نشتري من البضائع . فقال : كُنْدَكي[٥] أحمر ، أعني خام مصبوغ أحمر يؤتى به لحلب من تَفْليس[٦] ، أحد بلاد الكُرْج ، وكذلك مسابح كهربا ، ماسات مربوطات ، ومرجان ، وخرز ملون الأشكال ، وأساور زجاج[٧] ، ومناديل خمريات يسمونها في حلب كساجور ، وإبر ، ودبابيس ، ومرايا صغيرة ، وبخور البان ، ومَيْعَة[٨] ورق ، وشملات سود قزّ وحرير ، وقمصان قز حمر مطبوعات بأسود ، وأمشاط خشب ، ولُجُم خيل ، وفلفل وقَرَنْفُل ،/وسكر نبات ، ومسابح عرق لؤلؤ ، ٣/٢ وكَمّون . فبلغ ثمن جميع ذلك أحد عشر ألف غرش . فوضعنا في الصناديق ما يمكن وضعه ، وما يمكن ربطه حزمناه حُزَماً[٩] ودبرنا كل أمورنا وأنهينا جميع أشغالنا من حلب . وكان كل من يرى ذلك يضحك مننا ويقول : عمرنا لم نرَ مثل هؤلاء التجار ، وا أسفاه[١٠] على هذه الغروش التي صرفتوها . وخصوصاً أن الخواجه لاسكاريس ، لأجل تدبير مآربه وتمشية أشغاله و وصوله إلى مرامه ، كان يظهر حاله نوعاً ما خفيف العقل ، وكان دائماً بهيئة[١١] زرية ، يرخي لحيته ، ويلبس مشلحاً أسود ، وبرجله صرماية[١٢] حمراء ، وبرأسه لفة وسخة ، إذا تكلم معه أحد يعمل كأنه لم يسمع ، يأكل بالسوق ويقوم بحركات تحوج الناس أن تقول عنه أنه مجنون ويضحكون منه . وأما أنا فما كنت قط أضحك منه ، لأنه كان حين يدخل الغرفة ويغلق بابها وأنا معه ، ينتقل إلى درجة فيلسوف عظيم ، ويبدأ يضحك من الناس الذين ضحكوا منه واستهزؤا به ، ويقول لي : ماذا يقولون عني يا ولدي ؟ فأقول : يقولون عنك أنك

(٥) كلمة من الفارسية .
(٦) تفْليس ، بفتح التاء وتكسر (ياقوت ، معجم البلدان) .
(٧) «قذاذ» .
(٨) بخّور .
(٩) «عملنا فردات» .
(١٠) «يا حيف» .
(١١) «كسم» .
(١٢) حذاء يلبسه خاصة البدو والفلاحون .

مجنون عديم العقل كلياً . فيقول : وأنت ماذا تقول عني يا حبيبي ؟ فأقول له : إنك معلم جليل وأعظم الفلاسفة الموجودين بعصرنا هذا . فيضحك ويقول إنك لم ترَ بعد شيئاً مني ، ولكن سوف ترى أفعال أبيك الروحي لاسكاريس . ولكن لا تسألني عن شيء أبداً إنما انظر بعينيك ما سيقع مني شيئاً فشيئاً .

ثم بعد ذلك جميعه شددنا الأحمال ودبرنا كل أمورنا لأجل السفر . وقبل سفرنا بيومين جاء بزئبق ووضع معه أجزاوات هو يعرفها ، وجعل الزئبق مثل الدهن ، وملأ منه علبة . فقلت له يا سيدي و والدي : لماذا يصلح هذا ؟ قال : ألم أقل لك مهما رأيت لا تسأل عنه . قلت : نعم ، ولكني أظن أن هذا السؤال لا يضرك الجواب عليه . قال : إنه لأجل القمل كي لا يقرب منا ، تدهن خيطاً منه وتضعه في رقبتك فلا يجيء القمل نحوك . فقلت له : يا سيدي هل تظن أن قمل أهالي حماة وحمص يسعى على الأرض ؟ فضحك وقال : إن الشرط الأول/ ٤/١ الذي شرطه عليك ألّا تبحث عما أفعل بل تنظر بعينيك فقط .

ثم ثاني يوم من بعد هذا الحديث قال لي : يا ولدي كنتُ مزمعاً على السفر عاجلاً ، ولكني رأيتُ من المستحسن أن أبقى في حلب ثلاثين نهاراً ، من غير عمل شيء كلياً ، بل إن هذه الأيام الثلاثين جعلتها لك ، تمضيها بالبسط[١٣] والغناء واللعب والسهرات ، والانشراح مع النساء ، وجميع أنواع اللهو[١٤] ، واصرف مهما أردت ، فإن هذا الصندوق المملوء دراهم كله لك ، لا تتوقف عن شيء كلياً . فأخذت أقول في نفسي : يا صبي ، الله والعالم ، هذا كلام من يريد أن تودع الدنيا ، وكأن منتهى حياتي سيكون على يده ، وعند ذلك رميت كل هم وغم وكرب عن بالي ، وابتدأت بالبسط والسهرات والبساتين والمآكل اللذيذة والفرح ، وعملتُ كل ما يلذني ويسر خاطري . وأقمت ثلاثين نهاراً على هذا الحال ، وهو كل يوم يحضر إلى عندي ويقول لي : كن مسروراً ولا تتوقف من شيء . فما زلت على هذا الحال حتى مضت الأيام الموعودة . فقال لي : يا عزيزي قد انتهت الثلاثون يوماً ، فهلمَّ بنا نسافر ونربح المكاسب . فقلت في بالي : ليس عليك علامات الذين مرادهم أن يكسبوا ، ولكني سأكون طويل البال وإن شاء الله سوف أعرف مرادك .

(١٣) « بالكيفيات » .

(١٤) « المكيفيات » .

ثم بعد ذلك وجدنا قافلة متجهة إلى حماة، فأكترينا منها وأعطيناها الأحمال وودعنا الأهل والمحبين والإخوان وسافرنا على بركة الرحمن.

[الابتداء بالرحيل]

وكان خروجنا من حلب في ١٨ شباط سنة ١٨١٠، نهار الخميس صباحاً. وكان مسيرنا اثنتي عشرة ساعة إلى قصبة[١] يقال لها سَرْمين، فدخلنا إلى القصبة المذكورة وقضينا الليل فيها. وثاني يوم سافرنا باكراً إلى بلد يقال لها مَعَرّة النُّعْمان، في الطريق ما بين حلب وحماة. وهذه البلدة تبعث على الإنشراح، جيدة الماء، طيبة الهواء. فقال لي الخواجه لاسكاريس: أجد لنا مكاناً ننزل به، لإن القافلة ستبقى يومين في المعرة. فرحْتُ إلى خان

٤/٢ وأخذتُ غرفة[٢] ليومين. ففي هذه البلد يقوم سوق[٣] كل يوم أحد/ويأتي أناس من كل القرى والضيع للبيع والشراء ويكون ذلك النهار فرجة [للحاضرين]. فقمنا يوم الأحد الذي هو ثاني يوم وصولنا، وذهبنا إلى السوق لنتفرج. وبينما نحن دائرون التفتُ فما وجدت الخواجه لاسكاريس، فصرت أدور عليه بين الناس، وبعد حصة وجدته جالساً عند حائط وإلى جانبه بدوي قذر، زري المنظر، وهو يتحدث معه. فقلت له: ماذا تتكلم مع هذا البدوي الوسخ، وأنت تكاد أن تعرف لسانه، وكيف تفهم منه، وماذا يلذك من حديث رجل مثله. فقال: إن هذا النهار سعيد عندي إذ صار لي أن أتكلم مع واحد من البدو. فقلت في بالي صدق من قال عنك أنك سخيف العقل.

---

(١) القصبة: البلدة الكبيرة.

(٢) «أوضه».

(٣) «بازار».

ثم قام الخواجه لاسكاريس، واشترى خبزاً وجبناً وأعطاهما للبدوي، وسأله عن اسمه، فقال البدوي اسمي هِلال، ثم انصرف. ومضى ذلك النهار، وثاني يوم. سافرنا من المعرة إلى خان شَيْخون، وكان مسيرنا مدة ست ساعات فقط. ثم في اليوم التالي سافرنا من شَيْخون إلى حماة، ولكن كان برد وهواء عاصف ورعد وأحوال كئيبة جداً، فوصلنا إلى حماة وقت المغرب، وكان مسيرنا تسع ساعات. فدخلنا البلد ونحن لا نعرف أحداً ولا أحد يعرفنا، فنمنا تلك الليلة في حي(٤) يقال له الحاضر. ثم ثاني يوم قال لي: قم وابحث لنا عن غرفة(٥) ننزل بها ونضع فيها رزقنا. فذهبت وأخذت غرفة في قيصرية يقال قيصرية أسعد باشا، ونقلت الرزق من عند المكاري وأعطيته الكراء، وجهزت الغرفة بكل اللوازم، وظننت أني ثاني يوم سأفتح الرزق وآخذ بالبيع والشراء، على حسب عوايد الناس. وفي تلك الليلة قلت له: يا سيدي، غداً إن شاء الله سنفتح هذا الرزق ونبتدئ بالبيع. فضحك وقال: يا ابني، كل ما في رأسك هو التجارة، ولو كنت تعرف غيرها من المهن لعلمت أن منها التي تفوقها بالأرباح. ولكن لا عتب عليك لأنك لم ترَ في حياتك إلا المتجر. وأنا عندي أرذل كل الصناعات التجارة. فقلت في عقلي: ولكن ماذا سنصنع بهذا الرزق/الذي معنا؟ هل سنرميه(٦)؟ ١/٥

ثم أقمنا في حماة نحو عشرين يوماً. ولا حاجة للشرح عنها، لأنها بلد مشهورة ومعروفة من كل الناس. وإنما نتكلم عما حصل لنا فيها. فبعد دخولنا بأربعة أيام توجه الخواجه لاسكاريس وحده، من غير أن يعطيني خبراً أو يقول لي أني ذاهب أتنزه بالبلد. فوصل إلى القلعة، لأن لها قلعة قديمة متهدمة، ما بها شيء عمار كلياً غير جبلها فقط، فصعد إلى القلعة ليراها. وبينما هو يدور بها وجد بعض الأوباش(٧) الذين يصعدون إلى القلعة ليلعبوا بالقمار، في مخادعها المتخربة، كي لا يراهم أحد ويخبر الحاكم، لأن هذا شيء ممنوع من الحاكم. فالخواجه المذكور حين طلع، ابتدأ يقيس بخطواته القلعة عرضاً وطولاً. وكان فيها بعض الأوباش يلعبون بالقمار، فرأوا أنه غريب الزي، وأنه يقيس القلعة. فهجموا عليه وأمسكوا به وقالوا له: أنت رجل غريب تقيس القلعة، وتريد أن تخرج منها كنزاً، فإن أرضيتنا تركنا

---

(٤) «صايح».
(٥) «أوضه».
(٦) «بدنا نكبّ هل الرزق».
(٧) «أناس معترين».

سبيلك ، وإلا أعلمنا بك الحاكم . فبعد جدال طويل هرب منهم ، وعاد إلى غرفتنا ، وأخبرني بما جرى .

وبعد قليل من الوقت إذ حضر أربعة تفنْكَجيّة[٨]من طرف المتسلم ، فدخلوا القيصرية ، ووقف اثنان منهم على بابها ، وأخذ الاثنان الآخران بتفتيش غرفها الواحدة بعد الأخرى ، ومعهما الذي راح واشتكى ، إلى أن دخلا غرفتنا . فقال المشتكي : هذا هو الرجل فأمسكوه . فقبضا عليه وعليّ أيضاً ، وقفلا باب الغرفة ، وأخذا مفتاحها وذهبا بنا عند الحاكم . وكان حاكم حماة في تلك الأيام رديئاً ظالماً يقال له سليم بك من بيت العَظم . فحين دخولنا واجهنا سعادته ووقفنا أمامه . فقال : من أين أنتم يا جماعة ؟ فقلت يا سيدي أنا من حلب ، وهذا الرجل من جزيرة قبرص . فقال ما هو سبب مجيئكم إلى هذه البلد ؟ فقلت يا سيدي نحن جماعة تجار ، ومعنا رزق ونقصد باب الله . فقال كذبت يا ولد ، أنتم جواسيس[٩] ، والیوم كان رفيقك بالقلعة يقيسها ويريد إما إخراج كنز وإما أن يأتي بالكفار/يملكوا البلد ، ٢ / ٥ خذوهم وأودعوهم في السجن[١٠] . فحالاً أخذونا ووضعونا بالسجن المظلم ، ووضعوا الزنجير[١١]بأرجلنا ، وأغلقوا علينا الباب وذهبوا . فابتدأ الخواجه لاسكاريس يضحك ويقول هل أنت مغتاظ[١٢]يا ولدي مما حصل لنا ؟ فقلت لا ، ما في أحسن من ذلك ، ولكن يا حبيبي لو كنت قلت لي أنك تريد أن تزور القلعة ، كنت ذهبت معك ودبرت المادة وما تركتها تصل إلى هذا الحد . فقال : وكذلك سيصير لها تدبير إن شاء الله .

فبتنا تلك الليلة بالحبس . وعند المساء ، صحتُ[١٣]على السجان وأعطيته خمسة غروش ، وطلبت منه أن يحضر لنا شيئاً نأكله ، ويشعل لنا ضوءاً . فجاء العشاء وعلق لنا قنديلاً . فقضينا تلك الليلة من غير نوم وأكل جسدنا البراغيث[١٤]والقمل ، إلى أن أصبح الصباح وأتى الحاكم وكل أهل السرايا . فدعوت السجان وقلت له : يا محبنا ألا يوجد بين

---

(٨) تفنكجي (من التركية) : رجل سلاحه التفنْكة أي البندقية .

(٩) « دواسيس » .

(١٠) « حبس » .

(١١) « الجنزير » .

(١٢) « محصور » .

(١٣) « عيطتُ » .

(١٤) « البراغيد » .

الكتّاب النصارى من يقدر أن يسعى في خلاصنا؟ قال نعم، هنا شخص يدعى سليم اليَازِجي، غيّور، خدوم، يحب عمل الخير، وكنت سمعت به سابقاً. فذهب ودعاه فأتى إلى باب الحبس. فسلمنا عليه وحكينا له القضية. فقال كونوا مطمئنين، لا يحدث إلا الخير. وحالاً دخل عند البك وحكى معه. فمن بعد تعب شديد أنهى القضية وصفا خاطر الحاكم. فرجع عندنا وأفهمنا أن المسألة تحتاج إلى برطيل[١٥]إلى جناب البك. فأعطاه الخواجه لاسكاريس ساعة تقدر بنحو مئتي غرش، وخاتماً من الياقوت الأحمر قيمته نحو مئة غرش، وخمسين غرشاً إلى التفنكجي والسجان[١٦]. وفي الحال أمر البك بإطلاقنا من السجن. فخرجنا وذهبنا عنده، وأخذنا الإذن منه وتوجهنا إلى غرفتنا.

وأقمنا بعد ذلك في حماة نحو عشرين يوماً، كل يوم كنا نتنزه وندور في أرجائها، وحقاً إنها بلدة النزه، تشرح النفس، كثيرة المياه، فيها بساتين ونواعير، والعاصي يمر في وسطها، أهلها فصحاء، مهرة[١٧]، شعراء[١٨]، وأرباب فن وأصحاب ذوق، بلد من بلاد بَرّ الشام المشهورة بالجمال.

٦/١ ثم بعد ذلك كنا تعرفنا ببعض الناس/ولاسيما بالخواجه سليم اليازجي الذي كان خلصنا من يد الحاكم. فطلبنا من بعض الأحباب كتاب توصية لأحد سكان حمص يكون فقير الحال ولا يخطر على بال أحد، فأعطونا مكتوباً إلى رجل مسكين يصنع المشالح السود. وكان المكتوب بهذه اللفظات: حضرة أخينا، إن حاملين هذه الأحرف المعلم إبراهيم القبرصي[١٩]والمعلم فتح الله الحلبي من الحضّارين (يعني الذي معه بضاعة تصلح للفلاحين وأهل الوبر)، ومرادهما أن يطلعا ببضاعتهما [إلى البادية][٢٠]لبيعها. فنرجو أن يكون نظركم عليهما في جميع ما تستطيعون عليه من المساعدة، وإنهما لا يضيعان اتعابكم والسلام.

والغاية من هذا الكتاب أن نكون على صلة بشخص نستطيع أن نستشيره ونرجع إليه في أمورنا.

---

(١٥) «بخشيش».

(١٦) «الحبّاس».

(١٧) «بُهّار».

(١٨) «شُعّار».

(١٩) «القبرصلي».

(٢٠) زيادة من المحقق.

ثم سافرنا من حماة مع قافلة حمص، والطريق من حماة إلى حمص اثنتا عشرة ساعة. فبعد خروجنا من حماة بست ساعات وصلنا إلى نصف الدرب، إلى بلد قديمة يقال لها الرَّسْتَن[٢١]، وهي الآن خراب ولم يبقَ منها إلا شيء قليل، ولكن بها عمارات قديمة ظاهرة إلى الآن، وهي مثل قلعة على عاصي حماة، وأمامها جسر. وفي السابق على ما جاء في التاريخ، كانت بلداً عظيمة منيعة حتى في زمن الفتح الإسلامي. ويخبر سلفنا الأب[٢٢]مارينس الذي أرّخ في مجلدين ما جرى أيام الفتح، في خلافة عمر الخليفة الثاني بعد محمد، مع الروم على زمن الملك أورليانوس الذي كان يومئذ بالقسطنطينية، إن جيش[٢٣]الإسلام عجز عن أخذ الرَّسْتَن، فعمل خالد بن الوليد، قائد الجيش الإسلامي يومئذ وصاحب القبر المشهور بحمص، حيلةً ليضع يده على البلد. وذلك أنه أتى بأربعين صندوقاً كبيراً وأدخل في كل واحد منها رجلاً مسلحاً وأغلق[٢٤]الصناديق، ولكن بنوع أنه يمكن لمن بداخلها أن يفتحها. ثم تقدم بكل جيشه إلى الرستن، وبعث رسولاً إلى حاكم البلد يقول له: يا محبنا، لا حاجة لي بالرسْتَن ولا أريد أخذها، وأنت صاحبي وصديقي، ومهما تطلب مني فعلى الرأس ثم العين. والآن أنا متوجه إلى حلب لحصارها وإني سافتحها بعون الله، إنما معي أحمال وعفش وصناديق كثيرة تتعبني جداً/فأرجو منك، يا محب، أن تضع لي عندك بعض الصناديق التي لا أحتاج إليها الآن، ومتى رجعت من حلب أستردها وأشكر فضلك. ففرح الحاكم من ذلك وقال في نفسه [إنه من المستحسن تلبية هذا الطلب] أولاً لأني أكسب صداقة هذا القائد، وثانياً أصرفه عني. أما الأمير خالد فإنه أمر رجاله الذين داخل الصناديق أن يفتحوها حالاً متى سمعوا دق النواقيس، إذ تكون جموع النصارى وقتئذ في الكنيسة، ويهجموا على باب البلد ويفتحوه، ويكون هو مع عساكره وأقفاً أمام الباب، فيدخل ويملك البلد، إن شاء الله. فأدخل الحاكم الصناديق، وفي اليوم الثاني، بينما كانت الناس بالصلاة، خرج الأربعون رجلاً وركضوا وفتحوا الباب، ودخل عسكر الإسلام، وملك خالد البلد، وقتل الحاكم وجملة من الناس، ورتب

٦/٢

(٢١) الرَّسْتَن: «بليدة قديمة كانت على نهر الميماس، وهذا النهر هو اليوم المعروف بالعاصي... والرستن بين حماة وحمص في نصف الطريق، بها آثار باقية إلى الآن تدل على جلالتها وهي خراب... وهي في علو يشرف على العاصي». (ياقوت، معجم البلدان).

(٢٢) «لابي» أي l'abbé.

(٢٣) «أرضي»، ويكرر الصائغ هذه الكلمة في أماكن عديدة من مذكراته، ويريد بها الجيش.

(٢٤) «سكّر».

حاكماً من طرفه وتوجه بعدئذ إلى حلب . فمن ذلك اليوم ابتدأ خراب هده المدينة ولم يبق منها اليوم إلا الرسم .

ثم سافرنا من الرسْتَن إلى حمص ، فدخلناها بعد العصر ، فسألنا حالاً عن الرجل الذي نحمل إليه الرسالة ، فدلونا على بيته . فذهبنا عنده وأعطيناه المكتوب ، فقرأه وحالاً رحّب بنا وأدخلنا بيته بكل إكرام . وبعد العشاء حضر عنده عدد من الناس من أمثاله ليسهروا ، ومن جملتهم رجل فقير الحال ، بثياب رثة ولحية[٢٥] ، ولكنه كان فصيح اللسان حلو الحديث . فأخذ يتكلم عن العرب وأحوالهم وعما يحصل عندهم من الأمور . فانشرح الخواجه لاسكاريس من هذا الحديث ، وقرّب هذا الرجل منه ، وأخذ يتكلم معه بكل إنسانية ومحبة ، ويستفهم منه عن أحوال العرب . ثم سأله عن اسمه فقال له نَوْفَل السّنْكري أي الذي يصنع قُرَب السيوف ويصلح البنادق[٢٦] . ثم أضاف قائلاً : إنني في كل سنة ، حين تقرب العربان من ديرة حمص ، أذهب وأشتغل عندهم، وفي الشتاء حين يشرّقون[٢٧]أعود إلى بيتي . ولي معارف وأصدقاء كثيرون من العرب . فَسُرّ الخواجه لاسكاريس من هذا الخبر وفرح ، والتفت إلي وقال : إني رأيت هذه الليلة أخي وكل أهل بيتي . فقلت له : يا سيدي لا يوجد في هذا المكان أحد من بيت دي فنتيميل ؟ فقال : إن معرفتي بنوفل أحسن عندي من رؤية أخي ./ ١/٧

ثم انصرف الناس ، وأعد لنا صاحب البيت فراشاً[٢٨]واحداً لنومنا . وكان من عادة الخواجه لاسكاريس أن لا ينام مع أحد ، وكان طبعي مثله . فقلت في نفسي : المسألة تحتاج إلى مسايرة وتدبير إلى أن ينام الخواجه لاسكاريس وعندئذ سأنسل بكل لطف وأنام على الأرض . وكذلك فكرّ هو أيضاً بهذا الرأي . ثم أطفأنا النور لأنه ما كان يحب النوم في الضوء . وانتظرتُ قليلاً حتى ظننت أنه نام ، ثم أنسَلَلْتُ من الفراش والتحفت بمشلحي ونمت على الأرض ، وفعل هو كذلك . وحين أصبح الصباح وجد كل واحد منا صاحبه على الأرض والفراش خالياً . فضحكنا جداً ، ونهض حالاً الخواجه لاسكاريس وعانقني وقبلني وقال لي :

(٢٥) « ذقن » .

(٢٦) « التفنك » .

(٢٧) يرحلون إلى الجهات الشرقية .

(٢٨) « فرشة » .

هذه بشارة خير ، إذ تدل على أن نوايانا وقلوبنا متفقة . وأنت عندي مثل ولدي ، وسوف ترى مني أشياء لم يرها قط أحد من أمثالك ، بل لم يسمع بها من هم أكبر منك سناً .

ثم خرجنا نتنزه بالبلد ، وأول شيء عملناه هو السؤال عن دكان نوفل السنكري . فذهبنا عنده وقلنا له : قمْ ودرْ بنا اليوم في بلدك ونحن نعطيك ما ستكسبه من مهنتك[٢٩] . فأغلق[٣٠]دكانه وبدأ يدور بنا في حمص . ولا حاجة لإطالة الكلام عن هذه المدينة فهي معروفة مشهورة في الآفاق . ولكن بالمختصر[٣١] ، إنها بلد طيبة الهواء جداً ، يبعد العاصي عنها نحو ساعة ، ولكن أهلها حفروا خليجاً من العاصي إلى البلد ليستقي من مائه نحو ثمانية آلاف نسمة ، وهي حصينة ، يدور بها سور من الحجر الأسود ، ولها أربعة أبواب تغلق عند المغرب وتفتح وقت طلوع الشمس ، وفي وسطها قلعة على شكل[٣٢]قلعة حماة وحلب ، ولكنها خراب .

وبينما نحن نتجول مررنا بدكاكين تُصْنَعُ فيها الفروات الغُنَيْمِيّات[٣٣] ، وجهها جلدها[٣٤] ، وتصبغ عادة باللون الأحمر . فاشتريتُ فروتين ، كل واحدة بعشرين غرشاً ، لأنها صالحة جداً للسفر ، على الطريق ، وللنوم ولو تحت الثلج ، وتدفّئ كثيراً .

٧/٢ ثم استأجرنا غرفة بالخان ، ونقلنا حوائجنا ورزقنا وبتنا تلك الليلة فيها ،وقلنا/لنوفل أن يحضر عندنا غداً ، لأننا كنا مسرورين جداً منه . فهو رجل حلو الطباع ، حسن السلوك ، متواضع ، طلق اللسان ، خبير بالأمور التي نريد معرفتها . فحضر في اليوم الثاني فقلنا له : يا عزيز ، نرجو منك أن تبقى معنا وفي خدمتنا طول مدة إقامتنا في حمص ، فلا تشتغل وليكن عملك معنا . ثم سألناه عن كسبه اليومي فقال ثلاثة غروش . فقلنا له نحن نعطيك أربعة . فاستكثر الرجل بخيرنا وقال مهما أردتم فأمروني به .

وكان الخواجه لاسكاريس يرغب في هذا الرجل ، لأنه بحكم عمله ، له معرفة جيدة بعشائر العرب . فهو يذهب عندهم كل سنة ، ويشتغل ستة أشهر الصيف ، إذ يكون العربان

---

(٢٩) « كارك » .

(٣٠) « سكّرَ » .

(٣١) « بالمقتصر » .

(٣٢) « كسم » .

(٣٣) من جلد الأغنام .

(٣٤) الجلد يكون إلى الخارج والصوف إلى الداخل .

قد قربوا من الديرة[٣٥] ، وفي الشتاء ، حين يتوغلون في البادية على حسب عوائدهم ، يعود إلى داره ويعمل في دكانه بالبلد.

ثم ابتدأ الخواجه لاسكاريس يسأله ، بكل رقة ، و رويداً رويداً ، عن العرب وأحوالهم ومزاياهم وطباعهم ومعيشتهم وسلوكهم وشؤونهم وضيافتهم ، وعن أمور كثيرة ، وهو يرد عليه بالصدق والصواب دون تردد . فسررنا منه جداً لأنه أفادنا جداً في أمور يقتضي علينا معرفتها .

وكنا نتجول كل يوم في البلد ، ونتنزه في بساتينها وذلك لتمضية الوقت ، إلى أن يمضي الشتاء ويقرب عربان هذه الديار من المعمورة ، حتى نتمكن من الوصول إليهم . لأن من عادة العربان أن يبتدؤا بالتوغل في البادية من شهر تشرين الأول ، فيذهبون إلى الجهات الشرقية[٣٦] بجمالهم وخيلهم ومواشيهم ، حيث يجدون الدفء والماء والمراعي . وهم دائماً في حل وترحال لا يستقيمون في منزلة أكثر من يومين أو ثلاثة أيام ، ويظلون على تشريقهم إلى أن يصل البعض منهم إلى بغداد ، والبعض إلى البصرة وشط العرب حيث يلتقي الدجلة والفرات وتصب مياههما في خليج[٣٧] العجم . ثم من شهر شباط يبتدؤن بالاقتراب من نواحي بلاد سورية ، وفي شهر نيسان يظهرون في الديار الشامية ، وهذه حالهم دائماً ./ ١/٨

وبعد ذلك قال لي الخواجه لاسكاريس : يا فتح الله ، أريد منك أن تشتري لنا عشر فروات مثل التي اشتريتها ، وعشرة مشالح سود وخمسين كوفية[٣٨] . والكوفية تصير مدورة بحجم[٣٩] المنديل[٤٠] ، وهي مصنوعة من غزل وحرير مصبوغ أحمر وأصفر وأخضر . وهذه الكوفية لا بدّ منها على رأس كل بدوي ، مهما كان عمره ومقامه ، من الراعي الصغير الفقير الحال إلى الأمير الكبير ، ولا يمكن أن يستغني عنها أحد . حمص تشتغل هذه السلع ، وكذلك حماة ودمشق وحلب وبغداد والموصل وماردين والبصرة ، وكل البلاد التي تحت حكم بغداد وكركوت ، ومع ذلك فإن جميع ما يصنع في هذه الديار من الكوفيات لا يسد بحاجة العربان .

---

(٣٥) الديار .

(٣٦) « يشرّقوا » .

(٣٧) « بوغاظ » .

(٣٨) « كيفية » .

(٣٩) « قدّ » .

(٤٠) « محرمة » .

لأن الكوفية، مهما كانت متانتها، لا تثبت[٤١] على رأس البدوي أكثر من سنة. فهو يستعملها لتقيه من الحر والبرد. وهي في الوقت نفسه منديل للمخاط، ومنشفة للوجه والأيدي ومسح العرق. والخلاصة أنها كثيرة المنافع، بل إن نصف كسوة البدوي كوفيته. وأهل البادية هم بذلك على صواب، إذ لا بدّ من كوفية في البادية[٤٢]. كما تبين لنا بعد الخبرة والمشاهدة، لأنها ترد عن الوجه والأذنين والرقبة حر الشمس ووهجها صيفاً، وتقي من البرد والهواء والمطر شتاءً. وهي نافعة جداً، وثمنها يختلف على حسب صنفها. فالصنف العالي منها يبلغ ثمنه سبعة أو ثمانية غروش. أما الصنف الواطي فيكون ثمنه ثلاثة أو أربعة غروش. ويبلغ ثمن جميع ما اشتريناه وذكرناه آنفاً نحو ست مائة غرش، فحزمناه ووضعناه مع جملة الرزق في الغرفة.

وقال لنا نوفل في بعض الأيام هل ترغبون في زيارة القلعة ورؤيتها[٤٣]. قلنا نعم ولكننا نخاف أن يحصل لنا ما حصل بحماة. فقال أنا المسؤول عن كل ما يحدث. فتوجهنا إلى القلعة، وصعدنا إلى أعلاها، وزرنا كامل المخادع، لأنها بها من العمار القديم القائم أكثر من حماة. وبينما نحن ندور فيها، وصلنا إلى مكان مثل المغارة، فنزلنا ووجدنا في صدر المغارة ماء جارية آتية من الغرب ورائحة نحو الشرق، وهي تخرج من طاقة طولها ذراعان وعرضها ذراع، وتجري الماء نحو أربعة أذرع، ثم تدخل في شباك من حديد متجه نحو المشرق، إلا أن هذه المياه غزيرة قوية، يمكن أن تدير حجر طاحون، وهي تنحدر من المغرب/وتجري نحو الشرق، ٨/٢ ولا يعرف أحد من أين تأتي ولا إلى أين مجراها. فشربنا منها وهي ماء طيبة عظيمة، ولكنها في مكان مخفي نوعاً ما، ولا يتجرأ[٤٤] إلا القليل من الناس على النزول إلى المغارة لرؤية هذه الماء. وأخبرنا نوفل أنه سمع من بعض الرجال الطاعنين في السن[٤٥] أن هذا الشباك كان سُدّ في الزمن القديم فجرى الماء في خندق القلعة. ولكن بعد ستة أشهر حضر درويش من العجم وصعد إلى القلعة وفتح الشباك. وسمع به الحاكم فأمر بإحضاره وأراد قتله، لأنه عمل شيئاً، ولم يأخذ إذن الحاكم. ففدى الدرويش نفسه بمبلغ من المال، قدمه للحاكم، حتى صفح عنه.

(٤١) «تضاين».

(٤٢) «الجول».

(٤٣) «تتفرجوا».

(٤٤) «له جراعا».

(٤٥) «الاختيارية» = ختيارية.

وكتب الحاكم لعنة على كل من يسد هذا الشباك مرة أخرى. ويكاد أن يكون هذا المكان مجهولاً الآن، ولا يعرفه إلا القليل من الناس، لأنه في موضع مخفي جداً، وقد سُدّ تلثا باب المغارة بالحجارة كي لا يدخلها[٤٦] أحد.

ثم نزلنا من القلعة، وقد أخذنا العجب مما شاهدناه، وذهبنا إلى غرفتنا حيث استرحنا وأكلنا ما لدينا من الزاد. ثم قال لي الخواجه لاسكاريس: ياحبيبي هل تقيد بالورق كل ما رأينا؟ فقلت: لا، لأنك لم تسألني ذلك. فقال: فكر بجميع ما وقع لنا من يوم خروجنا من حلب وقيده، وأريد منك أن تسجل، كل يوم، جميع ما نراه وما يجري علينا، من مليح ومن قبيح. وعند المساء تقرأ لي ما كتبته حتى أقيده عندي باللغة الفرنسية. فقلت: سمعاً وطاعة. ومن ذلك اليوم ابتدأت أحرر كل ما يحدث لنا يوماً بعد يوم. وعند المساء، قبل النوم، اقرأ له ما كتبت، وهو بدوره يقيد عنده، في كتاب خاص، جميع ما حدث في ذلك النهار، واحفظ عندي في صندوقي الورقة الطيارة. واستمريت على هذا الحال، كل يوم أكتب ما يقع لنا وما نشاهد ونسمع، مدة ست سنوات سياحتنا، بل إني تابعت التدوين مدة عدة أيام بعد نياحة المرحوم لاسكاريس أبي الروحي، الذي قضى نحبه [في نهاية رحلتنا]، كما سنشرحه لمسامعكم الكريمة/في آخر هذه السيرة. ١/٩

ثم أقمنا في حمص ثلاثين يوماً. ومن جملة ما شاهدناه وعرفناه أن أهلها كرام[٤٧]، أصحاء الأجسام، أنقياء الدم. حمر الوجوه، نساؤها جميلات وكذلك رجالها، إلا أنهم غشماء، خلافاً لأهل حماة، مع أن المسافة بين البلدين لا تزيد على اثنتي عشرة ساعة، كما ذكرناه سابقاً. وهذا الفرق العظيم في الطباع ناتج عن الماء مع أن البلدين يشربان من العاصي. إلا أن الماء تتغير بمرورها في الأراضي، ولذا فإن الماء الداخلة إلى حماة زرقاء صافية. بينما مياه حمص بيضاء مثل الحليب، فعرفنا أن الفرق بين سكان البلدين ناتج عن هذه الحركة.

وبعد ذلك قلنا لنوفل: نريد أن نتوجه إلى قرية صَدَد، ونرغب من همتك أن تجد لنا أناساً يحملون بضائعنا ويذهبون بنا إلى صَدَد. فقال على الرأس والعين. وغاب ساعة من

---

(٤٦) «يفوت».

(٤٧) «محسنين».

الزمن ثم عاد وقال لنا : اصبروا إلى يوم الأربعاء إذ يحضر أناس من صدَد ليبيعوا أعبية[٤٨] في حمص ، وذلك لأن كل يوم أربعاء يقوم سوق[٤٩] ، ويحضر الناس من كامل إيالة[٥٠] ، حمص للبيع والشراء ، من أعبية ومشالح وفوط حمام للنساء وزنانير حرير ، وهذه هي البضائع التي تصنع بحمص . فحين صار يوم الوعد ، حضر أناس من أهالي صَدَد وباعوا أرزاقهم ، واتصل نوفل بهم ، وكلمهم ، وجاء بهم إلى غرفتنا ، وتم الكراء معهم .

وفي اليوم التالي خرجنا من حمص باكراً مع ثمانية أشخاص من أهالي صَدَد ، وكان نوفل بصحبتنا ، وأخذنا معنا كل رزقنا وتوجهنا نحو باب الله الكريم . وكان مسيرنا دائماً إلى المشرق ، لأن صَدَد تقع شرقي حمص[٥١] ، وهي تبعد عنها اثنتي عشرة ساعة تماماً . وبعد مسيرنا بخمس ساعات ، وصلنا إلى ماء جارية عظيمة آتية من ناحية المشرق ومتجهة إلى قلعة حَسَا[٥٢] ، والقلعة المذكورة تقع قبلي حمص ، على عشر ساعات منها ، وهي مخصصة لنزول الحجاج بها في مسيرهم للشام[٥٣] ، وعليها آغا من قبل والي الشام يقال له أسعد آغا ابن مسْقَل[٥٤] /.فشربنا من هذه الماء وملأنا الجُود[٥٥] منها ، والجُود هي قربة صغيرة من الجلد . ٩/٢
فحملناها وتابعنا طريقنا ، إذ ليس أمامنا غير هذه الماء حتى صَدَد . أما الطريق فسهلة ، غير وعرة ، لا تقطعها جبال ووديان أو غير ذلك من العقبات . وبعد نزولنا على الماء سرنا مدة سبع ساعات ، حتى وصلنا إلى صَدَد ، مع غياب الشمس . فمشى نوفل أمامنا إلى بيت الشيخ ، لأن الشيخ والضيعة جميعها من النصارى السُّرْيَان القدماء ، فرحبوا بنا واستقبلونا أحسن استقبال . والشيخ رجل عظيم فهيم طاعن بالسن ، يقال له عَسَّاف أبو إبراهيم ، وله خمسة أولاد شباب وأربع بنات ، وقد زوجهم كلهم ، وهم يعيشون معه في بيته ، ولهم أولاد . والخلاصة أن هذه العائلة مكونة من أولاد الشيخ وبناته ، ونساء أولاده ورجال بناته وأولادهم

(٤٨) «عبي» .
(٤٩) «بازار» .
(٥٠) ولاية ، إيالة ، والمعنى واحد .
(٥١) الصحيح ، أن قرية صدد تقع في الجنوب الشرقي من حمص .
(٥٢) ما بين الكَرَك ومعان .
(٥٣) الصايغ يكتب دائماً الشام ويعني بها تارة بلاد سورية وتارة مدينة دمشق .
(٥٤) كذا ، ولعله يريد مصقل .
(٥٥) الجود والجمع إجودة ، جلد جدي يدبغ ويستعمل لجلب الماء (روكس العزيزي) .

وخدامهم ورعياهم[٥٦]، وهي تعد نحو ستين نفراً. فحين تدخل بيته تظن أنك في عرس أو احتفال، مع أن جميع الحاضرين يشكلون عائلة واحدة.

ثم سألنا الشيخ عن سبب حضورنا إلى هذه الديار، وإذا كنا نرغب في الإقامة عنده أو نود الذهاب إلى مكان آخر؟ فكان جوابنا: يا سيدي، نحن جماعة تجار، كنا سابقاً في قبرص، وأما الآن فبسبب الحروب المتواصلة بين الإفرنج، انقطع[٥٧]البحر ولم يبقَ لنا باب للتجارة وأصبحنا نخشى الفقر. فرأينا من المستحسن أن نذهب إلى حلب للبيع والشراء، ولكننا وجدنا أيضاً في هذه المدينة عدداً من كبار التجار الأغنياء نحن لا نصلح لسَمْسَرتهم. فثم رأينا عندئذ على جلب بضاعة خضّارين[٥٨]تصلح للبرّ والعَرَب، ونسترزق من باب الله. فقال: هذا رأي صالح مناسب يا اخواني، ولكن ما هي بضاعتكم؟ فعرفناه بجميع ما معنا فقال: بضاعتكم هذه أكثرها يروج عند العرب، ولكنكم لستم من الذين يستطيعون الوصول إليهم والإقامة عندهم، إلى أن يتم لكم بيع بضاعتكم، فهذا أمر صعب جداً ويحصل لكم منه ضرر وأذية، ولا سمح الله قد يكون ذلك سبباً لنهاية حياتكم، ويتأتى عنه ١٠/١ تعب شديد لأن معاشرة العرب صعبة جداً بسبب طمعهم المشهور، فإن لم تعطوهم طلبهم عن طيبة خاطر[٥٩]أخذوه غصباً[٦٠]، وإن أكثرتم عليهم الكلام قد يقتلونكم. فأنتم جماعة أرقاء القلوب، سمحاء كرام[٦١]، وجهكم حيي، لستم أهلاً لهذه الأمور الصعبة. والرأي عندي، إن سمعتم كلامي، أن تعرضوا غداً بضاعتكم وتبيعوا منها ما يسهله الله، وتحملوا الباقي وترجعوا به إلى حمص حيث تعملون على تصفيته، ثم تعودون إلى بلدكم فتكسبون أرواحكم ومالكم. ودار الحديث بين الحضور وصار كل من بالمَحْضَر[٦٢]يعطي نصيحته. فاصفر وجه الخواجه لاسكاريس من هذا الكلام، والتفت نحوي، وقال باللغة الإيطالية: ماذا تقول بهذا الخبر الذي قطع قلبي يا ولدي؟ فقلت له: إن كل هذا الحديث لا يسوى عندي تينة يابسة، واعلم يا سيدي أن من يذهب إلى الحرب عليه أن يقطع الأمل

(٥٦) كذا والمعنى غير واضح، ولعله يريد الرعيان.

(٥٧) «ارتبط».

(٥٨) الخضّار: التاجر المتجول الذي معه بضائع تصلح للفلاحين وأهل البادية.

(٥٩) «بالطيب».

(٦٠) «بالزور».

(٦١) «شلابية».

(٦٢) المجلس.

من رجوعه إلى الوطن ، ونحن ذاهبون إلى أماكن وعند أناس أنجس من الحرب . وعندما أفهمتني أنك تنوي الذهاب عند العرب ، ما عدت أفكر أني سأعود إلى وطني بالسلامة ، بل أني سأقتل وتأكل جسدي وحوش الفلاة[٦٣] ، أو قد يقوم ابن حلال بطمر جسدي[٦٤] في الرمل ، أمّا أن أرجع بالسلامة ، فإن الأمل ضعيف . ولذا يجب أن تكون قوي العزم . واعلم أن هذا الشيخ وإن كان طاعناً في السن وفهيماً ، ولكن معرفته لا تتعدى أمور قريته وفلاحيه وبيته وأولاده . أما الأمور مثل التي نسعى نحن في تحقيقها[٦٥] ، فهي لا تدخل في عقله ولا سمع بها قط . وعليه كن مرتاح البال ولا تخشَ شيئاً ، فبعون حامينا ، سلطان الخير ، لا يحصل لنا شر أبداً . ولكن لا تعد إلى مثل هذا الحديث مع شيخ القرية ، ولا تذكر اسم العرب بفمك أمامه ، ولكن طاوعه على عقله إلى أن تتسهل أمورنا وتكون طبق مرامنا .

فسُرّ الخواجه لاسكاريس من هذا الكلام وقال : الآن أصبحتُ متأملاً بك كما أني متأمل بالله . ثم انصرف الناس ، وقمنا بدورنا ودخلنا إلى غرفة فُرِشَتْ لنا ، ونمنا تلك الليلة ./ ١٠/٢

(٦٣) «الجول» .

(٦٤) «أو بصبح ابن حلال بطمر جسدي» .

(٦٥) يستدل من هذا الكلام على أن لاسكاريس كان أطلع ترجمانه على حقيقة نواياه ، أو على البعض منها ، ولكن يظهر من سياق القصة ، أن الصايغ ظل جاهلاً غايات معلمه إلى حين ذهابه عند الدُّرَيْعي بن شَعْلان (انظر ص ٩٥) .

نمره ٢

[أول لقاء مع البدو]

وثاني يوم قمنا دوّرنا بالضيعة، فوجدناها ضيعة عظيمة، تحوي على مائتي بيت. جميع سكانها نصارى سُرْيان، من غير أحد مخالطهم مطلقاً. صنعتهم شغل العبي والمشالح. فيها خمس كنائس وخمسة قسوس، كل واحد منها له كنيسة. ماؤها يجرى من عينين، وعندهم قليل من البساتين، لأن جميعهم مشغولون بصنعتهم، ويزرعون قليلاً من الحنطة والشعير ويحصلون على ما يكفيهم نصف السنة فقط، والسبب أن كل زرعهم سقي من العين لقلة الأمطار وأكثر السنين لا تسقط الأمطار قطعاً، ولذا فإن زرعهم قليل، وهم يتقاسمون الماء بالساعة. وأما ما ينقصهم من مؤنة ولوازم، فإنهم يستوردونها جميعها من حمص. وفي وسط القرية برج قديم العمارة كبير الارتفاع.

ويتحدث أهل صَدَد بتاريخ عمارة قريتهم ولماذا سميت صدداً. فلهذا الاسم تفسير، فمعنى صَدَد أنهم صدّوهم ومنعوهم عن التقدم أكثر مما تقدموا. والسبب هو أن جدود سكان صدد كانوا سابقاً مقيمين في طرابلس الشام. وكان هناك حاكم يقال له رومان، من قبل ملك الروم بالقسطنطينية. وهؤلاء الروم كانوا مشهورين بجورهم وردائتهم في ذلك الزمن. أما الحاكم المذكور، فإنه استبد بهؤلاء السريان المساكين وظلمهم ظلماً لا يطاق فاضطروا إلى الجلاء بكامل أسرهم وأرزاقهم مما قدروا على حمله، وهربوا إلى حمص، ومنها إلى البراري، قاصدين بغداد. فأرسل رومان عساكر خلفهم، لنهبهم وقتلهم وإرجاع من بقي منهم. فما

لحقهم العسكر إلا بعد أن بعدوا عن حمص اثنتي عشرة ساعة، فصدهم الجند، ومنعهم عن التقدم زيادة، ووقع بينهم قتال، ونهب العسكر أموالهم. ثم أنهم كتبوا كتاباً إلى الحاكم رومان وطلبوا منه الإذن بالإقامة بتلك الأرض، وتعمير قرية لهم، فأذن بذلك، ورجع العسكر عنهم. وكل واحد منهم بنى له بيتاً وأقام به، وكان عددهم يومئذ ثلاث مئة عائلة. فلهذا السبب سميت قريتهم صدداً.

ثم فتحنا بضاعتنا، كي نري للناس أننا تجار، ونستر مقصودنا. فصرنا نبيعهم، وأكثر ما بعناه هو الخام الأحمر، لأن جميع نسائهم تلبس من هذا اللون. فبعنا شيئاً قليلاً بمقدار خمس مئة غرش. وبعد يومين أو ثلاثة وقف البيع لأن أهل صدد أخذوا كفايتهم، فصرنا نمضي الوقت، إلى أن يحل وقت تقرب العرب من الحاضرة[1]. وأخبرنا بعض سكان صَدَد أنه يوجد، بعيداً عن هذه القرية، عمارة قديمة متهدمة/بها حمام طبيعي، لأن الماء ١١/١ السخن طبيعي، بل إنه من البخار. كما سنشرحه. فتشوقنا إلى رؤية ذلك المكان وطلبنا من الشيخ أن يأمر بعض الناس أن يصحبونا لنذهب ونرى ذلك المكان. وفي اليوم الثاني قمنا باكراً وكان يرافقنا خمسة أنفار من القرية بواردية[2]، وكان نوفل بصحبتنا أيضاً. فكان مسيرنا أربع ساعات لطرف الشرق، منحرفين لجهة الشمال. فوصلنا ووجدنا عمارات قديمة وخراباً كثيراً، ثم وجدنا مخدعاً بحجم غرفة كبيرة، لم يزل واقفاً، بناؤه على الطريقة القديمة بالأحجار الكبيرة جداً، إنما سقطت منه فقط قطعة من الحائط، من جهة الباب، فَسَدَّتْ نحو نصفه. فدخلنا ووجدنا طاقة من جهة الشرق، طولها نحو ذراع وعرضها كذلك، قديمة البناء جداً، ويخرج من تلك الطاقة بخار[3] كثيف بكثرة. وأخبرنا الذين معنا أننا إذا رمينا شيئاً في هذه الطاقة فإن البخار يصعده مرة ثانية[4] إلى فوق. فرمينا محرمة ومسكنا الساعة، فبعد دقيقة ونصف طلعت إلى فوق، ثم وقعتْ أمامنا. فأخذنا قميصاً ورمينا به، فبعد عشر دقائق طلع مع البخار ووقع أمامنا. وأخبرنا بعضهم أن أناساً رموا مشلحاً، الذي ثقله نحو رطلين من الوزن الحلبي، فرفعه البخار.

ثم بعد ذلك خلعنا ثيابنا، ولم يبق علينا إلا القميص، وجلسنا جانب الطاقة، فأبتدأنا

(١) «الديرة».

(٢) رجال يحملون البارودة أي البندقية.

(٣) «هُبّال».

(٤) «ثاني مرا» أي من جديد.

نعرق عرقاً عظيماً، حتى ساح العرق من أجسادنا على الأرض، كأنه مجرى ماء. فقمنا وتبدلنا ولبسنا حوائجنا، إلا أننا وجدنا نشاطاً وخفة بالجسد أحسن من حمام الماء بكثير. وهذه الحمام كان يقصدها الناس للاستشفاء[٥] سابقاً، وإلى يومنا هذا مازال الذين يعرفونها، وهم أهالي صدد وسكان تلك الديار، يصفها بعضهم إلى بعض لأجل عدد من الأمراض، ويتم شفاؤهم بها.

ثم رجعنا إلى صدد، وكان المساء فنمنا تلك الليلة بكل راحة وهدوء، وذلك كان من فعل الحمام. ومن ذلك الوقت، إلى حين انتهاء سياحتنا، لم نرَ المرض في جسدنا، لأن جميع الصدأ والغش اللذين كانا في جسمنا ذهبا مع العرق، والواقع أن رائحة العرق التي فاحت منا بفعل البخار كانت كريهة جداً، فبان لنا أن جميع ما خرج هو الغش الذي يحدث القروح والأوجاع في جسم الإنسان./وهذا شيء معلوم، والذين بنوا هذه الحمام كانوا عارفين نفعها وجعلوها طباً. ١١/٢

وبعد ذلك اقمنا بعض الأيام، إلا أننا كنا متكدرين إذ ليس هناك من جديد نراه. فعزمنا على التوجه إلى ضيعة يقال لها القَرْيَتَيْن، وهي تبعد عن صدد عشر ساعات، وتقع نصب شرقيها[٦]. فاستكرينا من أهالي صدد وحزمنا أحمالنا وبتنا تلك الليلة على أهبة السفر. فقال لنا نوفل: يا جماعة، أسماؤكم لا تناسب هذه الديرة وخصوصاً عند العرب، فيقتضي لكم أسماء دارجة تصلح عند العرب والحضر، (فالعرب هم سكان بيوت الشعر والبادية، والحضر هم سكان القرى والبلاد). فاعتمد رأينا على تسمية الخواجه لاسكاريس شيخ إبراهيم القبرصي[٧]، وأتخذتُ لي اسم عبد الله الخطيب أعني الكاتب، باصطلاح لغة العرب.

وثاني يوم من الصباح ودعنا الشيخ وكامل المحبين وتوجهنا على اسم الله. فبعد مسيرنا بأربع ساعات وصلنا إلى ضيعتين، الواحدة أمام الأخرى والطريق بينهما، الواحدة على اليمين والأخرى على اليسار، يقال لهما **مهين وحوارين**، وبينهما ماء جارية تكفي لهما. وفي كل ضيعة فقط نحو عشرين بيتاً، لأن أكثرها خراب، والمسافة بين القريتين نحو عشر دقائق

(٥) «حمام حكمة».

(٦) «وهي بعيدة عن صدد عشرة ساعات شرقيها نصب»، وهذا غير صحيح لأن القريتين تقع شرقي جنوبي صدد.

(٧) سبقت هذه التسمية في رسالة توصية (انظر اعلاه صفحة ٣٩).

فقط. وفي وسط كل قرية برج شاخ عال، قديم العمارة جداً، على صفة[8] عمارة ما قبل ظهور البارود. ولباس أهلهما كلباس العرب وكذلك كلامهم. فجلسنا وأكلنا ما كان معنا من الزاد، وأملأنا جُود الماء، إذ لم يبق أمامنا من ماء قبل القريتين، وهو المكان الذي نقصده، على بعد ست ساعات من الطريق التي أمامنا. فمشينا إلى ما بعد غياب الشمس ووصلنا بالسلامة ودخلنا القريتين. وكان معنا كتاب توصية من شيخ عَسّاف، شيخ صدد، إلى خوري سرياني. فذهبنا إلى بيت الخوري وسلمناه الكتاب، فترحب بنا وأدخلنا بيته بكل إكرام، ونمنا تلك الليلة. وثاني يوم قمنا لنرى المحل الذي نحن به، فوجدنا أنها ضيعة كبيرة جداً يحق لها أن تسمى القريتين أي الضيعتين. بها نصارى سريان قدم نحو عشرين عائلة فقط، وبها إسلام نحو مايتين وخمسين عائلة. وشيخها رجل محترم[9] يقال له الحاج سليم الدَعَّاس. وهذا الشيخ عليه وظيفة كل سنة، فهو يحمل نصف حملة الحج إلى وزير الشام. نحو مئتي حمل: شعيراً وطحيناً وبُقْكُسْمات[10] وخيماً وحنطة وسمناً وجميع لوازم حملة الحج. أما النصف الثاني فملزوم به شيخ تدمر الذي سوف نتكلم عنه بالاختصار[11]. /١٢/١

فهذه الضيعة حصينة، من دائرها حيطان ملتحمة وبيوت متلاصقة بعضها ببعض. وليس لها غير باب واحد فقط. وسبب ذلك خوفهم من العربان أن يسطوا عليهم، لأنهم يخافون كثيراً من العرب، حيث أنهم في البادية. ثم لها ماء كافية لهم جارية، ونبعها بعيد عن الضيعة نحو خمس ساعات، من محل يقال له شِعْب اللوز، ولها بساتين وكروم عنب، وزرعهم سقي على الماء يقتسمونها بالساعة الرملية بينهم. وعليهم ميري[12] إلى وزير الشام يخصصونه على ساعات الماء ويقطعونه من أجرتهم حين يحملون لوازم الحج.

وقبل كل شيء قال الخوري: سيروا بنا نسلم على الشيخ سليم الدَعَّاس، لأن هذا شيء واجب جداً. فسألنا عن سبب حضورنا إلى نواحيهم، فكان جوابنا نحن تجار قصدنا البيع والشراء، كما كنا ذكرنا السبب لشيخ صدد. فقبل منا ذلك وقال عن العرب كما قال الشيخ عساف بل أكثر. فقلت له: يا سيدي كل ما تقوله صحيح، والشيخ عساف نهانا أيضاً عن

---

(٨) «كسم».

(٩) «معتبر».

(١٠) بُقْكُسْمات: نوع من الكَعْك.

(١١) «بالاقتصار».

(١٢) ميري أي ضريبة، من العربية أميري.

التوجه عند العرب ، ونحن قبلنا نصحه ولم يبق لنا رغبة في الذهاب عند العرب ، إنما نشتهي فقط الوصول إلى تدمر ، عسانا نستطيع أن نبيع شيئاً من أرزاقنا . فقال وهذا الأمر أيضاً صعب لأن تدمر هي أشكال العربان . فإذا رأوكم طمعوا بكم ويصير لنا بسببكم وجع رأس وتعب ، وابتدأ يحكي لنا حكايات عن العربان وفعلهم الردي ، والخوري يصادق على كلامه حتى قطعا قلوبنا بحديثهما . وبعد ذلك حضر الغداء فتغدينا عنده وشربنا القهوة وذهبنا إلى بيت الخوري . فقال لي الشيخ إبراهيم القبرصي : ما هو رأيك يا ولدي؟ فقلت له : يا سيدي هذا رجل قلبه محروق جداً من العرب ، لأنه تحت حكمهم ، ودائماً يثقلون عليه ، ومَن يثقل على الناس لا يكون محبوباً . وأما نحن فليس بيننا وبين العربان عداوة ، وإذا مشينا معهم بكل محبة وإكرام ما أظن أنه يحصل لنا منهم تنكيد . فقال : وأنا عند ظنك .

وكنا كل يوم نذهب لزيارة الشيخ نحو ساعة من الزمن . وفي بعض الأيام قال لي : عندي نظارة معكوسة فهل تستطيع يا عبد الله أن تصلحها لي ، وأنك إن استطعت اصلاحها سميتك شاطراً[13] . ثم احضر النظارة فأخذتها وفتحتها ، فوجدت أن/بعض ١٢/٢ الزجاجات[14] واقعة من محلها ، فأعدتها إلى مكانها ، ثم مسحت سائر الزجاجات وأعطيته النظارة ، فأخذها ونظر فيها ، فتبين له أنها صحت كما كانت . فَسُرّ[15] جداً وقال لي : الآن[16] عرفت أنك معلم جليل ، وأنك عندي صاحب عقل . وصار يحبني جداً ويسميني الشاطر صاحب العقل .

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام قال لنا الخوري موسى وهو الشخص الذي نحن بضيافته : يا جماعة افتحوا رزقكم وبيعوا الذي يقسمه الله لكم . فاضطررنا غصباً عنا ، كي نستر حقيقة أمرنا ، أن نعرض بضائعنا ، وأخذنا نبيع في الساحة ، أمام بيت الشيخ الواقع في وسط القرية . فصار الناس يفدون علينا ويقعدونا عندنا ويقبضون لنا الدراهم من النساء . وكان من أكثر الناس ألفةً لنا شاب يقال له حسيسون الكعب . فبعد أربعة أو خمسة أيام انتهى البيع ورفعنا البضاعة وأخذنا نتنزه بالقرية ، فجاءني حسيسون وقال لي : يا سيدي هل عندك للسرّ مطرح؟ قلت : نعم ، ماذا تريد؟ قال : مادة سرية جداً ، على أن تعطيني كلاماً بأنك لا تخبر

---

(١٣) أي ماهراً.

(١٤) « البلوراة ».

(١٥) « فانحظ ».

(١٦) « هلق ».

أحداً بها . قلت : معاذ الله لا يمكن أن تطلع من فمي إلى مخلوق . قال في مغارة بعيدة ساعة عن القرية خابية ملآنة ذهباً ، وهذه القطعة منها . وأعطاني قطعة ذهبية قديمة من سِكّة تدمر ، وقد صودرت مع حوائج الخواجه لاسكاريس بعد نياحته في مصر القاهرة . فحين أعطاني الذهب حققت ذلك[١٧] ، وقال لي : «إنني لستُ قادراً على تصريف الذهب ، ولذا أرى أن تذهب معي سراً حتى أُريكه ، ثم تنقله رويداً رويداً ، وتصرفه وتعطيني عملة دارجة المبلغ الذي يسمح به خاطرك» . ففرحت وقلت بنفسي أن لا أكلم الشيخ إبراهيم بهذا الأمر إلا بعد أن أرى جليلة الخبر .

وفي اليوم الثاني انسللت من الجماعة ، وطلع حسيسون خارج القرية واجتمعنا ومشينا سوية . وكان معه بندقية[١٨]وسيف وعصا رأسها مكتل به مسامير من حديد يسمونها **كناة** . فسرنا نحو ساعة من الزمن ، وأنا ليس معي غير قصبة التوتون[١٩] ، إلى أن وصلنا إلى مغارة مظلمة . فدخلنا إلى صدر المغارة إلا أني لم أجد فيها شيئاً . فقلت له : أين الخابية ؟ فاصفر لونه[٢٠]وقال : ايش[٢١]رماك معي ؟ أعلم أن اليوم آخر حياتك في هذه الدينا ، وكنت قتلتك قبل أن انزع عنك ثيابك ، إلا أنها تتلوث بالدماء وتصبح غير صالحة . فإذاً اشلح ثيابك واعطني الكيس الذي كنت تضع فيه الدراهم ثمن البضائع التي بعتها للناس نحو ألف غرش ، وهذه طمعتي بك ، وتأكد أنك لن ترى النور/بعد اليوم . فابتدأت آخذه بالكلام ١/١٣ اللين وأكدت له أني سأعطيه أكثر مما هو متأمل أن يأخذ مني ، وأني لن أحكي لأحد ولن تطلع من فمي هذه الدعوى . فقال : هذا الكلام لا يفيدك ، فإذا أنا أطلقتك لا بدّ أن تحكي وتكون سبب موتي . فصرت أحلف له بالأيمان العظام والأقسام الكبار أني لن أحكي ، وأني سأعطيه شيئاً كثيراً إذا سمح لي بدمي . فقال : لا يمكن ذلك وأني لم أحضرك إلى هذا المكان لتبقى حياً ، بل لأقتلك وأطفيء خبرك ، لأني إذا أبقيتك على قيد الحياة أموت أنا . فمن بعد كلام كثير وجدال طويل اسند بارودته على الحائط والكناة جنبها ، وهجم علي مثل الذئب على الخاروف ، ومراده أن يأخذ ثيابي وبعد ذلك يقتلني . ثم وصل إلي وأمسكني ، وكان أكبر

---

(١٧) كذا في الأصل ولعل الصائغ يريد أن يقول : تحققت من صحة كلامه .
(١٨) «تفنكه» .
(١٩) التبغ .
(٢٠) من العجب أن يرى الصائغ في الظلمة اصفرار وجه عدوه .
(٢١) أي شيء .

مني عمراً واقتداراً، قوياً جداً، يأكل ثلاثة مثلي، فتضرعتُ إلى الله تعالى واستغثتُ بسيدي سلطان الخيرات الذي هو حاميني، وتصور أمامي كامل إخواني وأهلي وأحبائي وقلت في بالي: ما اشنعها من موتات، وعزّت علي الدنيا وخرّت الدموع من عيوني وقلت: إيه يا جبار، يا قوي، يا باسط الأرض ورافع السماء، يا مخلص عبيدك من الشدائد، أن تعينني وتخلصني من يد هذا الظالم، ثم التفت إليه وقلت: يا صاحبي أي عداوة بيننا وأي سبب يحملك على سفك دمي في هذا المكان المنقطع، وأي أذية وأي ضرر صدر مني في حقك؟ أما تعلم أن يوم الله قريب ويطالبك خالقي بدمي؟ فعبس وجهه وحَمْلَق فيّ بعينيه وأمسكني وجذبني إليه، وأخذنا نتعارك، ووجدت في نفسي قوة عظيمة من حلاوة الروح والخوف من الموت. وظَلَلْنا في صراع نحو ساعة من الزمن، حتى خَمَشَ وجهي ورقبتي وخَدَشَ يديَّ وساحت دمائي من كل أطرافي وتمزقت ثيابي وأصبحت في حالة لا توصف، وأنا دائماً غير قاطع أملي من الدنيا ومفكر في حيلة يكون بها نجاتي من يد هذا الشرير. وأثناء ذلك تمكن من القبض على عنقي وحاول أن يخنقني وضغط[22] بكل قواه، أما أنا فما كنت كسلان، ١٣/٢ وقبضتُ بكلتا يدي على كيسه بين فخذيه/واطبقت[23] عليه بكل عزمي، فزاغ بصره واصفر لونه ووقع على الأرض مغشياً عليه لا يدرك شيئاً. فحالاً أخذت سيفه من جانبه ثم التفت وأخذت البارودة والكناة وخرجت من باب المغارة وأنا من فرحي لا أصدق حالي، ومشيت على الدرب طالباً الضيعة. وبعد نحو ربع ساعة نظرت إلى الخلف فرأيته راكضاً. وهو يصيح ويستجير بي ويطلب مني أن أقف، فوقفت لأني لم أبق خائفاً منه فالسلاح بيدي. فحين أصبح قريباً مني أخذ يبكي ويتوسل إلي ويقول: ما أصغر عقلك، أنا لعبت معك حتى أجرب صداقتك وأنت ظَنَنْتَ أني كنتُ على جد؟ فأخذت البارودة بيدي وقلت وحق من خلصني من يدك وهو جبار السموات والأرض. إن خطوتَ خطوة ثانية نحوي[24] ملأتُ[25] بطنك رصاصاً. واعلم أنه لم يبق لك خلاص، وإن شاء الله إني سأجعل قتلك شهرة حتى يتأدب كل ملعون مثلك. فحين رأى أن محاولته قد فشلت، وهو عارف أنه مذنب جداً وأنه إن عاد إلى القرية سيقتله الشيخ سليم، فحينئذ أرتدّ إلى الوراء وهام على وجهه في البرية.

(٢٢) «قرّط».
(٢٣) «قَرَطْتُ».
(٢٤) «صوبي».
(٢٥) «عَبّيْتُ».

وأما الشيخ إبراهيم ونوفل والخوري موسى فإنهم قاموا من النوم فما وجدوني . فصاروا في حيرة عظيمة ، وابتدأوا يبحثون عني في أماكن عديدة ، فما وجدوا لي أثراً . فصار الشيخ إبراهيم في قلق عظيم وحدثه قلبه أني واقع في ضيق ، لأنه على معرفة بعاداتي ، فقال : إنه ما ذهب قط إلى مكان من غير علمي ، ولا بد لغيابه هذا من سبب كبير . ثم خرجوا إلى ضواحي القرية وأخذوا يطوفون بالبساتين للبحث عني . وبينما هم يفتشون عني ، إذ رأوني من بعيد مقبلاً عليهم ، فتساءلوا إذا كان القادم هو أنا حقيقة . فقال الشيخ إبراهيم : هذا الشخص ليس عبد الله لأن معه بارودة وسلاح وبيده سيف ، فمن أين جاء بهذه الأسلحة ؟ فحين قربت منهم عرفوني فركضوا نحوي من فرحهم . وحين وصلوا رأوني بتلك الحالة التي لا توصف : وجهي مخدش ودمي سائح ويديّ مسلّخة ورقبتي مجروحة وكل وجهي وعنقي ويديّ مدمية ، وأنا من فرحي بنجاتي ورؤيتي لهم ابتدأت أبكي وهم كذلك،/ولم يستطيعوا أن يفهموا مني حقيقة ما جرى علي إذ طفح علي البكاء . ثم دخلوا القرية واجتمعت الناس خلفي وصاروا يتساءلون عن الذي فعل بهذا الشاب هذا الفعل . وأدخلوني إلى بيت الشيخ سليم . ولما رآني في تلك الحالة الشنيعة انتصب قائماً مثل المجانين وأجلسني وأمر لي بماء ، فشربت حتى سكن روعي ثم قال أخبرني عن قصتك بالمختصر فقلت له : « حسيسون احتال علي وأراد قتلي والله نصرني عليه » . فغاب عن الوجود من هذا الخبر وقال : « له سوالف سابقة مثل هذه ، ولكن لا بدّ من قتله في هذا اليوم » . ثم أمر أربعة خيالة أن يركبوا حالاً ويجدّوا في طلبه ، ولا يدخلوه القرية ولكن يقومون بشنقه على باب القريتين من غير مراجعة . فركب الخيالة الأربعة بكل سرعة ، وكان من بينهم عَبْدٌ للشيخ سليم ، وكان لا يحب حُسَيْسون فأخذ حبلاً تحت أبطه[٢٦] لكي يشنقه حالاً ، على حسب أمر سيده .

١/١٤

أما أنا ، فأخذوني إلى بيت الخوري ، وسخّنوا لي ماء ومسحوا دمائي ، ودهنوا جروحاتي ببلسم وأجلسوني على الفراش .

أما الخيالة فداروا بكل اجتهاد إلى غروب الشمس ، فما وجدوا لحسيسون أثراً فرجعوا . وبعد مدة بلغنا أنه يخدم كعسكري بدمشق ، ومن ذلك اليوم ما عاد دخل القريتين .

وبعد هذه الأيام بقليل ابتدأ العربان يُغَرّبون ويظهرون في نواحي تدمر والقريتين ، وصارت أخبارهم متواصله في البلاد ، وابتدأ يحضر منهم أناس للقريتين ويخبرون عن بعضهم ،

(٢٦) «في عبه» .

وظهر الربيع ، وأخضر وجه الأرض بالحشيش ، وصارت الأخبار عنهم تصلنا ، وكل يوم كانوا يقتربون أكثر إلى نواحي بلاد سورية .

ثم في أحد الأيام حضر واحد بدوي إلى القريتين يقال له سلامة النعْسان ، من قبيلة اسمها العُمُور ، قبيلة صغيرة تحتوي على نحو خمس مئة بيت ، شيخها اسمه سلطان البرّاق ، متحضرة بالنسبة إلى غيرها ، ولها صلات متواصلة مع أهالي حماة وحمص ودمشق ، فتبيعهم ١٤/٢ غنماً وسمناً وجمالاً ، ولها أيضاً شركاء في البلاد . وحين/تشرق القبائل الكبيرة في الشتاء ، فإن عرب العُمُور لا يبعدون كثيراً وهم لا يتجاوزون حدود الزور وشاطئ الفرات ونواحي تدمر ، ويحضرون قبل جميع العرب إلى نواحي البلاد .

فهذا البدوي سلامة الذي ذكرناه كان قتل واحداً من أهالي القريتين من قبل ثماني سنوات ، وظن أن القضية قد نسيها الناس . فدخل القرية وذهب عند الشيخ ليسلم عليه ، على حسب عوائدهم . فسمع به أهالي القتيل وحضروا عند الشيخ وأقاموا الدعوى ، فأنكر المتهم إذ ليس هناك من شهود . وطال الجدال والنقاش بينهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه شيئاً ، وما كان بإمكانهم أن يكيدوه لخوفهم منه . أو من أذية تصيبهم من العرب . وأخيراً أخذ الشيخ بيده عودة مكنسة وقال : يا سلامة امسك بهذه العودة واحلف لي بحق من خلق هذه العودة أنك لم تقتل القتيل . فأخذ العودة بيده وأطرق ببصره إلى الأرض نحو ربع ساعة ، وبعد ذلك رفع رأسه وقال : يا جماعة أنا قتلتُ ابنكم ، وأنا لا أحط في رقبتي قتيلاً ويميناً ، فانظروا ما هي دية ابنكم حتى أعطيكم حق دمه . وهذه العادة جارية بين العرب وسكان القرى . فتواسطت الناس وتم الاتفاق على ثلاث مئة غرش . فقال سلامة : اصبروا عليّ حتى أذهب وأحضر لكم الدراهم . فقالوا له : قد لا ترجع فمن هو كفيلك . فقال : يكفلني الذي لم أحلف باسمه باطلاً يعني الله فخلوا سبيله . فقام حالاً وركب وراح وعاد بعد أربعة أيام ، ومعه خمسة عشر رأس غنم عظام ، كل واحد منها يساوي أكثر من عشرين غرشاً . فسلمها إلى أهل القتيل فأبرأوا ذمته وتصالحوا .

فسررنا جداً مما رأينا ، وتحقق لنا أن سلامة رجل طيب حسن السيرة ، وصرنا معه في صحبة كبيرة وأكلنا خبزاً معه . وبعد ذلك قلنا له : يا أخ نحن نريد أن نتوجه إلى تدمر ، والناس هنا خوفتنا من العرب فما هو رأيك ؟ فقال : أنا أضمن وأكفل أني آخذكم إلى تدمر ١٥/١ سالمين غانمين ، وأكتب سنداً/على نفسي ، أمام الشيخ سليم وجميع سكان القريتين ، أنه مهما

حصل لكم من ضرر فأنا المسؤول عنه . فاستوثقنا من كلامه وأقر بهذا الكلام أمام الشيخ وجمع كبير من الحاضرين ، فركن قلبنا من طرفه وكثر أملنا وحالاً عزمنا على الرحيل برفقته . فقال لنا الخوري موسى : ياأولادي ، الرأي عندي أن لا تأخذوا معكم كل رزقكم ، لكي لا يحصل عليكم طمع . فخذوا بعضه وأبقوا الباقي عندي ، فإن بعتوه واحتجتم إلى شيء من البضائع ، اكتبوا إلي واعلموني بالأشياء التي تريدونها ، وأنا أرسل بها إليكم . فرأينا أن هذا القول هو عين الصواب ، فأخذنا من كل صنف شيئاً قليلاً وحزمنا الكل ووضعناه في صندوق . وأما نوفل فإنه استأذن بالرجوع إلى بلده حمص ، فأعطيناه أجرة وافرة ووهبناه شيئاً من المال(٢٧) ، ثم استكرينا جمالاً من أهالي القريتين ، وصباح اليوم الثاني ودعنا الأحباء ، وركبنا على الجمال ، وكان ذلك أول مرة نركب على جمل . وأخذنا ما يكفينا من الماء لأن الطريق من القَرْيَتَيْن إلى تدمر لا يوجد فيها ماء . فسرنا إلى المساء مدة عشر ساعات ، وكان مسيرنا نحو الشرق . فنزلنا في أرض يقال لها الدَّوَة ، وكان بالقرب منها ، في وسط السهل ، برج عمارة قديمة يسميه العرب وأهالي تلك القرى قصر ابن وردان(٢٨) . فهذا اسم كبير القوم الذين كانوا يقيمون في هذا البرج ، من طرف حكام الشام الأروام ، لكي يتنسموا أخبار العجم خوفاً من أن يدخلوا بلادهم ويفسدوها . فلهذا السبب بقي اسمه قصر ابن وردان ، وهو من العمارة المتينة جداً ، على هيئة ما كان يبنى قبل ظهور البارود . فبتنا تلك الليلة وكان البرد شديداً ، واليوم الثاني قمنا ركبنا على الجمال قاصدين المسير . إلا أن الشيخ إبراهيم كان غشيماً ويجهل كيف يكون الركوب على الجمل . فحين علا على ظهره قام الجمل بسرعة ، ووقع المسكين على الأرض مغشياً عليه وانخلعت رجله . فنزلتُ ونزل كل من كان معنا ، ورفعناه عن الأرض وربطنا رجله وأركبناه من جديد ، وسرنا على اسم الله . فبعد مسيرنا بساعتين فقط ، وإذا الغبار يتصاعد من صدر البرية آتياً نحونا . وفي قليل من الوقت كلمع البرق اقترب منا ستة رجال على الخيول مسديدين الرماح وقاصدين سلبنا . وما كان سلامة كسلان فرمى الفروة/من على ظهره ، وأخذ رمحه بيده وطار مثل لمح البصر نحو القادمين ، حتى اقترب ٢/١٥ منهم وصار أمامهم . فوقفوا عندئذ وأخذوا يتكلمون مع بعضهم بعضاً حصة قليلة ، ثم شنوا الغارة علينا مرة ثانية ، فلحقهم سلامة وقطع عليهم الطريق ، ووقعت الحرب بينهم وبين

---

(٢٧) « بخشيش » .

(٢٨) هذا من أوهام الصايغ لأن قصر ابن وردان يقع شمالي شرقي حماة ، على نحو خمسين كيلومتراً من هذا البلد . أما البرج الذي يصفه هنا فهو قصر الحير الغربي .

سلامة ، وكان مشهوراً بمواقفه ، من الفرسان المعدودين بين العربان ، فاستقامت الحرب بينهم نصف ساعة ، وكانوا من قبيلة يقال لها الحِسَنَة[٢٩] ، أميرهم اسمه مهنا الفاضل ، وهو أول من صار من أحبائنا بين العرب ، وسوف نتكلم عنه وعن قبيلته . وكان هؤلاء الخيالة الستة من الفرسان العظام المجربين لهم خبرة بالحرب والقتال ، فلم يستطع سلامة أن يقف أمامهم أكثر من ذلك وأصابته طعنة رمح في فخذه فضعفت قواه . فحينئذ هجموا علينا وابتدأوا بسلبنا ، فصار سلامة يرمي بنفسه على الأرض ويقول لهم : يا جماعة ، ما هذه طريقة العربان ، هؤلاء إخواني وقد كفلتهم من كل أمر يصيبهم ، فكيف تفعلوا هذه الأفعال معهم . قالوا : كلامك صحيح يا سلامة ولكن أما تعلم أن كبير هذه الديار اليوم هو أميرنا مهنا الفاضل ؟ فكيف تحضر نصارى إلى تدمر من غير أذنه ؟ فقال الحق معكم ولكن على علمي أن مهنا بعيد عن الديرة ، وهؤلاء الناس مستعجلون يريدون بيع بضاعتهم ، فأخذتني المرؤة والغيرة ووضعت أملي بعادات العرب التي لا تتغير ، فهم بذمتي وقد ضمنت لهم أمام شيخ سليم الدعاس ورافقتهم . وأنا الآن مرتمي على الأرض وهم بين أياديكم فافعلوا بهم ما ترونه مناسباً . فرجعوا عنا وقالوا بما أنك تكلمت باللسان الطيب فإننا لا نأخذ منهم إلا ما يطيب خاطرهم به . فاضطررنا أن نفك الحمل ونعطيهم مَشْلَحَيْن وفروة ومئة غرش ، فرضوا بذلك وخلّو سبيلنا . أما سلامة فإنه من ألم جرحه لم يستطع أن يركب فرسه ، فأركبناه على جملي وركبت على فرسه ، وسرنا أربع ساعات إلى أن غابت الشمس ، لأننا أضعنا الوقت مع هؤلاء الناس الذين أعاقونا عن السفر مدة ثلاث ساعات بل أكثر . فنزلنا ونمنا تلك الليلة في أرض يقال لها وادي النهر . وبتنا تلك الليلة عطاشى ، إذ فرغ الماء من عندنا ، وكنا نظن أننا سنبيت في تدمر ، ولكن تأخرنا منعنا عن ذلك ،/ولكننا كنا راضين وشاكرين الله الذي خلصنا من أيادي القوم ، لأنهم لو سلبوا ثيابنا كنا بلا شك متنا من البرد . ١٦/١

(٢٩) الحِسَنَة أو الأحْسَنَة ، قبيلة عَنَزِيّة من ضنّا مُسْلم .

[تدمر وضواحيها]

وفي اليوم التالي مشينا مع طلوع الشمس، وقبل وصولنا إلى تدمر بساعة، بلغنا ماء جارية عظيمة يقال لها ماء أبو الفوارس، آتية من المغرب وذاهبة نحو المشرق صوب تدمر. ولا يبان من أين أصلها ولا إلى أين منتهاها، إلا من ثلاث أو أربع قوافع[1] في الأرض، تظهر وتختفي، والعمق من القافِعَة إلى الماء نحو ذراعين، فشربنا من ذلك الماء حتى ارتوينا، ومشينا ساعة من الزمن فأشرفنا على مدينة تدمر العظيمة. وأول ما قابلنا، قبل الدخول بربع ساعة، خانق[2] بين جبلين متقابلين، فنتج عن ذلك ممر متواصل حتى مدخل تَدْمُر. وعلى الجبل الذي على اليمين، من ناحية القبلة، سور قديم العمارة يمتد على مسافة ثلاث ساعات وينتهي بالخانق، ومن طرف الشمال، في آخر الجبل، قلعة من عمارة الإسلام، قبل ظهور البارود، يقال لها قلعة ابن مَعن. والمذكور كان من حكام الشام في زمن الخلافة الأموية، فعَمّر هذه القلعة كي يمنع الأعاجم[3] عن الدخول من ذلك الخانق إلى بر الشام.

وبعد ذلك وصلنا إلى فسحة عظيمة يقال لها وادي القبور، فيه أكثر من عشرين

---

(١) قوافع مفردها قافعة: لم أجد هذه الكلمة فيما بين يديّ من كتب اللغة. وفي لسان العرب: القَفْعَة هو شيء كالقُفّة يتخذ واسع الأسفل ضيق الأعلى، جمع قُفَع. ولعل الصائغ يريد أن يقول حفرة ينبع منها الماء.

(٢) «بوغاظ».

(٣) «الأعجام».

قبراً، على الطريقة القديمة مثل الأبراج، وداخلها مخادع، لكل ميت مخدع على قدّه وصورته من حجر فوق مخدعه، وكل قبر من ثلاث إلى أربع طبقات يصعد إليها بسلم حجري، أما السقوف فمن الحجر أيضاً. ثم دخلنا المكان الآهل بالسكان، الذي يطلق عليه اليوم اسم القلعة، مع أنه في الواقع هيكل الشمس، وكان في داخله نحو مئتي عائلة.

دخلنا تدمر وكان معنا كتاب توصية من شيخ القريتين إلى شيخ تدمر المدعو رَجَب العُرُوق. وكان رجلاً مسناً[٤]، جليلاً، وقد فرضت عليه الدولة تقديم نصف تكاليف حملة الحجاج، مثل الشيخ سليم، إلى وزير الشام، كما تقدم الشرح سابقاً. فدخلنا وسلمنا عليه فترحّب بنا وأكرمنا غاية الإكرام. وفي اليوم الثاني طلبنا من فضله أن يجد لنا مكاناً نقعد نبيع رزقنا فيه، فأعطانا بيتاً صغيراً بالقرب منه. وأما سلامة، فأبتدأ أهل تدمر تداويه إلى أن صحّ نوعاً ما، فوهبنا له مالاً[٥] وافراً فركب وذهب عند أهله. وابتدأنا نحن نداوي قدم الشيخ إبراهيم خلال عدة أيام حتى استراح.

ثم فتحنا رزقنا وابتدأنا نبيع إلى أهل تدمر، حتى نتم القول بالفعل ونظهر للناس أننا تجار[٦]. وكنا كل يومين أو ثلاثة نذهب وندور بين الخرائب، فرأينا الأشياء التي تدهش الأبصار. ولا إفادة من وصف ما شاهدناه لأن هذا المكان مشهور، وكتب عنه كثير من أمثالنا من السواح، وسيكتب عنه بعدنا. وفي بعض الأيام خرجنا نتنزه ونمتع أبصارنا، لأننا كنا كل يوم نرى شيئاً جديداً من الأمور التي تحير الأفكار، فوجدنا عدداً كبيراً من أهالي تدمر مجتمعين حول عامود كبير، أمام باب الهيكل، وهم يريدون أن يشعلوا النيران حوله كي يسقط ويأخذوا ما في داخله من الرصاص لبيعه، وهذا ما كانوا فعلوه سابقاً في كثير من العواميد العظام. فحين نظرنا ذلك تألمنا وقلنا: أين عيون الذين نصبوا هذا العامود، وكم أنفقوا من الذهب حتى رفعوا هذا العامود العظيم في هذا المكان. والآن يريد هؤلاء الجهلاء الغشماء كسرَه وفناءهَ لأجل ربح دني. فقال لهم الشيخ إبراهيم: يا جماعة، أنا رجل أصلي من قبرص، وعادتنا لا نحب الخراب، فاحسبوا قيمة الرصاص الذي ستكسبونه من هذا العامود وأنا أسلمها لكم ولا تكسروا وتعطلوا هذه القطعة النادرة الوجود. فقالوا نستخرج منه كمية من الرصاص نبيعها بدمشق بنحو خمسين غرشاً. فقال لهم: هذه الخمسون غرشاً واتركوا

(٤) «ختيار».

(٥) «بخشيش».

(٦) «بياعين رزق».

العامود . فأخذوا الدراهم وتركوا العامود . وكان طوله اثنين وستين قدماً وثخنه عشرة أقدام ، من حجر الطبخ (؟) الملون : أزرق وأبيض وأحمر . وفي ذلك الوقت أخبرونا على مقطع العواميد وأنه بعيد نحو ساعة ونصف عن تدمر لطرف القبلة ، فاعتمد رأينا أن نذهب في اليوم الثاني ونرى هذا المكان . وبالغد ذهبنا مع ثلاث أنفس بالأجرة إلى ذلك المحل ، ورأينا بطريقنا أشياء كثيرة وأموراً غريبة ، لا نرى من حاجة لذكرها لأن الذين سبقونا عرفّوا عن جميع ذلك . ثم وصلنا الموضع المقصود وهي مغاير منقورة بالإزميل ، ووجدنا شيئاً كثيراً من الرخام الأبيض وقطعاً كبيرة جداً/مرمية على الأرض من زمن قديم . ووجدنا عاموداً من الرخام الأبيض ١٧/١ الخالص ، الشغل لا يحتاج إلى شيء غير نقله إلى البلد . وكذلك وجدنا عاموداً آخر تم نصف عمله وبقي مهملاً ، فكأن الوقت ضاق على العمال فلم يكملوا صنعه ولم يتمكنوا من نقل العامود الخالص .

وكان رجوعنا من طريق غير الطريق الذي ذهبنا منه ، فوجدنا محل عين ماء مطمورة بحجار كبيرة يسميها التدامر[٧]عين اورَنْس . فأخذ الشيخ إبراهيم يفكر ، وبعد رجوعنا إلى البيت قال : أتعرف يا ولدي بماذا أفكر ؟ قلت بأي شيء تفكر ؟ أفيدنا . قال : هذه العين رأيناها مطمورة ويسمونها أورنس بسبب عدم معرفتهم بتصحيح الأسماء القديمة ، فهذه عين أورليانوس ملك رومية الذي حضر من رومية طمعاً بغنى تدمر ، ونكاية بزنوبيا ملكة تدمر يومئذ ، وحاصَرَ البلد وأخذها اقتداراً ، ودخل البلد وأباد منها خلقاً كثيراً . ولا يعرف أحد ماذا جرى بالملكة زنوبيا إلى يومنا هذا[٨] ، وأظن أن اورليانوس هو الذي أمر بحفر هذه العين ليستقي منها ويسقي عساكره ، فوجدتُ هذا الرأي عين الصواب وقريباً جداً من العقل ولكن غير موجود في التاريخ ولا مذكور في محل ، إنما هو ظن لا أكثر .

أما صنائع أهل تدمر فهو نقل الملح والقَلْو[٩] ، لأن بالقرب منهم محل يستخرج منه الملح اسمه السَّبْخَة[١٠] . أما القلو فهي حشيشة يحرقونها فتذوب وتصير حجراً ، فينقلونها

---

(٧) سكان تدمر .

(٨) يعلمنا التاريخ أن الملكة زنوبيا وقعت بين أيدي الرومان وقيدت إلى روما مغلولة بسلاسل من ذهب سنة ٢٧٢ م .

(٩) القَلْيُ أو القِلَى رماد الغض والرمث يغسل به الثياب (لسان العرب ، مادة قَلَوَ) .

(١٠) السَّبْخَة : الأرض المالحة .

إلى حمص والشام ويبيعونها لأجل طبخ الصابون . وأيام توجه الحجاج إلى مكة ، يذهبون لكي يحملوا ما ذكرت سابقاً لوزير دمشق ، وذلك بالإجرة .

ثم وفي بعض الأيام أخبرنا بعضهم عن مغارة تبعد عن تدمر ثلاث ساعات ، فيها أنواع من المعادن وهي نكتة لمن يراها . فتوجه اهتمامنا لزيارة تلك المغارة ، ورجونا من الشيخ رجب العروق أن يرسلنا إلى المغارة مع أناس طيبين معروفين . فقال لنا : يا جماعة ما أكثر غلبتكم ، أنتم جماعة بياعين على باب الله الكريم ، مالكم ولهذه الأمور الصعبة ؟ فقلنا له : إذا كنا بياعين ١٧/٢ هل تحرم علينا الفرجة ؟/فقال : قوي مناسب ، غداً أرسلكم وأرسل معكم ستة رجال بواردية للمحافظة عليكم . لأن العربان كانت ملأت سهل تدمر من مختلف القبائل . فبكرنا في اليوم الثاني ، وأخذنا معنا فُنُود الشمع وكثيراً من خيوط القنب ومسماراً كبيراً ، وسوف نشرح لأي شيء تلزم هذه الأشياء في هذه الرحلة الصغيرة .

فمشينا ومعنا الرجال المرسلين من قبل الشيخ رجب . وسرنا نحو ساعتين من الزمن لطرف الشمال للشرق . فوصلنا إلى جبل صغير ، وفي نصف سفح الجبل ثقب كبير مثل باب ، فأشعلنا الشموع ودَقَقْنا المسمار على باب المغارة ، وربطنا طرف خيط القنب بالمسمار ، ودخلنا جميعاً لأننا إذا ابقينا أناساً على الباب وأرادوا ضررنا حلّوا الخيط فلا يعود يمكننا الرجوع إلى الباب . فلهذا السبب أدخلنا الجميع معنا . فحين صرنا داخل المغارة ، وجدناها واسعة وفيها مخادع ونزلات وطلعات وعوجات ولفتات ومغاير ، الشيء الذي يضيع فيه جيش(١١) . وكان دائماً طرف الخيط بيدي ، لأني ما كنت أثق بأحد غيري ، حفظاً على حياتي وحياة المسكين معلمي الشيخ إبراهيم . فوجدنا في تلك المغارة أموراً غريبة . فجميع سقفها نازل من الشبّ العطاري ، وقطعُه كبيرة مثل القناديل ، وأرضها ملآنة من ملح البارود ، وأكثر حيطانها من الكبريت الأصفر ، ولم تزل ظاهرة الأماكن حيث كانوا يقطعون منها هذه المعادن ، و وجدنا في بعض المحلات نوعاً من التراب أحمر اللون مثل السُمّاق ، طعمه حامض ، ناعم جداً . وأخبرنا بعضهم أننا إذا وضعنا منه في محرمة يخرقها ويخرج ، فأخذنا منه شيئاً قليلاً لنجرب ذلك . وعلمنا أيضاً أن كثيراً من الناس دخلوا هذه المغارة وضاعوا ، منهم واحد دخل وضاع كل الضياع وظل في المغارة مدة ثلاثة أيام ، وأخيراً ، بأمر الصدفة ، دخل ذئب إلى المغارة لتكون له مأوى و ولج في أعماقها لأنه على معرفة بها ، فرأى

---

(١١) الصائغ يكتب «أرضي» بدلاً من جيش في عدة مواضع من مذكراته ؛ والكلمة من التركية .

ذلك الرجل الذئب وصرخ فيه، فخاف الذئب وطلب باب المغارة ليهرب فلحقه الرجل وتمكن بهذه الواسطة من الخروج من المغارة سالماً بعد أن يئس من حياته، إذ لا يُعْرَف أولها من آخرها ولم نزل نمشي في داخلها إلى أن انتهت الخيطان التي معنا، فعزمنا عندئذ على الرجوع وخفنا من الضياع، مثل غيرنا، في تلك المغارة الشاسعة، وخرجنا من ذلك المكان ولكن بتعب عظيم لأن/الموضع رديء جداً وداخل المغارة وعرٌ كثيراً فطلعنا إلى خارج الباب وجمعنا الخيطان وجلسنا نأكل ما معنا من الزاد وتوجهنا بعد ذلك طالبين تدمر. ١٨/١

وصلنا إلى تدمر وسلمنا على الشيخ ودخلنا إلى غرفتنا، وكان قرب المساء. وحين أتت ساعة النوم خلع الشيخ إبراهيم ثيابه ونزع حزامه، فوجد أن المحرمة التي وضع فيها التراب مخزوقة والتراب منتثر في عبه. فجمعنا التراب ورأينا أن المكان من المحرمة، حيث كان التراب، قد تأكّل، فأخذنا التراب و وضعناه في قنينة وهي فقدت مع حوائجه في مصر، مع غيرها من الأشياء التي كانت معه. وقبل النوم سجلنا جميع ما رأيناه بالدفتر، من الورقة اليومية، على حسب عادتنا كل ليلة، ثم نمنا.

وفي اليوم الثاني أخذنا نتحدث عن المغارة فقال الشيخ إبراهيم: إن أهالي تدمر كانوا يخرجون منها المعادن ولربما أيضاً كانوا يخرجون الذهب إذ يوجد فيها الكبريت الذي هو أبو الذهب، إذ حيث يوجد الكبريت الأصفر يوجد أيضاً الذهب، وهذا شيء طبيعي وكيمائي. وبالأكيد يجب أن يكون فيها ذلك المعدن[١٢]، لأن مخادع المغارة غير طبيعية، ولكنها من حفر اليد. وهناك أيضاً أشياء كثيرة تحتاج إلى شرح، ولكن بما أنه قد سبق الكلام عنها قبلنا فليس في الإعادة إفادة. وهذه الكلمات التي كتبناها عن تدمر فاعتقادنا أنه لم يعرفها غيرنا من السواح، فلهذا السبب حَرَّرناها.

وأثناء ذلك الوقت كانت امتلأت نواحي تدمر بالعربان من كل الجهات، والأمير مهنا الفاضل الذي نحن نرغب في الوصول إليه كان اقترب من أراضي تدمر، وتيسرت أمورنا بعون الله وأصبحنا في غاية الحظ. وبعد قليل من الأيام حضر الأمير ناصر المهنا، من أولاد الأمير مهنا الفاضل وكبير أبنائه، ودخل تدمر مع عشرة خيالة فقط ونزل عند الشيخ. فذهبنا

---

(١٢) عبارة الصائغ: «وبالأكيد لازم يكون ذلك معدن».

وسلمنا عليه، فآنسنا وترحب بنا. ثم قال له الشيخ رجب: يا ناصر، هؤلاء الناس معهم بضاعة تصلح للعربان، وهم يرغبون في الذهاب عندكم ليكونوا تحت نظركم وحمايتكم خوفاً من أن يسطو عليهم بعض أوباش العرب. فقال أهلاً وسهلاً، يا مرحباً بهم، ليبشروا فما يصيبهم غير مطر السماء./ ١٨/٢

نمره ٣

[مع قبيلة الحِسَنَة]

بعد هذا الترحيب استكثرنا بخير الأمير ناصر وشكرناه على هذا الكلام وقلنا له : بما أننا تعرفنا بجنابك ومرادنا أن تكون لنا سنداً فيجب أن نأكل الخبز معك . وحالاً دعوناه إلى منزلنا وذبحنا له رأس غنم وصنعنا غداءً مناسباً ، وأخرجنا له مما معنا من حلو ، مثل الزبيب والتين اليابس والجوز ، فسره ذلك كثيراً ، لأنه كان آتياً من البادية[1] ويشتهي أكل الحلو . وكان معه جميع خيالته والشيخ رجب وعدد كبير من أهل تدمر وصار الناس في انشراح كبير . وفي مجرى الحديث ، بعد الغداء ، تكلمنا عما وقع لنا أثناء حضورنا من القريتين ، وكيف قام بتشليحنا بعض العرب من الحِسَنَة وأخذوا منا بعض الحوائج والدراهم . فاغتاظ جداً من ذلك وحلف أنه سيقاصصهم ويسترجع منهم الحوائج والدراهم ، فترجيناه عندئذ كل الرجاء أن يصفح عن هذا الأمر ولا يكلم المعتدين بهذه السيرة ، لأننا نحن سمحنا لهم . فقال : على حسب رغبتكم ، إذا كنتم سمحتم لهم فإني لا أكلمهم بهذا الأمر إكراماً لكم .

وثاني يوم نوى أن يذهب عند أهله ، وكان مراده ومرادنا أن نتوجه معه ، إلا أن عربه وأباه كانوا بعيدين عن تدمر نحو ثمانية أيام فقال : من الأنسب أن تنتظروا حتى نقترب أكثر ، فأرسل إليكم أناساً وجمالاً لإحضاركم عندنا . فترجيناه عندئذ أن يسأل أباه أن يرسل إلينا

(١) « الحول » .

بكتاب من يده، مع الأشخاص الذين سيحضرون لإيصالنا عنده، حتى نطمئن بالأكثر عن حالنا، فوعدنا وسافر مع خيالته.

ثم ثاني يوم حضر إعرابي من قبيلتهم اسمه باني جِسَيْني. وبعد دخوله تدمر بقليل من الوقت حضر سبعة خيالة، من كبار الفرسان، من قبيلة يقال لها الضّفير، سوف نتكلم عنها. وكانت العداوة على أشدها بين هاتين القبيلتين. فحين بلغهم أن في تدمر بدوياً من الحِسَنَة، من أتباع مهنا الفاضل، عقدوا النية أن يلحقوا به حين يسافر من تدمر ويقتلوه. و وصل خبر ذلك الكمين إلى البدوي[2]، فحالاً أحضر فرسه أمام البيت الذي نحن فيه وأخذ من عندنا قطعة من اللباد وبللها بالماء ووضعها على ظهر الفرس مباشرة ووضع العدة عليها وشد ١٩/٢ الحزام، فما مضى ساعة من الزمن إلا وابتدأت الفرس تُسْهِلُ/وظلت إلى الصبح على هذا الحال حتى فرغ ما في جوفها وصارت مثل الشبابة، فرفع عندئذ اللباد عن ظهرها وشد حزامها شداً قوياً، وركب مع طلوع الشمس. وكان الخيالة السبعة ركبوا قبله وكمنوا له على الطريق، على بعد ساعتين من تدمر، وكانوا قادرين على قتله في تدمر، ولكن بهذه الطريقة يقع اللوم على شيخ تدمر من قبل الأمير مهنا. ثم وصل باني إلى موضع الكمين فنفذوا عليه كأنهم اللمع البارق، فجدّ على فرسه وصاح بها: «اليوم يومك يا حمراء»، وطار مثل الطير الذي يشق الهواء بجناحيه، وظلوا يجرون خلفه مدة أربع ساعات إلى أن وصل إلى بعض منازل العرب، فرجعوا عنه حالاً و وصلوا إلى تدمر بعد غياب الشمس. وكنا مع كل أهالي تدمر ننتظر على الباب، لأننا كنا على معرفة بالقضية ونريد أن نعلم بما حصل، فإذا بهم قد عادوا وليس معهم فرس باني ولا حوائجه. فسألناهم عما وقع فقالوا لا شك أنه راكب على عصفور لأن خيلنا مشهورة بالركض، ونحن نعلم أن فرسه مثل خيلنا بل دونها، غير أننا شاهدنا منها فعلاً غريباً بعيداً عن العقل. فضحكتُ وقلتُ لهم: أتعرفون ماذا عمل؟ إنه بلّل اللباد بالماء ووضعه على ظهر الفرس كل الليل حتى خفت وأصبحت مثل الشبابة وما بقي في جوفها شيء، فلهذا السبب ركضت بهذه السرعة، فقالوا: لم نسمع بحياتنا بمثل هذه الشيطنة من أحد.

وبعد خمسة أيام حضر عندنا ثلاثة أنفار، ومعهم ثلاثة جمال، من عند الأمير مهنا يطلب ذهابنا عنده، وسلمونا الكتاب الذي كنا رجونا من الأمير ناصر أن يرسل به، وكان

(٢) «فصاح النظير أجا خبره عن ذلك الرباط».

بهذه الألفاظ : «من مهنا الفاضل بن ملحم إلى الشيخ إبراهيم وعبد الله الخطيب ، بعد السلام عليكم ورحمة الله لديكم ، حضر ولدنا ناصر من تدمر وأخبرنا عنكم وأنكم تريدون الحضور إلى عندنا ، حلّت البركة[٣] بمجيئكم ، فاحضروا ولا تخافوا ، فلا يصيبكم غير مطر السماء ، أمان الله عليكم ورعايته ، وسلموا على أخينا الشيخ رَجبَ العُرُوْق » . ثم الدعاء والتوقيع : تحيات مهنا الفاضل ، مع الختم بالحبر إلى جانب الاسم . فحالاً بادرنا وحزمنا حوائجنا وما بقي معنا من الرزق . وصباح اليوم الثاني ودعنا الشيخ وسائر الأحباب وتوجهنا . وكان مسيرنا ما بين الشرق والشمال نحو أربع ساعات ، ثم وصلنا إلى قرية يقال لها أَرَك ولها ماء جارية عظيمة وتحتوي على نحو عشرين بيتاً ، سكانها مثل أهالي تدمر ، وهم متوافقون مع التدامرة على حمل الحجاج ونقل الملح ، ويمارسون نفس الصناعات . فملأنا الجُود ماء من ذلك المكان وسرنا طالبين منازل مهنا الفاضل . وفي طريقنا التقينا بعدد من العربان ، ولكن لم يعكر أحد منهم لنا خاطراً ، إذ كان معنا رجال من أتباع مهنا ، إلا أنهم كانوا يلقون علينا الأسئلة ، فيرد عليهم رفقاؤنا العرب : إنهم رائحون عند المِلْحم ، وهذا لقب طائفة مهنا الفاضل ، فأبوه اسمه الفاضل ، وهو مهنا ومن بيت الملحم ، والعادة عند العرب أن يسموا الإنسان بأسمه واسم أبيه حتى يُعْرَف من هو ولا يبقى مجهولاً . وبعد مسير عشر ساعات من تدمر ، وصلنا إلى النزل السعيد ، فوجدنا نزلاً عظيماً للعرب ، يجمع نحو ألف وخمس مئة بيت ، في مكان يقال له ضَبْع . فدخلنا بيت مهنا ، فترحب بنا وعمل لنا غاية الإكرام وأمر لنا بالقهوة فسقونا القهوة ثلاث مرات متوالية ، وهذا من جملة عوايدهم إذا كان الضيف عزيزاً عليهم يقدمون له القهوة كثيراً . ثم أحضروا لنا العشاء وكان مطبوخاً وحاراً جداً ، وعادتهم أن يأكلوا بأيديهم من غير معالق ، وكنا جائعين فاضطررنا أن نأكل مثلهم بأيدينا ، وكان ذلك لأول مرة ، فحصل لنا من جراء ذلك أضرار وحروق بأيدينا . فقال لنا المهنا : يا ضيوف ، أظن[٤]أن أيديكم احترقت من الطعام ، بسبب عدم إعتيادكم؟ فقلنا نعم ولكن لماذا لا تستعملون المعالق ، فقال واحد منهم نحن جماعة بدو ، نمشي على ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا ، وكل شيء عندنا طبيعي : اليد يدك والفم فمك ، كلاهما عضوان منك ، فلأي سبب نحتاج أن نجعل بينهما واسطة غريبة من خشب . فقلنا الحق معك . والتفت إلى الشيخ إبراهيم وقلت له : هذا أول فيلسوف من العرب .

---

(٣) «يا حلة البركة» .

(٤) «على تخميني» .

وفي اليوم الثاني أمر المهنا أن يذبحوا لنا جملاً وذلك لأجل إكرامنا ، لأننا استخبرنا عن ذلك فأخبرونا أن هذه عادة العربان إذا أرادوا أن يكرموا ضيوفهم إذا كانت الضيوف غالية عليهم جداً ، فهم يذبحون جملاً لأنه أكبر ما عندهم . فأكلنا ذلك اليوم لحم الجمل للمرة الأولى ، فوجدنا أن طعمه كلحم الغزال نوعاً ما . والنتيجة أنه حصل لنا إكرام زائد لأنه بيت مشهور بالكبر والقدم والصيت والكرم . ومهنا رجل/طاعن بالسن ، عمره نحو ثمانين سنة ، ١ / ٢٠
حقير من الرجال[٥] ، ذقنه مثل الكوساة ، شديد الطرشة ، يجب على من يتكلم معه أن يصرخ بأعلى صوته حتى يسمع ، ضعيف الجسم ، غشيم على بركة الله ، ملبوسه زري جداً . إنما محاسنة كثيرة : نظيف القلب لا يعرف الغش ، كريم ومن بيت قديم من أكابر العرب . فهذه المحاسن تغطي على عيوبه ، وتجعله مقبولاً عند العرب وعند الحكام في البلاد ، لأن عليه وظيفة من طرف والي الشام قديمة العهد ، وهو يرافق الحجاج إلى مكة من دمشق ذهاباً وإياباً . وله من وزير دمشق كل سنة خمسة وعشرون كيساً يقبضها قبل ذهاب الحجاج يسمونها الصرّ[٦] . له ثلاثة أولاد أكبرهم ناصر وهو الذي تقدم ذكره ، وثانيهم فارس وثالثهم حَمَد ، جميعهم فرسان يركبون الخيل ومتزوجون وكلهم في بيت واحد . فالبيت طوله ثلاثون ذراعاً ، من الشعر الأسود ، مقسوم إلى ثلاثة أقسام بقواطع من جنسه أي من الشعر . القاطع الأقصى للطبخ والمؤنة والعبيد والخدام ، والثاني للحريم والنوم ، والثالث من الطرف الآخر ديوان مجلس الرجال يسمونه **رَبْعَة** . هذا الذي عرفناه ثاني يوم من وصولنا عنده .

وفي اليوم الثالث فتحنا بضائعنا وابتدأنا نبيع للعربان . فازدحمت علينا النساء للشراء لأنهن رأينَ أن بضاعتنا جيدة ورخيصة ، فكنت أقول للشيخ إبراهيم : يا سيدي ، هذا السعر لا يلائم ، نحن نخصر عليهن ، فقال : فكأني بك نسيت الشرط الذي بيننا : لا تعارض ولا تسأل عما أفعل . فسكتُّ وقلت بنفسي الحق عليه .

هذا وبعد يومين رأينا أن بعض عربان هذه القبيلة أخذوا يتواردون ويجتمعون خارج البيوت بالسهل ، إلى أن صاروا نحو خمسين نفراً بخيولهم ورماحهم . وخرج ناصر المهنا من البيت هو وابن عم له يقال له الشيخ زامل ، وذهبا حيث اجتمعت الناس ، وبقيا هناك نحو ساعتين ثم رجعا . أما الخيالة فكل واحد منهم رَكِبَ وذهب إلى بيته . فصرنا نحن نتشوق

---

(٥) كذا ، والصائغ يريد أن يقول : لا يؤخذ بعين الاعتبار .

(٦) الصرّ : راتب تقدمه الدولة لبعض كبار المشايخ للمحافظة على الحجاج ، ولعل هذه الكلمة محرفة عن الصُّرَّة أي كيس الدراهم .

لنعرف شيئاً عن هذا الاجتماع وعن السبب الذي دعا إليه . فأخذتُ معي قليلاً من المرجان الأحمر ودخلت عند الحرم ، إذ كان سبق لنا أن دخلنا على الحريم وشاهدنا منهن كل إكرام . فأهديت ذلك المرجان إلى حرمة الشيخ ناصر يقال لها نورة ، فأخذته بكل قبول و وضعت لي تمراً لكي آكل وجلست إلى جانبي تتحدث معي ، فقلت لها : يا سيدتي ، الغريب يسأل دائماً عما لا يعنيه[٧] ، فلأي سبب صار هذا الجمع/اليوم مع العربان ؟ قالت : أخبرك ولكن لا تعلم بذلك أحداً ، فاعلم أن زوجي ناصراً له عداوات كبيرة مع العربان ، ودائماً عليه ديات تنمي وتكثر ، وذلك بغير رضى أبيه وبغير رضى شيوخ القبيلة ، لأن مراده أن يتقدم على أبناء جنسه بوساطة الحكام العثمانين ، ولهذا السبب قد كثرت العداوة بينه وبين القبائل وابتدأت الغارات فيما بينهم ، واليوم اجتمع هذا الجمع وتم الاتفاق بينهم على أن يقوموا غداً بغارة على قبيلة يقال لها الضَّفير ويكسبوا جمالها ، وذلك للنكاية والأذى وتنغيص عيشهم ، لأن الغزو شيء يقهر العربان جداً ومثله الظفر بهم ، إنما يعطي الله النصر لمن يشاء . فقمت وأنا مسرور منها إذ بلغت مرادي ، وكلمتُ الشيخ إبراهيم بجلية الخبر ، فبان عليه القلق وقال : يا ولدي ، هذا الخبر سيئ لا يوافق مصالحي ، لأني أرغب في معرفة وصحبة أناس ليس لهم معاشرة ولا مودة مع العثماني ، وها نحن قد وقعنا على إنسان ضد مطلوبنا ، لأن مهنا رجل طاعن بالسن ، والكلام إلى ولده ناصر ، والمذكور مراده السيطرة بوساطة العثماني ، وهذا ضد مصالحي . فلم أرد أن أسأله عن سبب ذلك ، إنما هذا الكلام شغل فكري كثيراً .

٢ / ٢٠

ومن غياب الشمس ابتدأت العربان تتوارد وتجتمع خارج البيوت ، إلى أن صاروا نحو ثلاث مئة خيال . وثاني يوم من قبل شروق الشمس ركب ناصر وابن عمه زامل وأخوه الصغير حمد وساروا جميعهم بكامل الخيل إلى ناحية الشرق ، وبعد ثلاثة أيام عادوا بكاملهم وخرجت العربان للقائهم بكل فرح ولعبوا على ظهور الخيل ، واحضروا معهم مئة وثمانية جمال من أموال الضفير . وبعد أن ارتاحوا أخبروا عن غارتهم وعما جرى لهم مع القبيلة المذكورة ، وهو أنه بعد توجههم ، وصلوا ثاني يوم ، وقت الظهر ، إلى المكان الذي كانت ترعى فيه جمال الضفير ، بعيداً عن البيوت ساعتين ، وليس مع الجمال إلا الرعيان فقط ، فأغارت الخيل على الجمال لكي تأخذها وهرب الرعيان سريعاً نحو البيوت وأخبروا عربهم ، فركبوا حالاً وطلبوا ناصر المهنا وربعه . وأما ناصر فإنه أرسل حالاً الكسب ، أعني الجمال التي أخذها ، مع قليل من

(٧) يقول الصائغ : « يا ستي ، الغريب بيصير كثير الغلبة » .

٢١/١ الخيل ، على طريق غير الطريق المعروف ، حتى يوصلها إلى قبيلته ،وإذ/وصلت خيل الضفير إليهم ووقعت الحرب بينهم ، فما قتل غير واحد من الضفير وجُرِح اثنان من الحسنة ، أعني من قبيلة ناصر ، فدخل الليل ورجع كل واحد إلى حال سبيله . وفي ضحى اليوم الثاني حضر ناصر وكامل الخيل ، ومعه الكسب الذي أخذوه من الضفير .

وفي ذلك اليوم أتى ناصر عندنا وهو فرحان بانتصاره ، ضحوك الوجه ، وجلس عندنا في المكان الذي نبيع فيه ، وابتدأ يتكلم مع الشيخ إبراهيم بالتركي . فقال له الشيخ إبراهيم : يا شيخ ناصر ، أنا لا أعرف التركي ، ولكن أعرف فقط الرومي [اليوناني] ، لأني قبرصي ، وقليلاً من العربي ، علمني عبد الله الخطيب . فقال ناصر ، يا إبراهيم ، العز بالترك والجاه بالعثماني ، وأنا أتكلم بالتركي ، ولي مخالطة مع الحكام في جميع أنحاء البلاد ، وإن شاء الله إني بوساطتهم أقهر العربان وأسود عليهم . فقال له الشيخ إبراهيم ، يا ناصر ، اعلم أن الشجر تقطع بفرع منها ، والعثماني ليس عندك في كل وقت ، والعربان أبناء جنسك أخير لك ، لا سيما وأن العثماني صاحب ملاعيب ولا يحب إلا أهل جنسه ، فيريك المحبة حتى يحصل بوساطتك على مآربه ، ويجعل العرب ضعفاء تحت حكمه ، وإن استطاع أبادهم جميعاً . ثم قال له : خذ حذرك واعمل على خلاصك ، ولكن سوف تندم على رأيك .

هذا ، وفي تلك الأثناء وصله مكتوب(٨) من والي الشام سليمان باشا والي عكا مضمونه أن يحضر إلى دمشق لتنصيبه على الديرة ويطرد العربان الذين لا يدخلون تحت طاعته ويكون أمير ديرة الشام وكل القبائل تحت يده . ففرح بذلك فرحاً شديداً وحالاً توجه إلى دمشق مع عشرة خيالة .

وأما نحن فبقينا مع مهنا . وفي مساء اليوم الثاني أمر العربان بالرحيل صباحاً . ولما كان الغد ، قبل طلوع الشمس ، ارتمت كافة البيوت وحُمِّلَتْ حالاً ، وركبت الرجال على خيولها وأناس على الجمال ، والنساء الوجيهات في الهوادج المجوَّخة(٩) ، وسارت الجمال غير المحملة أماماً مع الرعيان وبعدها الظعون(١٠) أعني [الجمال التي تحمل] البيوت والألبسة ، وأمام

---

(٨) في المخطوطة : « بولردي » ، كلمة تركية تعني رسالة رسمية من ممثل السلطات العثمانية يصدر فيها أوامره ويعلن عن إرادته .

(٩) أي المفروشة بالجوخ .

(١٠) في الأصل : الضعون .

الجميع الخيل يتقدمها نحو عشرين خيالاً مجربين بالحرب والقتال يسمونهم السلف، وعليهم
٢ / ٢١ أن يراقبوا السير ليروا من يأتي من بعيد ومن يكون في الطريق. وهذا أول رحيل رأيناه/وهذا شيء رائع حقيقة ولا سيما رؤية نساء أعيان القبيلة في الهوادج. فالهودج مثل السرير يوضع على ظهر الجمل، وله مثل السرج، وهو مركز على قوائم من خشب علوها نحو ذراعين مشدود بعضها ببعض. وهو واسع، تقعد فيه المرأة وتضع أولادها معها، وداخله مغطى بالجوخ الوردي والأصفر، وعلى دائره شرّابات ملونة من الصوف. والنتيجة شيء ظريف ولائق بهن. أما نساء الفقراء فإن كل واحدة منهن تعمل لها على ظهر الجمل مثل بركة مدورة من البسط والثياب، وتقعد هي وأولادها في وسط هذا المحل الذي يسمونه **حصاراً** أي أنه يحصر الأولاد ويمنعهم عن الوقوع. ونساؤهم على الإطلاق يلبسن فقط الثوب الأزرق مثل القميص، وفوقه عباءة سوداء حَسَاوية، وعلى رؤوسهن شملات سوداء طولها ثلاثة أذرع، طرفها على الرأس وباقيها ملفوف على الرقبة، وأما الطرف الثاني فمرمي وراء الظهر، وفي أيديهن أساور من الزجاج، ومرجان مضموم دورين أو ثلاثة، وحبوب كهربا، وهن حفايا لا شيء بأرجلهن كلياً.

وكان الأمير مهنا راكباً على جمل، لأنه أريح له نظراً إلى شيخوخته، والناس يمشون حوله، فشبهناه بأبينا إبراهيم الخليل أيام حياته، لأنه كان على هذه الصفة كما هو معلوم.

ثم وصلنا قبل العصر إلى المحل الذي كنا نقصده، وهو مكان يقال له **المُحَرَّم**، بالقرب من حماة، لأن سيرنا كان إلى جهة الغرب. ولما قربنا تسابقت الخيل وكل واحد نصب رمحه في مكان، وربط فرسه بالرمح، والمعنى أنه يريد أن يكون بيته في ذلك المحل. فوصلت الظعون، أعني النساء والبيوت، وكل امرأة عرفت فرس زوجها ورمحه، فنصبت البيت إلى جانب الرمح. وفي قليل من الوقت، بعد أن كان ذلك المكان خالياً من كل شيء، صار فيه بلد وأناس وجمال وخيل وبيوت بمقدار أهالي حماة. وماء ذلك المحل جَمْعٌ من المطر، وكل تلك الأرض غدران مجموع بها الماء. وبالقرب منها أرض عالية أكثرها من الصخر وهي منقورة باليد ومملوءة من ماء الشتاء.

وبعد إقامتنا بثلاثة أيام وإذا الرعيان راكضة وهي تصيح: ياأهل الخيل الحقوا.
١ / ٢٢ فضجت العربان وقامت الصيحة من كل جهة، وإذ وصلت الرعيان/وأخبرت أنه حضر غزو عظيم وجموع كثيرة بقوة هائلة من عرب الضفير وأخذوا كل النوق والجمال. فركبت الخيل

وكانوا نحو ألف خيال وطلبوا العدو ، وكان الوقت قريباً من العصر ، وهكذا كان تدبير العربان يجعلوا غاراتهم قرب المساء ، حتى إذا طلبهم العدو يدخل الليل ويرجع الطالب عنهم ، وهم يعودون سالمين بالكسب ، وما رجع عرب الحسنة إلا بعد يومين وأخبرونا أنهم ظلوا يركضون وراءهم وهم أمامهم إلى أن أتى الصباح ، ثم التقى الطرفان و وقع الحرب والقتال بينهما نحو أربع ساعات ، فقتل من الضفير ستة أنفار ومن الحسنة عشرة واسترجعوا من الكسب نحو النصف أي خمس مئة حيوان والنصف الثاني راح مع الضفير . فحزنت العربان على الذين قتلوا وعلى النوق والجمال التي خصروها ، وصاروا يدعون على ناصر حيث أنه ابتدأ بالشر مع الضفير وغزاهم أولاً . وحالاً كتب مهنا إلى ابنه ناصر بدمشق وعرفه بجميع ما جرى مع عرب الضفير وأرسل الكتاب مع هجان خاص .

وبعد بضعة أيام حضر ناصر من دمشق ، ومعه جوخدار كبير من طرف الوزير وهو يحمل كتاباً[11] مشدداً مضمونه اشعار لكامل العشائر والقبائل يحيطهم علماً بما يلي : « إننا قد وجهنا ولدنا الأمير ناصر المهنا على كامل أيالتنا[12] ومأواه[13] ومنازل العربان . المراد من الآن وصاعداً أن تكونوا في قدم الإطاعة في كل ما يأمر به ، ومن لا يطيع ويهتدي لا أمانَ له ولا رأي . فيقتضي عندئذ أن نرسل حالاً عساكرنا المنصورة فتنهب أرزاقكم وتحرق بيوتكم ، ونسلّم حريمكم إلى العساكر ونجعلكم عبرة لمن اعتبر . ها نحن قد أنذرناكم فاحذروا من الحركات المخالفة واعتبروا ذلك » .

وهذا كان بتدبير ناصر المهنا ، وكان أكثر خوفه من قبيلته ، بسبب الرجال العشرة الذين قتلوا . وبذلك الوقت كانت الأراضي امتلأت من العربان ، فصار ناصر يعلمهم بوصول هذا الكتاب ، وكل من حضر يقرأه له ، ويتكلم مع الجوخدار بالتركي ، مع أن كل ذلك ما كان عند العربان بثقل حبة خردل .

٢٢/٢ وفي أثناء ذلك حضر/في بعض الأيام شيخ قبيلة الرِّفاشَة ، المسمى ذرّاك بن مِعْجِل ، شاب نشيط ، فَتَلا عليه الكتاب وجعل يقول له : هؤلاء حكام ولهم ملك كبير في اسلامبول ، وسيف السلطان طويل ، ويجب الإطاعة لهم والخضوع ، ولا تكن أنت غير طائع

(١١) في الأصل : بولردي أي مرسوم .

(١٢) « إيلتنا » أي ولايتنا .

(١٣) كذا ولعله يريد المكان الذي يأوي إليه .

فتندم. فتغير لون ذرّاك من هذا الكلام ونهض قائماً وقال: يا ناصر آغا، اعلم أن العربان جميعهم ضدك بسبب موقفك هذا، فإن كان مرادك أن تكون كبيراً عند العثماني فانزل للشام والبس قابوقاً في رأسك واجلس بالسرايا عند الوزير، وكُنْ كيخياً[١٤] واحكم على أهالي الشام، فيأخذون لك هيبة. وأما نحن العربان، فأنت و وزيرك وسلطان اسلامبول فلستم عندنا بثقل بعرة الجمل، وإن كنت تقول لا تقعد في ديرتي الشامية، فهذا كلام قوي مناسب، وأنا أصغر وأضعف كافة قبائل عنزة[١٥] (وهذا الاسم عام يطلق على جميع عرب البادية)[١٦]. ولكن الآن، حال وصولي إلى قبيلتي، سأرحل بكامل عربي إلى ديرة بغداد، عند الدُّرَيْعي بن شعلان، كسّار جموع العثماني. فتغيرت ألوان ناصر من هذا الكلام، والتفت إلى الجوخَدار وأخذ يفهمه بالتركي، فابتدأ الجوخَدار يتكلم بالتركي مظهراً نفساً كبيرة، ليُوْمِه على الناس، على حسب طرائق العثماني المشهورة. فقال له ذرّاك: لا تكن فضولياً[١٧]، فوالله العظيم ولو كنتَ في حماية الناصر مهنا وأنت جوخَدار الوزير، فإن أردتُ لا أدعك تأكل خبزاً بقية عمرك. ودخل الحمق بينهما. ثم ركب ذرّاك فرسه وأخذ رمحه بيده وقال لا عليكم سلام، واعمل يا ناصر ما تصل إليه يدك ولا تتوانَ. وسار إلى عربه الذين كانوا يبعدون ست ساعات عن منزلتنا. فاغتاظ ناصر من هذا الكلام وتمسك بغيه الخايب.

أما أبوه مهنا فإنه تكدر جداً لما سمع الدعوى وقال لابنه: يا ناصر إنك تريد أن تكسر عمدان بيت الملحم؟ فالعمدان هي من الخشب، فَهُم يضعونها في وسط البيت لأجل ارتفاعه، وأكبر بيت يكون على أربعة عمدان. وإن كان البيت على عامودين ينقسم مناصفة، وإن كان على ثلاثة فينقسم مثالثة، وإن كان على أربعة ينقسم مرابعة. و وقع الخلاف بين ناصر وأبيه مهنا، /وحصل بينهما غليظ الكلام، وكثير من العربان وضعوا الحق بيد مهنا، وخافوا على أرواحهم وسحتهم أي رزقهم من غارات العربان عليهم، بسبب أفعال ناصر الرديئة. ٢٣/١

ثم ثاني يوم حضر بدوي وأخبر أن ذَرّاك وصل بكامل عربه وتوجه ناحية الشرق طالباً الجزيرة (أعني بين النهرين أي الفرات والدجلة)، وأن جميع العربان قد رجت قلوبها من ناصر

---

(١٤) «كاخيا» أو كُدُخدا أي الموظف الكبير أو المشير الأول.

(١٥) «عنازة»، يريد عنزة وهم من عرب الشمال، أما شمّر فهم من عرب الجنوب.

(١٦) «الجول».

(١٧) «غلابه».

ومرادهم تنكيس بيت ملحم نكاية بناصر. فبلغ الخبر العجوز[18] مهنا فانحصر جداً وأمسك بذقنه وقال: يا ناصر، أتريد أن تُهان هذه الشيبة عند آخرتها؟ غداً يذهب العربان جميعهم ويلتحمون[19] مع الدريعي بن شعلان، ويُحْضِرونه إلى هذه الديرة ويملكونه إياها، غصباً عنا وعن العثماني، فإذا حصل ذلك فأين يكون لنا مأوى، فنضطر أن نهجّ (أي ننهزم) إلى عند ابن مسعود (أعني الوهّابي)، حتى يحمينا من شر الدريعي وفعله المشهور. أما تذكر الله يا شين (أعني يا ردي).

فبعد ذلك جلست أنا والشيخ إبراهيم وأفهمته كامل ما حصل. فسكت حصة وقال: يا ولدي، اعلم أن هؤلاء الناس غير نافعين لصالحي لأن الوئام لا يوجد بينهم وبين العشائر، ومرادي أن أتقدم إلى ناحية بغداد، إلا أن هؤلاء الأقوام، بسبب العداوة وعدم المحبة بينهم وبين العربان، لا يستطيعون التقدم إلى المشرق، بل إن من صالحهم أن يبقوا دائماً في نواحي البلاد تحت نظر العثماني. ولذا علينا أن نقضي هذا الصيف معهم، ومتى حان الربيع ندبر أحوالنا. ثم قال لي: أريد منك أن تستخبر، بكل لباقة، من أحد العربان، عن الدريعي ومن يكون من الناس وما هي أحواله وما هي أطباعه، وإذا كانت إقامته دائماً في نواحي ديرة بغداد أم أنه يتقدم أكثر فأكثر إلى نواحي المشرق[20]، حيث لي بذلك مصلحة كبيرة. فابتدأت أبحث عن من يخبرني بمطلوبي ولا يكون من عرب مهنا، فوجدت واحداً من

٢/٢٣ البدو يسمى عبد الله الشاعر، من دير الشُّعّار/قرية على حافة نهر الفرات، واستخبرت منه عن الدريعي. وبما أنه شاعر فهو يعرف جميع العربان وأحوالهم، فأخبرني عن الدريعي وأحواله

١/٤٥ ومزاياه بالتفصيل، وصرنا نتسامر بخصوص الحال الواقع من ناصر[21]،/فقلتُ له: يا عبد الله (هذا اسمه)، إن الناس تلهج بذكر الدُّرَيْعي كثيراً، فمن هو هذا الرجل من الناس. قال: يا سيدي إن الدريعي رجل عظيم بين أبناء عصره، شجاع، عظيم بالحرب شديد بالقتال، جَرّبته المعارك، فارسٌ لا يوصف، له معارك شتى انتصر بها جميعاً مع العرب على الحضر، حتى أنه لا يحسب حساب الوهابي نفسه. ومن جملة أفعاله أنه كسر أرضي[22] وزير

(١٨) في الأصل: «الاختيار»، ويريد الصائغ أن يقول: الختيار أي الرجل المسن.

(١٩) أي يصبحون لحمة واحدة.

(٢٠) أي إلى جهات الإيران وحدود الهند.

(٢١) تتمة الكلام صفحة ١/٤٥ و٢/٤٥ و١/٤٦ من المخطوطة.

(٢٢) جيش.

بغداد الذي هو بقدر سلطان اسلامبول . قلتُ وكيف [كان] ذلك ؟ قال : اعلم يا سيدي أن الدريعي نهب ذات يوم قفل بغداد ، وكان آتياً من دمشق . فاغتاظ الوزير من ذلك ولكنه لم يُرِ على نفسه حتى يتم خيانة العثماني . فأرسل مكتوب أمان وراية مصحوبة بأقسام عظيمة إلى الدريعي أن يقوم وينزل إلى بغداد لأجل غرض ضروري وفيه خير له . فمن طبع العربان عدم الخيانة وقلبهم سليم ، فصدق [كلام الوزير] ونزل إلى بغداد بعشرة خيال فقط . فحين دخل على الوزير أمر بحبسه وتقييده بالجنزير هو والرجال الذين معه . وثاني يوم طلب منه ألفي جمل وخمسة آلاف رأس غنم وخمسين فرساً كُحَيْلة وعشرين هجيناً أو يقتله . فقال له الدريعي : على الرأس والعين[٢٣] أدفعُ جميع المطلوب ، ولكن إذا أَمَرْتَ ، فإن ابني يكون رهناً مكاني ، وأنا أخرج لأدبر المطلوب . فقبل الوزير ذلك وحالاً أرسل الدريعي وأحضر ابنه سحن[٢٤] ، وطلع هو من السجن . وفي مدة خمسة أيام ورد جميع ما ذكرناه زائداً غير ناقص . فأطلق الوزير سحناً . فعندما رأى الدريعي ابنه عنده نهب أول قفل اتى من حلب إلى بغداد ، وابتدأ يضرب وينهب ضيع وقرى بغداد ،/وزادعلى ذلك حتى قطع السابلة على بغداد فتضايق الوزير من ذلك وابتدأ يعد مهمات توجيه الأرضي[٢٥] حتى يضرب الدريعي . فَجَمَع العساكر والخيم والمدافع وكامل المهمات الواجبة ، وخرج من بغداد بأرضي [يضم] ثلاثين ألف مقاتل ، بكل نظام وتدبير ، وطقومه[٢٦] مثل أرضي همايون[٢٧] . فحين بلغ ذلك إلى الدريعي تأخر عن بغداد نحو يومين وجمع عربانه وغير عشائر يقود عليهم[٢٨] فوصل الأرضي ونصب [خيامه] أمام أرضي الدريعي . وثاني يوم جرت حرب عظيمة وقتل جملة فرسان من الفريقين ، وثاني يوم كذلك وثالث يوم أيضاً ، فلم يكسب أحد بل كانا متساويين بالقوة . ورابع يوم انسحب الدريعي ليلاً مع كامل العربان والبيوت إلى قرب بغداد ليقطع الجَلْبَ عن الأرضي ، فظن الوزير أن الدريعي ولّى هارباً فسُرّ وقال لقد ذهب وكفانا خيره وشره ، لأن الوزير كان خائفاً من الكسرة . وأما الدريعي فإنه ركب تلك الليلة ذاتها ، واستصحب معه خمسة آلاف خيال من المجربين بالحرب والقتال ، ومشى بهم ليلاً وصبّح أرضي الوزير ، قبل بزوغ الفجر ، فقسم خيله

٢ / ٤٥

(٢٣) « قوي مناسب » .

(٢٤) كذا ، ولعله يريد صحن لأن من عادة الصائغ أن يبدل الصاد بالسين .

(٢٥) الجيش .

(٢٦) ألبسته النظامية .

(٢٧) أي جيش السلطان .

(٢٨) كذا ولعل الصائغ يريد أن الدريعي كان يقودهم .

خمسة طوابير، ودار بهم على أطراف الأرضي، وعمل إشارة، وهجم وهجمت الطوابير الخمسة بلحظة واحدة كأنهم الأسد الخاطف ودخلوا أرضي بغداد وابتدأ ضرب السيف والقتل. وكان عساكر العثماني أكثرهم نائمين ومعلقين أسلحتهم، فقاموا من نومهم مثل المجانين، وصاروا يقتلون بعضهم بعضاً، فانكسر الأرضي وصاح فيه غراب البين، فنظر الوزير إلى ذلك واضطرب[٢٩] وخاف جداً، فما وعى الناس إلا وقد ركب بطاق المسد، من غير بابوج، وانهزم ودخل بغداد، /وكذلك العساكر، منهم من قتل ومنهم من رمى روحه بالدجلة. وغنمت العربان جميع ما حوي الأرضي، من خيل وسلاح وعدة خيل وقومانية[٣٠] وذخائر ودراهم وملبوس وخيم ومدافع، وجميع ما كان بالأرضي من كلي وجزئي، شيء كبير القيمة. وقتل من العسكر عدد وافر. ودخل الوزير بغداد ولحقه من استطاع، وأغلق الأبواب، وظن أن العربان لاحقون به إلى داخل البلد، ودخل عليه الخوف والوهم[٣١]. و وقعت سطوة الدريعي في قلوب أهالي بغداد، حتى وصلت إلى الأطفال يخوفونهم بالدريعي لكي يناموا. وشاع خبر الدريعي بعد ذلك وكبر صيته عند العرب والحضر حتى وصل إلى الوهابي وإلى كامل البادية[٣٢] والمسكون[٣٣]. والآن لا يوجد بين العربان من هو أكبر منه. ومن جملة أطباعه أنه يحب الكبَر والمال، والمشي في الدروب الصعبة والوصول إلى المعالي. وهذه مزايا الدُّرَيْعي ابن شعلان. فحكيتُ جميع ذلك إلى الشيخ إبراهيم فسُرّ وقال: هذا هو الرجل الذي يتمّ مطلوبي[٣٤]. وفرح الشيخ إبراهيم وكان مسروراً مني جداً.

١ / ٤٦

وثاني يوم، دعاني ناصر وأملى علي كتابين، الواحد إلى صدد والآخر إلى القريتين، مضمونهما طلب الخوة منهم. وذلك لأن له كل سنة من صدد راتب قدره خمس مئة غرش وست مشالح، وكذلك له ألف غرش وست مشالح من القريتين. ومن كل ضيعة له خوة، وذلك من جميع قرى طبراق حلب وحماة وحمص ودمشق، كل قرية على قدر أهميتها. وهذه الخوة لا بدّ منها مثل الميري، وأكثرها يعطيها أهالي القرى المساكين إلى مهنا، ليرد عنهم

(٢٩) «وانعبط».
(٣٠) مؤونة.
(٣١) ذكر هذا الحادث عبد الله فيلبي في كتابه: تاريخ نجد، ص ١٢٣.
(٣٢) «الشول» أو «الجول» كما جاء في أماكن أخرى من المخطوطة.
(٣٣) أي المعمورة.
(٣٤) بقية الصفحة بياض.

غارات العرب ، خوفاً على طرشهم[٣٥] وحالهم . فوجدنا أن أهالي القرى مظلومون جداً ، لأن عليهم أن يرضوا خاطر العثماني والعرب ، وهم رعايا فقراء جداً ، وحَسَبْنا بالتقريب ما يصل إلى مهنا من الأموال . فيصله من القرى ، باسم الخوة ، نحو مئة كيس ، وله على حماة وحمص كل سنة كميات من الحنطة ، وله أيضاً الصرة التي تُعطى له من أجل الحج ، وتصله الهدايا من كامل أكابر البلاد والحكام فيرسلون إلي بالألبسة والأرز والدبس وغيرها من الأشياء التي لا يوجد عنده منها . ومع ذلك فهو دائماً مفلس وعليه دين ، على الرغم من أن لا مصروف عليه . فالحنطة تأتيه مجاناً والأرز كذلك ، كما ذكرنا . أما السمن فتعطيه العربان ، وعنده الغنم يذبح كل يوم منها ، وتأتيه الهدايا من العرب أيضاً وليس عليه علوفة[٣٦] لعسكر أو لخَدَم ، أما الألبسة فليس هناك غير القميص والعباية والكوفية والجزمة ، هذا بالنسبة إلى مهنا نفسه وأكابر قبيلته ، أما بقية الناس فلا شيء بأرجلهم على الإطلاق ، فالغني يزيد على الفقير بالجزمة فقط . ففكرنا بذلك وصرنا نسأل أنفسنا أين تذهب الأموال التي تصله ، واستخبرنا عن هذا الأمر ، فعلمنا أن أمواله تصرف على العربان فهو يكسوهم ويكسو خيلهم ويكرمهم . ومتى ما صار عنده قليل من المال يفرقه على الفداوية أعني الفرسان المشهورة بالحرب ، ومتى أتته حاجة جديدة لا يلبسها بل حالاً يعطيها للشخص الذي يكون أمامه . فهذا الذي جعله كبيراً بين العربان ، وهذه عادة العرب وعلى الأخص طائفة بيت الملحم./ولا شك أن جميع العربان غير راضية عنهم ، إلا أن كرمهم خلق لهم حزباً كبيراً واسماً شهيراً بين العشائر . والواقع أنهم وإن كانوا من بيت قديم ، فإن أفعال ناصر من شأنها أن تبعد الناس عنهم . ولكن كرمهم واسم بيتهم القديم جعلهم يثبتون .

١ / ٢٤

ثم رحلنا من تلك المنزلة إلى أخرى بقرب حمص يقال لها **الجُدَيْدَة** ، ماؤها نبع يجري على الأرض ، وهي تبعد ثلاث ساعات عن نهر العاصي الذي يقع غربيها . فنزل مهنا إلى حمص مع عشرة خيالة ، وبقي فيها يومين وحضر ومعه هدايا من حاكم حمص وأكابرها ، لأنهم يخشون منه على قوافلهم وأرزاقهم الشاردة والواردة . لأن من عادة العرب ، إذا لم يكونوا راضيين عن بلدة ، أن ينهبوا قوافلها . وبعد حضور مهنا بيومين . ركب ناصر بنحو خمس مئة خيال

(٣٥) ماشيتهم .

(٣٦) علوفة : مرتب شهري أو سنوي .

على قبيلة يقال لها عَبْدَ الله[٣٧]أميرها يسمى سطام الدُّغَيْمي[٣٨] . وكان المذكور في منزلة بقرب تدمر يقال لها أسَدَيْن (أعني النهدين) لأن بها تلتين، الواحدة إلى جانب الأخرى، بالحجم نفسه. وبعد ثلاثة أيام حضر ومعه نحو مائتي ناقة وغَنَم كسبها، وأخبر أن موقعة عظيمة حصلت بين الطرفين، وقتل من ربع ناصر ثلاثة أفراد ومن العَبْدَ الله نحو عشرة، وأتوا بثلاثة أفراس عظام، وأُخذ لهم فرس واحد، وهو فرس زامل ابن عم ناصر الذي ذكرناه سابقاً.

فضجّ العربان جميعهم من هذه الغارة، وتأكد لهم أن ناصراً يقصد خراب العرب، ويريد الشر معهم، لأنه أغار على عرب سطام من غير سبب ولا عداوة سالفة بينهم، ولكن يرغب في كسر شيمتهم حتى يسود عليهم. فاشتغلت الطروش (أعني المراسلات) بين العربان يخبرون بعضهم بعضاً، وانذروا الناس لكي يجتمعوا ويكونوا على حذر من الحِسَنَة، و وصلت مكاتباتهم إلى الدريعي وإلى عرب نجد وشمر، ونمت العداوة بينهم، وعزموا على الغارات على عرب الحسنة، أتباع مهنا، وشاع هذا الخبر في كامل ديرة عربستان، و وصل إلى أمير يقال له دُوخي بن سَمَيْر[٣٩]، ويقال لقبيلته وِلْد علي، يقيم في ديرة حوران فوق دمشق. فهذا الأمير يأخذ صُرّة[٤٠]من وزير الشام لأجل الحج، مثل مهنا تماماً، وبينه وبين بيت الملحم قرابة من جهة النساء، وهم أحباء من زمن قديم، فلما بلغته هذه الأمور اغتاظ جداً وخاف على بيت الملحم، ولم يتحمل ذلك، فركب حالاً ومعه نحو ثلاثين خيالاً/وأتى عندنا خصوصاً، فلقيه الناس بكل إحترام. ونزل من على ظهر جواده، وهو مسود الوجه عابس. فأمر مهنا بالقهوة فقال له: يا مهنا قهوتك مشروبة، فإني لم آتِ لأشرب القهوة بل لأقول لك أن بيتك وحمولة بيت ملحم سوف تتلاشى عن قريب، من أفعال ولدك هذا ناصر باشا، وذلك من نوع الاستهزاء. ثم قال: واعلموا أن كل العربان ضدكم ومرادهم أن ترد النقا عليكم، (رد النقا معناه اشهار الحرب)، لأن في اصطلاح العرب متى قلت مردود عليك النقا[٤١]، معناه خذ حذرك مني لأني أصبحت خصمك[٤٢]وأعلنت الحرب

٢ / ٢٤

(٣٧) «عبد له»؛ من عنزة، «تلفظ لفظة الجلالة برقة زائدة» (وصفي زكريا، عشائر الشام، II، ٣٩).

(٣٨) الدُّغَيْم، من السلقا، من عنزة.

(٣٩) «دوخي ابن سمير».

(٤٠) «صَرّ».

(٤١) هذا الاصطلاح لم يزل معمولاً به، (انظر: العزيزي، قاموس، ج ١ ــ ص ٣٤٤).

(٤٢) الصائغ يكتب: «أنا ضشمانك».

عليك . أما الجوخدار ، فكان سافر إلى حماة قبل يوم واحد فقط ليذهب بعد ذلك عند باشا دمشق . فتغيرت ألوان مهنا وقال لابنه ناصر : هل أعجبك هذا الشغل ؟ أتريد أن تبيد اسمنا ويكون خلاص بيت ملحم على زمانك ؟ فزعل ناصر وقال : ليفعل العربان ما يريدون ولا يقصّروا ، إن شاء الله أني سأحضر لهم عشرين ألف عسكري من البلاد . وذلك لأنه ما كان يشد ظهره فقط بباشا الشام ولكن أيضاً بدالي[٤٣]باش يقال له الملّا اسماعيل ، رجل كبير الشأن مقيم في حماة ، صوته يجمع دائماً ثلاثة إلى أربعة آلاف دالاتي[٤٤] .

فمن بعد جدال طويل وكلام كثير مع الدوخي ، لم ينتج عنهما فائدة ، بات تلك الليلة وثاني يوم قال : يا ناصر ، أنا ذاهب عند أهلي ، ولكني لا أكون ضدك ، بسبب حق الخبز والملح والقرابة والصحبة ، وكذلك لا أكون معك ، إذ لا يجوز ذلك ، لأن مشيئتك رديئة وقصدك تنكيس أبناء جنسك . ثم ركب وتوجه إلى ديرته حوران ، بكل حمق وغيظ .

أما مهنا فإنه خاف من هذا الكلام ، وثاني يوم رحل ونزل بقرب حماة ، وكان بينه وبين حماة ساعة ، وذلك بمشورة ناصر ليكون قريباً من البلاد ، فإذا احتاج إلى عساكر يطلبها من حاكم حماة ومن الملّا اسماعيل الذي ذكرناه سابقاً . أما العربان فإنه تم رأيهم على تنكيس راية بيت الملحم ، وارتبطوا مع بعضهم بعضاً ، وصار كل من رأى أحداً من غير قبيلته يقتله . وكانت الصيفية رديئة قضيناها بالخوف والجزع ولم يعد لنا رغبة في الذهاب عند قبائل أخرى ، لأننا أصبحنا معروفين من أتباع بيت الملحم ، فيصيبنا ضرر من العرب بسبب ذلك ،/والتزمنا أن نبقى دائماً مع قبيلة مهنا . ١/٢٥

وأما المذكور ، فغشيم جداً كما تقدم الشرح عن طباعه ، وبسبب غشمه ينقاد إلى ابنه ناصر في كل ما يريده . ومما يُحكى عن غشمه أن وزير الختم ، حين رجع من مصر بعد أن غادرها الفرنسيون ، مرّ على دمشق بجميع الجيش[٤٥]الهميوني[٤٦] ، فصار كبار البلدة و وجهاؤها وأعيانها يأتون للسلام عليه . وبطريق الإتفاق كان مهنا حينئذ بدمشق ، فتحسن

---

(٤٣) دالي باش أي رئيس الدلاتية .

(٤٤) الدلاتي (من التركية) : جندي من المشاة أو الفرسان يضع على رأسه القاوق أي قبعة مستطيلة أسطوانية الشكل .

(٤٥) في الأصل : أرضي .

(٤٦) الهمايوني أي السلطاني أو الملكي .

عنده أن يذهب ويسلم على الوزير، فدخل عليه وهو بطاق القميص الوسخ والمشلح الأسود وكوفية على رأسه وجزمة قديمة في رجله. فدخل على الوزير وسلم عليه على عادة البادية وقال: السلام عليك يا يوسف، يا وزير السلطان، عساك بخير ولعلك عدل، ثم جلس بجانب الوزير من غير إذن ولا دعوة. فاغتاظ الوزير منه واحمرت عيناه لأن هذا شيء يخالف المراسيم العثمانية، وعلى الخصوص أنه الصدر الأعظم، عائد من مصر منصوراً، ويرى نفسه أكبر من سلطان اسلامبول، فغضب وأمر القواصة[٤٧] أن يأخذوا مهنا ويقتلوه. فقبضوا عليه وطلعوا به إلى خارج الديوان. أما مهنا، فبسبب طرشته وعدم معرفته باللغة التركية ونظافة قلبه، وبالنظر أيضاً إلى عادات العرب أن يطعموا الضيف حال وصوله عندهم خوفاً من أن يكون جائعاً، فإنه ظن أن الوزير أمر له بالغداء. فحين أخذوه إلى وسط السرايا ليقتلوه، ترامى جميع الحاضرين، من الأعيان ومن الصيارفة اليهود الذين شاهدوا ما جرى، على أقدام الوزير وقالوا: يا سيدنا احذر عاقبة عملك، فهذا يقال له مهنا الفاضل أمير عنزة، هذا الذي يغفر[٤٨] الحج ويرد عنه غوايل العرب. ومن دون إذنه لا يمشي الحجاج. وفضلاً عن ذلك إن قتلته لا تستطيع بعدئذ أن تخرج من دمشق بسبب شر العربان. فبردت همة الوزير وأمر حالاً برده، فعادوا به أمام الوزير، فأجلسه إلى جانبه وأمر له بالقهوة فقال مهنا بباله: صحيح أن العثماني كلب بخيل، كأنه ندم على الغداء فاستعاض عنه بفنجان قهوة، لأن مهنا، على الرغم من كل هذه الضجة[٤٩] لم يفهم جلية الأمر. وبعد القهوة أمر الوزير له ببدلة/وحوائج من ملبوسه، فأحضروا له قنبازاً[٥٠] مقصباً عظيماً وشال كشمير وفروة سمّور، فألبسوه إياها. وأمر له الوزير بألف غرش فاحضروها حالاً. وشرب قهوة مرة ثانية. وبعد ذلك صاح مهنا على العبيد الذين كانوا معه، وكانوا ثلاثة، فحضروا أمام الوزير، فَشلح القنباز وأعطاه لواحد منهم، والشال للثاني والفروة للثالث. فتعجب الوزير منه وقال للترجمان: قل لمهنا كأنه ما قبل هديتي؟ قال مهنا: يا ترجمان قل لوزير السلطان أننا نحن العرب لا تغوينا الملابس الجميلة ولا نتكبر بالملبوس، أنا ابن ملحم وأبي الأمير فاضل، وإني معروف عند عشاير العربان سواء كنت لابساً هدوماً (يعني ثياباً) زينات أم شينات (أي جميلة أم زريّة)، مفهوم وكبير عليهم. فتعجب الوزير من كلامه وسُرّ منه بالرغم عنه. وله حكايات كثيرة مثل هذه.

٢/٢٥

(٤٧) يريد القوّاسة، والمفرد قوّاس وهو الحاجب أو البواب، بالمصطلح الحلبي.

(٤٨) يخفر أو يحفظ.

(٤٩) «الكركبة».

(٥٠) في الأصل: غنباز.

ثم نرجع إلى ما كنا بصدده : لم تزل العداوة والغارات على الحسنة ، قبيلة بيت ملحم ، حتى صارت كل العشائر خصومهم[٥١] . فقضينا كل الصيف معهم بكل عذاب وخوف و وجل ، من محل إلى محل ، حتى ابتدأت العربان تشرّق ودخل فصل الخريف . وأخيراً بقينا معهم ، وكنا بقرب حلب ونحن مرادنا التوجه نحو دمشق والدخول إلى حلب ، هذه رغبة الشيخ إبراهيم . وظللنا نترقب الفرصة لنجد من يسير بنا إلى دمشق فصعب الأمر لأننا لا نستطيع الذهاب وحدنا ، أما عرب مهنا فلا يسعهم أن يتطرفوا خوفاً من سائر القبائل ، واقتضى الأمر أن العرب أخذونا إلى ضيعة يقال لها السُّخْنَة ، شرقي حلب يومين ، تحوي على نحو مئة بيت من الجمالين ، يصنعون القلو للصابون يحملونه إلى حلب ويبيعونه أيضاً . بها حمام ماء سياخنة طبيعية ، ولهذا السبب سميت السخنة . وأما أهلها فخيرون كرماء ، يحبون الضيوف . فكانوا يتقاتلون علينا حتى يضيفونا عندهم ، كل واحد بدوره ، لأن ما بها شيء للبيع مما يخص الأكل والشرب ، نساؤها حسنات جداً ، وجميع لوازمها من حلب . فجلسنا بها نحو عشرين يوماً حتى توفر لنا أناس ، بكراء وافر ، أخذونا إلى تدمر ، فسلمنا على الشيخ رجب وحكينا له عما جرى لنا عند العربان ، واستقمنا عنده ستة عشر يوماً ، حتى توفق لنا من أخذنا إلى القريتين ، فدخلنا وسلمنا على الشيخ سليم وعلى الخوري موسى الذي كنا نازلين عنده وأبقينا رزقنا تحت يده . فسألنا الخوري/عن بضاعتنا وعن بيعنا ومكسبنا فقلنا له : بعنا ولله الحمد وربحنا ما لا كنا نتأمل ، والحقيقة أننا فقدنا الرأسمال والمكسب ، وجميع ثمن الرزق الذي كان معنا راح بخاشيش وهدايا وكراء وبراطيل وديون للعرب ، وظللنا جالسين بالقرية ثلاثين يوماً حتى توفق لنا أناس يأخذونا إلى ضيعة بعيدة عن القريتين ست عشرة ساعة ، يقال لها دير عطية ، على طريق دمشق[٥٢] . ولكنهم لم يعطونا دواب وخافوا من العرب أن يشلحونا ويأخذوها منا في الطريق . فاضطر الشيخ إبراهيم أن يشتري له كديشاً وركبت أنا على حمار ، وكان معنا أربعة أنفار ، بمئة غرش ، ليوصلنا إلى دَيْر عطية . وفي ذلك الوقت كان دخل فصل الشتاء العظيم . وبالقرب من دمشق[٥٢] يقع برد شديد لا يوصف . فخرجنا من القريتين وأبقينا رزقنا عند الخوري . وكان النهار بارداً ، مع هواء وثلج ورياح شمالية قاسية جداً . فمررنا في طريق يقال له بين الجبلين . وإذ نفذ علينا خيول العرب نحو عشرين خيالاً . ومن شدة البرد والخوف رمى الذين معنا بنادقهم من أياديهم ، فوصلت إلينا الخيل

١/٢٦

(٥١) «ضشمانهم».

(٥٢) في الأصل: الشام.

السوابق وشلحونا ، وشفقة بنا أبقوا لنا القميص والقنباز وأخذوا جميع ما معنا وذهبوا ، ولكنهم لم يأخذوا الحمار والكَديش . فاشتد علينا البردُ ، وعصفُ الريح القوي ، فازرقت أجسادنا واحمرت عيوننا وغابت حواسنا وقصرت السنتنا وجمدت دماؤنا وزاغ بصرنا ، وخصوصاً أنا أشرفت على الهلاك قبل الجميع . فرأى الشيخ إبراهيم حالي وأني عدمت كلياً ، فابتدأ يبكي ويشير بيده للذين معنا ليعملوا لي طريقة كي لا أموت . وصرنا جميعنا نتباكى ، ولا يفهم أحد من الآخر ، ويئسنا من الحياة وقطعنا أملنا منها بالكلية . ثم وقعتُ على الأرض مثل قطعة من الخشب وغبت تماماً عن الوجود . فصار الشيخ إبراهيم يلطم على رأسه ويبكي ويعيّط وكأنه مربوط اللسان فيقول فقط : أي ، أي ، أي . وكان معنا شاب من جملة الأربعة يقال له موسى بن وردة ، نصراني ، سرياني ، صاحب نخوة ومرؤة زائدة ، فركض وسحب سكيناً من على جنبه وأمسك بالكديش وأرماه على الأرض وشق بطنه من فوق إلى عند ذنبه وحملني بسرعة من الأرض و وضعني في بطن الكديش وابقى رأسي خارجاً ، وأنا لا أعي على شيء ولا أعلم ماذا فعلوا بي . فبعد نصف ساعة وعيت على حالي ودبت الروح/في جسدي ، فأخرجوني [٥٣] ٢/٢٦ وحملوني على الحمار وسرنا ، وبعد ساعتين وصلنا إلى الضيعة ونحن على آخر نفس . فدخلنا إلى بيت واحد بيطار نصراني يقال له حنا بيطار ، من النصارى الروم ، حيث كان معنا كتاب توصية له من الخوري موسى . فحين رآني في تلك الحال ، طمرني في كومة زبل ، وعمل النيران حولي ، وابتدأ يسقيني نبيذاً ، وكذلك عمل مع الشيخ إبراهيم حتى دفئنا وسكن روعنا . فأخرجنا وأحضر لنا طعاماً وأكلنا ودخّنا[٥٤] توتون ، وزال عنا كل مكروه ، ولكن يا له من يوم عظيم . ثم سافر رفقاؤنا في اليوم الثاني وتدينتُ من البيطار متي غرش وأعطيتهم أجرتهم مئة غرش ، وخمسين غرش بخشيشاً إلى الثلاثة ، وخمسين غرشاً بخشيشاً أيضاً إلى موسى ابن وردة لأنه هو الذي خلصني من الموت . فجلسنا في دير عطية أربعة أيام وتوجهنا إلى دمشق .

(٥٣) اعتباراً من هذه الصفحة يبتدئ الكراس الرابع من الكتاب كما فصله الصائغ ، إذ وَضَعَ رقم ٤ في أعلى الصفحة .

(٥٤) «وشربنا» .

[من دمشق إلى حوران]

كان دخولنا إلى دمشق الشام في ٢٣ كانون الأول سنة ١٨١٠ نهار السبت. فنزلنا في بيت الخواجه شاباصون الطبيب[١] الفرنساوي. وبعد بضعة أيام، تبين لنا أن إقامتنا في دمشق ستطول. فانتقلنا إلى دير اليسوعية، وكان خالياً لا يسكنه أحد. وأخذنا خادماً ليطبخ لنا من أهالي الشام، وصرنا ننتظر خلوص فصل الشتاء حتى نسافر عند العرب مرة ثانية. وأما بخصوص مدينة دمشق فعظيمة، منتزهاتها ومياهها كثيرة وبساتينها عظيمة ليس فيها من الأفرنج سوى الطبيب، ودير اسبنيولية، ودير كبوشيين. ودير اليسوعية خراب ما به أحد، إسلامها أردياء ونصاراها[٢] أنجس، وأحوالها معلومة فلا حاجة للشرح عنها.

وفي بعض الأيام إذ كنا ندور بالسوق، إذ بواحد بدوي يأتي صوبنا ويسلم علينا بكل معرفة ومحبة، فتعجبنا وقلنا له: مَنْ[٣] أنت يا وجه الخير. فقال سبحان الله كيف تنسوا أصحابكم بسرعة: أنا هلال الذي تخاويتُ معكم، وأكلت خبزكم وملحكم بالمعرة، ولي زمن وأنا أفتش عنكم، فأين كنتم خلال كل هذه الغيبة؟ فلزم أن نأخذه سراً وذهبنا إلى الدير، لأن الشيخ إبراهيم أمرني بذلك، حيث قال: هذا نحتاج إليه حتى أستخبر منه عن بعض

---

(١) «الحكيم».

(٢) «نصاريتها».

(٣) «مين».

الأمور الضرورية لنا . وحين صار بالدير أطعمناه وسقيناه ، فانبسط وطابت نفسه . فسألناه أين أهلك ؟ فقال : في حوران ، لأنني من عرب قبيلة يقال لها وِلْد علي . أميرنا يسمى دوخي ابن سمير (وهو الذي تقدم ذكره ، من أقرباء بيت مِلْحِم) . وفهمنا منه أن في ديرة حوران

١ / ٢٧ وبلاد الجليل أربع قبائل من العرب./اسماؤها: **ولد علي ، السِّرْحان ، بني صخر ، السَّرْديّة** . فهذه القبائل الأربع لا تشرق بالشتاء ، مثل عرب غير قبائل ، لنحو المشرق ، بل وصولها إلى نحو الزرقا والبلقا . ومنها من يصل إلى الأمونية ، بلاد اسماعيل ، قرب البحر الميت ، وترتد إلى حوران ، قبل تغريب العربان على بلاد سورية ، مع أول الربيع . [وقال] : إذا كنتم تشتهون أن آخذكم بأول الربيع عندهم ، كي تبيعوا شيئاً من رزقكم فيحصل لكم ربح . وأنا المسؤول عن كل شيء رديء يحصل لكم . فاعتمدنا على ذلك ، وتواعدنا أن نطلع معه في آذار لنبيع شيئاً من رزقنا لهذه القبائل . وقال لي الشيخ إبراهيم : إن مرادي أن أرى هذه القبائل ، ولو حصل خسارة(٤) وتعب . واعلم يا ولد أن مقصودي أن أدور على كامل قبائل العرب ، ولا تسألني لأي سبب ، فقلت : قوي مناسب ، الله يعطينا يد المعونة .

ثم استخبرنا من هلال عن أحوال العربان ، وأمور بيت ملحم ، ماذا يقول العرب عنهم . فأخبرنا بكل ما طلبنا منه . لأنه كان شيطاناً خبيراً بالأمور ، عارفاً جيداً [بأحوال العرب](٥) . فأخبرنا أن كل العربان ضد بيت ملحم ، وأن كبرتهم لن تطول من أفعال ناصر المهنا . فسأله الشيخ إبراهيم عن الدريعي فأخبره عن كل ما سأله ، وعن أحوال المذكور وأطباعه ومشيته وعقله . فسُرَّ الشيخ إبراهيم وقال لي : ياولدي أريد منك الوصول إليه ، واعمل كل ما تقدر عليه واستعمل كافة الوسائط لكي نصل إليه . فقلت له : يا سيدي أنت أخرجتني من حلب لأجل البيع والشراء ، والآن أراك(٦) تطلب مني أموراً صعبة التي لا تؤول إلى البيع والشراء . إن الوصول إلى الدريعي صعب على ما فهمت . فإن كان لأجل بيع بضاعتنا ، فإننا نبيعها لغير عربان ، ولا يلزم كل هذا التعب . فقال : ألم أشرط عليك أن تكون معي بطاعة عمياء ، من غير بحث ولا سؤال عما أريد . فانقهرتُ جداً من نفسي وقلت : ما هذه الوقعة مع هذا الرجل؟ الله يخلصنا منه على خير . ولكن قلت في بالي : « اصبر يا ولد

---

(٤) في الأصل : خصارة .

(٥) زيادة من المحقق ليستقيم المعنى .

(٦) « وهلق أشوفك » .

حتى ترى آخر الحكاية، طولُ البال جميل والعجلة غير مقبولة، لقد وُقِعْتَ[7]فاصبر على
٢٧/٢ مصيبتك/حتى الله يفرجها عليك.

فبعد ثمانية أيام سافر هلال من عندنا وأعطيناه بخشيشاً. وصار الوعد أن يأتي بأول الربيع ليأخذنا عندهم. ثم كتب الشيخ إبراهيم مكتوباً وأرسله إلى حلب مع ساع خصوصي. وإذ بعد عشرين يوماً حضر قفل حلب وأحضر لنا صرة دراهم، تحت يد شاباصون، داخلها خمسة آلاف غرش جميعها ربعيات. فقال: خذ من الدراهم[8]بقدر ما تريد واشترِ لنا بضاعة تصلح[9]للعرب، حتى نطلع نبيعها لأن حضور هلال بقي قريباً، حيث كانت مضت الشتوية. فاشتريت بضاعة بنحو ثلاثة آلاف غرش تصلح للعرب من جميع الوجوه[10]، وبقينا بانتظار هلال. ثم قلت للشيخ إبراهيم: يا سيدي هل يا ترى هل سنعود بشيء من أصل هذه الثلاثة آلاف ثمن هذا الرزق. فضحك وقال: إن معرفة كل أمير من أمراء العرب تسوى عندي ثلاثة آلاف غرش هذا مكسبي وربحي ورأسمالي[11]. فقلت: أما أنا فلا أرى أين ربحي. فإذا كان ربحك أنت عشرة العرب، على ما يظهر لي، ومعرفتك بهم، فما هو ربحي أنا من ذلك؟ قال: يكفيك تدبيري الذي سوف ترى ثمرته العظيمة إن شاء الله، وتربح جاهاً ومالاً[12]واسماً تفوق على كافة أبناء عصرك[13]. ولا أستطيع أن أصرّح لك بأكثر من ذلك فيكفي [ما قلته]، وإنك ستعرف رويداً رويداً جميع [الأمور]. ولكن أريد منك، قبل كل شيء، أن ترخي لحيتك[14]حتى تصبح مثل العرب، ولا تبقى بهيئة تختلف عنهم. والحقيقة أن جميعهم بلحى، ولا يمرون الموسى[15]على وجوههم بل إنهم على العهد القديم الذي كان قبل ظهور سيدنا المسيح. ومن عدم امرار الموسى على ذقونهم، ثلاثة أرباع العرب لحاهم كوساة، مثل سحن اليهود.

---

(٧) «صار وَوَقْعَة» (وقعت).
(٨) «مصريات».
(٩) «خَرْج العرب».
(١٠) «ووجه كل شيء».
(١١) «رسمالي».
(١٢) «وغرش».
(١٣) عسرك.
(١٤) «ذقنك».
(١٥) «موس».

فبعد قليل من الزمن إذ حضر هلال ومعه جمّالان وإثنان من البدو غيره، حتى يحملونا عندهم. فلزم أن أجد حالاً مكاناً للجمال وأدخلتُ العربَ الديرَ. فترحبنا بهم وعملنا لهم إكراماً زائداً وأخبرونا أن أهلهم، من قبيلة وِلْدْ علي، نازلون على ماء المزيريب(١٦) وأنهم بعيدون عن دمشق(١٧) نحو ثلاثة أيام. فبعد يومين دبرنا شغلنا وطلعنا من دمشق(١٧) في ١٥ آذار ١٨١١، وكان صار لنا سنة وثمانية وعشرون يوماً(١٨) منذ مغادرتنا حلب. فذهبنا مع العرب ونمنا ليلتين بالبرية من غير مأوى، وهو طريق معروف من دمشق إلى المزيريب(١٩). وفي اليوم الثالث وصلنا عند العرب، فوجدنا نزلاً عظمياً نحو ألف بيت بمواشي وخيل عظيمة، فنزلنا في بيت/**دوخي بن سمير**. فعمل لنا إكراماً زائداً وذبح لنا ذبيحة، حيث كان صار بيننا معرفة، من يوم الذي جاء إلى بيت مهنا، لأجل مادة ناصر. وهو رجل عظيم عاقل مدبر يومى إليه، محبوب من عربان قبيلته التي تعد نحو خمسة آلاف بيت، وعليهم رؤوساء من أقربائهم، وكذلك القبائل الثلاث الأخرى وهي بني صَخْـر والسَّرحان والسَّرْدِيَّة، فهم أحبابه ومعه في كل أمر يريده، وطمعهم قليل ليس مثل قبيلة مهنا، رزقهم كثير وخيلهم عظام مشهورة بالصيت(٢٠). ١/٢٨

وفي الليلة التي وصلنا فيها كنا نتحدث بسيرة الخيل وحسنها، فحكى لنا الأمير دوخي نكتة حدثت في قبيلته، وكان هو وقتئذ ولداً، فقال: إن واحداً من البدو يقال له جبل كان عنده فرس عظيمة جداً لها صيت زائع عند العرب والحضر: فسمع بها وزير الشام يقال له أسعد باشا من بيت العَظْم، فأرسل طلبها من صاحبها بثمنها. فما رضي ببيعها لأن فرس البدوي أغلى عنده من امرأته وأولاده(٢١). فأرسل هدده بالكلام فما صار فائدة. فعجز الوزير عن ذلك ومن بعد ما عمل كافة الوسائل ما حصل عليها، والدعوى صارت مسموعة عند كل الناس. واغتم الوزير جداً لأنه لا يستطيع أخذها قهراً، ولا يرضى البدوي أن يعطيها بثمنها بل أكثر. فجاء بدوي عند الوزير يقال له جُعَيْفَر وقال له: يا سيدي ماذا تعطيني إذا

---

(١٦) «المذاريب».

(١٧) «الشام».

(١٨) على الصحيح: سنة وخمسة وعشرون يوماً، لأن الصايغ غادر حلب بتاريخ ١٨ شباط ١٨١٠.

(١٩) «المذاريب».

(٢٠) «بالسيط».

(٢١) بالأصل: «فأرسل طلبها من صاحبها بحقها، فما عطاها لأن البدوي فراسه عنده أغلا من مرته وأولاده».

جئتك بالفرس؟ فقال أعطيك ملأ عليقها دراهم . وكان البدوي من عرب بني صخر . فراح ودخل عند عرب ولد علي، وصار يدور [بين المنازل] ويميزها إلى أن وصل إلى بيت جبل، صاحب الفرس المعروفة. فنظر وميز جيداً محل الفرس، وعرف أين يربطها صاحبها خلال كل ليلة. ثم ذهب واختبأ في مغارة قريبة إلى أن انتصف الليل، فجاء إلى بيت جبل، فوجد الفرس أمام البيت، وأرجلها مقيدة بالحديد ورأس الجنزير الغليظ، قد أدخله جبل إلى وسط بيته حيث دق سكة وفرش فوقها فراشه ونام هو وامرأته عليها. فخلع جُعَيْفَر ثيابه وبقي عارياً حسب عوائد العرب، لأن رجالهم ينامون عرايا تماماً. ودخل بكل ظرافة بين جبل وامرأته.

٢/٢٨ فتارة يتمطى ويلزّ بالمرأة، فتظن/أن زوجها في نومه [قد فعل ذلك] فتتزحزح له عن مكانها قليلاً، وتارة يلز بالرجل فيظن أنها امرأته فيتزحزح لها قليلاً. ولم يزل على هذه الحال حتى عمل فاصلاً بين المرأة والرجل بمقدار ذراع. وكان معه سكين حادة[٢٢] فقوّر الفراش وخلع السكة من الأرض و وضعها[٢٣] على الأرض، وقام بكل ظرافة من بينهما، وطلع وسحب الجنزير والسكة إلى خارج البيت، وخلّص قوائم الفرس، ولبس ثيابه، وأخذ رمح جبل، وركب على الفرس، ومدّ الرمح ولكز به جبلاً، ونبهه من نومه وقال: يا جبل، لا تقل ما أنذرتني، فها أنا جُعَيْفَر أخذت الفرس للوزير. فقام جبل مصروعاً مثل المجنون، ورمى الصوت في منازل ولد علي، فركبت الخيل حالاً وطارت خلفه. وكان بينها خيول عظام مشهورة، ولكن ليس لها شهرة هذه الفرس إنما تقربها. وركب جبل فرس أخيه وهي أيضاً عظيمة، مشهورة. وصارت المطاردة فيما بينهم، وظلوا على هذه الغارة ست ساعات. وكان أكثر الناس اقتراباً من جُعَيْفَر أربعة خيالة، وعلى الأخص جبل المذكور، فإنه اقترب كثيراً ولم يبق لامساكه إلا القليل وفي ذلك الوقت صاح جبل: يا جُعَيْفَر: «انستر لجامها واقرص أذنها اليمين واعطبها بالركب، تروح ولا تعود تلتحق». وهذا عند العرب يسمونه السرّ. فلكل فرس سرّ لقّنها أياه صاحبها وهو لا يقوله إلى أحد، وذلك فقط في حين الحاجة الماسة. ففعل جُعَيْفَر حسب ما قال له جبل، فطارت الفرس كأنها اللمع في كبد الجو، وفي قليل من الوقت غاب جُعَيْفَر عن الخيل. فقال الخيالة الأربعة رفقاء جبل: ما هذا العمل يا جبل؟ فقال: أفضل أن تؤخذ فرسي ولا يقال أنه وجد بين خيول ولد علي من يلحقها ويعيدها، فيكون ذلك عاراً عظيماً علي، وإنه أحب إلي أن تذهب مني ولا يطلع عليها هذا الصيت،

---

(٢٢) «حادقة».

(٢٣) «ونيمها».

فرجعوا. وأما جُعَيْفَر فإنه أخذها للوزير وحكى له ما فعل، فأنعم عليه وأعطاه على حسب ما وعده وأكثر.

وحكى لنا أيضاً أن بدوياً، من عرب نجد، كان عنده فرس عظيمة مشهورة أكثر من فرس جبل الذي ذكرناه آنفاً. فعشقها بدوي آخر من غير قبيلته وأرسل يشتريها، فلم يرضَ صاحبها ببيعها. وعمل الآخر كل جهده للحصول عليها فلم يصل إلى نتيجة. فاضطر أن يذهب بنفسه إلى نجد ودخل بين العرب وترقب الفرصة، وعلم أن صاحب الفرس سيمر من الطريق الفلاني. فراح صبغ حاله بالحشيش وربط رأسه وحزم رجْليه وعصب رقبته وعمل نفسه/مريضاًعدمان، مشرفاً على الموت وبحالة التلف. وراح ورمى نفسه على الطريق التي ٢٩/١ سيمر بها صاحب الفرس. وإذ حضر صاحب الفرس راكباً فرسه ومارّاً في الطريق، فرأى هذا الرجل المسكين مرتمياً، وهو يعن ويتلوى على جانبه ويستجير ويصيح. فأتى نحوه صاحب الفرس وسأله عن حاله فقال له: يا صاحب الخيرات، أنا رجل فقير وغريب، وبي أوجاع كثيرة ومشرف على الموت. ولي يومان بهذه الأرض المنقطعة من غير أكل وشرب، وقد عدمت بالكلية، ولم يبق لي قوة على القيام من هنا، فافعل معي خيراً والله يكافئك عني. فتوجع قلبه له، ونزل من على ظهر فرسه، وحمله بين يديه، و وضعه على ظهر الفرس، ومشى أمامه حتى يأخذه إلى بيته. فذلك الحين، وقت صار على ظهر الفرس، نهزها بالركب وطار بها. فصاح عليه صاحب الفرس: يا فلان قد فهمت ملعوبك، ولكني أرجو منك أن لا تحكي هذه الحكاية لأحد لكي لا تصير سبباً لقطع الخير، إذ لا يبقى في الدنيا من يشفق على عاجز يحمله، خوفاً من حيلة مثل هذه، فتكون سبباً لعدم فعل الخير في العالم. فأصغى البدوي إلى هذا الكلام وارتدّ على أعقابه، ونزل من على الفرس وسلمها له. فتصافحا كثيراً وصارا أخوين وذهبا سوية إلى بيت صاحب الفرس، حيث بقي البدوي في ضيافته ثلاثة أيام، ثم رجع إلى عند أهله.

فهتان الحكايتان اظهرتا لنا مروءة العرب ونخوتهم. وقد سُرّ الشيخ إبراهيم جداً تلك الليلة. وقال لي عند النوم: يا ولدي، إنني لا أريد شيئاً من هذه القبائل، سكان حوران وبلاد الجليل، إنما أود فقط أن تتمرن على عشرة العرب وتتقوى بلغتهم لأن كلامهم يختلف كثيراً عن كلام أهل المدن، والذي لم يعاشرهم لا يمكنه أن يفهم منهم شيئاً ما. فلا تتعب نفسك

كثيراً ، إنما مرادي فقط أن تعرفهم وتعرف عددهم وأسماء أمرائهم على وجه الاختصار[٢٤] ، لأن ليس لي حاجة معهم ، وسنقضي بعض الأيام عندهم وبعدها نتوجه عند الأمير الدريعي ، وهناك إن شاء الله سنبيع ونشتري ونجمع المكاسب التي أنا قاصدها ، فقلت : الله يربحنا .

وثاني يوم فتحنا رزقنا وبعنا جانباً منه ، وقدمنا الهدايا إلى دوخي وأكابر العربان ، واستقمنا عنده خمسة عشر يوماً. وبعدها/توجهنا مع هلال واثنين آخرين من البدو إلى قبيلة سِرْحان ، وكان مسيرنا عشر ساعات لجهة الغرب . ثم وصلنا إلى النزل وكان مقداره نحو مئتي بيت فقط . فنزلنا في بيت شيخهم الذي يقال له **إذْغَيْم بن علي** وهو زوج بنت دوخي ، وقبيلته تحوي على ألف ومئتي بيت ، ولكنهم كانوا مقسومين بسبب الأرض النازلين بها فليس فيها من الماء ما يكفيهم جميعاً . واسم المحل الذي كانوا به **المريحات** ، ماؤه نبع قليل ممتد من القبلة إلى الشمال . ٢٩/٢

والسبب أن اسمهم سرحان أنه كان لهم جد قديم ، وكان له بنت جميلة جداً ، فأرسل أمير من أمراء العرب الذين سبقوا بني فَزارة ــ لأن الظن أن أصلهم من بني فَزارة ، على أيام عنتر ــ وأحضره عنده لأنه كان يريد أن يتزوج ابنته . ولكن الشيخ ما رضي أن يعطيها ، وقام من المجلس من غير سلام وذهب . فسأل الأمير عنه فقالوا أنه سرح يعني راح . فانزعج خاطره منه وسماه السرحان . وبقي هذا الاسم منحصراً به ، وقَسَمَ العربان وتبعه قسم منهم ، وعُرِفوا بعرب السِّرحان إلى يومنا هذا .

وأما الشيخ إذْغَيْم فهو رجل حسن المنظر والسلوك ، إلا أنه طماع ، لأنه طمع بنا وأخذ مننا بمقدار مئتي غرش رزقاً من غير حق وأكلها علينا[٢٥] . وعلى ما فهمنا أنهم ليسوا رجال حرب مثل غيرهم من العربان ، وهم وجلون نوعاً ما . فاستقمنا عندهم ثمانية أيام ثم قمنا توجهنا إلى عند عرب **السَّرْدية** مع هلال و واحد من البدو من عرب السرحان . وكان مسيرنا بجد خلال ثماني عشرة ساعة ، مرحلة[٢٦] واحدة ، لجهة القبلة . فوصلنا نصف الليل عندهم إلى بيت شيخهم الذي يقال له فَدْغَم ابن آسْرَاج . وكانوا نازلين في أرض يقال لها **الصالحة** . وهي قبيلة تحوي على ألف وثمان مئة بيت . إلا أنهم كانوا نحو خمس مئة بيت فقط .

---

(٢٤) «الاقتصار» .

(٢٥) ابتلع ثمنها .

(٢٦) بالأصل : «قُناق» .

وأما باقي البيوت فكانت في غير أمكنة. وهذه هي عادتهم حتى لا يزاحم بعضهم بعضاً على الماء والمرعى، لأن البرية[27] واسعة، فتنقسم القبيلة إلى قسمين أو ثلاثة فيكون الماء والمرعى عندهم بكثرة. فأهدينا لشيخهم وكبرائهم بنحو خمس مئة غرش من ألبسة ودراهم، لأن الشيخ إبراهيم كان مسروراً كثيراً منهم إذ كانوا عشورين جداً/ويحبون الضيف. وفي ذات يوم ١ / ٣٠ إذ كنا ندور بين العربان، مررنا على بيت أرملة عجوز، فركضت وسحبتنا إلى بيتها وذبحت لنا رأس غنم، ولم يكن عندها غيره، واستجْدت[28] خبزاً من عند قصرانها[29] (يعني جيرانها) و وضعته أمامنا. فقلنا لها يا أمنا العجوز لأي سبب هذه الخسارة؟ قالت من زار إنساناً ولم يضفه فكأنه زار ميتاً. فسّر الشيخ إبراهيم من كلامها وقال لها: يا أمي العجوز: ما لكِ أحد؟ قالت: ما لي غير الله، لأني غريبة ولست من هذه القبيلة، أصلي من عرب بغداد من قبيلة يقال لها ( )[30] وأميرها اليوم ( )[31]. وكان خطفني زوجي منها وأحضرني إلى هذه الديرة. وكان لي أولاد ورجال، منهم مَنْ مات موتاً طبيعياً ومنهم من قتل في حرب الوهابي. لأن في ذلك الوقت كان الوهابي مقتدراً ويقاتل العرب الذين يرفضون طاعته ولا يعطونه الزكاة أي العُشْر[32].

ثم رجعنا إلى بيت فَدْغَم ابن آسْرَاج. وكانت إقامتنا عنده سبعة أيام. وتوجهنا إلى عرب قبيلة بني صخر مع هلال واثنين آخرين من عرب السردية. وكان سيرنا إلى الشمال للغرب، كل ذلك النهار إلى المساء. فوصلنا إلى نزل عرب صغير نحو عشرين بيتاً من عرب السردية. فبتنا تلك الليلة عندهم. وثاني يوم مشينا على طريقنا الأول، وقبل غياب الشمس وصلنا إلى النزل، وكان نحو ألف وخمس مئة بيت، في أرض عظيمة يقال لها الزّبْرابية. فدخلنا إلى بيت أميرهم الذي يقال له سلامة ابن نَجْر. وتحوي قبيلته على ألفين وسبع مئة بيت: رجال مشهورة، خيل عظام، أغنياء أكثر من السرحان والسردية. وأما أميرهم سلامة فرجل كريم ولكنه خفيف العقل. كل من جاء عنده يظن أنه جاسوس يريد أن يقطع رأسه. وكل

(٢٧) «الجول».

(٢٨) «وشَحَذَة».

(٢٩) القصير، بالمصطلح البدوي، هو مَنْ يلتجئ إلى عشيرة غير عشيرته ويعيش بين أهلها.

(٣٠) كلمة غير مقروءة، وكتب الصائغ في الهامش: خُنْكار.

(٣١) «الدريهي ابن شعلان»، ولكن الصائغ خط على هذا الاسم بالحبر الأسود.

(٣٢) «من العشرة واحد».

ليلة عند النوم يضع أناساً تحرسه كل الليل. له ولدان شباب و والدته وأخ أصغر منه. فتحدثنا معهم بخصوصه وما السبب حتى اعتراه هذا الداء. فأخبرونا أنه حين كان ولداً ابن عشر سنين وقع في جب ماء فاختل عقله. وكلما تقدم بالعمر تزداد علته وكذلك كلما زاره أحد [يعاوده هذا الوسواس]./ومن جديد الآن، منذ نحو شهرين، كلما جاء أحد عنده يظن أنه يريد أن يقطع رأسه، حتى يأخذه إلى ابن سعود، أعني الوهابي، مع أن قبيلتنا[٣٣] فقط محبوبة عند الوهابي، ونحن نعدّ من أتباعه[٣٤]، ونعطيه كل سنة عُشْر المال حتى نخلص من شره. ولا يوجد في قبائل حوران وبلاد الجليل وكامل عربستان[٣٥] من هو راض بالوهابي مثلنا ومحبوب عنده.

٣٠/٢

فابتدأنا نتكلم معه[٣٦] ونآنسه بالكلام، وهو يرد علينا بالصواب ويتكلم معنا بكل رقة وظرافة. وأمه من طائفة قديمة، وآباؤه وأجداده أمراء سابقاً يأخذون صرة من الحج، كل سنة عشرة أكياس. وله أخوة على قرى الشام وحوران إلى حد البحر الميت. ويأخذ هو أيضاً مثلما يأخذ دوخي ابن سمير أمير ولد علي.

ثم فتحنا بضائعنا وبعنا وتعرفنا بكثير منهم، واستقمنا عندهم أحد عشر يوماً. وكان العربان قد غرّبوا وامتلأت الأرض منهم، فاقتضى أن نذهب إلى دمشق[٣٧]، حتى نأخذ باقي حوائجنا ودراهمنا، لأن الذي كان معنا رجع منه شيء قليل جداً. وما بقي بددته النفقات والكراء والبخاشيش.

---

(٣٣) الضمير يعود إلى ولديّ الأمير وأخيه.
(٣٤) في الأصل: «ونحن محسوبين على كيسه».
(٣٥) «عرب بستان».
(٣٦) أي مع الأمير سلامة.
(٣٧) الشام.

[من دمشق إلى الجزيرة]

وطلبنا من هلال أن يذهب معنا إلى الشام ففعل. وثاني يوم من وصولنا، أتانا هلال بخبر سمعه من بعض العربان الذين التقى بهم في السوق، أن الدريعي تقرب نحو الغرب وهو الآن نازل بقرب زيتا[1] بالجزيرة، وأن ابن الدريعي وهو شاب يقال له سحن غزا عرب الحسنة، أي قبيلة مهنا، وكسب منها غنائم وافرة، وكان مهنا نازلاً بقرب القريتين. فسرّني هذا الخبر جداً لأنه الشيخ إبراهيم كان طلب مني الوصول عند الدريعي كما تقدم الشرح. فقلت يا هلال هل بوسعك أن تأخذنا عند الدريعي؟ فقال: يا سيدي كان ذلك غاية مرادي إلا أننا محسوبون نحن ومهنا بالحال الواحد، وأنا لا أعرف أحداً من الرُّوَلا[2] عرب الدريعي، وأخاف أن نلتقي بواحد منهم فينهبنا فتكون القضية خسارة لكم ويبقى العتب والعار عليّ. فقلت وكيف العمل؟ قال اصبر إلى غد حتى أدور بالشام، لأرى ما فيها من العرب المعروفين وكيف يدبرها الله. ولما كان الغد ذهب هلال ودار بالبلد ورجع قرب غياب الشمس إلى عندنا ومعه واحد من البدو. فسلّم علينا وترحبنا به. وسألنا هلالاً من هذا الرجل؟ فقال: ١ / ٣١ هذا الذي/يقدر أن يأخذكم عند الدريعي، لأنه ليس من عرب عنزة[3] بل من عرب بني

(١) «ذيتا» وأحياناً «ذيته».

(٢) كذا، والصواب الرُّوَلة أو الروالة (انظر: أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ج ٢، ص٢٣، دمشق، ١٩٤٧).

(٣) الرولة والحسنة هم أيضاً من العنزة.

سعيد، أميرهم يسمى **فحل الخليل**، وإقامتهم بالزور، شرقي حلب نحو ثلاثة أيام على ضفة[٤] الفرات، وهم عرب أيضاً ولكنهم لا يرحلون إلا مراحل صغيرة، ويشربون دائماً من ماء نهر الفرات. وهم اليوم صحبة مع الدريعي ومهنا وكل العربان، لا يعترض لهم أحد بالطريق ولا يأخذ منهم شيئاً. ففرحنا بذلك وسلمنا عليه مرة ثانية، حسب عوايد العرب، وسألناه عن اسمه فقال: **جاسم الحَمَد**. فقلنا له: أتقدر يا جاسم أن تأخدنا؟ قال: نعم، إن شاء الله آخذكم سالمين غانمين إلى بيت الدريعي ابن شعلان، ومعي ربع (يعني رفقاء) يحملونكم، لأن معنا جمالاً جلبنا عليها سمناً وبعناه بالشام. فاطمأن فكرنا بالأكثر إذ معهم جمال ودراهم ثمن السمن، وهم أصحاب تجارة. فربطنا معهم رباطاً متيناً، وتم الاعتماد على أن نتوجه بعد ثلاثة أيام على باب الله الكريم. فدبرنا أمورنا وأخذنا لوازمنا ونمنا في الليلة الثالثة عندهم بالخان، ومشينا مع الصبح. فركب كل واحد منا حماراً، وسرنا على الطريق الذي جئنا منه للشام، حيث أن مرادنا أن ندخل[٥] القريتين ونأخذ الرزق الذي تركناه أمانة عند الخوري موسى. فوصلنا بالسلامة إلى القريتين، وبكل راحة، من غير أن يحصل لنا كدر بنوع من الأنواع. وكنا فرحين جداً بهذا التوفيق. ولكن ثاني يوم من وصولنا جاءنا خبر أن الدريعي (رد النقا) على بني سعيد، أي عرب جاسم الذي نحن معه، ومعنى ذلك أنه أشهر الحرب عليهم وعاداهم. فحين بلغ هذا الخبر جاسماً ورفقاءه رجت قلوبهم، وخافوا جداً على أرواحهم وجمالهم ورزقهم، وحالاً قرّروا على الذهاب إلى صدد، ومن هناك إلى حمص وحلب ثم إلى الزور عند أهلهم، متبعين الطريق الذاهب من حلب لأنه أكثر أماناً لهم. فغمنا جداً هذا الخبر وصعب الأمر علينا ولم يبق لنا رأي نعتمد عليه. وسافر رفقاؤنا في اليوم الثاني، وبقينا نحن في القريتين، لا نعرف ماذا نفعل، إذ لا نجد لنا بابَ فرج يوصلنا إلى مطلوبنا. فاسودت الدنيا بعين الشيخ إبراهيم وفقد شهية الطعام. وداق علينا الحال جداً، وابتدأت الأخبار تتوارد علينا، وعلمنا منها أن العربان انقسمت إلى قسمين: أناس مع مهنا وأناس مع الدريعي، وابتدأت الغارات بينهم والمعارك والركض على بعضهم، وبلغنا أن الدريعي أغار على بني سعيد وأخذ منها/مكاسب جزيلة. ٢/٣١

ولم نزل جالسين في القرية أثني عشر يوماً حتى كادت تخرج أرواحنا من كدرنا وعدم

(٤) في المخطوطة: جفت.

(٥) «نفوت على القريتين».

توفيقنا . فقال لي الشيخ إبراهيم : يا ولدي ضاع عقلك ومعرفتك ، اما كنت وعدتني بالوصول عند الدريعي ؟ قلت : نعم ، ولكن ما كنت أتوقع ما حدث من الأمور . وأما من خصوص الذهاب عند الدريعي ، فيظهر لي أن هذا الأمر عسير جداً . فإن كنت ترغب في الوصول إليه لأجل البيع والشراء ، فإني لا أرى ضرورة ذلك . وأنا الذي أحب المتجر أكثر منك صغر في عيني . ولكن إذا كان مرادك الوصول إليه لأجل غايات أخرى ، فعرفني بها حتى أعمل حسابي . قال : اعلم يا ولدي أن سفري هذا مقسوم إلى عشر نقاط مرتبة من حين خروجي من باريس[٦] : أولاً الوصول من باريس[٦] إلى حلب بالسلامة ، ثانياً الحصول على إنسان موافق لأوامري ومطيع لأقوالي مثلك ، ثالثاً تعلمي اللغة العربية وتقويتي بها ، رابعاً الوصول إلى تدمر ، خامساً الدخول عند العرب بطريقة مناسبة تغطي أهدافي ، سادساً كشف أحوال العربان وأمورهم ومعرفة كبارهم واكتساب صحبتهم ، سابعاً رمي الاتحاد والوفق والمحبة بينهم حتى يكونوا جميعهم برأي وعمل وقول ويد واحدة ، ثامناً ابعادهم عن محبة العثماني وعشرته ، تاسعاً معرفة كافة الصحاري ومياهها ومنازلها والمسالك الملائمة إلى حدود الهند ، عاشراً الرجوع بالسلامة إلى بلاد سورية . فقلت : وبعده يا سيدي ، ماذا يكون الهدف من ذلك ؟ فقال : أنسيت الشروط ؟ لا تسألني عن شيء بل أنا من نفسي رويداً رويداً أعرفك إذا اقتضى الأمر ، فإلى الآن يكفي الذي قلته ، فدبر حالك واعلم أن لا بدّ من الوصول عند الدريعي ولو متنا .

فتلك الليلة حَرُمَ النومُ على عيني من شدة الأفكار ، وما كنت أستطيع أن أجد طريقة لتنفيذ ذلك . ومن بعد أن استعرضنا اراء كثيرة ، تحسن عندي أن أذهب منفرداً عند الدريعي ، وأدبر فيما بعد طريقة لاحضاره عندي ، لأن ذهابي منفرداً أسهل ، بسبب طلاقة لساني الطبيعية باللغة العربية ، فمن الممكن أن أدخل[٧] [البادية] من غير أن يعرفني أحد ، لأني أثناء ذلك كنت تقويت باللهجة البدوية ، وصرت أتكلم معهم كأني واحد منهم . وذلك من جرّاء دورتنا عند عرب حوران وبلاد الجليل ، وقد نفعتني تلك الرحلة الصغيرة جداً .

فقمت يوماً وتوجهت عند صاحبنا موسى بن ورده الذي كان طمرني في بطن الكديش ، وأعلمته مرادي سراً فقال : أمهلني اليوم وغداً أعطيك الجواب . /ولما كان الغد ١/٣٢

(٦) باريز .

(٧) « أفوت » .

توجهت عنده وقلت له : ماذا دبّرت يا عزيزي ؟ قال : الله يدبّر كل أمر عسير ، اعلم يا أخي أنه لا يوجد عندي إلا تدبير واحد ، وإن شاء الله يكون خيراً ، وهو أني أعرف رجلاً خبيراً قديراً من المسلمين ، وهو طوع إشارتي ، عارفاً بالطرق ، فهيماً بلغة العرب ، مجرباً بالقتال ، شجاعاً ، فرأيت أنه من المستحسن أن أكلمه ليأخذك إلى عند الدريعي ، فتذهبان سوية على الأقدام ، يسري بك ليلاً ويكْمن بالنهار ، فراح ودعاه إلى بيته ، وتوجهنا معه وتكلمنا بهذا الموضوع . فقال : قوي مناسب ، ولكن هل بوسعك المشي ؟ لأن الدريعي في زيتا[8] ، ومن هنا إلى منازله نحو عشرة أيام ، كيف تستطيع أن تمشي على مشيتي مدة عشرة أيام ؟ إنك ستموت في الدرب قبل وصولك ، وأخيراً سأطالب بك ؟ فقلت له : لا تخف ، لا يطالبك أحد بدمي ، ولستَ ملزوماً بي ، وإني قادر على المشي ، فما هي الأجرة التي تطلبها حتى أعطيكها . قال : خمس مئة غرش . ومن بعد جدال تم الاتفاق على مئتي غرش وعباءة ، وتدفع إليه هذه الأجرة متى سلم مكتوباً مني إلى موسى بأني وصلت عند الدريعي بالسلامة . وتم القول وأعطينا كلاماً إلى بعضنا . ثم قلت إلى موسى : يا أخي أخشى أن يكون هذا الرجل مثل حسيسون الكعب الذي كان يريد أن يرينا خابية الذهب . قال : لا ، فهذا رجل معروف ، وثانياً يجب ألا يكون معك شيء يطمع به ، فيجب أن تكون حوائجك زرية جداً ، وكل ما معك لا تبلغ قيمته عشرة غروش . وبهذه الطريقة لا يطمع بك أحد لا هو ولا غيره .

فعدت إلى البيت وأعلمت الشيخ إبراهيم بما فعلته . فخاف علي جداً من ذلك وقال : يا ولدي ، ما أظن أن هذا الرأي مناسب ، إذ يخشى عليك من الموت إما من التعب ، إما من الوحوش ، إما من أحد من العرب يقتلك . فقلت : إن الإنسان الذي معي شجاع قوي لا يبالي بعشرين رجل ولا يخاف من سطوة الأسد ، مشهور بالرجولية ، وثانياً إن العرب لا تقتل من لا يكون لهم عدواً ، بل تكتفي بالسلب ، وحوائجي زرية جداً . ولهذا السبب لا أخاف من شيء بعون الله ، وإن شاء الله إني أتم مطلوبك وأصل عند الدريعي سالماً وأرسل إليك مكتوباً وقت وصولي/عنده سالماً . فابتدأ يدعو لي ويبكي ويقول هذه الكلمات : الله ٣٢/٢ يعطيك يد المعونة ، الله يرافقك ، وسلطان الخيرات يحرسك ، ويعمي عنك عيون الظالمين ، ويسهل طريقك ويردك إلي سالماً ، ويتم مقصودي بوجودك ، ولا يحرمني من حياتك ، ولا يريني الردي فيك . ثم قيدنا بالدفتر كل ما يجب تقييده ، ورتبنا كل أمورنا حيث لا بدّ من فراقنا ،

---

(٨) منزل على الفرات ، لم يعد له وجود ، على ما أخبرني الأستاذ العزيزي .

وتواعدنا أن لا يغادر القريتين إلى أن أرسل وأحضره عندي على أهون طريقة ، وطال بنا الحديث إلى أن قارب منتصف الليل .

طلبنا النوم لنستريح من تعب الدنيا ، فأخذني عندئذ القلق وتراكمت علي الأفكار من مليح وقبيح حتى كاد يبزغ الفجر . فغفلت عندئذ ورأيت في منامي أني على رأس جبل عالٍ سليخ[٩] ، ليس به شجرة ولا عرق أخضر . وبأسفل الجبل يمر نهر عظيم يخطف الطير ، فارتعت من ذلك ونمت على رأس ذلك الجبل ، ورأيت شجرة تخرج من فمي وتعلو وتكبر حتى شقت أحناكي من الجانبين وصارت مثل القبة الخضراء . وابتدأت أشعر بألم في فمي وقلبي ، وأحسّ بأن شروشها تخرج من قلبي ، فصرت أئنّ وأصرخ في نومي من شدة الوهم والألم العظيم ، حتى فاق الشيخ إبراهيم ، فأسرع نحوي لأنه عرف أنني في اضغاث الأحلام ، فهزّني حالاً إلى أن صحوت ، فنهضت من نومي مثل المجنون أبكي من الرعب[١٠] ، وأشعر بألم بفمي وقلبي . فقصصت منامي على المذكور ، فتعجب من ذلك وقال : هذا حلم عظيم ، وله تفسير جيد. وأن حاجتنا بإذن الله منقضية ، ولكن بشيء من الخطر والتعب .

وفي اليوم الثاني ، أحضرت مصطفى الجَمّال ـــ وهذا هو اسم الشخص الذي سيرافقني ـــ وحضر معه موسى الوردي عند الشيخ إبراهيم ، وأتممنا الرباط وتم قرارنا على الذهاب مساءً مع غياب الشمس . فأحضر لي موسى ألبسة للطريق وهي ألبسة عظيمة : أولاً قميص خام وسخ/مقطع ، قنباز[١١] كان أصله قطنياً ما بقي منه غير الرسم ، كوفية عليها ١/٣٣ الدهن ويشتم منها رائحة الخمامة من بعيد ، خرقة في الأصل بيضاء ولكن مزفتة وسخة شنيعة لففتها على رأسي ، فروة غنم قديمة منهوشة من أطرافها ليس بها موضع سليم ، ولو بقدر كف وهي ملآنة قملاً ، بقدمي حذاء وزنه نحو رطل حلبي قديم ، زناري سير جلد يساوي درهمين[١٢] ، وقداحة ، وفي جيبي قليل من التوتون وقصبة طولها شبران من غير طقم . ثم كحلت عيوني بسواد الطنجرة ، وكانت لحيتي قد نمت وصار طولها نحو ثلاثة أصابع . وبهذه الهيئة طلعت أمام الشيخ إبراهيم . فصار يبكي ويضحك في آن واحد ، وقال : إن كنت

---

(٩) كذا والمعنى غير واضح ، ولعله يريد : قفر .

(١٠) « بكيان مرعوب » .

(١١) « غنباز » .

(١٢) « مصريتين » . ولا شك في أن الصايغ يميل إلى المبالغة على حسب عادته .

تذهب معي إلى باريس[١٣] بهذه الهيئة تستطيع أن تكسب مليون غرش من الناس، لكي يروك بهذا الزي.

ثم جلسنا وتناولنا طعام العشاء، و ودعنا بعضنا وشيعني إلى خارج القرية هو وموسى الوردي، ثم رجعا. ونحن توكلنا على الله ومشينا قبل غياب الشمس من القريتين ولم نزل نجد بالسير إلى نحو نصف الليل. فابتدأت أرجلي تؤلمني من الحذاء القديم لا سيما وأني كنت بغير جوارب، فَتَسَلَّخَتْ أقدامي منه وتنفَّطَتْ[١٤]. فقلت لرفيقي مصطفى أني سأخلع الحذاء من قدمي وأمشي حافياً. فقال: يا أخي هذا ليل وشوك وصوان، وإنك ستعطل رجليك إن خلعت الحذاء. فصرت أجر نفسي جراً، وتارة أخلع الحذاء وأحمله وأمشي قليلاً فتمتلئ أقدامي شوكاً، وتارة ألبسه فيشتد ألم أقدامي فأخلعه من جديد. ولم أزل بهذا العذاب الشديد إلى أن طلع الفجر. فأدخلني مصطفى إلى مغارة صغيرة، في كهف جبل، لنقيم فيها ذلك النهار ونعود إلى المشي مساءً. فدخلتُ المغارة ورميتُ نفسي على الأرض من شدة تعبي وألمي الشديد، وصرت أقطع من قنبازي وأمسح الأدمية من رجليّ وأربطها وأخرج المياه منها، لأنها صارت مثل العنب، وحالاً من غير أكل ولا شرب نمت مثل الميت إلى المساء، ورأيت منامات ٢/٣٣ شنيعة جداً من شدة تعبي وهمومي واحتراق دمي/فما شعرت إلا ومصطفى يوقظني ويقول: قم يا أخي قد غابت الشمس، فاجلس وكُلْ لقمة وصحي رأسك، لأننا سنتوكل على الله ونمشي. فارتاع[١٥] قلبي من هذا الكلام ونظرت إلى رجلي فرأيتها ورمت وزاد وجعها، فقلت له: يا حبيبي مصطفى دعنا نقضي هذا اليوم في هذه المغارة، لعل تشفى أقدامي وأستطيع المشي فقال: ألم أقل لك أنك لا تستطيع المشي وأنك تموت تعباً. وإني كنت عارفاً بما سيحدث لعلمي أولاً أنك رقيق الجسم وثانياً أنك لم تعتد على المشي كراجل. فنصحتك فلم تقبل نصيحتي. والآن إذا قضينا هذه الليلة هنا علينا أن نبقى أيضاً كل النهار إذ لا نستطيع السير في النهار فيطول بنا السفر ويخلص زادنا ونهفى من الجوع. والرأي عندي إما نرجع إلى القريتين، أو نتوكل على الله ونمشي رويداً رويداً إلى نحو نصف الليل، ونكمن في مكان. فسلمنا إرادتنا لله تعالى ومشينا، وأنا من غير شيء برجليّ، غير أني لففتهما بالشراطيط إلى أن ناصف الليل. ولم يبق لي طاقة. فقعدنا في سهل رمل وبه «قلابات صغار

(١٣) «باريز».

(١٤) «بقْبَقَتْ».

(١٥) تسكّر.

لا يدروا إنسان »[١٦] ، إلى أن طلع الضوء ، وإذا من بعيد ، على مسافة ربع ساعة ، جمالان يرعيان على رأس تل . فخاف مصطفى جداً وقال لي : لا شك أنها هجن غزاة غرباء ، وإن ظفروا بنا فإنهم ينهبوننا وننقطع في هذه الأرض ونموت من الجوع . فالرأي عندي أن نطمر أنفسنا بالرمل إلى أن يذهبوا . فقلت أفعل ما هو أنسب . فحالاً حفر الرمل وطمرني إلى رقبتي ، ثم ابتعد عني قليلاً وطمر أيضاً نفسه . والجمال كانت تغيب وتعود وتختفي وراء التل ، ثم تعود ترعى إلا أن عددها كان دائماً اثنين ، لا يزيد ولا ينقص ، إلى أن صار نصف النهار ، وإذا بمصطفى راكض إلى صوبي ويقول : قم ولا تخف فإنها ليست جمالاً ، ولكن نعامات أنثى وذكر ترعى . وذلك لأن طير النعام يكون بحجم الجمل الصغير ، ومن بعيد لا يمكن تمييزه عن الجمل فقمتُ/ونَفَّضْتُ حالي من الرمل ، وشممت الهواء ، وأكلت وشربت قليلاً من الماء من ٣٤/١ الجود التي معنا وحمدت الله .

ثم قال مصطفى : نَمْ كي تستريح ، وسنمشي هذه الليلة أكثر ، لأن دربنا أكثره رمل ، وهذا سهل على رجليك . فسررْت[١٧] من هذا الخبر ونمت إلى غياب الشمس ، ثم قمت وأكلت لقمة ومشينا وبعد مسيرنا بساعتين صرنا أمام تدمر من جهة القبلة ، ولم نزل نمشي إلى أن قارب الفجر ، وقد أضواني[١٨] التعب والسهر . فجلسنا بين تلين من الرمل كل النهار إلى المساء . ثم مشينا إلى أن لاح الفجر و وصلنا إلى نهر يقال له نهر الرحيبة ، وهو عظيم آتياً من القبلة وذاهباً إلى الشمال . فخلع مصطفى ثيابه وحملني وقطع بي إلى شرقي النهر . ثم عاد وأحضر ثيابه وقال امشي . قلت له : يا حبيبي قد طلع النهار . فقال : ولو طلع النهار ، إذ لا ينبغي أن نبقى إلى جانب النهر ، إذ يرد إليه الغزاة والعربان من جميع الأشكال فيروننا والأحسن أن نبعد نحو ساعة عن حافة النهر ونكمن ، لأن المكان الذي قطعناه يسمى المخاضة . فجلسنا تحت ظلال أشجار جميلة إلى ضحوة النهار ، وإذا بغزو كبير مكون من أربع زردات (أعني طوابير ، وهذا اصطلاح لغة العرب) ، من خيل وركب أي هجن ، نحو ألفين آتين من الشرق فقطعوا نهر الرحيبة وذهبوا نحو المغرب . فقال لي مصطفى : كيف تكون حالنا لو بقينا على المخاضة ، كنا قُتِلْنا لأن هؤلاء ليسوا من عربان ديرتنا ، بل من ربع الوهّابي ، أتوا ليغزوا على عربان هذه الديرة . وهؤلاء لا يرضون فقط بالنهب ولكنهم يقتلون

(١٦) كذا ، والله أعلم بمراده .

(١٧) « فانبسطتُ » .

(١٨) « ضامني » .

أيضاً ، فالله يساعد من يقع بين أيديهم ، فحمدت الله لأنه أعماهم عنا . ولم نزل جالسين إلى المساء ، ثم أكلنا ومشينا إلى الفجر . ثم كمنا في ردم رمل فقال لي مصطفى : بقي بيننا وبين الفرات نحو ثلاث ساعات فقط . فقلت له : بشّرك الله بالخير ، والليلة لا نمشي إلا بعد نصف الليل حتى نكون صباحاً على حافة نهر الفرات ، مقابل زيتا[١٩] لأن/داخل[٢٠] الفرات يُعَدّ من العراق ، ومن هناك نجد لنا أناساً يجتازون بنا الفرات ، إذ يوجد دائماً عرب يسكنون على الشاطئ ويأخذون أجرة من الناس لقطع الفرات . ولما كان نصف الليل مشينا ، وقبل طلوع الفجر وصلنا إلى الفرات الذي ينشرح الفؤاد والقلب من حسن رؤيته ، وأصبحت زيتا أمامنا على الضفة الثانية من الفرات . فجلسنا إلى أن بزغت الشمس وأكلنا جميع الزاد الذي بقي معنا ، لأننا كنا نأكل قليلاً خوفاً من أن يطول بنا الطريق بسبب بعض الموانع . وبعد طلوع الشمس ، بان لنا بعض بيوت العرب على شاطئ الفرات ، وعرفهم مصطفى لأنهم أصحاب ومساكين[٢١] من سكان شاطئ الفرات . فمشينا إلى عندهم فاستقبلونا وترحبوا بنا ، وحالاً أحضروا لنا أكلاً وشرباً . وبعد ذلك سألهم مصطفى عن الدريعي في أي مكان هو الآن ؟ فقالوا كان سابقاً أي من مدة عشرة أيام نازلاً على زيتا ثم رحل ، والآن على ما نعلم ، قد نزل في أرض يقال لها المحولة ، تبعد ثلاثة أيام ما بين زيتا والزور ، لأن الدريعي تصالح مع ربع فحل الخليل وصار على وداد مع عرب بني سعيد من بعد الخصومة[٢٢] ، وقد أطاع فحل وعربه للدريعي ، وصاروا يعطوه الخوة كل سنة أي مبلغاً من الحبوب والملبوس والدراهم ، لأن الدريعي لا يستطيع أحد أن يعاديه ، فهو رجل مرّ في الحرب ومدبر وجيوشه كثيرة . والآن أكثر العربان تميل إليه نكاية ببيت ملحم ، وعلى الأخص بناصر المهنا ، وعلى ما نظن أنه لا يقطع الشامية ، أي غربي الفرات لأنه غير معتاد على هذه البلاد[٢٣] ، ولكنه قد يضرب قبيلة مهنا ثم يرجع إلى ديرته ، أي بغداد والبصرة وتلك النواحي . ففرحت من هذا الخبر لأنه يدخل في مطاليب الشيخ إبراهيم ، وقد تقدم الشرح أن مراده أن يتعرف بالأمير الدريعي وأبعاده عن العثماني وحكام بر الشام .

٢/٣٤

---

(١٩) ويكتب الصايغ أيضاً : زيته .

(٢٠) ابتداء الكراس الخامس على حسب تقسيم الصايغ ، إذ وضع في أعلى الصفحة : نمرة ٥ .

(٢١) كذا والمعنى غير واضح ، فهل يريد فقراء الحال أو الأشخاص الذين يسكنون في تلك الناحية ؟ .

(٢٢) « الضشمنة » .

(٢٣) أصل قبائل عنزة من نجد ، وأول من دخل الشامية منها الفِدْعان والحِسَنَة . أما الرُّوَلّة فيظهر أن هجرتهم إلى بر الشام كانت في بداية القرن التاسع عشر .

ثم التفت بعض الحاضرين وسأل مصطفى ما هي حاجتكم عند الدريعي أنت وهذا الشاب[٢٤] الذي معك؟ فقال: لاغرض لي عند الدريعي إنما رفيقي له غرض.

١/٣٥ فسألوني: ما هو غرضك أيها الشاب عند الدريعي، فأجبت حالاً: يا سيدي، أنا رجل/من تجار حلب، ولي شريك في بغداد انكسر على مبلغ خمسين كيساً من رزقي. فاقتضى الأمر أن أسعى بالوصول عنده بكل سرعة عساني أتمكن من الحصول على شيء، ولكن لا يوجد اليوم قافلة من حلب إلى بغداد، وعليّ الانتظار أربعة أشهر، فيطول الأمر ولا أستطيع أن أحصل على شيء من أموالي. وبلغني أيضاً أن الأمير الدريعي هو كبير عربان الجزيرة، وهو الآن قريب من نواحي الزور، فتحسن عندي أن أصل عنده وأرجو منه أن يرسل معي إلى بغداد أحد أتباعه المعروفين بالأجرة، وهذا هو سبب تعبي وحضوري إلى هذه الأماكن. فقالوا جميعهم: حسناً فعلت والله لا يضيع لك حقاً. ورضي أيضاً مصطفى بهذا الكلام وقال: الآن فهمت سبب مجيئك والحق بيدك.

---

(٢٤) «الشب».

[الصايغ عند الدريعي]

وثاني يوم قمنا مشينا وأخذنا معنا واحداً من عرب بني سعيد ليدلنا على الدرب . فبعد مسير ثلاثة أيام ، عند المساء ، كشفنا على نزل الدريعي ، وكان نزلاً عظيماً نحو ألفي بيت شعر ، الطنب بالطنب (الطنب هو الحبل الذي يشدّ به البيت) ، ورأينا من بعيد من المواشي[1] والجمال ما يغطي عين الشمس ، ولم نرَ مثل ذلك عند غيره من العربان .

فتقدمت إلى بيت الدريعي ، وكان الوقت بعد غياب الشمس ، فدخلت وسلمت عليه ، فرحّب بنا وحالاً أمر بالعشاء . وبعد العشاء سألني من أين وإلى أين يا شاب ؟ قلت : يا سيدي من حلب إلى عند جنابك بغرض . فقال : حلت البركة بمجيئك[2] ، غرضك مقضي بعون الله ، ولكن عادة الضيف عندنا يقعد ثلاثة أيام وبعد ذلك يتكلم على غرضه ، قلت : السمع والطاعة . ثم نمنا وثاني يوم كتبت حالاً إلى الشيخ إبراهيم وإلى موسى الوردي ، وأعطيت المكاتيب إلى مصطفى وزودته بالدعاء وتوجه إلى القريتين ./ ٢/٣٥

وجلسنا مع الدريعي نتحدث ، وهو رجل ذو نخوة زائدة ، عمره نحو خمسين سنة ، لحيته كوساة بيضاء ، جسيم ، أسمر اللون ، جريء[3] . وجميع ما سمعنا عنه موجود به

(١) « طرش » .

(٢) « يا حلة ألف براكة » .

(٣) « جريع » .

حقيقة. وله ولدان ذكران، الواحد اسمه سحن[٤] وهو الأكبر، والثاني سعدون. وهما متزوجان ومقيمان عنده بالبيت. وبيته كبير وهو أكبر مرتين من بيت مهنا. وعربه أغنى نوعاً ما من غير عشائر، وعندهم الخيل العظام المشهورة ويقال لقبيلته **الرولا**[٥]، وهي تحوي على خمسة ألاف بيت. هذه هي عشيرته، إلا أنه كثيراً من العشائر تنقاد له، بعضها فرضاً[٦]، وبعضها خوفاً وبعضها محبة. فبان لي أنه رجل على قدر حاله في كل أمر، وأن جميع ما قيل عنه صحيح. ومن حسن التوفيق أنه لم يكن عنده كاتب، فصار كلما احتاج إلى ورقة أو مكتوب يسخرني به، إلى أن مضت الأيام الثلاثة، وهي مدة إكرام الضيف، فما قال لي شيئاً لأن عندهم من العيب أن يسألوا أحداً ما هو غرضك، لأن معنى ذلك أنهم يرغبون في أن يذهب من عندهم. ولكن العادة أن المسافر يبادر بالحديث[٧]. فبعد ثلاثة أيام قلت: يا أمير، انتهت مدة إكرام الضيف وحل وقت الذهاب. قال: يصعب علي فراقك، فقلت وأنا كذلك، واعلم أن سبب مجيئي عندك هو التوجه إلى بغداد بمسألة ضرورية، ولكن محبتك أنستني أشغالي وأود أن أكون في عشرتك دائماً. فسُرّ من هذا الكلام وقال: أنت مثل ولدي، والذي تشور علي به فإني سأعمل به، لأنه كان رأى مني في مدة هذه الأيام الثلاثة محبة وخدمة وآراء جيدة، لأني عملت كل جهدي خلال هذه الأيام كي أرضيه وأدخل في عقله وقد حصل مطلوبي. وكنت علمت أنه ينوي أن يركب هو بنفسه على قبيلة مهنا الفاضل، ويبيدها ويغنم أرزاقها وحده، أعني فقط الخيل والركب، ويبقي النساء والبيوت عند فحل الخليل أمير بني سعيد بالزور. وكان مرادي أن يقطع الفرات/ويدخل الشامية حتى أقربه رويداً رويداً من القريتين وأتمكن من احضار الشيخ إبراهيم عنده. فابتدأت أقول له: يا سيدي بما أنك جئت إلى هذه الديرة وعمرك ما زرتها[٨]، فدعنا نقطع للشامية ونقضي الغيض (أعني الصيف) في هذه الديرة، ومتى حل الخريف نشرّق على حسب عوايد عشائر عنزة[٩]. وبهذه الطريقة تكون أولاً قهرت عدوك وضايقته في الأرض،

١/٣٦

(٤) ولعل الصواب صحن، على حسب عادة الصايغ أن يبدل الصاد بالسين.

(٥) الرُّوَلة.

(٦) «البعض ملزومين التزام».

(٧) «يفتتح سيرة».

(٨) يقول الصايغ: «وعمرك ما خطرتها»، أي لم تصل إليها، وهو يريد المكان الذي كان الدريعي نازلاً به عندئذ.

(٩) «عنازة».

ثانياً يصير لك هدايا من القرى ومن عشاير العرب، ثالثاً يصير لك اسم بهذه الديرة، رابعاً تكون شاهدت براري بلاد سورية، وأخيراً ترتد إلى ديرتك كما كنت. فقال: هذا نعم الشور.

وثاني يوم نبّه على الرحيل، ورحلت العربان بعد طلوع الشمس كأنهم الغمام الأسود. ومشى ابنه سحن ومعه خمسون خيال يتقدمونهم[١٠]، وبعده هو وطابور خيل من نحو خمس مئة خيال، وأركبني فرساً من خيله كُحَيْلة[١١] عظيمة، وجرت الظُعُن[١٢] (أعني البيوت) خلفنا مثل الجراد، وأكثر النساء في الهوادج المجوخة، وعلى الخصوص بيت امرأته وكناته[١٣] في الهوادج، والعبدات حولهنّ، وكان على ذلول أحد العبيد خرجٌ ملآن خبزاً تمراً يفرّق منه على الجائعين من الناس، وكلما مشينا ثلاث ساعات يأمرنا بالنزول حيث يوجد منتزه، فيعملون القهوة ونستريح قليلاً[١٤] ثم نركب، إلى أن وصلنا إلى المحل المقصود وهو على حافة الفرات، منزلة يقال لها الحلاجة. فنصبوا البيوت بكل هدوء وركون، وبلحظة صارت بلدة وأشتعلت النيران، فبتنا تلك الليلة، وثاني يوم رحلنا ونزلنا بقرب الزور، وثالث يوم رحلنا وقبل الظهر وصلنا إلى الزور. فركب فحل الخليل، وبصحبته نحو ألف خيال، ولاقى الدريعي، وصار لعب خيل وانشراح[١٥]، ودعي الدريعي عنده، فرحنا تلك الليلة وتعشينا عند فحل. فكان الدريعي وأولاده وأخوه فجر، وهو أكبر منه بالعمر لا بالمعرفة والقدر، وجميع اقربائه، ومعنا نحو مائتي خيال، فتعشينا عنده وبعدها ركبنا ورحنا إلى البيوت.

---

(١٠) «قدام سلف».

(١١) «كُحَيْلان»؛ أي من سلالة الخيل الأصيلة.

(١٢) «الضعون».

(١٣) «كنانية».

(١٤) «شوية».

(١٥) «وكيفية».

[الحرب بين الرُّوَلَة والحِسَنَة]

٢/٣٦ ثم ثاني يوم قطعنا الفرات على ظهور الجمال/ودخلنا الشامية وتوجهنا غرباً ونزلنا بأرض يقال لها الطافح، من حكم حلب. وثاني يوم ورد علينا مكتوب من مهنا الفاضل وكان بهذه اللفظات:

بسم الله الرحمن الرحيم، من مهنا الفاضل إلى الدريعي ابن شعلان، بعد السلام ورحمة الله، سمعنا أنك قطعت الفرات ونزلت الطافح، ومرادك أن تتقدم إلى ديرتنا وديرة آبائنا وأجدادنا، فاستغربنا منك هذا الفعل وظَنَنْتَ أن كل لحوم الطيور تؤكل[1]، واعلم أن عندنا جيوشاً لا تعد ولا تحصى، و وراءنا حكاماً عثمانيين، و وزراء أقوياء لا يتعاندون، فالأنسب أنك ترحل أنت وعربانك وتكسب حالك ورجالك، وإن طمعتَ وعاندت لا تسأل عما يجري عليك من البلاء والندم، ونردك بحول الله مكسوراً على أثر القدم.

الامضاء: تحيات مهنا الفاضل ابن الملحم

فحين فرغت من قراءة المكتوب نظرت إلى وجه الدريعي، فرأيته عبس صورته واصفر لونه وصار النور في عيونه ظلاماً، ودخل في الغيظ والحمق. ثم قال: يا خطيب خذ قرطاساً واكتب جواباً لهذا الكلب بأصعب خطاب، وقل له لا بدّ من هدم بيته وتنكيس رايته وتطهير

(١) كذا والمعروف: أن كل الطيور لا تؤكل لحومها.

الأرض منه ومن ابنه الكلب ناصر، صبي الروم (أي العثمانيين في اصطلاح كلام عنزة). فأخذتُ ورقة وكتبت جواباً وكان بهذه اللفظات:

بسم الله الرحمن الرحيم وهو على كل شيء قدير. من الدريعي ابن شعلان إلى مهنا الفاضل. والتالي[٢]:/وصل مكتوبك وفهمنا تهديدك الفارغ الذي ليس هو عندنا بثقل حبة الخردل. واعلم يا مهنا أنه لا بدّ من هدم بيتك وتنكيس رايتك وتطهير الأرض منك ومن ابنك ناصر. أما قولك أن هذه ديرة أبيك وجدك فالقاضي يشرع بيننا ويظهر لمن هي، وهو السيف. ويكون معلوم عندك أن بعد تاريخه تحرّك ركابنا لقتالكم فكونوا على حذر، ترى مردود عليك النقا. تحيات الدريعي بن شعلان. **مكان الختم**.

٣٧/١

فأعطينا المكتوب إلى الطارش[٣] وسافر وابتدأ الدريعي بالمهمات وجمع عربانه. فقلت له: يا أمير، أريد أن أشور عليك، فإن أعجبك قولي افعل به وإلا فليس هناك من خسارة. قال: كيف يعني؟ قلت: أنت رجل غريب لستَ من هذه الديرة، ومهنا معروف وكل الحكام معه، والبلاد معه، والعربان قد اعتادوا عليه ويحفظون وده إكراماً لاسمهم السابق، وقد أكلوا من خيرهم شيئاً كثيراً. ولعلهم الآن، لسبب جرى من ناصر عليهم، رموا في حقه كلاماً، ولكن بعد حين، حين يرون أن بيت مهنا سيخرب، وأنه سينكسر، فإن العشائر تعود إليه ولا بدّ أن تكون معه، وكذلك الأمر بعساكر البلاد، فيكون هو والعثماني والعرب وتكون أنت وحدك، فيحصل لك ضرر وتذهب رجالك وتكسب صيت الكسرة[٤]./ فقال: هذا صحيح ولكن كيف الرأي يا خطيب. قلت: أنا الرأي عندي يا سيدي أن تكاتب جميع العشاير والقبائل الموجودة بهذه الديرة وتخبرهم أنك خصم[٥] بيت ملحم وتريد تنكيسهم وتطلب منهم اظهار حالهم للوجود. فمن كان معك يرحل وينزل بقربك ويظهر حاله، ومن كان ضدك يبتعد وينزل بقرب مهنا ويظهر حاله أنه خصمك، وبهذه الطريقة تكون عرفت صديقك من عدوك، وتكون كشفت ما تخفيه قلوب العربان، وعندئذ اعمل ميزانك واعرف شغلك. فسُرّ من هذا الشور ورآه غاية الصواب وقال: يا خطيب حقاً إنك صاحب تدبير. فقلت له حالاً: يا سيدي أنا غشيم و ولد لا أعرف شيئاً، ولكن إذا كنت

٣٧/٢

---

(٢) بياض بعد هذه الكلمة إلى نهاية صفحة ٣٦/٢.

(٣) الجَمّال.

(٤) بياض في الأصل نحو ربع صفحة، إلى نهاية ورقة ٣٧/١.

(٥) «ضشمان».

تريد العقل والتدبير الجيد والمعرفة والنظام، فلي معلم يقال له الشيخ إبراهيم القبرصي[٦]، موجود الآن بالقريتين، إن شاء الله ستسمح الظروف بإحضاره عندك فتراه وتحبه وتكون مسروراً جداً منه، لأنه رجل جليل ومعلم ماهر، ومهما كان بخاطرك من الأمور أعانك بمعرفته وتدبيره وأوصلك إلى مطلوبك. فكان مسروراً بهذا الخبر وقال لي: اركب حالاً مع مئة خيال لاحضاره، فقلت: لا، فمن الأولى أن يبقى الآن بالقريتين حتى نقترب نحن منه فنحضره. وكل هذا التدبير والشور الذي أشرت به عليه، إنما لأتمكن من فتح سيرة الشيخ إبراهيم، وقد حصل مرادي، فصرت مسروراً محظوظاً.

ثم قال الدريعي: خذ ورقة واكتب إلى دُوخي بن آسْمَيْر أمير وِلْد عَلي[٧]، وقل له نحن جئنا من بلادنا لأجل إعانتكم وتخليصكم من يد ناصر المهنا الذي يريد أن يدوسكم ويخرب نظامكم ويتكبر عليكم بوساطة الحكام، وأخيراً تأكلكم نار العثماني. فالآن رديتُ النقا على بيت ملحم وأريد أن أهاجمهم[٨]، وقصدي الآن أن تظهروا حالكم من غير محاباة إن كنتم معي أو علي، فمن/كان معي ينزل قريباً مني، ومن كان علي ينزل بالقرب من مهنا والسلام. ١/٣٨

وكتبتُ عشرة مكاتيب مثل هذا المكتوب نفسه، الأولى إلى دوخي بن آسْمَيْر أمير وِلْد علي، والثاني إلى سلامة شيخ بني صَخْر، والثالث إلى إذْغَيْم بن علي شيخ السِّرْحان، والرابع إلى باني بن إمْهَيْب شيخ بني خالد، والخامس إلى ذرّاك بن مِعْجِل شيخ الرفاشا، والسادس إلى سِلطان البرّاق[٩] شيخ العُمُور، والسابع إلى سلامة النعسان شيخ الفواعر، والثامن إلى علي بن نجد شيخ بوحَرْبا والتاسع إلى سعدون شيخ البقّارة[١٠]، والعاشر إلى قاسم الوَكْبان شيخ الشمْسي. فطوينا المكاتيب وأعطيناها للدريعي، فأعطى كل مكتوب إلى خيال مخصوص وأرسله إلى قبيلة.

وثاني يوم نحن رحلنا مع الدريعي وكان مسيرنا ثماني ساعات ونزلنا بأرض واسعة يقال لها الشومرية، لنستقبل العربان بها حيث أنها سهل عظيم واسع، وهي تبعد عن حماة ثلاثة أيام شرقي هذه المدينة. ولم يمضِ إلا قليل من الأيام حتى ابتدأت تتوارد علينا الجوابات. فالجميع

(٦) «القبرصلي».

(٧) وِلْد عَلي، أبناء محمد، من فروع الفِدْعان، من ضنا عُبَيْد.

(٨) «أن أركب عليهم».

(٩) «البراك».

(١٠) «البكارة».

أتوا ونزلوا بالقرب من الدريعي ، إلا دوخي بن آسْمَيْر فكان جوابه لا معك ولا مع مهنا فإني مشغول بحالي في ديرتي . وكذلك كان جواب سلامة شيخ بني صخر ، وأما جواب قاسم الوكبان شيخ قبيلة الشمسي ، فبسبب القرابة التي بينه وبين مهنا ، فإنه راح ونزل بالقرب منه . وأما القبائل السبع الأخرى فإنها نزلت على الدريعي ، وأتى مشايخها وكبارها وسلموا عليه ، فاستقبلهم بكل إكرام .

وكان الدريعي أرسل جواسيس[١١]إلى عند مهنا ، فحضروا وأخبرونا أنهم خائفين جداً ، وأن ناصراً نزل إلى حماة ليستنجد بالحكام ويحضر العسكر العثماني لأجل إعانته . وبعد أربعة أيام ركب الدريعي وركبت معه جميع القبائل وكان عددهم نحو ستة آلاف خيال جميعهم رمّاحة ، ويصحبهم نحو ألف ذلول مراديف (ذلول يعني جمل ، ومراديف يعني كل اثنين على جمل) ، فهؤلاء جميعهم بواردية بتفنك فتيل ،/لأن من عادة العربان أنها لا تحوي تفنك بقداحة ، أولاً لأن قليلاً من يأخذ لهم من هذا الصنف للبيع ، وثانياً بسبب غلائها ، ثالثاً لأنها إذا تعطلت[١٢]ليس عندهم عمال تصلحها ، رابعاً بسبب الخطر لأنهم دائماً في حلّ وترحال وتبقى التفنك مرمية بين حوائجهم وبأيدي النسوان والأولاد ، خامساً أنها أسرع للضرب ولا تخطئ ولا تخالف ، فلأجل هذه الأسباب إن جميع العربان بالبادية[١٣]بتفنك فتيل ، وتجدّل النساء لهم الفتيل من غزل القطن . ٣٨/٢

فمشى الدريعي بكامل ما ذكرنا لحرب مهنا الفاضل ، ونبه ، قبل توجهه ، أن بعد غد ترحل العربان على أثره ، يعني على الطريق الذي توجه منه ، وكان مراده أن تكون عربانه قريباً منه ، لأن من عادات العربان إذا كانت مع أهلها أن تقاتل بشدة ولا يكون قتالها فقط ركض خيل وجمال[١٤] ، وثانياً لأنه يتمكن من الديرة أكثر . فحسب الأوامر رحلنا ونزلنا بأرض يقال لها الطامة ، تبعد يومين عن حماة شرقاً . وكان بقي بيننا وبين مهنا يوم فقط ، لأنه كان نازلاً بأرض اسمها بَرّي ، تبعد يوماً عن حماة . ثم بعد خمسة أيام من ذهاب الدريعي ، وصلت البشائر أنه قد انتصر على مهنا ، وبعد قليل أقبل عربنا منصورين وقد غنموا طروشاً وجمالاً ونوقاً وخيلاً . فالذي لم يذهب إلى الحرب لسبب ما ، إما لأنه ليس عنده سلاح ، أو أنه

---

(١١) « دواسيس » .

(١٢) « إذا انعكسوا » .

(١٣) « بالشول » .

(١٤) « جرد خيل وركب » .

مريض أو لسبب مَنَعَهُ ، فكل واحد ركض وطلب العَرْضَة من الذين غنموا فأعطوهم إما جملاً إما غنماً إما قطعة سلاح أو ملبوس . فهذه عادة عند العرب ، فالذي لم يستطع الذهاب لسبب ظاهر يعرض للذين كسبوا أعني يعارضهم بالدرب قبل وصولهم للبيوت ويقول لهم : العَرْضَة يا خيرين ، فعليهم أن يعطوه شيئاً مما غنموه ، وهذه هي العادة المصطلح عليها في كامل البرية(١٥) . ثم حضر الدريعي ومن معه من العُقَداء ، أعني الرؤوساء ، فسلمنا عليهم فحكوا لنا ما جرى لهم مع قبيلة مهنا وعشائره . وهو أنه بعد توجههم بيومين/من طرفنا ٣٩/١ وصل إلى نزل مهنا ، ورمى عَرَبُ مهنا الصوت(١٦) على بعضهم وابتدأت الحرب بكل حرارة . وكان مع مهنا عساكر من العرب بمقدار الذي مع الدريعي بل أكثر ، فاشتعلت الحرب بينهم من الصباح إلى المساء . فانتصر الدريعي وكسب طرشاً وجمالاً وخيلاً ، حتى أن ابن الدريعي سحن كسب من الجملة فرس ابن مهنا فارس . وأما ناصر فإنه لم يكن موجوداً بالوقعة بل كان في حماة . ثم انكسر مهنا وهجّ بعربانه ومن معه من غير عشائر بكامل البيوت ، وقطعوا غربي عاصي حماة . وكثير من عرب مهنا دخلوا حماة وحكوا لناصر [ما حدث] . و وقع خوف الدريعي في قلوب أهل حماة والحكام ، وضج الخبر في كامل البلاد . ونزل مهنا بنفسه إلى حماة وحكى للحكام صورة الواقعة واستنجدهم طالباً منهم العساكر حتى يضرب الدريعي . وقُتِلَ من عرب الدريعي اثنان وعشرون فرداً(١٧) ، أما من عرب مهنا فإنه قُتِلَ أكثر .

وأما المذكور ، فبعد حضوره رحل وتقدم إلى قرب مدينة حمص بكامل عربانه . فبعد خمسة أيام إذ رعيان عرب الدريعي يركضون ويقولون : أتتنا الروم(١٨) ، وناصر المهنا معهم وعربه وأخذوا الطريق . فصارت الضجة بين عربنا وصاحوا : الخيل يا أرباب الخيل . وفي لحظة ركبت الخيل وطلبت [الحرب] في كتف ناصر وعربه والعساكر العثمانية . وفي قليل من الوقت لحقوهم وانتشرت الحرب بينهم حتى عقد الغبار إلى الجو وصارت موقعة أكبر من الموقعة الأولى . فدخل الليل وأظلم وما عاد يعرف العدو(١٩) من الصاحب . فاقتضى الإنفصال ،

(١٥) « الشول » .

(١٦) « السوط » .

(١٧) « واحد » .

(١٨) الأتراك .

(١٩) « الضشمان » .

وراح قسم من طرش الدريعي وعربه، لأنه حين دخل الليل، انهزم عرب مهنا بقسم من الطرش ولم يرهم أحد. وقتل عدد من العسكر العثماني وغنم عرب الدريعي سلاحاً وخيلاً وحوائج حتى قلابق[٢٠] الدالاتية. وقتل من عرب الدريعي اثنا عشر فرداً فقط، الواحد منهم ابن أخت الدريعي وهو شاب عظيم، تحصرت عليه كل العرب وبكت، /وزرع قتل هذا ٢/٣٩ الشاب عداوة في قلوب العربان، وبنوع خاص في قلب الدريعي لمهنا، واستقام سحن ثلاثة أيام في بيته[٢١] ولا يأكل من جراء قتل هذا الشاب الذي فقد، وحلف أن لا بد أن يقتل ناصراً، أولاً ليأخذ ثأره منه، وثانياً لأجل طفي النيران التي اشتعلت بين العربان.

ثم بلغنا خبر أن ناصراً وأباه ذهبا لدمشق ليشكيا حالهما إلى الوزير، ويحضرا العساكر لطرد الدريعي من الديرة. فاضطر الباشا أن يكتب المكاتيب إلى قبائل حوران وبلاد الجليل، وألزمهم أن يكونوا في إعانة مهنا وطاعته ومساعدته على الدريعي، فبعض القبائل دخلت في طاعة المهنا لا خوفاً من الباشا ولكن محبة ببيت ملحم، وبعضها عملت عكس ذلك والتحمت مع الدريعي نكاية بالباشا. وانقسمت العربان إلى قسمين، وكل يوم تقع غارة وحروب حتى عجزت الحكام عن تلك الفتنة، وأتت القبائل من البرية فمنها من كان مع الدريعي ومنها من كان مع مهنا، واشتعلت النار وانتشرت في برية عربستان[٢٢] حتى انقطعت السابلة وامتنعت القوافل عن السفر.

ثم رحلنا ونزلنا في مكان يقال له القمقوم يبعد يومين عن القريتين. وهناك ركب سحن ثاني يوم وغزا قبيلة مهنا. فبعد ذهابه بيومين حضر عندنا غزو كبير من عرب مهنا، وكان عقيدهم أي صاري عسكرهم فارس بن مهنا، وغنموا من عندنا مئتين وعشرين جملاً. ولم يلحقهم أحد لأن الطرش كان يرعى بعيداً عن البيوت نحو ساعتين حسب العادة، وكانت الخيل أكثرها مع سحن. وحدث بعد يومين أن عاد سحن وهو كسبان من عرب مهنا مئتين وعشرين جملاً، الشيء الذي يكاد لا يصدق أن يكون الكسب نفسه لا أكثر ولا أقل. وحكى لنا سحن أن ما طلبهم أحد لأن الخيالة كانت مع ناصر. النتيجة كما صار فيهم صار

---

(٢٠) قلابق، مفردها قَلْبَق: «عَمْرَة تقوم مقام الطربوش، تتخذ من جلود صغار الخرفان، وكانت هذه العَمْرَة في الأصل من الفراء» (العزيزي، قاموس، ج٣/ص ١٠١).

(٢١) «محصوراً».

(٢٢) «عرب بستان».

١/٤٠ فينا حتى بالوقت نفسه. فنقل هذا الأمر عنا وعنهم حتى صار سيرة بين العربان، /لأنه من الصدف التي يُحكى بها.

ثم أن ناصراً غزا ذات يوم قبيلة تابعة للدريعي يقال لها بني خالد. وكان معه نحو خمس مئة خيال من العرب ومئتي خيال من الدالاتية أتى بهم من حماة، فضرب بني خالد وكسب منهم، ومن جملة ذلك ثلاث نساء سلمهن إلى العسكر وبنتاً أعطاها إلى آغا الدالاتية، ورجعوا فدخلوا قرية بقرب حماة اسمها زين العابدين. فالآغا دخل البيت وحده وأخذ الفتاة وتصرف بها ونام معها بالغرفة(٢٣)، فحين هدي الليل قامت البنت وأخذت خنجر الآغا وشكته في قلبه فمات. وبالحال فتحت الباب وهربت من غير أن يراها أحد، ورجعت عند أهلها وأخبرتهم بالذي جرى. فسارت أخبار ناصر الشنيعة بين العربان وضجوا منها، وامتلأت قلوبهم من العداوة له، لأن العرب من طبعهم [تكريم] الحريم والناموس، فاغتاظوا جداً من ناصر لأنه سلّم الحريم إلى العسكر، وقرّ رأيهم إما أن يموتوا جميعهم، وإما أن يقتلوا ناصراً ويشربوا دمه.

فذلك اليوم حضر أشخاص من قرى حمص وأخبروا أن ناصراً توجه إلى ضيعة يقال لها النَبْك، في طريق دمشق، وهو يريد الذهاب إلى صَدَد، لأجل أن يأخذ من أهالي صدد الخوة التي رتبها عليها سنوياً، وأن ليس معه إلا نحو مئة خيال من العرب. فحين بلغ ذلك الخبر سحناً أخذ حالاً نحو مئة خيال وتوجه بهم إلى الدرب الذي سيمر به ناصر في طريقه إلى صدد، وكمن بهم في كمين وراء جبل بالقرب من مهين وحوارين، الضيعتين اللتين كنا ذكرناهما سابقاً بين صدد والقريتين. وبعد أن كمن يوماً واحداً فقط وإذا بناصر وخيالته مقبلون، فنفذ عليهم مثل الأسد الخاطف و وقعت الحرب بينهم، فانكسرت خيل ناصر، فنزل ناصر بنفسه للميدان ونزل سحن أمامه واشتدّ الحرب والقتال بينهما فقط نحو ساعتين، وهما بين أخذ ورد، وأخيراً تمكن سحن من ناصر وضربه بالرمح فمرق من الخاصر إلى الخاصر، فوقع ناصر من على ظهر جواده وهربت خيله، فالذي تمكن من الهرب خلص، والذي لحقوا به على فرسه وسلّم فاز بدمه لأن هذه العادة عندهم الذي ينزل عن فرسه ٢/٤٠ ويسلمها/لمن لحق به لا يُقْتَل. وأما سحن فإنه نزل حالاً من على فرسه وأمسك ناصراً وقطعه

(٢٣) «بالأوضة».

قطعاً صغيرة وأرسل من جاء بقفة من ضيعة حوارين و وضع ناصراً بها إرباً إرباً[٢٤]، وخيّط القفة وأمسك بواحد من عرب ناصر وقطع انفه وحمّله القفة وأرسله إلى عند مهنا وقال له: رح واحلِكْ كما رأيت[٢٥].

ورجع سحن وبشر العربان بما جرى، فضج خبر ناصر بين العربان وفي المدن، واستنجد مهنا بقبائل أن تعينه على الدريعي، من قبائل شمّر أعني سَمَرْقَنْد[٢٦]، ومن عربان نجد، حتى اتصل خبر ناصر بالوهابي في بلاد الحجاز، فحضرت قبائل غريبة من البادية[٢٧] إلى قرب الديرة الشامية وعملوا رباطاً مع مهنا على السنة القادمة أنهم يحضرون السنة القادمة ويضربون الدريعي، [ورجعت القبائل][٢٨] لأن الوقت فات، وقرب الخريف ولم يبق وقت لمثل هذه الأمور، حيث قرب وقت تشريق العرب على حسب عوائدهم.

(٢٤) «شقف شقف».

(٢٥) «كما شفت أحكي».

(٢٦) أين نجد من سمرقند؟.

(٢٧) «الشول».

(٢٨) المعنى واضح إلا أن الكلمات غير مقروؤة لأنها مخيطة في جلد المخطوطة.

لاسكاريس في مخيم الدريعي

وفي أثناء هذه المدة كنا قربنا من القريتين ، وبقي بيننا وبينها ساعتان فقط . فقلت للدريعي : يا سيدي إن كنتَ تأمر حتى أركب أنا وبعض الخيالة ونذهب من طرفك إلى القريتين لاحضار معلمي الشيخ إبراهيم . فسُرّ من ذلك وحالاً أمر لي بعشرين خيالاً ، فركبنا ودخلنا القريتين وصافحنا بعضنا وسلمنا على الأحباب ، وبقينا ذلك النهار بالقريتين : الخيالة في بيت الشيخ سليم ونحن في بيت الخوري موسى ، وبقينا كل الليل أيضاً ، وما كنا نستطيع أن نذهب [للرقاد] لأننا لم نرَ بعضنا من زمن . وفي الليل حكيت للشيخ إبراهيم جميع ما جرى ، وقيدنا جميع أوراق اليوميات بالدفتر ، ورتبنا شغلنا ، وطلع الصبح من غير نوم كلياً . وثاني يوم فطرنا و ودعنا المحبين وأخذنا الشيخ إبراهيم وتوجهنا بالسلامة ، فوصلنا إلى عند الدريعي .

١/٤١ فحالاً ركض/وصافحه وسلّم عليه سلاماً كبيراً وترحّب به ، وحالاً أمر بذبح جمل من العظام ، فذبحوا إكراماً للشيخ إبراهيم وأكلنا منه تلك الليلة وكان أول مرة نأكل لحم جمل[1] ، وقد وجدناه طيباً وغير رديء يشبه طعمه لحم الغزال وله مزة[2] [تمييزه] نوعاً عن لحم الغنم . ولكنه مدهن ولحمه أحمر جميل ، لأن الجمال التي يذبحونها وحدها ليست من جمال التحميل ، ويخصصون لها دائماً راعياً ، وهي ترعى من غير أن يوضع على ظهرها شيء ، مثل

---

(١) نسي الصائغ أنه أكل لحم جمل عند مهنا الفاضل ، (انظر اعلاه ص ٦٩).

(٢) طعم خاص.

قطيع الغنم ، والتي للأكل تكون بيضاء مثل الثلج ، وحين تتقدم بالعمر يجعلونها للتحميل . وأما النوق فإنهم يرغبون فيها لأجل النسل[٣] والحليب ، لأنهم يشربون حليب النوق بكثرة ، ومن كثرته يسقونه أيضاً الخيل الأصايل ، كل ليلة شربة عند المساء ، حيث أنه يغذّي ويقوي عصب الخيل . ونحن في الأول ما صار لنا نفس نشربه ، وأخيراً جربنا وتبين لنا أنه طيب جداً وحلو ، وهو أكثر حلاوة من حليب الغنم والماعز ، ولكن لا يعطي سمناً كما يستخرج من حليب آخر .

ثم رحلنا ثاني يوم ونزلنا في أرض يقال لها **شِعْب اللوز** ، على نبع ماء القريتين ، وفي غير نبعه ، وهي أرض عظيمة بها مرعى ومياه كثيرة . فبعد يومين إذ بالرعيان يصيحون : يا أهل الخيل . وكان الطرش بعيداً نحو ساعتين عن البيوت ، فركبت الخيل وطلبته . وكان غزو كبير من عرب الوهابي نحو ألف خيال وألفي مردوف ، فوقعت حرب شديدة ودخل الليل . فانكسر الدريعي لأن ما كان معه غير نحو خمس مئة خيال فقط ، وربح العدو[٤] وراح بمكسبه .

فثاني يوم أخذني الشيخ إبراهيم وذهبنا وحدنا إلى نبع القريتين . فقال لي : إن هذا الرجل طبق مرادي ، ولكن لأجل غايتي يجب أن تكون جميع قبائل البادية[٥] وعشائرها في طاعته ، حتى إذا أراد أمراً من الأمور لا يعارضه أحد ، فيجب أن تعمل الطرائق والوسائل من جميع الأنواع ، بحرب كان أم بالمليح ، /بالتهديد أم باللسان الحلو للوصول إلى الغاية التي أريدها . أريد منك أن يكون هذا الرجل مسموع الكلام ومطاعاً من حد أبواب حلب إلى حدود الهند الشرقية[٦] ، ولا يكون هناك مانع ولا خصم[٧] . فقلت : يا سيدي هذا أمر صعب جداً ، لأن حال العربان معروف ، فهم جماعة أحرار في ذاتهم ، فلكل قبيلة شيخ أو أمير يحكمها ، ولم يستطع أحد في زمن من الأزمان أن يسيطر عليهم أو يجعلهم تحت حكم ، فأخاف إذا ابتدأنا بمثل هذه الأمور أن يحصل لنا ضرر . قال : من دون ذلك لا يمكن تتميم أغراضي . فقلت : معونة الله على كل أمر عسير .

٤١/٢

(٣) « الخلفة » .
(٤) « الضشمان » .
(٥) « الشول » .
(٦) « لحد حدود الهند الشرقي » ، كذا وهو يريد الغربي .
(٧) ضشمان .

فرجعنا إلى البيوت وأنا أفكر كيف سأجد طريقة حتى أقول ذلك للدريعي ، ومن أي باب يجب أن أدخل عليه . فافتكرتُ أن عندنا ألعاباً من نار الهوا ، مثل صوفة تشعلها فتطق ، ومكتوب تفتحه فيطق أيضاً ، وقنينة ملآنة نار هوا فوسفور ، ومن هذه الأشياء معنا بكثرة في آلة الزعبرة[8] . فقلت للشيخ إبراهيم : أريد منك الليلة أن تعمل لنا بعض الألعاب في نار الهوا . ولما كان المساء أخرجنا من صندوق الزعبرة بعض الأشياء من التي ذكرناها ، فتعجب العربان من ذلك لأنهم لم يروا بعمرهم مثل هذه الأشياء ، ومن طبعهم الغشم الطبيعي[9] ، حتى طارت عقولهم من رؤوسهم فصاروا يعتبروننا جداً ويكرموننا ونشعر أننا في نظرهم مثل الأولياء ونستطيع أن نفعل العجائب . وصاروا يتذاكرون ثاني يوم بذلك ، وشاع هذا الخبر بينهم حتى صارت العربان تأتي خصوصاً ليرونا . حتى أن الدريعي قال لي : يا عبد الله ما هذه الأمور العجيبة التي فعلها معلمك الليلة البارحة ؟ فقلت : يا سيدي إنك لم ترَ شيئاً من مهارته ، هذا معلم جليل ويقدر على أمور كثيرة أصعب من هذه ، واعلم أن هذا الرجل ، بوساطة معرفته وعلومه العميقة ، يستطيع أن يجعلك سلطاناً على كامل العرب ويملكك الدنيا . واعلم يا دريعي أن سعدك كبير ورزقك كثير وعلى وجهك فتوحات عظيمة . واعلم أن معلمي رأى ذلك من دلائل نجم أبو ذنب الذي ظهر بالشمال . (وذلك لأن قبل سنتين طلع نجم أبو ذنب من طرف الشمال) . فهذا نجمك وخاص بسعدك ، فإن عملت[10] بما يقوله لك بواسطتي[11] لا يصير أكبر منك/بين أبناء جنسك ، وتنال درجة عالية لم ينلها أحد من العرب قبلك . فانشرح من كلامي ودخل في عقله لأن من طبعه يحب التكبر والمكسب والتقدم ، كما هو طبيعي في كل إنسان ، وثبّتَ كلامي إذ قال : صدقت يا عبد الله فيما قلتَ لأني كنت رأيتُ مناماً من زمن [بهذا المعنى ، فرأيتُ] أن شرارة من نجم أبو ذنب قد سقطت على بيتي واحرقت جميع ما فيه ، وأنا امسكت الجمرة بيدي وما أحرقتني . وبالحال صاح على امرأته فشهدت بذلك ، لأنه كان قصّ عليها هذا المنام في الليلة التي رأه ، وتحقق عنده أن سعده عظيم لأنه ما نوى قط على أمر إلا ناله ، وتأكد له الآن أن له توفيقاً عظيماً لا مثيل له . ثم قال : يا عبد الله مهما يقول معلمك وأنت على رأسي وعيني وإن شاء الله يكون قدومكم خيراً علي .

١/٤٢

---

(٨) الشعوذة .

(٩) سلامة الطوية .

(١٠) « طعتَ » .

(١١) « عن يدي » .

فأعلمتُ الشيخ إبراهيم بجميع ما جرى، فأعجبه ذلك جداً وأصبح مسروراً تماماً. وثاني يوم أرسلنا وأحضرنا رزقنا من القريتين وأهدينا الدريعي أشياء يكون مسروراً بها، وأهدينا أيضاً أولاده ونساءَ أولاده وأكابرَ العربان ونساءَهم فأصبحنا معزوزين جداً عندهم. وذلك كان من نوع التدبير، لأن الدريعي أولاً من طبعه حب المكسب والهدايا، وثانياً ليتأكد أن ما هو مرادنا أن نكسب منه لكي لا يظن أن دخولنا عنده لأجل الكسب، بل ليتحقق أن مرادنا ربحه وكبره فقط، ولم ندخل عنده لأجل طمع. فزادت كرامتنا ومقامنا عنده حتى أنه كان لا يدعنا نأكل بالديوان مع الضيوف بل عند الحريم، أكلاً ممتازاً معداً لنا، مع امرأته ونساء أولاده وهو معنا بعض الأحيان. ويقال لحرمته سكر بنت هدال من أكابر العربان، أخوها كيخيا الوهابي، يقال له عبد الله الهدّال.

ثم كان عند الدريعي واحد قُبَيْسي[12] من القُبَيْسَة[13]، وكان بياعاً على حسب عوائد أهل القُبَيْسَة[13]، هذا عملهم ويوجد منهم عند كل قبيلة عربية، ومن طبعهم الطمع والحسد والغيرة. فرأى هذا الرجل أننا معزوزون عند العرب بهذا القدر، وأننا نبيع بضاعتنا بنصف ثمنها[14]/وأكثرها ببلاش[15]، فدخلت عليه الغيرة والحسد، وابتدأ يعمل ما بوسعه ليخرب أشغالنا ويكرّه فينا العرب، وإن استطاع يقتلنا، إذ لم يعد له سبب ليتقدم أو يبيع رزقه ولم يبقَ له إكرام عند الدريعي أو عند العرب كالسابق، لأن المذكور كان يوكله بكتابة المكاتيب وببعض أشغاله ويكرمه بالمال نظير خدماته، فانقطع عنه جميع ذلك، ولم تبقَ له قيمة عند الدريعي ولا عند العرب، فازداد غيرة منا وعداوة لنا. وكان اسمه عبسي، وهو رديء الطباع، شنيع الأفعال، حقود غيور حسود ملعون لا يتصف. فابتدأ يتكلم ويفسد العرب علينا، ويعطل أمورنا، ويقول عنا أننا سحرة جئنا نخطف بنات العرب، ودخل ذلك في عقول البنات حتى أنه كلما رأتنا فتاة تهرب منا. وابتدأ أيضاً يدخل في عقول النساء أيضاً أننا سحرة، نريد أن نفسد قبائل العرب ونكره الرجال بالنساء، ونقطع نسلهم حتى نملك ديرتهم والبلاد للأفرنج. فشاع هذا الخبر حتى أن في ذات يوم، إذ كنّا مارين على بيت أحد العربان،

٤٢/٢

(١٢) «قبيسي»، ويقول الصائغ في كتابه «المقترب»: هو البائع الذي يحضر عند البدو، من اسم بلد في طريق بغداد اسمها القبيسة.

(١٣) القُبَيْسَة وهي غير القَبيصَة، «بالفتح ثم الكسر، قرية من أعمال شرقي مدينة موصل» (معجم البلدان).

(١٤) وضع الصائغ في أعلى هذه الصفحة: «نمرة ٦».

(١٥) دون ثمن مقابل، بلا شيء.

خرجت لنا عجوز وبيدها عصا(١٦) وهجمت علينا وقالت : والله العظيم إن قربتم من بيتي كسرت رؤوسكم بهذه العصا ، جئتم لتخطفوا بنتي وتفسدوا رجالي علي ، فضحكنا من عقلها وابتعدنا عن بيتها وفهمنا أن [كلامها من نتائج] شغل عبسي القبيسي . ولم يزل هذا الخبر [ينتشر] حتى وصل إلى الدريعي ، فاغتاظ جداً واحمرت عيونه وقال لي : لماذا يا عبد الله لم تحكِ لي حتى أقتل هذا الكلب ونخلص من هذه المفاسد ؟ فقلت له : لا يا سيدي لا نريد ضرر أحد ، ولكن إن كنت تأمر وتنفيه من قبيلتك فيذهب إلى بلاده . فحالاً أرسل وأحضره ونبّه عليه أن يسافر حالاً من قبيلته ، وإن رآه أو سمع أنه موجود في اليوم التالي يقتله ، فقام عبسي وهو لا يرى الدرب من الغيظ ، وحالاً سافر وهو لا يعلم إلى أين يتوجه .

ونحن بعد ذلك رحلنا وتقدمنا إلى جهة دمشق(١٧) قرب ضيعة يقال لها المعضمية ، ضيعة كبيرة . فهذه الضيعة تعطي إلى مهنا كل سنة خوة ألف غرش غير مقطوع /فأرسل ١/٤٣ الدريعي وطلب منهم خوة كل سنة ألف غرش ، كما يعطون إلى مهنا يعطونه أيضاً ، فرفضوا ذلك وطردوا المرسل(١٨) وتكلموا بكلام غير لائق ، فعاد المرسل وحكى بما جرى . فركب نحو مئة خيال وأرسلهم إلى دائر القرية وأخذوا طرشها . وكان عندهم بالضيعة عبسي القُبَيْسي ، فارتبط معهم ونزلوا إلى دمشق(١٩) هو وكبار الضيعة وذهبوا عند التَفْنْكَجي باشي يقال له السقا(٢٠) أحمد آغا كركتلي ، لأن المذكور كان طيب على عبسي(٢١) ، وقالوا له : يا سيدي يوجد عند الدريعي اثنان من الإفرنج جواسيس(٢٢) ، وهما اللذان يدبران الدريعي ويعلمانه على هذه المفاسد ، ومرادهما أن يكبرا شأنه ويمتلكا البلاد بواسطته [لتسليمها] للأفرنج . فصدق التفنكجي باشي ذلك وذهب حالاً عند الوزير ، وكان يومئذ والي الشام سليمان باشا(٢٣) والي عكا ومعه المدبر الجليل المعلم حاييم اليهودي(٢٤) . فحين عرض ذلك على

(١٦) « عصاية » .

(١٧) « الشام » .

(١٨) « وقلّعوا المرسال » أي الرسول .

(١٩) الشام .

(٢٠) كذا .

(٢١) كذا ، وفي اصطلاح البادية : طيّب على فلان معناه صالحه ، والظاهر من سياق الكلام أن الصائغ يريد أن يقول : عزّاه أو أخذ بخاطره .

(٢٢) « دواسيس » .

(٢٣) من أصل كرجي مسيحي ، وكان يحترم كافة الأديان .

(٢٤) حاييم فارحي كان متسلماً شؤون الخزينة في أيام الجزار ، وكان الأمير يسومه أحياناً ألوان العذاب . وبعد وفاة

مسامع الوزير صدّق، وانشغل خاطر المعلم حاييم بهذا الأمر. وبحسب أمر الوزير كتب حالاً بولردي مشدداً إلى الدريعي وأرسله مع جوخدار. وإذ نفذ علينا البولردي مع الجوخدار المذكور. فأخذه الدريعي وقال لي: اقرأ ذلك، فقرأتُ وكان مشدداً جداً بهذه الألفاظ: افتخار الأمراء والمشايخ الدريعي ابن شعلان زاد مجده. المنهى إليكم قد طرق مسامعنا ما قد صدر منك من الأفعال الشنيعة والطغيان، وقد خربت هذه الديرة ودمرت عربانها وأهلكت رجالها، لا سيما أنك تجاسرت وقتلتَ ناصر المهنا محسوبنا[٢٥]، الذي كان نافعاً إلى بابنا ومهتماً بأمور الحكام ومنفذاً لمصالحهم، وخربت قبيلته وغيرها من القبائل الطائعة لنا. وتريد برأيك الفاسد امتلاك ديرته بقائم سيفك حتى أنك اتصلت بالقرى التابعة لايلتنا[٢٦] وطلبت منها الخوة [وتريد] بلصها[٢٧] وتغير عليها وتنهبها، ولا زلت تزيد في غيك الردي. وجميع ذلك قد صار معلوماً لدينا أنه ناشئ من شخصين من الإفرنج الكفار موجودين عندك، وهما اللذان يدبّرانك على هذه الدروب الشنيعة الراجعة إلى خرابك، ومنتهى حياتك، وتطهير/ ٢/٤٣ الأرض منك ومن كافة من يلوذ بك. فالمراد حال وقوفك على مرسومنا هذا أن ترمي القبض على الأشخاص الذين عندك وترسلهم مع الجوخدار مصطفى آغا تابعنا، حتى نقاصصهم على تجاسرهم ونجعل قتلهم شهرة. وأنت بالحال ارحل وارجع إلى ديرتك وردّ جميع ما أخذته من عربان ديرتنا ومن ضيعة المعضمية، وإن عاندت حسب طبعك، لا تسأل عما يجري عليك من الأهوال الجسيمة وتندم حيث لا يعود ينفعك الندم، والحذر من حركات المخالفة، اعتمد ذلك.

فحين خلصتُ من قراءة البولردي نظرت إلى الدريعي، فرأيت وجهه أعتمّ[٢٨]، وصارت عيونه حمراء، ودخل عليه الغيظ والحنق، ونهض قائماً وقال للجوخدار: وحق من رفع السموات وبسط الأرض، لولا يكون [ذلك] خرقاً للعوائد الجارية، لكنت قتلتك وربطت رأسك بذنب حصانك وأرسلتك إلى وزيرك بدمشق. قم واركب بلا تكثير كلام. صحيح أنا عندي شخصان غريبان، إلا إني لا أسلمهما إلا بعد موتي. فإن كان وزيرك قادراً أن

الجزار وتعيين سليمان باشا والياً على عكا، أسندت، من جديد، إدارةُ الخزينة إلى المعلم حاييم.

(٢٥) أي صيعتنا.

(٢٦) ولايتنا، أو إيالتنا، أكبر وحدة إدارية في العهد العثماني.

(٢٧) أي ابتزاز أموالها.

(٢٨) من العتمة، أي أظلم.

يأخذهما بسيفه فهما عندي، وأنا لستُ راحلاً من هذا المكان، فليكلف خاطره ويحضر، وأن ما ركبتَ حالاً قتلتك. فاصفر وجه الجوخدار وارتعب وقال: أنا ما هو ذنبي، ما على الرسول[٢٩]إلا البلاغ. فنهضتُ أنا وأمسكت يد الدريعي وقلتُ له: يا سيدي استرح، نحن كفؤون لتدبير هذه المادة. نحن نكتب إلى الباشا ونريك الجواب. فبعد رجاء كبير رضي أن نكتب للباشا من طرفنا. وكان بين الباشا والمعلم حاييم والشيخ إبراهيم معرفة ومحبة عظيمة، والسبب أنه حين كانت العمارة[٣٠]الفرنسية في مصر تزوج الشيخ إبراهيم واحدة كرجية من سراري مراد بك، فأخبرته بعد مدة أنها بنت عم سليمان باشا والي عكا. ثم أخذها معه إلى باريس، وحين رجوعه من باريس إلى بر الشام، أحضرها معه ودخل[٣١]عكا وأخذ بيتاً و وضع لها خداماً و واجه الباشا ورأى أن الأمر صحيح، وعمل له سعادته إكراماً زائداً وأهداه تحفاً عظيمة، وهي كان أكثر إقامتها في بيت الباشا، والمعلم حاييم قام بواجبه بإكرام و وقار زائد، أولاً لأنه[٣٢]متزوج بنت/عم الباشا، وثانياً احتراماً لقدره لأنه من أكابر بلاد الإفرنج وأشرافها، وكما هو معلوم أن بيت لاسكاريس دي فنتميل كان مشهوراً، ثالثاً إجلالاً لعلمه ومعرفته. ثم قال لي اكتب من طرفي مكتوباً إلى جناب المعلم حاييم، ويكون بهذه الألفاظ كما سنوضحه لمسامعكم الكريمة: ١/٤٤

جناب المهاب، فسيح الرحاب، حضرة عمدة الأحباب، الأجل الأكرم الخواجا حاييم، بعد السؤال عن شريف خاطركم والمعروض لمحبتكم بخصوص مادة محبنا الأمير الدريعي، فجميع ما بلغ سعادته من أقوال الوشاة لا أصل له، فالإفرنج الجواسيس[٣٣]هم أنا وترجماني فتح الله صايغ، فالمرجو من همتكم أن تعرضوا ذلك على سعادته وتعلموه بما ذكرنا، وتصفّوا خاطره وترسلوا لنا بولردي من سعادته إلى الدريعي يكون بضد البولردي السابق، وتزيدوا به وتفضلوه على كامل القبائل والعشائر، وتأمروهم أن يكونوا في طاعته، ولكم بذلك الفضل وتصيّروننا ممنونين حبكم إلى الأبد، وأطال الله بقاءكم آمين. وختمناه وسلمناه إلى الجوخدار وتوجه حالاً إلى دمشق.

---

(٢٩) «المرسال».

(٣٠) الأسطول، وهو يريد القوات المسلحة.

(٣١) «فات على».

(٣٢) أي لاسكاريس.

(٣٣) «الدواسيس».

وثاني يوم رحنا وتقدمنا إلى ناحية القبلة، بالقرب إلى حوران، وإذ نفذ علينا الجوخدار مصطفى آغا بذاته وبصحبته بولردي إلى الدريعي ومكتوب من المعلم حايم إلى الشيخ إبراهيم. فأخذت البولردي وقرأته إلى الدريعي وكان مضمون ذلك:

افتخار أمراء الكرام، وعمدة المشايخ العظام، رئيس العشائر ورأس القبائل، ولدنا الدريعي ابن شعلان زاد مجده، بعد السؤال عن خاطركم والمبدي إليكم، وصل كتاب من جناب محبنا الشيخ إبراهيم إلى محسوبنا المعلم حايم، وبه معرفة عن حسن حالكم وجيد أطواركم، وأن جميع ما تقرر لدينا سابقاً فهو كلام وشاة ومغرضين، فبناء على ذلك أصدرنا لكم مرسومنا هذا، فالمراد أن تكونوا مطمئنين البال والخاطر، ودبروا ايلتنا بحسن معرفتكم المشهورة، وتكونوا من طرفنا متقدمين ومفتخرين على كامل القبائل والعشائر. وكذلك نرغب أن تبدوا غاية الإكرام والتوقير إلى جناب محبنا الشيخ إبراهيم وترجمانه، فبذلك تصيّروننا راضين عنكم واعتمدوا على ذلك والسلام.

ومكتوب المعلم حايم [يعرب عن] محبة تامة، ويعرفنا أن مهما لزم من الأمور المتعلقة بالوزير نعرفه عنها فيقضيها لنا حالاً بكل سهولة وطبق إرادتنا[٣٤]. / ٢/٤٦

فتعجب الدريعي وكل الحاضرين من ذلك وازداد إكرامنا عندهم وتوقيرهم لنا. ثم كتبنا جواب البولردي بإملاء يليق بحضرة الوزير، وأرسلنا أيضاً جواباً إلى المعلم حايم واستكثرنا بخيره، وأعطينا الجوخدار خمس مئة غرش إكراماً وتوجه لدمشق راضياً حامداً شاكراً لنا وللدريعي أيضاً.

وبعد ذلك رأيتُ أنني أستطيع أن أكلّم المذكور بما أمرني به الشيخ إبراهيم، إذ حصل الوقت المناسب. فقلت له: اعلم يا أبو سحن (وهذا تكبير عند العرب إذا سمّيت الإنسان «أبو فلان» باسم ابنه، وعند الحضر [هذا الأمر] أيضاً مقبول)، إن الله عز وجل أرسلنا لأجل سيادتك[٣٥] وتقديمك على أبناء عصرك، فإن سمعت ما نقوله لك لا يكون أكبر منك بين العربان. فقال: مهما تقولون فهو على الرأس والعين. ففرحت بذلك وقلت: تمت إرادة معلمي. وأعلمت المذكور بذلك فسُرّ، وقيدنا جميع ذلك بالدفتر وبتنا تلك الليلة مسرورين جداً.

---

(٣٤) الصفحة ٤٤/٢ بياض، أما الصفحات ٤٥/١ و٤٥/٢ و٤٦/١ فإنها الحقت بالصفحة ٢٣/٢، وفقاً للإشارات التي وضعها الصائغ في المخطوطة.

(٣٥) «كبرتك».

[ابتداء الحرب مع الوهابيين]

وفي اليوم التالي وصل خبر أن غزواً من عند الوهابي ضرب قبيلة وِلْد علي، وغنم منها شيئاً كثيراً، لأنه غزو عظيم يدور في هذه الديرة ويفتت العربان[1]حتى أنه ابتدأ يدخل القرى ويبلص[2]أصحابها. والعربان خائفة جداً منه، والبعض منهم قرروا على إعطاء الزكاة، أي عشر المال، للوَهّابي حتى يخلصوا من شره، ويبقوا محسوبين من أتباعه ومُوَهَّبين، لأن الذي يعطي الزكاة ويطيعه يقال عنه موهب[3]. فأعلمتُ الشيخ إبراهيم بهذا الخبر، فاغتم جداً وقال: هذا ضد إرادتي، والرأي عندي أن الدريعي يجب أن يكون ضد الوهابي، ويعمل كل ما يستطيع ليجرّ إلى طرفه زيادة من القبائل، وأما العربان التابعون للدريعي فيجب أن يكونوا جميعهم مطيعين له، وعلى قلب ورأي وعمل واحد. فتكلمتُ مع المذكور بذلك وحسنت له الأمور بقولي له: اعلم أن الوهابي إذا لم يرتدّ من هذه الديرة سوف يملك كافة العربان، ويجعلهم تابعين له، وتكون أنت من جملتهم وتصير عبداً من بعد أن كنت أميراً وحراً وأكبر منه. فالأنسب قطع رجله من ديرتنا وافراز عربه عن عربنا. فحسنتُ عنده هذا الرأي وحالاً اعتمد أن يضرب غزو الوهابي/ويلحقه في أي مكان كان، ويظهر العداوة بينه وبين ١/٤٧

(١) بالأصل: يفتت على العربان، ولعل الصائغ يريد: يشتت شمل العربان.

(٢) يبتز الأموال.

(٣) كذا، ولا أدري كيف ضبط هذه الكلمة: مَوْهِب أو مُوَهّب. ونلاحظ أن الصائغ كثيراً ما يستعمل كلمة وهّابي.

الوهابي . وأمر العربان أن تجمع بعضها بعضاً وأرسل طروشاً (أعني سعاة) إلى قبائل حوران وبلاد الجليل يخبرهم ويطلب منهم اسعافاً ، وكذلك إلى غير قبائل . وحمّل الرسل[٤] كلاماً ، وهو أن يقولوا من طرفه إلى القبائل أن مراده أن يضرب غزو الوهابي ويشهر العداوة معه ، فمن تبعه فليظهر حاله ، والذي يريد أن يكون من أتباع الوهابي فليرحل إلى ديرة الوهابي .

فبعد يومين ، جميع القبائل التي كانت بالقرب منا طاعت الدريعي على ذلك الرأي وحضرت إلى عندنا ، وبعد ذلك حضر الطروش[٥] ، وأخبروا أن جميع القبائل طاوعت على ذلك واعتمدته ، سوى قبيلتين وهم بني صخر والحسنة ، قبيلة مهنا ، فما أطاعوا ولا لهم إرادة أن يعادوا[٦] الوهابي . فتركهم الدريعي وقتئذ ، وركب حالاً ولحق غزو الوهابي . وكان معه نحو خمسة آلاف خيال وألفي مردوف بواردية ، كل اثنين على جمل ، وطلب غزو ابن سعود . فغاب عنا عشرة أيام وانقطعت أخباره عنا ، وصرنا في وجل عظيم وخوف جسيم ، حتى ظننا أنه قتل هو وكامل عسكره ، وحزنا في قلوبنا حزناً شديداً ، وصرنا خائفين جداً على أرواحنا ، لأن إذا حصل ذلك فالعربان تقتلنا ، حيث نحن سبب ذلك الأمر .

ثم يوم الحادي عشر قبل نصف النهار إذ ورد علينا خيال جاء كالغائر ، يحمل راية[٧] وهي زنار أبيض رابطه من الطرفين وعامله مثل بنديرة[٨] بالرمح ، وهو يركض ويقول : هذه راية الدريعي ، نصرنا الله على الضشمان ، ابشروا يا عربنا . فحالاً ركضنا وسلمنا عليه ، وهو بشرنا أن الدريعي انتصر وسيكون هذه الليلة عندنا . فألبسناه حالاً مشلحاً جديداً وكوفية وجزمة [وأعطيناه] مئة غرش بخشيشاً . وكذلك نساء أكابر العربان أهدينه[٩] نظير بشارته . وقامت الأفراح والألعاب والغناء[١٠] والكيفيات[١١] ، وذبحت الذبائح وعدت المآكل[١٢] ، وكان نهار من العمار[١٣]، مبهج/وعظيم. وقبل غياب الشمس ٢/٤٧

---

(٤) «المراسيل» .

(٥) أي السعاة ، كما جاء في الشرح أعلاه .

(٦) «أن يضشمنوا» .

(٧) «جاية غارا وساحب رايه» .

(٨) أي مثل العلم .

(٩) «هادوه» .

(١٠) «والغنة» .

(١١) «المسرات» .

(١٢) «الأماكيل» .

(١٣) الأعمار ، أي يوم يذكره الإنسان طول عمره .

إذ أقبل الدريعي وكامل من معه . فركضنا نحن وركب جميع من بقي من الرجال ، واستقبلناهم بلعب خيل وإطلاق النار[١٤] والزلاغيط ، إلى أن وصلوا . فنزلوا وسلمنا عليهم وحكوا لنا أنهم لحقوا بهم بعد ستة أيام في أرض يقال لها حذملما ، شرقي تدمر لناحية القبلة ثلاثة أيام ، على حسب ركض العرب . وكانوا بمقدار عسكر الدريعي وعقيدهم رجل صاحب صيت[١٥] عظيم وفعل جسيم يقال له أبو نُقْطة ، إنسان من جملة طباعه حين ينزل إلى القتال أنه يشلح عارياً[١٦] ويتزنر على القميص ويشلح أكمامه فيبقى مستتراً من الزنار وما تحته وأما سائر جسمه فيكون عارياً مكشوف الرأس ، حافي الرجلين ، وهو أسود غامق السواد ، جسيم بمقدار ثلاثة أفراد[١٧] ، شعره منفوش لم يحلقه قط ، كبير اللحية تصل إلى بطنه ، النتيجة تفزع منه الجن ، وأكثر عربانه قريبون من هذه الصفات[١٨] .

ثم التحم القتال بينهم واشتد الحرب ، وطار العِفار[١٩] والغبار ، واستقاموا ثماني ساعات على هذا الحال . ثم انكسر أبو نقطة وتفرقت عربانه ، وانتصر الدريعي بعون الله ، وأخذ جميع ما أخذوه من الكسب من قبيلة ولد علي وأتى به معه ، وجاء أيضاً بخمسة وثلاثين فرساً كحايل[٢٠] ، كسبها جميعاً من عرب أبو نقطة . وقتل من عربنا اثنان وخمسون نفراً ، ومن عرب أبو نقطة نحو مائتي نفر . وهج المذكور مع باقي عربانه في نواحي بلاد نجد ، وشاع خبر هذا الانتصار حتى وصل إلى سليمان باشا في دمشق ، فسُرّ جداً وحالاً أرسل فروة وسيفاً إلى الدريعي ، مع بولردي يحمده ويشكره به على فعله هذا ، لأن الباشا وأهالي ديرة الشام كانوا خائفين جداً من الوهابي ، وخصوصاً من صيت أبو نقطة .

وبعد ذلك رحلنا ونزلنا بأطراف بلاد حوران ، وحصل لنا إكرام زائد من دوخي ابن آسْمَير ، أمير قبيلة وِلْد علي ، لأن الدريعي ردّ عليهم جميع ما أخذ منهم أبو نقطة . وتخاوى دوخي مع الدريعي ، وجاء مشايخ القبائل وقدموا الطاعة وارتبطوا جميعهم معنا ضد الوهابي ، وصار رباط عظيم في/حوران مع كامل العشائر ، إلا مع بني صخر والحسنة . ١/٤٨

(١٤) « قويصات » .

(١٥) « سيط » .

(١٦) « بالظلط » .

(١٧) « أزلام » .

(١٨) ذكرنا في المقدمة أن أبا نقطة مات قبل هذا التاريخ ، قتله الشريف حمود قائد عرب اليمن سنة ١٨٠٩ .

(١٩) عَفْر وعَفَر ج أعفار : التراب ؛ أعفار وعِفار رمال بالبادية ببلاد قيس (القاموس المحيط) .

(٢٠) كحيلات .

ثم ثاني يوم نفذ علينا شيخ عِلْم من دمشق: دنبكية[٢١] كبيرة خضراء في رأسه معصوبة بمنديل، ثيابه بيضاء، في رقبته مسابح، عيونه مكحلة، كبير اللحية[٢٢]، في زناره محبرة[٢٣] وعبه ملآن من الكتب، وهو راكب على بغلة وفي يده حربة. فدخل بيت الدريعي وسلّم على المذكور وعلى جميع الحاضرين وأخذ يتكلم بأمور الدين، ويرشدهم ويزرع في قلوبهم الرفض والورع، وهذا شيء يخالف طبائع العرب لأنهم لا يريدون أن يتكلموا بأمور الدين، وعندهم جميع الملل بالسوية ولا يسألون قط أحد عن دينه، وعندهم الجميع[٢٤] خلقة الله وحالهم واحد. وهذه أحسن الخصال التي وجدناها عند العرب، لأنه إلى اليوم لم يسألنا أحد أأنتم إسلام أم نصارى، ولكننا نحن في أثناء الحديث نقول أننا نصارى، ولو كانوا مترفضين وعندهم توريع[٢٥] مثل أهالي المدن، لما كنا استطعنا أن نعيش معهم يوماً واحداً.

ثم قمت من المجلس ورحتُ إلى خيمتنا الصغيرة وكلمت الشيخ إبراهيم عن هذا الشيخ فتأذى منه، وبعد ساعة من الزمن رجعت إلى المجلس، وحسب عوائدهم نحوي نهضوا جميعاً واقفين، وقام أيضاً الشيخ الغريب. وبعد جلوسنا استخبر من أحد العرب الذين كانوا قريبين منه عني، فأخبروه أنني نصراني كاتب عند الأمير. فنهض قائماً وقال: لا يجوز في دين الله أن تقوموا واقفين لنصراني كافر عدو الدين، فأنتم جميعكم إلى نار جهنم، ونساؤكم طوالق منكم بموجب شريعة سيدنا محمد شرّف الله ذكره. فبعد هذا الكلام نهض الدريعي بنفسه وقبض عليه من لحيته وطرحه بالأرض وسحب سيفه يريد ذبحه. فكان بأمر الصدفة أن الشيخ إبراهيم دخل المجلس. فركض وأمسك بيده ورفعه عنه. فقال: إكراماً لخاطرك لا أذبحه ولكن وحق ذات الله العزيز لا بدّ من قطع لحيته وهذه الساعة يعود إلى بلده. وركض مرة ثانية وأمسك بلحيته وقطعها بالسيف وأمره بالركوب حالاً. فما صدق أنه يخلص بروحه وركب حالاً وتوجه لبلده./ ٢/٤٨

ثم بعد ذلك بيومين، ركب الدريعي وكامل عربانه وراح ضرب عربان بني صخر لسبب: أولاً أنهم لم يطيعوه، وثانياً نكاية بالوهابي، لأن بني صخر، كما ذكرنا، يعدون من

(٢١) الدنباكية، من التركية. عمامة ملفوفة مدورة تدل على بركة حاملها وطهارته.
(٢٢) «ذقن».
(٢٣) «دواية».
(٢٤) أي جميع الناس.
(٢٥) لعله يريد: الحث على الورع.

أتباع الوهابي[٢٦] ويعطونه الزكاة، أي عشر المال. فعاد منهم بخيرات جزيلة وقتل كثيرين من رجالهم. فشاع هذا الخبر بين القبائل و وقعت سطوة الدريعي في قلوب الناس، وطاعته جميع العشائر، إلا قبيلة مهنا، فإنه لم يرد أن يتعرض[٢٧] لها، لأنها أكلت جزاها، وتضعضعت أحوالها، وقتل ناصر، ولم يبقَ لها اسم مثل السابق، وخمدت سطوتها.

فبعد كل هذه الأمور كان مضى فصل الصيف ودخل الخريف وابتدأت العربان رويداً رويداً تنسحب إلى الشرق. ونحن أيضاً لم نزل نرحل وننزل إلى أن صرنا أمام حماة. فقال الدريعي: أكتب يا ولدي مكتوباً إلى متسلم حماة وعرفه، لكي يرسل إلينا بقليل من الحنطة. فكتبت مكتوباً ظريفاً وأرسلناه مع طارش خاص، فوصل إلى المتسلم وقرأه وحالاً أمر بأربعين جملاً [محملة] حنطة وعشرة مشالح وفروة إلى الدريعي. فوصلنا جميع ذلك وفهمنا جيداً أن المتسلم لم يرسل هذه الهدية إلا خوفاً من الدريعي، وما هي كرم منه، حيث نعرفه من السابق أنه رجل بخيل ورديء الأفعال.

ولم نزل ننسحب حتى صرنا بقرب حلب. فقال لي الشيخ إبراهيم: يا ولدي نحن راجعون إلى البادية[٢٨]، ولم يبق عندنا ثياب نلبسها، ولم يبق عندنا رزق حتى يكون لنا حجة، ويلزمنا من حلب أشياء كثيرة، فكيف ندبر ذلك. قلت: أعطني مكتوباً إلى محبك الذي ستأخذ منه الدراهم وأنا أقوم بتدبير الباقي. فكتب لي حالاً مكتوباً فأخذته منه واتفقت مع الدريعي أن يرحل إلى الزور، وأنا آتي عنده من حلب. وأخذت معي اثنين من العرب بالأجرة ونزلت إلى ضيعة يقال لها الجبول، وهو المكان الذي يستخرج منه ملح حلب. و وجدتُ ساعياً، وكتبتُ مكتوباً من طرفي إلى الشخص الذي سيعطينا الدراهم، وأرسلته مع مكتوب الشيخ إبراهيم، فحضر/المرسال[٢٩] وجاءني بالدراهم، وكان قصدي من ذلك ١/٤٩ ألّا أواجه أحداً من أهالي حلب ولا أدع أحداً يعرفني. فنزلتُ إلى البلد وأنا بلباس[٣٠] العرب، وبلحية، وأتكلم مثلهم، ولا يستطيع أحد أن يعرفني. فأخذت غرفة في خان من الخانات التي بأطراف البلدة، وابتدأت أشتري لوازمي وأرى كثيرين من الأصحاب والمحبين وهم

---

(٢٦) «بني صخر محسوبة على كيس الوهابي».

(٢٧) «ما راد يقارشها».

(٢٨) «الشول».

(٢٩) المرسل أو الرسول.

(٣٠) «كسم».

لا يعرفوني ، وأنا أضحك بقلبي منهم ، ومررت عدة مرات بالطريق الذي يمرّ أمام بيتنا ، وكل رغبتي أن أرى أخي وإن لم أعرّفه بحالي ، فلم أتمكن من رؤيته ، ولم أستطع أن أعرف إذا كان مات أو مسافراً ولم أثق بأحد لأظهر حالي ، وأسأله عن أخي وعن والدتي المسكينة ، وهي لم ترني منذ نحو سنتين ، ولا عندها خبر مني ، ولم تستلم مني مكتوباً من يوم خروجنا من حلب ، لأن من جملة الشروط التي شرطها الشيخ إبراهيم علي أن لا أكاتب أحداً ولا إلى والدتي ، كي لا يزيع خبرنا بين الناس وتشتهر أمورنا . وبعد ستة أيام أنهيت جميع مطلوبي وتوجهت مع رفقائي العرب إلى الزور ، فوجدنا عربنا نازلين على شاطئ الفرات ، بقرب محل يقال له دير الشُّعَّار ، وكنا ذكرنا سابقاً أن جميع سكانه شعار[٣١] ، وكان بلداً في السابق وبه عمارات قديمة لم تزل إلى الآن . فسلمتُ على الشيخ إبراهيم وعلى الدريعي ، وحكيت لهم ما فعلت . فقال الشيخ إبراهيم : حسناً عملتَ ، كنت أخشى أن تذهب وتواجه والدتك ، فتتمسك بك ولا تدعك تعود إلى عندي . ومن المؤكد أن والدتي لو رأتني لما دعتني أعود قطعاً . ولعلمي بذلك عملتُ كل جهدي لكي لا يعرفني أحد ، ولا أنا عرّفتُ بحالي .

ثم وجدت أناساً كثيرين عند العرب ، من أهالي حلب وحماة وحمص والمعرة وسرمين وإدلب وكلّز وعنتاب ، ومن كل ايلة حلب وغيرها ، وهم يشترون جمالاً من عند عربنا ومعهم بضائع : ملبوس ومأكول ، من مشالح وجزمات وكوفيات وقمصان خام سميك وسروج خيل ، وعُدِد خيل وقمصان قزّ[٣٢] للنساء ، ودبس وزبيب وتين وتوتون ، أي جميع لوازم العرب . وقد فتحوا سوقاً[٣٣] عظيماً وهم يبيعون بضائعهم قسماً منها نقداً وقسماً منها بالمقايضة[٣٤] ، ويشتروا جمالاً لأجل التحميل./ويبيع أغلى جمل بماية غرش . وأما بخصوص العملة التي يتعامل بها العرب فإنهم لا يرضون إلا بالعملة الفضية[٣٥] . وأكثر ما هو مقبول عندهم الريال الفرنجي . وإذا كانت قطعة العملة قيمتها خمسة غروش إلا ربع ، كما هي الحالة بالعملة العثمانية ، فإنهم ، لكي لا يغلطوا بالحساب ، يقبضونها بالتمام ، ولو أخذوا قطعة العملة بزيادة ٢/٤٩

(٣١) شعراء .

(٣٢) حرير .

(٣٣) « بازار » .

(٣٤) « داكيش » .

(٣٥) « عملة بياض » .

عشر مصريّات[٣٦] ، فإنهم لا يختلفون على ذلك إذ يهون عليهم الحساب . وكذلك لا تكون المساومة على سعر الجمل بالغروش ولكن بالريالات ، أو أنهم يختارون لهم قطعة من العملة العثمانية تكون المساومة عليها .

فاستقام ذلك السوق[٣٧] ثمانية أيام . وعملنا حساباً تقريبياً [تبين لنا منه] أنه شُرِيَ من عند عربنا فقط ، بماية وخمسين ألف غرش جمالاً . ثم توجه [الناس] إلى بلادهم . ومَنْ صار عنده دراهم كثيرة من العرب ، مثل الدريعي أو غيره ، وضعها في عدل الطحين أو القمح ، لكي لا تقرْقع وقت التحميل .

ثم بعد ذلك أمر الدريعي بالرحيل وقطع الفرات إلى الجانب الثاني . فكان نهار عظيم وضجيج واضطراب[٣٨] ، حتى قطعنا من جانب إلى الجانب الآخر ، من جهة الدير . وغرق منا امرأة ومعها ولدان أثناء قطع الفرات ، لأن جملها تعثر فوقعتْ وأخذها مجرى الماء لشدته وأخذ أولادها بسرعة . ولم يكن إلى جنبها أحد [لينتشلها] فماتت هي وأولادها .

---

(٣٦) مصرّية : قطعة صغيرة جداً من العملة تعادل البارة التركية أي ١/٤٠ من الغرش العثماني .

(٣٧) « بازار » .

(٣٨) « وغوشات وكركبات » .

[أول خطوة نحو الاتحاد]

فبعد أن أقمنا ثلاثة أيام ، رحلنا وتوجهنا نحو البادية شرقاً . وكانت الجزيرة ملآنة من العربان ، منهم من الذين كانوا معنا بالشامية ، ومنهم غرباء أعني من عرب ديرة بغداد والبصرة والبادية[1] ، وهم أشكال وأشكال لا يمكن إحصاؤهم ، ونزلنا في أرض يقال لها عين الراج . فهناك حضر عندنا أمير يقال له فارس الجربا ، وقبيلته اسمها الجَرْبا[2] تضم نحو أربعة آلاف بيت يعدّون من عرب البصرة . وكانت غايته من هذه الزيارة التعرف بنا والصحبة مع الدريعي على يدنا ، لأنه كان سمع أن المذكور قد عادى[3] الوهابي وهو عاص عليه . وصار له اسم عظيم بين القبائل ، وكل ذلك بسبب تدبيرنا وحسن مشورتنا ، لأنه كان شاع الخبر بين العرب أن عند الدريعي جماعة ماهرين يقومون بتدبيره على/أمور الدنيا ، وبواسطة تدبيرهم سوف يصير ١ / ٥٠ سلطان العرب وأكبر من ابن سعود الوهابي . فبلغ ذلك فارس الجربا ، وعمل حسابه أن المحبة والوفاق معنا أنسب ، وعلى الخصوص حين سمع أن الدريعي على خصام[4] مع الوهابي ، لأن العرب على إطلاق لا تحب الوهابي لسببين كبيرين : الأول لأنه يأخذ منهم العشر ويستعبدهم بواسطة أمور الديانة ، [والثاني لأنه] يستجرهم إلى الحرب والموت مع القبائل العاصية ومع

---

(١) « الشول » .

(٢) الجَرْباء ، بطن من شمّر ، فيهم الرئاسة (وصفي زكريا ، عشائر الشام ج ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها) .

(٣) « ضشمن » .

(٤) « ضشمنة » .

أهالي بلاد الحجاز واليمن. وهذا شيء ضد طبعهم لأنهم أولاً يحبون أن يأخذوا ويكرهون أن يعطوا، وهو يأخذ عشر المال منهم بالغصب، وعمله هذا كأنه نوع من البلص وخصوصاً أن المزكي[٥] الذي يحضر من طرف الوهابي ينتقي ما يعجبه من كل عشرة رؤوس واحداً، سواء كان ذلك من جمال أو نوق أو هجن أو خيل نجدية[٦] أو غنم أو دراهم، وهذا يصعب جداً على العربان ويزرع العداوة في قلوبهم. وثانياً أنه يستعبدهم بالصلاة، كل يوم خمس مرات، والذي لا يصلي يُقْتَل، وهو يستجرهم دائماً إلى الحروب والقتل. فهم والحالة هذه رعايا يبتزّ أموالهم وعسكر دون نفقة[٧] يُقتلون بسببه. ولذا ضجت[٨] العربان منه كثيراً ولكنهم يطيعون خوفاً منه لأنهم ليسوا على رأي واحد ليكونوا عصبة عليه.

ثم قال فارس الجربا للدريعي: أريد منك أن تجمعني مع عبد الله الخطيب الذي عندك، إذ بلغني أن عندك جماعة أصحاب معرفة وتدبير. قال نعم. وبالحال أتى العبد وصاح علينا، وكنا في خيمتنا الصغيرة مكبين على الكتابة، فحضرتُ وسلمتُ عليه وترحبت به، وعرّفني الدريعي به وشكره لي جداً. فقال: أريد منك ظهرة[٩] أي خلوة، والسبب في هذه التسمية أن الحضر، سكان المدن، يختلون داخل [البيوت] ليتكلموا بالأمر الواقع السري، وأما العرب فإنهم بعكس ذلك يخرجون إلى ظاهر البيوت، ويبعدون عنها قليلاً ويجلسون في أرض سهلة، لا يكون حولهم شيء ولا يستطيع أحد أن يسمعهم. فنهض الدريعي وفارس وقمتُ معهما، فقال الدريعي: ادع[١٠] الشيخ إبراهيم، لأن من الأنسب أن يكون معنا، إذ لا بد أن يحتاج الأمر إلى تدبيره الجيد. /فجلسنا للحديث، فقال فارس للدريعي: قد بلغني جميع ما صدر منك في بر الشام، وقد عملت حسناً وأصبت المراد، وخصوصاً بقتل ناصر، فإنك خلصت إخوانك العرب من شره، وكذلك خصومتك مع هذا الظالم ابن سعود. وقد تأكد عندي بعلم اليقين أن جميع ذلك نتيجة تدبير هؤلاء الأشخاص، وأومأ بيده علينا. وإني أريد أن أكون معكم برأي وفعل وقلب واحد، في كل

٢/ ٥٠

(٥) «المذكي».

(٦) «نجادي».

(٧) «ببلاش».

(٨) «ضجرت».

(٩) «ظهرا».

(١٠) «عيط».

ما يحصل من خير وشر ، أرجو أن تقبلوني أخاً لكم على عهد الله ورأي محمد وعلي . فقال الدريعي : من جهتي قد قبلتك من كل قلبي ، ولكن حتى نرى رأي[11] الشيخ إبراهيم وعبد الله . فقال لي الشيخ إبراهيم بالإيطالي : يا ولدي أخاف أن يكون ذلك حيلة[12] علينا لأجل خراب أشغالنا ، وخراب حبيبنا الدريعي . فقد يكون هذا الرجل من طرف الوهابي ، أو من طرف قبيلة مهنا ، أو من طرف إحدى القبائل التي عاديناها ، وهو يريد الدخول معنا حتى يفسد عملنا . فقال الدريعي : تكلم يا خطيب ، ماذا يقول الشيخ إبراهيم ، لا تستح ، إذ يقتضي على الإنسان ، في مثل هذه الأمور ، أن يتكلم بما في قلبه . فكلمتهم بجميع ما قاله الشيخ إبراهيم . فضحكوا وقالوا : اعلم يا عبد الله أن هذا الأمر لا يحدث عند العرب ، ولم يمشوا قط على مثل هذه الخيانات[13] ، ولا يمكن أن يمشوا عليها ، فهذا شيء لا يتصور عندنا ، بل عند العثماني ، ونحن كل أمورنا خلاف أمور العثماني وتدابيره ، فكونوا من هذا القبيل في برج الراحة . وقال الدريعي : أنا أعرف شمس بلادي ، يريد أنا أعرف أحوال أبناء جنسي ، والوقت الذي يحدث منه أقل حركة مضادة فالله أكبر عليه ، فقال فارس : ساعدوا على الخير ، يا جماعة أنا قلبي محروق من الوهابي ، ويد واحدة لا تصفق ، وما رغبتي في عشرتكم إلا خصامكم مع الوهابي . فأعطيناه كلاماً وتعاهدنا معه على عهد الله ورجعنا إلى البيت وتغدينا وسررنا .

ثم بعد ذلك قال الشيخ إبراهيم : يا ولدي هذا التدبير لا يستقيم[14] من غير رباط[15] ، فيجب أن تعمل ورقة رباط عظيمة ، تربطهم بالشروط والعهود[16] ، وكل من هو معنا ،/وعلى رأينا وعملنا يضع اسمه وختمه ، ومن ليس عنده ختم [يضع] اسمه ، ويطبع في رأس الإصبع الطويلة من يده اليسرى بالحبر في الورقة ، كناية عن الختم . فقال الدريعي وفارس : هذا نعم الشور ، وقد رضينا فاعملوا الورقة . فدبرنا ذلك اليوم الورقة ، في طرحية ورق كبيرة سميكة ، وكانت بهذه الألفاظ :

١ / ٥١

(١١) «حتى نشوف خاطر».

(١٢) «ملعوب».

(١٣) «على هكذا أمور خيانة».

(١٤) «فالت».

(١٥) وثيقة.

(١٦) «إيمانات».

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين على القوم الخائنين، ونحمد الله الذي نوّر أبصارنا، وروّق أذهاننا، ودبّر[١٧] أحوالنا، ونشكره على ما أنعم به علينا من العلوم الإلهية والنفحات[١٨] الربانية، وهيأ لنا طريق الخير، وجنبنا عن الشر، وجعلنا في الدنيا نفوز بالحرية، ونبتعد عن رق العبودية. ونشهد أن لا إله[١٩] غيره، ولا يُعْبَد سواه القادر على كل شيء آمين. وبعد فنقول نحن المحررون اسماءنا بذيله، قد اتحدنا جميعنا باختيارنا وإرادتنا من غير إكراه ولا إجبار ولا إلزام يحوجنا إلى ذلك رغماً عنا، بل بكل رضانا ومن كل قلوبنا ونوايانا وبكامل صحتنا أن نكون جميعنا بقلب ورأي وعمل وتدبير ورضى واحد، وبذات واحدة في جميع ما يقوله الشيخ إبراهيم وعبد الله الخطيب من التدابير والأمور الراجعة إلى صالحنا، ونافعة لرفع[٢٠] شأننا، ونيل حريتنا، واشهار رايتنا. أما الشروط التي قبلنا بها [وفرضناها] على أنفسنا[٢١] فهي:

أولاً: الابتعاد عن التعامل[٢٢] مع العثماني.

ثانياً: أن نكون ضد الوهابي حتى الموت.

ثالثاً: عدم التكلم بأمور الديانة.

رابعاً: أن نكون طائعين إلى أخينا الأكبر الدريعي ابن شعلان.

خامساً: كل واحد منا يكون ضابطاً عربه من كل أمر يخالف هذه الشروط، سواء كان ذلك من نوع الخيانة أو اشعار للعدو بما نفعل.

سادساً: أن نكون جميعنا ضد من لا يطيعنا من القبائل.

سابعاً: نحمي من هو معنا وضارب ختمه في صك الوفق هذا ونعادي من عاداه.

ثامناً: كل من وضع ختمه في هذه الورقة وصدر منه أدنى حركة مخالفة لهذا الإرتباط، فإن دمه وماله وعياله حلال، ويكون جزاؤه الموت السريع.

تاسعاً: لا نقبل رشوة[٢٣] ولا نسمع كلام الوشاة ضد الشيخ إبراهيم وعبد الله.

---

(١٧) «وبدير».

(١٨) «والفنحات».

(١٩) «الإاله».

(٢٠) «قيام».

(٢١) «ذواتنا».

(٢٢) «مقارشة».

(٢٣) «برطيل».

٥١/٢ عاشراً/: قد قبلنا بهذه الشروط من كل قلوبنا، وعلى هذا عهد الله وأمان الله ورأي الله ورأي محمد وعلي، والخائن يخونه الله. وقد عزمنا على أنفسنا أن نموت ونحيى على هذه الأمانة، ما دام فلك وسبح ملك والسلام تحريراً في اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ألف وثماني مئة وأحدى عشرة مسيحية غربية.

فقرأنا لهم هذا الرباط فسُرّوا به جداً، و وضعوا ختومهم حالاً الدريعي وفارس الجربا.

ورحلنا ثاني يوم، وتوجه فارس عند عربه حيث كانوا بعيدين عنا نحو خمسة أيام، ونزلنا في أرض عظيمة واسعة جداً يقال لها الرامة. فتحسن عند الدريعي أن يجمع القبائل القريبة منه كي يدعوهم إلى وضع ختومهم بالشروط. فأول من حضر الشيخ عَوَض ابن جَنْدَل شيخ قبيلة عرب السَّوالمة. فهذه القبيلة تحتوي على ألف وخمس مئة بيت: رجال مجربون بالحرب والقتال، لهم صيت عظيم بين العربان، مهابون جداً. وشيخهم رجل كامل معدود الخاطر. فقرأنا له ورقة الشروط والرباط، فأعجبته وأعطى كلاماً ثابتاً و وضع ختمه بها حالاً.

وحضر معه إطْعَيْسان ابن سَرَاج، شيخ قبيلة عرب العلما[٢٤]، قبيلة تحتوي على ألف وأربع مئة بيت. وهو شاب ابن أربعين سنة، وكان حكم العربان منذ كان ابن خمس عشرة سنة، إذ توفي والده واستلم هو القبيلة بكل تدبير وسياسة أحسن من زمن والده. وهو فهيم جداً، وعربه اسمهم العلما، والصحيح أن هذا الاسم لائق بهم لأنهم فهيمين جداً بالنظر إلى غير قبائل، عارفين بأمور الدنيا أكثر من غيرهم، فصحاء اللسان، شعراء[٢٥].

والسبب بهذه التسمية، على ما قيل لنا، أنه كان لهم جد يقال له عُلَيْوي، وكان من عرب ديرة بغداد، فحضر عنده إنسان بدوي وقال له: يا شيخ عليوي، حرمتي[٢٦] فقدت من جنبي بالفراش[٢٧]، ولي ثلاثة أولاد صغار يبكون. وصار لي الأن أربعة أيام أفتش عنها ولم أجد لها خبراً لا في الأرض ولا في السماء، فجئت أشكي لك مصيبتي وأرجو منك أن تجد ٥٢/١ لي حرمتي ولك الأجر. /فقال له: اذهب إلى بيتك ولا تعرف امرأتك إلا مني، فانصرف

---

(٢٤) العُلَمَة، من عنزة (حَمَد الجاسر، معجم القبائل، ص ٥٧٤).

(٢٥) «شعّار».

(٢٦) زوجتي.

(٢٧) «بالفرشة».

الرجل[٢٨] . أما الشيخ عليوي فقد كان له ولد شقي رديء الأفعال يقال له الغضبان ، لم يره منذ أربعة أيام . فحالاً شك في ابنه ، لأنه كان فهم من الرجل ، زوج الحرمة ، أنها جميلة ، ويعرف أن ابنه يحب النساء الحسان ، فتأكد عنده ذلك . فقام وركب ذلولاً وأخذ يطوف بالبراري ، فرأى من بعيد نسوراً خارجة من باب مغارة ، في كهف جبل ، ففكر أن النسور لا تجتمع إلا على الجثة . فقصد تلك المغارة ودخلها ، فوجد المرأة مذبوحة والطيور تأكل جسدها . فدار حولها فما وجد أي أثر ، إلا أنه وجد على باب المغارة بعر ذلول صحاح غير مفروطة ، وشرّابة خُرْج من شرابات خُرْج ذلول . فأخذ الشرابة وركب ورجع إلى بيته ، فوجد أن ابنه قد عاد إلى البيت أيضاً . فسأله أين كنت ؟ فقال له : كنت عند أقربائنا العرب الفلانية وكان زارهم من زمن غير بعيد . ورأى بعد ذلك الذلول[٢٩] الذي كان راكبه الغضبان ، وكان منوخاً أي باركاً أمام البيت ليستريح . فنظر الشيخ عليوي إلى الذلول فوجده أطوز من غير ذنب ، فتأكد عنده أن البعر الذي رأه على باب المغارة هو بعر هذا الذلول ، لأن كل ذلول ليس له ذنب يكون بعره صحاحاً غير مفروطة . و وجد أيضاً أن الخرج ينقصه شرّابة . فوضع الشرّابة التي معه فجاءت بمكانها ومن قماش رفيقاتها . فاشتد عندئذ غضبه على ابنه وقال له : يا رديء الأفعال أخبرني بحقيقة[٣٠] ما فعلت . فاصفر لون الغضبان وأقرّ بذنبه . فحالاً قبض[٣١] عليه وقتله . ثم أرسل خلف الرجل زوج الحرمة وحكى له القضية وزوجه ابنته ، وشاع هذا الخبر في كل العشاير والقبائل ، وصار للشيخ عليوي صيت عظيم على هذا الفعل والنظر الثاقب ، وصار الناس يقولون عنه أنه عالم ، ودرج هذا الاسم عليه حتى أصبح اسم عربه العلما ، وهذا كان السبب بهذه التسمية .

ثم قرأنا ورقة الشروط على الشيخ إطعيْسان وأفهمناه [مضمونها] ، فرضي بتلك الشروط و وضع ختمه وقال : أنا أول من أطاع وآخر من/عصي ، إنني معكم في كل أمر تريدونه الذي به خير العرب ، وضرب ختمه واسمه. ٥٢/٢

وكذلك حضر ثاني [يوم رجل] يقال له سطّام ابن مِعْجِل ، شيخ عرب عبد الله ، قبيلته تحتوي على ألف ومائتي بيت ، فقبل كذلك بالشروط و وضع اسمه وختم بإصبعه حيث

(٢٨) « الراجل » .

(٢٩) عبارة الصائغ متقلقلة وغير واضحة المعنى . فهو يقول : « وكان ما صار له زمان وصل بعده الذلول » .

(٣٠) « اصدقني » .

(٣١) « قضب » .

ماله ختم. وأيضاً ذراك شيخ عرب الرفاشة[٣٢]، وضع اسمه وختم بإصبعه وهو الذي كنا ذكرناه سابقاً.

ثم نزلنا في منزلة يقال لها عين الوساد بقرب نهر يقال له الشابور[٣٣]. فكان قريب منا قبيلة من العرب يقال لها الوِلْدة، شيخها اسمه جندل المهيدي، تحتوي على ألف وست مئة بيت، رجال مجربة بالحرب والقتال. فأرسل الدريعي يدعوه[٣٤]عنده حتى يدخله بالرباط مثل غيره. ولكن جندلاً المذكور كان بلغه جميع ما حصل في بلاد سورية من الأمور مع العربان والدريعي والوهابي، وعارفاً بورقة الشروط والرباط، الغاية أنه كان على علم بجميع ما حدث حين وصل عنده رسول[٣٥]الدريعي يدعوه للحضور، فقال له: ارجع إلى سيدك وقلْ له أن جندلاً وعربه ما هم تحت يدك، وكل هذه الأمور راجعة إلى خراب بيتك وزوالك[٣٦]من العالم، إنك لست بقدر ابن سعود ولا تقدر على مثل هذه الأمور، فحط عقلك في رأسك وضعْ هؤلاء المدبرين الذين يعملون على تدبير خرابك وخراب العرب.

فعاد الرسول وتكلم بما ذكرناه. فاغتاظ الدريعي ومن كان حاضراً، حتى أن سحن ابنه نهض قائماً وأرسل من ينبه العربان ليكونوا على استعداد للذهاب عند قبيلة الوِلْدة وضربها، وإحضار جندل أسيراً[٣٧]. فقلت له: يا سحن، كن طويل البال، إذ يظهر من الكلام الذي بعثه مع الرسول أنه ليس كلام عدو، بل كلام إنسان غير فاهم حقيقة الأمور، والذي بلّغه الخبر هو من الوشاة، وليس من الأصدقاء، فخذ الأمور بالحلم[٣٨]. ويجب أن نكتب لهذا الرجل كتاباً نجلب خاطره ونعلمه نوعاً ما عن رباطنا وأنه يرجع إلى خير طائفة العرب لأنه اتحاد وليس تفرقة، ومن المعلوم أن الاتحاد قوة[٣٩]وخير/للطائفة. واعتمدنا على المكتوب. ثم في الليل قال لي الشيخ إبراهيم: ليست المهارة[٤٠]أن تكتب له مكتوباً، ولكن /٥٣

---

(٣٢) «الرفاشا».

(٣٣) كذا، ولعله يريد الخابور كما يظهر من سياق الحديث.

(٣٤) «يعزمه».

(٣٥) «مرسال».

(٣٦) «وذوالانك».

(٣٧) «يسير».

(٣٨) «بالرايق».

(٣٩) «مكن».

(٤٠) «الشطارة».

المهارة أن تذهب عنده وتحضره معك وتدخل في عقله أن يكون معنا، وترفع من رأسه الوسواس والأمور غير الملائمة لنا، قلت على رأسي.

ثم ثاني [يوم] قلت للدريعي أريد منك أن ترسل معي من يوصلنا عند جندل. فتعجب من ذلك وقال لأي سبب تذهب أنت عنده؟ إن جاء من تلقاء نفسه فأهلاً وسهلاً به، وأن لم يأتِ فهذا السيف يحضره. فقلت له: ياسيدي، الشيء الذي يمكن عمله باللسان فقط، لأي شيء حتى نتعب حالنا ونسفك دماء رجالنا؟ فإن رضي وحضر معي انقضت المصلحة، وإن لم يطاوع، أرجع حالاً وندبر له عندئذ طريقة أخرى.

وبالحال ركبت وأرسل معي اثنين من الخيالة وتوجهنا. وبعد ست ساعات من المسير وصلنا عنده. فسلمنا عليه وجلسنا، فما عرف الدعوى وظن أننا ضيوف عابرو الطريق، حتى تكلم رفقائي وسلموا على الحاضرين ففهم أنهم من عرب الرولا[٤١] تابعين الدريعي. فسأل رفقائي عني فأجبته: أنا محبك والساعي في خيرك عبد الله الخطيب. فعرف عندئذ من أنا وأني جئت لاحضاره. فقال: لولا أنك وطأت[٤٢] المحل لكنتُ جعلتُ قتلك شهرة، ولكن لا يمكن الآن ذلك إذ ليست العادة[٤٣] عندنا. ثم قلت له: ياأمير، الكلام لا يلصق بالإنسان، أريد أن أتكلم مع محبتك كلمتين سراً في ظهرة[٤٤]، يعني خلوة، فإن رأيت أن الأمر يناسبك ويرضيك[٤٥] كان به الخير، وإن لم يناسبك فإننا نعرف الدرب[٤٦] الذي جئنا منه.

فقام حالاً وأخذ معه ابنه الكبير، وقمت أنا ورفقائي واجتمعنا خارج البيت بالسهل، على حسب عوائدهم، كما ذكرنا سابقاً. فقلت يا جندل، أي شيء في الدنيا ترغب فيه أكثر: العبودية أم الحرية. قال: لا شك الحرية. قلت: تحب الوفاق أكثر أم الإنشقاق[٤٧]؟ قال: الوفاق. قلت: تحب العز أكثر أم الذل؟ قال: العز. قلت: تحب الفقر أكثر أم

---

(٤١) كذا، أي الرولة.

(٤٢) «دَعَسْتَ».

(٤٣) «الطريقة».

(٤٤) «ظهرا».

(٤٥) «وقطع عقلك».

(٤٦) «دبر».

(٤٧) «التفخض»، وهو لا شك يريد التفخذ. أي الإنقسام إلى أفخاذ.

الغنى؟ قال: الغنى. قلت: تحب القوة[٤٨]أم الضعف؟ قال: القوة. قلت: تحب الإنكسار[٤٩]أم النصر؟ قال: النصر. قلت: تحب الخير/أم الشر؟ قال: الخير. قلت: ٥٣/٢
ما هي الأسباب التي تجلب ذلك؟ قال: الحرية والاتحاد. قلت: من حيث أنك تعرف ذلك كيف تقول عنا أننا جواسيس[٥٠]مفسدون نريد خراب العربان. فنحن مرادنا أن نخلصكم من أسر الوهابي ومن ظلم العثماني وخيانته، ونجعلكم أحراراً أقوياء في ذواتكم، و ورقة الشروط التي سمعت بها هي لأجل اتحادكم مع بعضكم بعضاً وتقويتكم بالأكثر على أعدائكم، والخصام[٥١]مع الوهابي كي نخلصكم من رق العبودية ونجعلكم أحراراً في أنفسكم. فبما أن هذا الأمر الذي نرغب فيه فكيف تبين لك أن مرادنا خرابكم؟ قال: صحيح ولكن يا عبد الله نحن لسنا بقوة ابن سعود حتى نعاديه، هذا سلطان وجيوشه كثيرة. قلت: اعلم أولاً أنه إنسان مثلك، وثانياً أنه ظالم والله لا يحب الظالمين ولا يصلح عمل المفسدين، ثالثاً أنه غشيم لا يحسن تدبير ما يجب[٥٢]، رابعاً لا تظن أن النصر يحصل بكثرة العساكر، ولكن الله يعطي النصر لمن يشاء، وكم من جيوش قليلة كسرت جيوشاً كثيرة. فالمسألة ليست بكثرة العساكر بل بالمحبة والوئام[٥٣]إذا كان موجوداً. فإذن أرفض كامل الوسواس من بالك، وتأكد أن قصدنا خيركم ونشاطكم، وقيام عزكم وجاهكم، ورفع مجدكم وراياتكم، وإغماد سيفكم في رقاب أعدائكم، فلا تكن من الأغبياء بل من المدركين، وبالله نستعين على القوم الظالمين. وقمتُ حالاً دون أن أعطيه الوقت ليرد علي، وصافحته وصافحت ولده، فَسُرّ من ذلك ودخل في عقله وقال: جميع ما قلته يا خطيب فهو حق وصدق، فكن طيب الخاطر فكل شيء يكون وفق إرادتك.

ثم رجعنا إلى البيت وذبحوا رأس غنم وتغدينا وقضينا ذلك النهار عندهم. وما كان عملي[٥٤]ذلك النهار والليل إلا وعظهم[٥٥]، حتى صاروا جميعهم بيدي مثل الخاتم. وثاني

(٤٨) «التقواي».
(٤٩) «الكسر».
(٥٠) «دواسيس».
(٥١) «ضشمنة».
(٥٢) «غشيم تدبير الواجب ماعنده».
(٥٣) «الوفق».
(٥٤) «كاري» أي صنعتي.
(٥٥) «أكرز عليهم»: أعظهم وأكرر النصح.

يوم ركبنا . وركب معنا جندل وتوجهنا عند الدريعي ، فدخلنا وسلمنا عليه . فتعجب المذكور والشيخ إبراهيم من ذلك . ثم أخرجنا له ورقة الشروط وقرأناها وأفهمناه رموزها ومعناها . وكذلك الدريعي أعلمه بجميع ما رأى منا من النصائح والتدابير الجيدة الراجعة إلى خير العرب . فانشرح من ذلك وقال : إن غاية مرادي هذا الأمر ولكني أخشى ألّا نكون كفوئين له فنفشل ونخرب ، ونكون نريد الخير فيحصل لنا الشر وتضحك منا الناس . فقلت يا جندل إن الله مع الضعيف كي يتعجب القوي ، إن الله مع منكسري القلوب ، الله جبّار[٥٦] الخواطر ، ١/٥٤ /كن مع الله ، الله يكون معك . ثم قال : توكلنا على الله و وضع ختمه واسمه بالورقة وأعطى كلاماً ثابتاً ، ففرحت بذلك ، وصارت ضيافة عظيمة لي ولكبار الموجودين في عربنا .

(٥٦) «جار».

[الدخول في الحلف]

وثاني يوم توجه وراح إلى عربه، ونحن رحلنا ونزلنا في أرض يقال لها **خِشْم الحواره**. وهناك كنا بالقرب من جبل سِنْجار وسكانه، كما هو معلوم، يعبدون الشيطان. وكنا أيضاً قبله على نهر الساجور[1] بالقرب منا [قبيلة] يقال لها المفنفج[2] أميرها اسمه حمود التامر. فهؤلاء مثل عرب فحل الخليل بني سعيد، لا يرحلون مثل عرب عنزة، بل إقامتهم دائماً على نهر الساجور[1] وحول جبل سنجار. وقبيلتهم كبيرة تضم نحو خمسة آلاف بيت، جميعهم رجال حرب[3]، ينقلون التفنك أكثر من الرمح، ويأخذ أميرهم الخوة[4] من كامل قرى الجزيرة. وكل أهل بلاد العراق تخاف منه وتهابه جداً. فقال لي الشيخ إبراهيم: كيف السبيل يا ولدي حتى ندخله في جمعيتنا؟ قلت: هذا حصتك، واحد عليك و واحد علي. فقال: لا تتأمل مني ولو بواحد، قم دبّر حالك معه. فتكلمتُ مع الدريعي وتم رأينا أننا قبل كل شيء نكتب له كتاباً ظريفاً ونرى ما يكون جوابه، فنعلم طرفاً من نواياه[5]. فكتبنا له مكتوباً وكان بهذه اللفظات:

(١) كذا، والواقع أنه يريد الخابور.

(٢) في مكان آخر: المفنفخ؟ (بالخاء بدلاً من الجيم).

(٣) «حرباجية».

(٤) «خواة».

(٥) «يصير معنا رموز لنيته».

بسم الله الرحمن الرحيم رب العالمين . من الدريعي ابن شعلان إلى حمود التامر ، بعد السلام عليكم ورحمة الله لديكم ، نعلمك يا محب ، أعلمك الله بالخيرات ، أنه ربما بلغك أحوال الظالم ابن سعود الذي يستعبد العربان ويبتز أموالهم[٦] ويقتلهم بالحروب بجرائره ، لأجل عظمته وغاياته الفاسدة ، حتى خرب حرم الله الشريف ، وقطع الحج المُنيف ، وكل مراده أن يكون سلطاناً[٧] على العرب ، ويملكهم ويسودهم ويتمّ مقاصده بواسطتهم . فلم يزل يأخذ الجزية[٨] ، ويجعلنا في العبودية ، ويقتل من أهل السنة . فهذا الرجل لا بد أن يصل شرار ناره إليك ، كما وصلنا إلينا وإلى غيرنا . فحين شاهدنا هذه الأفعال ، وهي ضد الطبع البشري وضد إرداة المولى ثقتي ، توكلنا على باسط الأرض ورافع السماء ، وشمرنا عن ذيل الجد ، وقصدنا أن نحقن[٩] دماء إخواننا العرب المؤمنين ، وإنقاذهم من يد/هذاالظالم الغشيم . فنحن ٢/٥٤ الآن لذا مهتمون وإلى جوابك منتظرون ، ونرغب أن تكون لنا معيناً ومعاذاً ، والله أكبر[١٠] على القوم المخالفين والسلام .

وسلمنا المكتوب إلى خيال خصوصي وذهب بالسلامة . وثاني يوم إذ ورد علينا المرسال من غير جواب ، وأخبرنا أن حموداً قرأ الكتاب وما أعطى جواباً ، بل قال : قم رحْ عند سيدك وقل له ما عندي لكم جواب . فاغتاظ الدريعي من ذلك وقال : يا عبد الله هذا الرجل لا يمكن أن يدخل معنا عن طيبة خاطر[١١] لأنه قوي الظهر ، أولاً برجاله وثانياً بسكان جبل سنجار ، لأنهم جميعاً يلبّون نداه . فما له عندي من دواء غير السيف ، ولذا فإني سأرسل له ورقة وأردّ عليه النقا . وثاني يوم كتب له ورقة بهذه اللفظات[١٢] :

من الدريعي إلى حمود ، سبق أن أرسلنا إليك مكتوباً ولم ترد الجواب ، فبان لي من ذلك أنك تريد الخصام معنا ، فمن حيث أنك تريد ذلك فخذ حذرك[١٣] ، مردود عليك النقا . وأرسله مع خيال ثان . وسلمه المرسال المكتوب ، فحين قرأه تغيرت ألوانه ، وحالاً

---

(٦) « يلصهم » .
(٧) « يتسلطن » .
(٨) وهو يريد الزكاة .
(٩) « اكتفاف » .
(١٠) « وماذا الله وأكبر » .
(١١) « بالمليح » .
(١٢) الألفاظ .
(١٣) « خوض حضرك » .

أرسل من قبيلته رجلين كبيرين بالسن[١٤]، أحدهما عمه وآخر غريب، وحملهما كلاماً وسارا مع خيالتنا. ثم وصلا إلينا وطلبا خلوة. فاجتمعنا خارج البيت على حسب العوائد. فقالا: يا جماعة كلما ذكرتم لنا هو حق وصحيح، ولكن حمود التامر ليس رجل حرب[١٥] مثلكم. صحيح أنه من العرب، ولكنه مستقر لا يتزعزع وأنتم لستم عنده دائماً، ويخاف من شر الوهابي على حاله ورجاله ورزقه. فقال الدريعي: حمود، بفضل الله، قوي بقوة الله ورجاله. وهو لا يحسب حساباً لغزو ابن السعود. فالوهابي لا يحضر بنفسه بل يجيء من طرفه غزو فقط. وأكثر ما يكون خمسة آلاف. وعلى ظني أن حموداً لا يأكل[١٦] همها. وإن شاء الله أني سأقطع أخبار غزو الوهابي من هذه الديرة. فأنا وكامل من يلوذ بي من العرب معه على الخير والشر حتى الموت. ولكن إن خالف فأنا وجميع مَنْ اتّحد معي خصومه إلى الأبد. فليطلع عند عبادين الشيطان ويلوذ بهم[١٧]، ويستعين بكل الشياطين، وأنا بعون الله انتصر عليه وسوف يندم على ذلك./ ١/٥٥

فبعد كلام كثير، من الدريعي بالتهديد، ومنّا باللين، قالوا: نحن ليس معنا تفويض بإعطاء جواب، يجب أن نخبر حموداً بجميع ما ذكرتم، وهو يفعل ما يستحسنه. وبالحال ركبوا ورجعوا عند حمود وكلموه بجميع ما سمعوه. فخاف من ذلك وحسب حساباً كبيراً للدريعي، ثم أرسل ابن أخيه، وهو شاب متكلم يقال له صقر، وبصحبته عشرة خيالة، كي يدعونا للذهاب عنده. فوصل المذكور واستقبلناه بكل إكرام، فدعى الدريعي ومن يلوذ به وكل الكبار الموجودين في القبيلة إلى ضيافة عمه الأمير حمود التامر. فركب الدريعي وأولاده وكل الكبار والشيخ إبراهيم والفقير، وركب معنا ثلاث مئة[١٨] خيال وتوجهنا عند المذكور. فركب هو وكبار قبيلته ولاقونا من نحو نصف ساعة، وصار لعب خيل وفَرَجٌ.

ثم نزلنا عن الخيل فعملوا[١٩] معنا كل معروف وإكرام وذبحوا ثلاثين رأس غنم وخمسة جمال وابتدأوا يُعدون المآكل. وجلسنا نحن وسلمنا على حمود التامر، وهو رجل ذو حسن

---

(١٤) «اختيارية».

(١٥) «نزال».

(١٦) «يهكل».

(١٧) «يحاصر عند عبادين الشيطان».

(١٨) بالأصل خمس مئة ثم أبدلها الصائغ بثلاث مئة.

(١٩) «فساقو».

وشجاعة ومعرفة جيدة. فاختلينا مع المذكور وصرنا نتفاوض ونتكلم كثيراً. ففهمنا نيته وهو أنه يريد هذا الأمر، ولكنه يخاف من تقلبات العرب. فهو يقول: إن العرب ليس لهم رباط ثابت، وأخاف أن تتغير نواياهم ويفسد الرباط، فأولاً يكون نصيبنا الخجل، وثانياً يشتد علينا من جديد ساعد العثماني والوهابي وتحرقنا نارهم. فأكّدنا له أن هذا الشيء لا يحصل لأننا عملنا رباطاً عظيماً، بالشروط الواجبة، وسوف يطّلع[٢٠] عليها ويرى أن الرباط متين، لا يستطيع أحد أن يخون من جميع الذين يدخلون معنا على هذا الرأي. فوثق[٢١] بهذا الكلام وأعطى القول إنه سيحضر عندنا ويسمع [ما هو مكتوب] بالورقة ويضع ختمه عليها.

فقمنا من الخلوة مسرورين كافة، وكان حضر طعام الغداء فوضعوه بالسبهل، أمام البيت، في خمسة مناسف من النحاس، كل واحد منها يستطيع أن يجلس فيه أربعة أنفار، عليه من الأرز بعلو نحو ذراعين، وفوقه خاروف محشي. ولكل منسف أربع آذان من نحاس. وحين وُضع على السُّفْرة[٢٢] حمله أربعة عبيد. والشخص الذي يكون أمامك على السفرة لا يراك ولا تراه/من علو الأرز وكثرته، لأن الأرز عندهم كثير وهم يستوردونه من مرعش وملطية حيث ينتج بكثرة. وخبزهم من الحنطة ممتاز، ويستوردون حنطتهم من بلاد الرها، لأن الحبوب تطلع كثيراً في بلاد الرها أعني ديار بكر وغيرها. ٢/٥٥

ثم بعد الغداء وكان قرب المساء، ابتدأت الطروش بالإياب، من جمال ونوق وغنم وجواميس[٢٣] وخيل، وأشياء لا توصف. فيطلع عندهم سمن وصوف وجمال يبيعون [منها] إلى بلاد الرها بمبالغ عظيمة. وأما نساؤهم فجميلات جداً، ولباسهن أفخر من ملابس عرب عنزة: في أيديهن أساور فضة وحبال مرجان وحبال كهربا[٢٤] وفي أذانهن أحلاق فضة أو ذهب، وفي أنوفهن خزائم[٢٥] من ذهب أو فضة أو نحاس، [ويلبسن] القنابيز من القطن والحرير[٢٦]. وكذلك لباس الرجال أحسن من لباس عرب عنزة. وكل ذلك من الخيرات التي تطلع عندهم.

---

(٢٠) «وسوف تسمعهم».

(٢١) «متأمن».

(٢٢) «الصفرا».

(٢٣) «جاموس».

(٢٤) «كاربا».

(٢٥) «خذامات».

(٢٦) «قنابيذ قطني حرير».

وقبل المغرب ركبنا من عنده، وأعطانا كلاماً أنه بالغد سيحضر إلى عندنا. ولما كان الغد قبل الظهر حضر حمود عندنا وبصحبته ابن أخيه صقر الذي أتينا على ذكره، وابنه و ولده الذي يبلغ عمره سبع عشرة سنة اسمه تامر، ونحو عشر رجال مسنين من خواص قبيلته، ونحو ماية خيال لا غير. فترحبنا بهم، وبعد شرب[٢٧]القهوة عملنا خلوة وقرأنا له الورقة وأفهمناه معناها جيداً. وصار تفاوض وكلام كثير ورضي بجميع محتوياتها، وأعطى كلاماً ثابتاً و وضع ختمه واسمه على تلك الورقة، وصار فرح عظيم واتحاد ومحبة شديدة. وبعد الغداء، قبل المغرب، ركب وتوجه إلى بيته.

ومن هناك رحلنا ونزلنا بقرب نهر ( )[٢٨]، وهو نهر عظيم، وعليه دائماً أناس بالفلائك ليقطع النهر من يريد بالاجرة. فبعد وصولنا بيوم، حضر واحد بدوي من نواحي بلاد نجد على هجين. وقد جاء خصوصياً من عند أمير يقال له علي ابن آعْوَاد وقبيلته يقال لها الخُرْصَة[٢٩]. وبصحبته مكتوب من المذكور إلى الدريعي، لأنه صديقه الحميم. فقرأنا المكتوب وكان بهذه اللفظات:

السلام من علي ابن آعْوَاد إلى الدريعي ابن شعلان. والثاني الذي بعلمك، أعلمك الله علوم الخير يا وجه الخير، نعرفك أن/نهار أمس حضر طروش من ناحية الدِّرْعِيّة[٣٠]وأخبرونا أن ابن سعود زعلان كثيراً منك بسبب الأفعال التي تفعلها ضده. وجميع ما عملته صار معلوماً عنده، وقد فَهِمَ أن حكاية الرباط والشروط الذي فيه موجهة ضده، والآن قد عزم على أن يكون ضدك وينفي ذكرك وذكر من يتحد معك من على وجه الأرض. وقد أوعز إلى كاخيته[٣١]ومعتمده عبد الله الهدّال بذلك، وأمر كافة العربان أن يكونوا تحت طاعته لأجل خرابك وخراب من يرتبط معك. وقد ابتدأ الآن عبد الله الهدال يأخذ التدابير اللازمة لذلك، وكل بلاد الدرعية ونجد متقلقلة من ذلك، وتريد كسر شأنك وتنكيس أعلامك، لأن ابن سعود وكامل العربان فهموا جيداً أن هذا التدبير والرباط مع

٥٦/١

(٢٧) «شرف»، ولعله من خطأ النسخ.

(٢٨) بياض في الأصل، ويذكر الصائغ بعد قليل اسم هذا النهر فيقول الساجور، والواقع أن الساجور يصب في الفرات قرب جرابلس، إنما يريد الخابور.

(٢٩) «الخرسا»؛ والخُرْصَة من الفِدْعان من عَنَزَة.

(٣٠) «الضرعية».

(٣١) كُدْخدار أو كاخيا كلمة تركية تشير إلى موظف كبير يعتمد عليه القائم بالأمر في المهمات.

العثماني[٣٢] لأجل خراب دولة الوهابي، وامتلاك مكة والمدينة وارجاع الحج كما كان سابقاً. فالرأي عندي أن ترفع من ذهنك جميع هذه الأمور الصعبة وتتجنب عمل الشيطان وتضع في رأسك عقل الرحمن، وتميل إلى أبناء جنسك الذين لا يمكن أن يغشوك أو يخونوك، وبذلك تكسب حالك ورجالك ومالك، لأن ابن سعود سيفه طويل وماله كثير وجيوشه طوابير[٣٣]، ولا يمكنك قتاله بل تخرب حالك بيدك وتندم حيث لا يعود يفيدك الندم. وأنا ناصحك من باب المحبة والصحبة وحق[٣٤] الخبز والملح. وقد أنذرتك بجميع ما حصل فافعل ما به خلاصك ولا تكن عنيداً والسلام.

ولما قرأت ذلك قال الدريعي: فَشَر، الله أكبر عليه، الله يدبر كل أمر[٣٥] عسير. وقال الشيخ إبراهيم: لقد ظن المغفل[٣٦] الوهابي أننا ننوي خرابه من طرف العثماني، فهو غلطان جداً، وأنا لا أريد أن يكون العثماني أقوى منه ولا أن يقوى هو على العثماني، وكل مقصدي أن لا تكون يد أعلى علينا لا من هذا ولا من هذا، حتى أذا أردنا أن نفعل أمراً في بريتنا لا يستطيع أحد أن يمنعنا عنه.

ثم قال الدريعي: اكتب يا عبد الله لعلي ابن عواد جواب مكتوبه بحسن معرفتك، ولكن إياك أن تظهر له باب الذل، ولكن ليفهم أننا لسنا من طرف العثماني/بل نريد أن لا نكون تحت امره. فأخذت [ورقة] وكتبت له مكتوباً بهذه اللفظات: ٥٦/٢

من الدريعي ابن شعلان إلى علي ابن عواد، وصل كتابكم وفهمنا خطابكم، فبخصوص ما ذكرتم لنا عن ابن سعود، فهذا وحق رب السموات والأرض لا أحسب له حساباً بثقل حبة خردل، فليقدم على أكثر ماعنده، والله أكبر من كل كبير، وإن شاء الله سوف يرى ما يحل به من سطوة مولانا السلطان[٣٧]، نصره المالك الرحمن، وما سيجرى عليه وعلى بلاده، هذا الظالم الغاشم الذي يريد أن يستعبد العربان، ويملكهم تحت يده، ويجري أوامره وغاياته عليهم، وذلك راجع إلى خرابه وخراب كافة عربان ديرته والسلام.

---

(٣٢) «الرباطات من العثماني».

(٣٣) فيالق.

(٣٤) «حقيقة».

(٣٥) «أمراً».

(٣٦) «التيس».

(٣٧) ما كتبه الصائغ يخالف الأوامر الصادرة من الدريعي.

وأعطينا الكتاب إلى المرسال(٣٨) . وسألناه من كم يوم خرجت من عند علي ؟ قال : من ستة أيام . وكان راكباً هجيناً خمساوياً(٣٩) ، فتكون الجملة ثلاثين نهاراً . ثم ركب وتوجه . وبعد ذهابه قال لي الدريعي : أني تعجبت منك كيف ذكرت في مكتوب عليّ سوف ترى ما يحل بك من سطوة السلطان ، وأظهرت كما لو أننا صحيحاً من طرف العثماني بهذا الشغل . قلت : نعم وهذا هو التدبير الواجب ، دَعْهُ يظن أننا من أتباع العثماني ، فيدخل عليه بالأكثر الخوف والوهم بهذه الطريقة . وكذلك إن أتانا مكتوب من العثماني بهذا المعنى ، نظهر حالنا من طرف الوهابي ، ونقطع قلوبهم من سطوة الواحد على الآخر ، ونحن نستريح ونفعل ما نريد : هذا هو عين السياسة الصالحة لنا . ففرح من ذلك .

ثم رحلنا ثاني يوم وقطعنا نهراً يقال له الساجور(٤٠) . فوجدنا هناك أناساً تقطعّ النهر بالفلائك لأنه نهر عظيم كبير وشاطئه كله رمل ومن الصعب جداً قطعه على ظهور الخيل إذ تغرز فيه رجل الدابة . فهذا النهر يقطع الجزيرة بالنصف ، ومواصل من الفرات إلى الدجلة(٤١) . ونزلنا على طرف النهر المذكور . وكان بالقرب منا قبيلة يقال لها الشرارات .

١ / ٥٧ أميرها اسمه عابد ابن آصْبَيْح . فهذه القبيلة تحتوي على ألفين وثلاث مئة بيت ، رجالها أهل حرب / ولكنهم عنيدون جداً وغشماء نوعاً ما ، ونساء هذه القبيلة أفهم من رجالها . ثم كتب الدريعي مكتوب سلام ومحبة إلى أميرها ودعاه لكي يحضر عندنا . فلما وصل المرسل [وقرأ الرسالة] غضب ومزّق المكتوب وقال : أنا عارف بجميع هذه الحيل(٤٢) . قم وعد عند سيدك وقل له ما من جدوى ، والله العظيم ، إنه لن يراني في اتحادهم ، ولن يرى اسمي وختمي ولو فنيتُ أنا وكل عربي ومن يلوذ بي من القبائل والعشائر . فرجع المرسل وتكلم بجميع ما ذكرنا . فقال الدريعي : إني على علم تماماً أنه سيحصل مثل هذه الأمور ، أولاً لأن قبيلة الشرارات مشهورة بالغشم والجبن ، ثانياً لأنه توجد صداقة عظيمة بين عابد وعبد الله الهدّال ، كاخيا ابن السعود ، وهو المسؤول لدى المذكور عن خرابنا . قلت : هذا رأي جيد ، ولكن كيف عرف عابد بهذه الأمور ، ومن أين له أن يعلم أن الوهابي قد اسند إلى عبد الله الهدال أمر مضادتنا ؟

---

(٣٨) المرسل أو الرسول .

(٣٩) الهجين الخمساوي يقطع في اليوم المسافة التي تُقطع عادة في خمسة أيام .

(٤٠) يريد الخابور .

(٤١) الواقع أن الخابور يصب مياهه في الفرات آتياً من نواحي الدجلة .

(٤٢) «الملاعيب» .

قال : الذي أتى بمكتوب علي ابن عواد وأخذ جوابه قد يكون مرّ عليه أثناء مسيره من عندنا ، وحكى له جميع الواقع . ففحصنا عن ذلك و وجدنا أنه بالواقع مرّ به ، وأن ظنّ الدريعي بمحله . فقلت : وما يستحسن عمله الآن ؟ قال : هذا السيف يفصل بيننا وبينه ، والله أكبر عليه[٤٣] .

ثم ثاني يوم ركب سحن بنحو خمس مئة خيال فقط وسار إلى غزو قبيلة عابد كي ينهب طرشها كما هي عادتهم دائماً . فغاب عنا/ثلاثة أيام وعاد اليوم الرابع وقد كسب مئة ٥٧/٢ وأربعين جملاً ورأسي خيل عظيمة . وحكى لنا أنه حين أغار على الطرش وصل الخبر إلى البيوت . فركبت عرب الشرارات ولحقت بهم ، فوقعت حرب شديدة بينهم . فقتل من عربنا أربعة أنفار فقط ، ومن عرب الشرارات كذلك ، وأما المجرحون[٤٤] من الفريقين فكثيرون . والسبب في وقوع قليل من القتلى أنهم يتحاربون بالرمح فتكثر الجرحى . ومن جمله خيالتنا الذين كانوا مع سحن واحد يقال له صبيهي ، شاب عظيم من أقرباء زوجة سحن . فعادوا به محمولاً ، وكان به تسعة جروحات كبيرة بالغة بالسيوف وضربتان بالرمح خارقة من الخاصرة إلى الأخرى وفي رأسه ضرب كناة كسرت رأسه . فالكناة هي عصا رأسها مكتل بقدر الرمانة ، مضروب بها مسامير من الحديد . وأحد الرماح لم يزل مشكوكاً فيه مثل قربة اللحم ، فوضعوه على الأرض ولا يمكن أن يميّز المكان المجروح من السليم إذ كان مثل بركة دم . فأتوا حالاً ونشروا طرف الرمح من الجانب الواحد عند خاصرته وسحبوه من الطرف الثاني . وبينما هم على هذه الحال إذ رفع أجفانه فرآني واقفاً فوق رأسه فقال : لا تخف علي يا عبد الله تراني بعون الله سالماً[٤٥] . أعطني غليونك حتى أدخن[٤٦] التوتون . ومد يده وأخذ الغليون وصار يدخن كأنه في غاية الصحة وكأنه لم يحدث له أمر . فتعجبنا منه نحن وكل من كان حاضراً ، وبعد عشرين يوماً شفي وعاد إلى ركوب الخيل أحسن مما كان سابقاً . وكل المداواة[٤٧] كانت قلة شرب الماء ، لأنه يشرب عوضاً عن الماء حليب الجمال والسمن الطرى ، وأكله دائماً التمر بالسمن مع قليل من الخبز . وكل ثلاثة أيام تغسل جروحاته ببول الجمال . وعلى تلك الحكمة

---

(٤٣) « الله وأكبر » .
(٤٤) « المجاريح » .
(٤٥) « طيب » .
(٤٦) « اشرب » .
(٤٧) « حكمته » .

شفي ورجع كما كان أولاً بل أحسن. فتعجب الشيخ إبراهيم وقال: لا يمكن أن يلتقى بباريس جراح[48] يشفي مثل هذا الإنسان بعشرين يوماً.

ثم نمت العداوة وكثرت بيننا وبين عابد، وصار يجمع العربان الذين هم تحت قيادته، وحميت المادة جداً بين الطرفين. ثم رحلنا ونزلنا في أرض يقال لها **الكافرية**، أرض رمل ما فيها ماء إلا من نهر الخابور[49] الذي كان بعيداً عنا نحو ساعتين من الزمن، /فجميع المواشي ترد ٥٨/٢ للشرب كل يوم بعد طلوع الشمس حتى تسرح في المرعى. وجميع مايلزم من الماء للخيل والبيوت تنقلها النساء على ظهور الجمال بالروايا. وفي كل بيت يوجد راوية، وفي بيوت الكبراء راويتان وثلاث روايا لأجل جلب الماء، إذ كانوا في مكان، وكان الماء بعيداً عنهم. وجميع الروايا كبار من جلود الجمال.

فبعد ثلاثة أيام من نزولنا في هذا المكان، إذ رمت الرعيان الصوت على العرب، وقامت الصيحة والضجة بالنزل. وكان السبب أن عرب الشرارات أغارت على الطرش، وهو يشرب، وأخذت منه عدداً عظيماً نحو ثماني مئة جمل. فركبت الخيل وسحن معهم وطلبوا أثر العدو، فوصلوا إلى النهر فما وجدوا أحداً لأنهم كانوا قطعوا وراحوا وأبعدوا كثيراً. لأن النهر، كما ذكرنا، يبعد ساعتين [عن النزل]، فاقتضى لمجيء الرعيان وأخبارهم بالغزو ساعتان، ونحو ساعة لركوب العرب وجمعهم، ونحو ساعة ركض إلى أن وصلوا إلى النهر فصار المجموع نحو أربع ساعات. ومن المعلوم أن الذين أخذوا الطرش أصبحوا بعيدين جداً فلا يمكن طلبهم كلياً. فحالاً نبه الدريعي بالرحيل والمشي بكامل العربان والبيوت على عرب الشرارات. فرحلنا نحن وقبائل الذين كانوا بالقرب منا من الأصحاب. وكان عددنا نحو عشرة آلاف بيت فجدينا بالسير كل ذلك النهار والليل، وأصبحنا الصباح أمام نزل الشرارات. فنزلنا بعيداً عنهم نحو نصف ساعة. وكان عرب الشرارات ومن معهم من غير قبائل نحو ستة آلاف بيت أيضاً[50].

وبعد طلوع الشمس أرسل الدريعي رسولاً[51] إلى عابد يقول له: يا عابد، كن

(٤٨) «جريحاتي».

(٤٩) «الساجور».

(٥٠) كذا، مع أنه سبق القول أن عدد بيوت الدريعي نحو عشرة آلاف.

(٥١) «مرسال».

آدمياً خير لك من العناد، وأرجِعْ بالرضى[٥٢] ما أخذت من الطرش واكسب حالك ورجالك. وإن عاندت حسب طبعك، لا تسأل عما سيجري عليك، لا أرحل من أمامك حتى لا يبقى منكم من يخبر عنكم. ونحن قد أنذرناك فافعل لخلاصك. فراح الرسول وعاد بالجواب: يقول عابد ارجع له الفرسين[٥٣] والجمال التي أخذها منه سحن ذلك اليوم وهو يرجع لكم ما أخذ منكم، وأما[٥٤] لا تتأمل بصحبته معك كما في عقلك./ ٢/٥٨

فقلت للدريعي: أصحيح أن هؤلاء الناس جبناء؟ فقال: إنهم ليسوا فقط جبناء ولكن أحوالهم ومزاياهم عجيبة، فَهُم أولاً ينقادون لنسائهم، في جميع أمورهم، ويراجعونهن بالشور في كل مادة يريدون أن يفعلوها، وهذا كان عندنا معلوماً، فمن جملة أطباع العربان ومزاياهم تكريم الحريم، وعمل الواجب لهن، وأخذ الشور منهن في جميع أفعالهم، ولكن هذه القبيلة بزيادة عن غيرها، وخصوصاً شيخها عابد فهو لا يعمل شيئاً من غير أمر حرمته لأن أولاً هذا طبع خاص بالعرب كما ذكرنا، ثانياً أنه يحبها بزيادة عن العادة، ثالثاً أنها صاحبة عقل وتدبير جيد. فجميع ذلك صار عندنا معلوماً وفكّرنا أنه ليس لدينا عندهم مدخل إلا من طرف النساء[٥٥].

فحين فهمنا ذلك قال الشيخ إبراهيم: عرفتَ من أين يمكن الدخول على هذا القوم. قلتُ: نعم من باب النساء. قال: دبّر حالك. فتكلمت عندئذ مع الدريعي وقلت له: استرح أنتَ وعليّ قضاء هذا الغرض وإدخال هذا الرجل في اتحادنا. لأن الحرب لا يحصل منها إلا الخسارة، وقتل الرجال، وتبديد المال، وزيادة العداوة، وسفك الدماء، وشماتة الأعداء. وأما أنا فمتحسن عندي أن أصل عندهم وأكلمهم بالذي يلهمني به الله. والرجاء بالله أن يحصل المطلوب ونكون بذلك وفّرنا الرجال والتعب. وإن أنا لم أقدر على ذلك يكون عندك الوقت لتعمل ما تريده. ولم يسمح لي بذلك إلا من بعد جهد. فحالاً أخذت معي هدايا من كهربا ومرجان وأساور زجاج وعبي سود وشملات حرير سود وقمصان قز حمر: أشياء بقيمة ألف غرش وتوجهت إلى طرفهم. فدخلت البيت فما وجدت عابداً

---

(٥٢) «بالمليح».

(٥٣) «رأسين الخيل».

(٥٤) كذا، والمعنى غير واضح. فهل يريد «وإلّا» كما يتبادر إلى الذهن أو يريد: «ولكن» فيستقيم المعنى.

(٥٥) في المخطوطة إشارة إلى أن هذا المقطع الذي بين خطين //، المدرج ص ١/٥٧، يجب أن يؤخر ليوضع ص ٢/٥٨.

فأخبروني أنه مجتمع مع المشايخ وأكابر القبيلة في بيت صهره زوج ابنته . فدخلت حالاً عند الحريم وسلمت عليهن[٥٦] سلاماً عظيماً طويلاً عريضاً كأنني أعرفهن منذ عشرين سنة . فرحبن بي واستقبلنني بإكرام . وحالاً أمَرَتْ زوجة عابد بذبيحة وابتدأن يعملن لي غداء ، فجلست عندهن وابتدأنا نتحدث عن أمور العربان من غير أن نفتح السيرة التي جئت أنا بسببها . وكان بلغ عابداً خبر حضوري فأرسل حالاً رسولاً[٥٧] إلى امرأته يقول لها اطردي هذا الضيف الذي جاء الآن عندك فهذا خطيب[٥٨] الدريعي عبد الله ، أتى خصوصاً حتى يفسد قبيلتنا ويخرب نظامنا . وإن جئتُ إلى البيت ورأيته فما له عندي من دواء إلا التقطيع بهذا السيف . فقالت للمرسل : رحْ وقلْ لسيدك عابد الضيف الذي جاء لم يأتِ عندك بل جاء عندي مخصوصاً ، وهو ضيفي فإن كان يستطيع أن يأتي ويقتله فهو حاضر في بيتي ، وكان اسمها اركية . فحين سمعت ذلك نهضت قائماً وقلت والله إني لا أبقى/قاعداً عندك ، فأنا ١/٥٩ جئت من غير إذن الدريعي مخصوصاً إلى عندك حتى أتشرف بمعرفتك . فإن كان بين عابد والدريعي بعض الأمور ، فأنا لا يعلق بي منها شيء ولست ملزوماً أن أتكلم بها ولو كلمة واحدة . ثم أخرجتُ بسرعة جميع ما كان معي من الهدايا و وضعتها أمامها وقلت : أرجو منك أن تقبلي مني هذه الهدية الدنية ، إذ جئتُ بها على اسمك ولا يجب أن أرجعها معي ، ولو أن زوجك كسر بخاطري ويريد أن يقتلني ، مع أن ذلك على علمي ضد رسوم العرب ، ولكن إكراماً لخاطركِ سامحته ، الله يساعدكِ على عقله ، لأني فهمت خلال هذه الساعة التي قضيتها عندكم ، أن لولا حضرتكِ لكانت هذه القبيلة[٥٩] عدمت ، ولكن من ذكاء عقلكِ وحسن معرفتكِ وتدبيركِ الجيد جعل هذه العشيرة[٥٩] بخير وعز وجاه ورفعها على كل قبائل عنزة ، أسأل الله عز وجل أن لا ينقصكِ عنها ، ولا يميلكِ عن رأسها ، ويكون عمركِ طويلاً ، وينصركِ على من يعاديكِ ، لأنك بالحقيقة جوهرة ثمينة ضائعة بين هؤلاء الناس . وركضتُ بسرعة كي أركب وأروح . فوثبتْ[٦٠] وأمسكت بيدي وحلفت بالله قائلة لا أدعك تخطو خطوة من هنا إلا بعد أن تكون رضيت عنا وراق خاطرك على عابد . فكن صافي البال

---

(٥٦) «عليهم» ، وكذلك في ما سيأتي من الكلام عن النساء يستعمل الصائغ الجمع المذكر السالم .
(٥٧) «مرسال» .
(٥٨) كاتب ، على اصطلاح أهل البادية .
(٥٩) يستعمل الصائغ القبيلة بمعنى العشيرة ولا يميز بين العشائر والقبائل .
(٦٠) «فغارتْ» ، يريد هَجَمتْ .

ولا تضع في عقلك أدنى شيء من كلام عابد، فَشَرَ[٦١] فهو يحكي كثيراً بغير معنى، وحياة الله العزيز لا أدعك تذهب من عندي إلا راضياً بكل ما تريد. ثم أدخلتني البيت وأعدت القهوة فشربناها. وهي لم تزل تتلطف بخاطري وتروّق خلقي. فقلت: يا اركية، الله يساعد زوجك على أيامه، لأنه لا يعرف الخير من الشر مهما كان. فظنّ أني جئت لأصالح والحال لو أن الدريعي عرف أني جئت عندكم كان تكدر مني كثيراً، لأنه لا يريد الصلح معكم ولا يستطيع أحد أن يكلمه بهذا الخصوص. ولو كان الأمر بيدي لعقدت الصلح، إذ يقول المثل الصلح سيد الأحكام، ولا ينتج عن العداوة إلا خسارة المال والرجال وكثرة الأعداء

٢/٥٩ وازدياد الخصام وشماتة العدو ./

وبينما نحن بهذا الكلام إذ أقبل علينا عابد، فما دخل البيت بل وقف خارجه وقال لولا أنك دخلت بيتي لكنت قتلتك يا جاسوس الشر. فردّتْ عليه زوجته قائلة: كذبت يا رجل فيما تقول. ثم خرجت عنده وكلمته وجرّته من يده وأدخلته عندي، فجلسنا للحديث فقلت له: يا أمير، ليس معي إذن بأن أتكلم معكم بخصوص الأمور الواقعة، بل أني جئت فقط حتى أكسب صحبتكم وأتشرف بمعرفتكم، لأن الصحبة والمعرفة بالناس شيء مشكور بالدنيا. ولكن بما أنك فتحت هذه السيرة فعرفني بذنبي الذي تريد أن تقتلني به. قال: ذنبك أنك تعمل على تدبير الدريعي لتجعل العربان تحت حكمه حتى يستكبر عليهم ويستعبدهم أكثر من الوهابي، وأنت مزمع[٦٢] على أن ترمي العداوة بيننا وبين الوهابي حتى تخربنا دون شك[٦٣]، وعلى الخصوص الورقة التي عملتها رباطاً حتى نبقى جميعنا في طاعة الدريعي يفعل بنا كما يريد. فقلت له: يا أمير عابد، الكلام الكثير لا يُستَحْلى. هل وصل إلى مسامعك أني أعمل على بث العداوة بين القبائل أم على صلحها؟ هل أريد إنقسامها أم اتحادها؟ هل أرغب في حريتها أم في استعبادها؟ عرفني ماذا ينتج عن الصلح؟ الاتحاد والحرية خير أم شر؟ فسكت فقالت له امرأته: علامَ سكَتَّتَ[٦٤]؟ رد الجواب على عبد الله. قال: ينتج عن ذلك الخير. قلت: بما أنك تعرف أن النتيجة خير فكيف تسميني جاسوس الشر؟ فاخزِ الشيطان من بالك وسمِّ بالرحمن، واعلم أن الذي مراده صلحك مراده خيرك،

---

(٦١) تبجّح.

(٦٢) «مزعم».

(٦٣) «ولا بدّ».

(٦٤) «علامك اسكة».

والذي مراده عداوتك مراده شرك. وصحيح أني عملت ورقة لأجل اتحادكم مع بعضكم بعضاً، كي تصيروا أقوياء من قوة بعضكم وتخلصوا من عبودية الوهابي وبلصه لكم في كل سنة. وأنا كما سبق القول ليس معي إذن لأتكلم معك بهذا الخصوص، والدريعي ليس له خاطر بالصلح كلياً. والآن ولو أردتَ أنت أن تذهبَ معي لما استطعْتُ أن آخذك، بل علي أن أذهب أولاً لإرضاء خاطره ثم أرسل من يحضرك، لأن جميع عربان الدريعي متأملين الكسب من عربك، لأنهم أكثر عدداً منكم وسيحضر بعد قليل قبائل تابعة للمذكور لا يعلم عددها إلا الذي خلقها./ ١/ ٦٠

ومن بعد كلام كثير دخلت اركية إلى الداخل[٦٥] وصرخت على عابد وتكلمت معه. ثم خرجا وأتيا عندي وقال لي عابد: افعل ما ترى فيه خيراً، إذ تأكدتُ من اركية أن الصلح أنسب لنا، وأنك تريد خيرنا وراحتنا واتحادنا[٦٦] فاذهب ودبر هذا الأمر بمعرفتك مع الدريعي، وأرسل لي رسولاً كي أحضر عندكم. فبعد الغداء ركبت ورجعت وتكلمت مع المذكور عن الرباط الذي صار بيني وبين عابد. فأرسل حالاً رسولاً يدعوه عنده. وبعد قليل حضر عابد وبصحبته ابنه وصهره ونحو خمسين خيالاً فقط. فترحبنا بهم وعملنا لهم غاية الإكرام وصار كلام كثير ومن بعد ذلك وضع ختمه واسمه بورقة الشروط وتوجه عند أهله وأرسل جميع الجمال التي أخذها من على النهر ونحن أرجعنا لهم جمالهم ورأسي الخيل وصار صلح عظيم.

(٦٥) «إلى جوا»، وبما أن الاجتماع كان داخل الخيمة فالصائغ يعني القسم الداخلي من البيت الخاص بالنساء.

(٦٦) «اعتصابنا» أي أن نكون عصبة واحدة.

[من قصص البادية]

ثم بعد يومين رحلنا ونزلنا بأرض يقال لها العاطرية، والسبب لهذا الاسم، على ما أخبرنا العرب، أن بعيداً عنا نحو ساعة قلعة قديمة اسمها العاطرة، وكان بيننا وبين الدجلة نحو ثلاث ساعات، [وفيها] مرعى ومياه كثيرة. فأقمنا ثمانية أيام في ذلك المحل ثم رحلنا وتوجهنا نحو الشرق، وبينما نحن في الطريق إذ حضر واحد من البدو راكباً على ذلول أملح يعني أسود. فسلّم على الدريعي وسلّم جميعهم عليه سلاماً طويلاً عريضاً بشوق واستمالة عظيمة، وخذوا يسألونه عن أحواله وعن الغرض الذي كان ذهب لأجله العام الماضي، فحدثهم بذلك، ونحن فيما بعد سألناه عن قصته فأخبرنا بها، وهي حكاية غريبة كما سنوضحه لمسامعكم الكريمة.

حكي أن هذا الرجل[1]، واسمه عَلْوان، كان يدور [في البرية] ذات يوم [سعياً وراء] الصيد. فبينما هو دائر مرّ بأرض وجد بها أثر حرب، من قتلى[2] وأدمية وأرماح مكسورة وسيوف مرمية، الغاية إثر حادث جديد. فصار يدور بين القتلى فوجد شاباً فيه رمق من الحياة، وهو يئن. فنزل حالاً وأركبه على الذلول وأخذه إلى بيته[3]/وابتدأ يعالجه ويداويه ٢/٦٠

(١) «الراجل».

(٢) ليس من عادة البدو إبقاء القتلى في البرية لتأكلها وحوش الفلاة.

(٣) ابتداء الكراسة نمرة ٨.

ويطببه[٤] ويخدمه ويعلله مدة ثلاثة أشهر ، حتى شفي واستراح [والتأمتْ] جميع جروحه ورجع كما كان بل أحسن . فقال له علوان : يا أخي فارس ـــ وهذا اسم الشخص[٥] ـــ أنت ولله الحمد استرحت ، فإن شاء خاطرك ذهبت بك عند أهلك . وإن شاء خاطرك تبقى عندي ، فأنا أخوك و زوجتي هذه امرأة أخيك ، والبيت بيتك ، أنت صاحب البيت وأنا ضيف عندك . فقال له فارس : أنت أخي ولولاك كانت بليت عظامي من زمان وأكلت لحمي الوحوش . فأيْنَ أستطيع أن أجد أهلاً أحسن منكم ، أنا لا أفارقكم ما دام في جسمي روح[٦] . فانشرح علوان من هذا الكلام ، وزادت عنده قيمة فارس ، وسلمه البيت وتدبيره . وما كان هذا الكلام من فارس وسبب بقائه عند علوان إلا حباً بامرأة علوان ، وكان اسمها حفظة إذ عشقها وعشقته وغاصا بالمحبة لبعضهما ، وليس عند علوان شبهة ولا شك في فارس ولا يمكن قط أن يفكّر بشي من هذا القبيل حتى [بان له الصحيح وذلك أنهم] في ذات يوم أزمعوا على الرحيل على حسب عوائدهم . فركب علوان من الصبح على ذلوله وتوجه للصيد وقال لفارس : ارحل يا أخي مع الناس ، وأنا على معرفة بالمنزل الذي سترحلون إليه ، والمساء أكون عندكم . أما فارس فإنه كان على اتفاق مع زوجة علوان للهرب معاً ، فرأى أن ذلك اليوم مناسب للهزيمة . فما كان كسلان وأرسل الطرش مع الطروش وحمل الحوائج والبيت ، وأرسل بهم مع غير ظعون . وكذلك فعل مع العجوز أم علوان أركبها و وضع ولدي علوان معها وهما صبي وبنت . أما هو وامرأة علوان فأخّر حالهما إلى آخر كل الناس فركب هو فرساً و زوجة علوان فرساً آخر وفرّا هاربين بكل سرعة طالبين عرب فارس . وأما العجوز أم علوان ، فإنها التفتت فلم ترَ أحداً وراءها فظنت أنهما مع العرب ماشيين . ولم يزل الناس سائرين حتى وصلوا إلى النزل المقصود . فنزلت العجوز مع الأولاد وانتظرتهما إلى المساء فلم يحضر أحد . فساورتها المخاوف ولم تنصب البيت لأنها لا تستطيع ذلك وحدها ، إلى أن غابت الشمس وهجم الليل وإذ حضر علوان من الصيد فرأى أمه وأولاده وحدهم/ يبكون والبيت لم يزل مرمياً بالأرض . فسأل أمه عن جليلة الأمر وقال : أين أخي فارس وحفظة ؟ فقالت : من المرحلة لم أرَهما ، وعلى ظني أنهما ركبا الخيل وهربا . فتأكد له ذلك ، وقال : إني أستحق أكثر من ذلك . ولكن صدق من قال : ابعج القربة واقتل السقا ، خير لا تعمل شر لا تلقى . فنام

١/ ٦١

(٤) « ويحكمه » .

(٥) « الزلمه » .

(٦) « ما دام فيه روح بالعالم » .

تلك الليلة وثاني يوم ركب ذلوله وأخذ معه زوادته وسار يسعى وراءهما. فبعد يومين وصل مساءً إلى نزل عرب فارس يقال لهم المواجه، قبيلة عظيمة. فنزل في بيت صغير حقير عند عجوز تعيش وحدها[7] ليس لها أحد. فقالت له العجوز: يا سيدي أنا امرأة فقيرة ليس عندي شيء حتى أقوم بواجبك، قُرُحْ وانزل في بيت الأمير. فقال لها: إن زادي[8] معي لا أحوجك إلى شيء. ثم قالت: لقد عملت حسناً بمجيئك حتى تنشرح وترى الليلة عرساً. فقال عرس من؟ قالت عرس فارس بن آمْهَيْد، وهو عرس على عرس، لأن هذا الرجل كان غائباً[9]، وسمعنا أنه قتل وأهله قبلوا التعازي به، ولآن نسوه إذ مضت على القضية نحو سنة. ولكن صباح أمس عاد بالسلامة ومعه عروس جميلة جداً، وهذه الليلة سيدخل عليها، فصبر علوان إلى أن دخل الليل كثيراً، فقام من عند العجوز ومشى إلى قرب بيت العرس واختلط بالناس إلى أن انفض القوم وانطفأت النيران ونامت كل عين ساهرة. فأتى بكل ظرافة إلى المكان المختلي به العريس والعروس ودخل من تحت أروقة البيت وأتى نحو الفراش فوجدهما نائمين. فسحب سيفه وذبح فارساً وجره إلى خارج الفراش. ثم هز امرأته وصحّاها من النوم وقال لها يا حفظة أنا علوان. فقامت مرتعشة وقالت له: يا مجنون ما هذا المجيء؟ الآن يفيق فارس وأخوته فيقتلونك. فقال لها: يا شينة يعني يا رديئة، ماذا فعلت معكِ وما الذي جرى مني بحقكِ من العمل الرديء؟ اذكري الله وفكري بأولادكِ الذين كادوا يموتون [حزناً] عليكِ. فقومي وتعالي معي حتى نذهب إلى بيتنا، عند أهلنا، واخزي الشيطان عنكِ، فإنكِ لن تجدي بحياتك أحسن من علوان. فيا روحي ما هو ذنبي بحقكِ؟ عرفيني فقط بذنبي. ومن بعد كلام كثير مثل هذا قالت له: إن لم تذهب /فإني أنبّه فارساً[10] وأجعل قتلك شهرة. فقال: إن كنت لا تذهبين معي فاعطني فرسي ودعيني أروح. فقامت وفكت الفرس من قيدها وأعطته إياها. فحين صار على ظهر الفرس ورمحه بيده قال لها: يا حفظة يا بنت الحرام، نسيتي رجلكِ وأولادكِ. فأقل ما يكون أن تعطيني قبلة[11] من فمكِ حتى أودعكِ. فمدت فمها إليه، وهو راكب على ظهر الفرس، فعضّ على شفتيها بنوع أنها ما كانت تستطيع أن تصرخ، ورفعها من الأرض، وقبض عليها مثل

٢/٦١

(٧) «مقطوعة».

(٨) «زوادتي».

(٩) «كان في الكون».

(١٠) «علوان»، وهذا الخطأ يدل على أن الصائغ لم يُعِدْ إلى قراءة مخطوطته أو أنه قرأها بكل سرعة.

(١١) «بوسة».

الباشق على العصفور، وطار بها مثل الأسد الخاطف. وفي لحظة صار خارج البيوت، فوضعها خلفه على ظهر الفرس وسار بكل سرعة.

أما أهل فارس فما واحد عرف أو فاق إلا بعد [هَرَب عَلْوان] بنحو ساعتين من الزمن، لأن [الوقت] كان قريب الصبح. فوجدوا ابنهم فارساً مذبوحاً والعروس والفرس مأخوذين. فرموا الصوت وركبوا الخيل[١٢] وصار الطلب في كتف علوان ولم يزل [الطراد] حتى تلاقوا مع علوان، والذين لحقوا به هم أخو فارس وأبوه و واحد من أقربائه[١٣]. أما علوان فحين رآهم أقبلوا عليه، وضع حفظة على الأرض وارتدّ عليهم. وعلقت الحرب بينهم واشتد القتال بكل حرارة. وكانت حفظة من طرف أهل فارس، تعينهم على زوجها بضرب الحجار، حتى أنها ضربت زوجها بحجر فصدعت رأسه. ولم يزل [علوان] بالحرب حتى قتل أخا فارس، وبقي الأب وأحدُ الأقرباء[١٤] فاشتد الحرب بالأكثر. فبعد قليل قتل علوان قريب[١٥] فارس، وبقي الأب وعلوان فقط وحفظة. فتعبت الخيل جداً ولم يبق لها قوة على التحرك. فنزلوا من على ظهور الخيل وصاروا يتعاركون[١٦] على الأرض، وتماسكوا ببعضهم بعضاً، علوان وأبو فارس. وجاءت حفظة وصارت تعين أبا فارس على زوجها/فمن بعد [قتال شديد حتى بان] العجز العظيم[١٧] فيهما، تمكن علوان من أبي فارس وأخذ سلاحه. ثم أركبه على فرسه وقال له أنت رجل كبير السن[١٨]، وعيب علي أن أقتلك، فاذهب عند عيالك وأعطاه فرس قريبه، وركب هو وأركب حفظة فرس أخي فارس، لأنها كانت عين الفرس التي كانت راكبتها حفظة حين انهزمت هي وفارس. ولم يزل سائراً حتى وَصَلَ عند أهله. فما قال لحفظة كلمة واحدة إلى أن وصل إلى بيته، فأرسل وأحضر أباها وإخوتها وأقرباءها وقال لها احكي بما جرى من دون زيادة ولا نقصان فحكت جميع الذي جرى حرفاً حرفاً فقال: يا جماعة هذا فعل ابنتكم فانظروا ما تستوجبه فافعلوه. فحالاً قام أخوها الأكبر وذبحها في وسط المجلس. فهذا ما كان ومن الأمور التي جرت.

١/٦٢

---

(١٢) «وركبت الخيل».

(١٣) «قرايبينه».

(١٤) «وقرايبهم».

(١٥) «قرايب».

(١٦) «يتكاونوا».

(١٧) «العجز العضيم».

(١٨) «ختيار».

[مع عرب البصرة]

ثم رحلنا وكان مسيرنا إلى طرف بغداد، ونزلنا بأرض يقال لها المزوان. وثاني يوم رحلنا أيضاً وجدنيا بالسير إذ جاء خبر للدريعي أن عرب البصرة[1] تخاصم بعضهم مع بعض وصاروا قسمين بسبب الوهابي: أناس يريدون أن يعصوا، وأناس يريدون أن يطيعوا ويعطوا الجزية. والذي كان محرك الشر دعاس ابن علي أمير قبيلة يقال لها الأشاجعة[2] تحتوي على مقدار ألفي بيت. فهذا كان مراده أن يعصي على الوهابي، وبَرْجَس ابن آهْدَيْب شيخ قبيلة المواييجة التي ذكرناها، من عرب فارس، فهذا مراده أن يطيع الوهابي، لأنه من طرف الوهابي، وزوجة برجس أخت عبد الله الهدال، كيخيا الوهابي، وهو الذي كان موكولاً بالعمل ضدنا[3] من طرف الوهابي. فرحلنا ثاني يوم وصرنا أمام بغداد، بعيدين عن البلد نحو أربع ساعات فقط. فنزل الشيخ إبراهيم إلى بغداد سراً عند القنصل الفرنسي الذي يقال له ادرين كورنسه[4]، لأنه كان صديقه الحميم. ولكنه لم ينزل من أجل الصحبة ولكن ليأتي لنا بالدراهم[5]، لأن دراهمنا كانت نفذت،/ولم يبق معنا شيء بتاتاً. وكان يحصل لنا تعطيل ٢/ ٦٢

(١) «البصرا».

(٢) «الاشجعا»، قبيلة من عنزة.

(٣) «مقيد من طرف الوهابي ضدنا».

(٤) Adrien de Correnœ.

(٥) «مصريات».

بعض الأحيان في بعض الأمور بسبب قلة الدراهم. فاضطر الشيخ إبراهيم رغماً عنه أن ينزل [إلى بغداد] ليحضر لنا المصريات. وبعد يومين عاد من بغداد، وأحضر لنا معه المطلوب. وأثناء ذلك حضر من بغداد، عند عرب الدريعي، واحد قبيسي بياع، فاشترينا كل البضاعة التي كانت معه لاحتياجنا إليها في بعض الأمور، فما كنا نستطيع أن نقضيها إلا بوساطة البراطيل، سواء للنساء أو للرجال.

ثم ثاني يوم رحلنا وقطعنا الدجلة من مكان يقال له المشهد ونزلنا على نهر تسميه العرب **الفهان**. وفي ذلك اليوم وصلتنا أخبار أن فتنة عظيمة واقعة بين العربان وأن اختلافاً كبيراً قد حصل بينهم: أناس [مع] الوهابي خوفاً منه، وأناس ضده. والسبب بوقوع الفتنة هو ما كان بلغهم من أمورنا وارتباطنا[٦] ضد الوهابي. فبعض القبائل حسن عندها رأينا وصارت من طرفنا قبل أن نراها، والبعض الآخر رفض هذا الرأي. ولذا وقع الاختلاف فيما بينهم واشتد الحرب. فحين بلغنا ذلك استحسن الشيخ إبراهيم والدريعي وجميعنا أن نجدّ بالسير ونلحق بهم بكل سرعة[٧]، كي نعمل طريقة لاطفاء هذه النيران وإخماد هذه الفتنة بين العربان، لأن الشيخ إبراهيم قال: يجب تدبير هذا الأمر إذ ينتج عنه ضرر وتعطيل لأمورنا. فاضطررنا ثاني يوم إلى الرحيل، ونزلنا بأرض يقال لها **الدرغوان**، ماؤها ينابيع عيون[٨] في الأرض، إذ بالقرب منها جبال تبعد عن بغداد نحو عشرين ساعة إلى ناحية [تقع] ما بين الشمال والشرق. ثم رحلنا وقطعنا جبلاً عظيماً، والعربان جميعهم سقت طروشها، وملأت [الروايا] ماء قبل انتهاء الجبال، لأن المنزلة التي نحن قادمون عليها ما بها ماء كلياً. ثم وصلنا وكان مسيرنا نحو اثنتي عشرة ساعة بأرض صحراء ما بها مرعى ولا ماء وهي على حدود العجم: رمل أحمر وهواء ساخن/وإذ ورد مكتوب من عند دعاس ابن علي، شيخ الأشاجعة، ١/٦٣ إلى الدريعي وكان بهذه اللفظات:

من دعاس إلى الدريعي بعد السلام عليكم ورحمة الله لديكم والثاني ياأخانا نعلمك أننا واقعون في ضيق عظيم، لأن القبائل جميعها ردت النقا علينا وهي الموايجة والسُّبْعَة والفِدعان والمَعَايدة والمُضَيَّان[٩] وكثير غيرها من القبائل، وحسبنا عددها خمسة عشرة ألف بيت،

---

(٦) «وارباطاتنا».

(٧) «قبل النوم».

(٨) «نبوعات أعيون».

(٩) من السُّلْقا، من العنزة.

ونحن واضعون ثقتنا[١٠] بالله وبك ، ونحن معك على الخير والشر ، فالرجاء أن تجدّ بالرحيل وتلحق بنا في أقرب وقت ممكن[١١] لأن العربان أكلتنا . وكل سبب هذه الفتنة من أجل ابن سعود . فإياك المهل والتأخير يا أهل المرؤة والحشمة[١٢] ، تراني بوجهك (يعني وقيعك)[١٣] يا أبا الفوارس والرجال[١٤] .

فحين انتهينا من قراءة المكتوب ، نبّه على الرحيل المداوم يعني من غير نزول ولا راحة ، وكانوا بعيدين عنا ستة أيام . فصار الرحيل وجدينا بالمسير ثلاثة أيام ليلاً نهاراً من غير راحة ولا نزول ، بل النوم على ظهور الجمال والأكل كذلك ، والنساء تعجن وتخبز على ظهور الجمال بالصاج ، يضعن الجلة والحطب في خرج تحتهن على الجمل . تأتي المرأة بصاجين من حديد ، الواحد تضع فيه النار ، والآخر فوقه تخبز عليه . وإلى جنبها امرأة أخرى راكبة على جملها ومصافقة لها ، عندها العجين ، تقطع أرغفة وتعطيها للأخرى وهي ترقها وتخبزها . وامرأة ثالثة[١٥] أمامها طاحونة وهي تطحن الطحين . والجمال والغنم والخيل ترعى وهي ماشية . وكلما وصلنا إلى ماء ، وكانوا على علم أن الماء أمامهم بعيدة ، تملأ كل امرأة قربة ماء وتربطها تحت بطن الجمل أو الناقة التي راكبة عليها . وكان أكلنا من غير طبخ فقط الخبز والحليب والتمر . فحين نجوع تنزل النساء حالاً ويحلبن النوق ويملأن لنا قدح حليب ، (فالقدح يكون من الخشب ويسع نحو رطل حلبي) . فنجتمع[١٦] أربعة أو خمسة ونحن راكبون ، فنضع لقمة خبز في فمنا ونشرب قليلاً من الحليب ونعطي القدح للذي جنبنا ،/وهكذا يدور من واحد إلى آخر بالدور . وكلما نعسنا نتمدد على وجهنا فوق ظهر الجمل . ونضع أرجلنا في عيون الخرج ، لأن لكل جمل أو ذلول خرجاً كبيراً لأجل وضع أغراض الراكب وحاجاته[١٧] . وكنا نستلذ كثيراً بالنوم أولاً من شدة التعب والنعاس ، ثانياً اعتدنا على ذلك ثالثاً من عادة

٦٣/٢

(١٠) « نحن شادين ضهرنا » .

(١١) « قبل بساعة » .

(١٢) « الحشيمة » .

(١٣) الوقيع بمعنى الدخيل : الذي يطلب حماية شيخ من قبيلة غير قبيلته .

(١٤) « الرجاجيل » .

(١٥) « ثانية ؟ » .

(١٦) « فنجمتع » .

(١٧) « مصالح » .

سير الجمل إذ يهتز ويتمايل فيظن الإنسان أنه في سرير فيطيب له النوم، وهكذا ينام حتى يشبع.

ثم ثالث ليلة من مسيرنا ولدت امرأة الأمير فارس الجربا و وضعت[18] صبياً في هودجها، على ظهر الجمل، من غير أن تنزل، وسموا الولد القَرْنا[19]، لأننا كنا بالقرب من القرنا أعني مجمع النهرين أي الدجلة والفرات، [كما هي العادة] في أكثر أسماء العرب، لأنهم يسمون أولادهم باسم المحل الذي ولد فيه كي يعرفوا أين وُلِدَ.

ثم لم نزل جادين بالمسير نحن والقبائل التي معنا. وكان برفقتنا ثلاث قبائل: الجَرْبا والسوالمة وعبد الله. فوصلنا ثالث يوم بعد العصر عند دعاس، وكان عددنا نحو سبعة آلاف بيت. فصار الفرح عند دعاس وعربه، وامّنوا على حالهم، وأطمأنّوا وتقوّوا. وبالحال حضر دعاس وكامل كبار قبيلته ولاقانا، وفرح بنا فرحاً عظيماً، وذبح الذبائح، ودعى كل كبار القبائل. وبعد العشاء وضع اسمه وختمه بورقة الشروط.

وكان العدو[20] بعيداً عنا يوماً واحداً فقط على حافة شط العرب، أمام البصرة، من الجانب الشرقي. فكان رأي الدريعي ثاني يوم أن يرحل ويتقدم نحوهم. ولكن بما أن الناس والخيل والجمال كانت تعبانة من السير ثلاثة أيام وثلاث ليالي متوالية. فتحسن عندنا الرأي أن نستريح يومين ثم نقدم على العدو. إلا أن العدو لم يصبر حتى نقدم عليه، بل ثاني يوم العصر، إذ أقبل نحونا عربان لا يعلم عددهم غير الله فقط. فحالاً رحل الدريعي وتقدم إلى قرب الشط لأجل الماء. وكذلك العدو نزل على الشط أمامنا. وكان بيننا وبينهم/ميدان نحو نصف ساعة. وكان بالقرب منا قرية يقال لها **الهوطا**. ١/٦٤

وثاني يوم كتب الدريعي لهم مكتوباً وكان بهذه اللفظات:

من الدريعي إلى ضويحي ابن اغبين أمير قبيلة الفِدْعان وإلى صقر ابن حامد شيخ المُضَيَّان وإلى مُفضِيّ ابن عِيْدَه أمير السُّبَعَة وإلى برجس ابن أهديب شيخ الموايجة وإلى عمران ابن نِجْرِس شيخ المعايده وإلى كامل المشايخ والكبراء بالسن[21] عموماً، والثاني

(١٨) «وجابت».

(١٩) «الكرنا».

(٢٠) «الضشمان».

(٢١) «الاختيارية».

نعلمكم أنه قد بلغنا عدم الوفاق والمحبة الواقع بينكم وبين دعاس ابن علي، شيخ قبيلة الأشاجعة لقد أخذنا العجب الشديد من ذلك لأننا على علم بالمحبة السابقة التي كانت بينكم. والآن أنتم مزمعون على الحرب والقتال وسفك الدماء وخسارة الرجال من أجل ابن سعود الذي مراده خراب العربان، وتدميرهم واستعبادهم و وضعهم تحت رق العبودية، وأخذ الجزية[22] منهم ورميهم في مهالك العثماني وهلاكهم. فتأكد عندنا رأيكم الفاسد وعدم تبصركم بأمور الدنيا، لأنكم تركتم الخير والحرية وتمسكتم بالشر والعبودية. وأما أنا فمن محبتي لكم حررت هذا الكتاب، ومرادي التوفيق بينكم والمحبة ورفع هذه الفتنة القبيحة[23]، فإن أصغيتم إلى قولي كنتم عندنا مكرمين، وأنتم ونحن على حال واحد رجالاً ومالاً، وإن خالفتم كنا الكفاية بعون الله عليكم بل أكثر. والفتنة شر والصلح خير فاعملوا كما تريدون[24] والسلام.

وأرسلنا المكتوب مع خيال، وبعد قليل حضر المرسل وأتى بالجواب، وكان بهذه الألفاظ:

من ضويحي وصقر ومفضي وبرجس وعمران إلى الدريعي ابن شعلان وبعد، وصل مكتوبك ولكن لن يتم ما في عقلك. فإن كنت مخدوعاً[25] فنحن على علم بالحيلة التي تمت عليك. وكل هذه التدابير التي أخذتوها صار لنا علم بها، وفهمنا مراد المدبرين وهم لا يريدون خير العرب ولا يشفقون عليهم من ظلم ابن سعود بل يريدون فائدتهم[26]. وقد صارت هذه الأمور معروفة لدينا من أناس عارفين وخابرين بنيتهم من حين ابتدائها،/وجميع ما جرى في بر الشام صار معلوماً لدينا. فالأنسب لكم أن تكسبوا حالكم وأموالكم وتكفّوا بلاكم عنا وترجعوا إلى ديرتكم، وإن بقيتم على رأيكم وقصدتم حربنا تندمون. ٢ / ٦٤

(٢٢) كذا ولعله يريد الزكاة كما هو ظاهر من أماكن عديدة من الكتاب.

(٢٣) «الشينة».

(٢٤) «ارغبو ما تشتهو».

(٢٥) «فإنكان أنت داخل عليك ملعوب».

(٢٦) «اصطلاحهم».

[عبد الله الخطيب في الأسر]

فحين قرأنا هذا المكتوب أخذنا العجب من هذا الكلام لأنه ليس كلام عرب، كما عهدنا بكلام العربان. فكان رأي المعلم إبراهيم أنه من المستحسن أن أذهب أنا عندهم وأتكلم معهم لساناً، وأجلبهم بقوة الكلام اللين وما يقرب من العقل، كما سبق أن فعلنا مع غير قبائل فاعتمدنا على ذلك الرأي وثاني يوم توجهت عندهم ومعي جملة هدايا. وكان برفقتي واحد بدوي بصفة خادم لا غير. فحين وصلت إلى بيت مُفْضِيّ ابن عِيْدَه أمير السُّبَعَة، إذ كان بيته أمام الجميع وهو أكبر الموجودين، وقبل أن أسلم عليهم ركضوا علي مثل الأسد الخاطف، ونهبوا جميع ما كان معي وأمسكوا بي وبالخادم وأخذوا جميع ما علينا وضربوا بأرجلنا قيود الحديد وألقونا بالشمس على الرمل الحامي. فابتدأت أتكلم معهم واستغيث[1] بهم، فكان جوابهم اسكت وإلا قتلناك وعملنا قتلك شهرة. فابتدأت أبكي وأترجى أن يطلقوا سبيلي وأعود عند عربي، فما كان أحد يصغي إلى قولي. وبينما أنا بهذا الحال الشنيع إذ أقبل علي عبسي القُبَيْسي، عدونا الكبير الذي ذكرناه سابقاً حين كنا في بر الشام، وهو الذي نزل واشتكى إلى سليمان باشا والي الشام، وكان خلال كل هذه المدة يدور من قبيلة إلى قبيلة باحثاً عما يضرنا. فحين رأيته تأكدت أنه هو الذي أفهم العربان و وشى بنا، وإن الكتاب الذي ذكرناه سابقاً من المشايخ إلى الدريعي هو أيضاً عمله وتدبيره.

(١) «واستنغيظ».

فأتى إلى عندي وبصق بوجهي وقال : يا كافر أي موتة تريد حتى تموت[٢] بها . فكان جوابي روحي ليست بيدك . فإن كانت انتهت حياتي فإني أموت ، وإن بقي لي عمر بالدنيا فلا أنت ولا غيرك يستطيع أن يأخذ نقطة دم مني . إني فهمت أن كل ذلك تدبيرك فالله كريم ./وكان يوقد نار الحقد ويدور بين العربان يوشي بنا ويعظم الشر ومراده قتلي . فاستقمت على هذا الحال أربعاً وعشرين ساعة مقيداً من غير أكل ولا شرب . فعظمت عندي المادة وضاقت بي الدنيا . وكان كل بدوي من نساء ورجال وأولاد يأتي ليراني في هذا الحال وكل واحد منهم يعمل لي عملاً قبيحاً .

١/ ٦٥

فبعد//أربع وعشرين ساعة اجتمعت المشايخ عند مفضي ابن عيده . فتحسن عندهم الرأي أن يبقوني عندهم ، فأطلقوني وأحضروني أمامهم وقالوا : كنا قادرين على قتلك ، ولكننا نهبك دمك إذا كنت تحكي لنا على الصحيح ما هي نيتكم ؟ وما هو السبب في تدبير كل هذه الأمور ؟ وإلى أي غايات تسعون ؟ وما هو مرادكم من ذلك ؟ فابتدأت أتكلم محاولاً التمويه عليهم[٣] قائلاً : إن ذلك لأجل راحتكم وحريتكم وخلاصكم من ظلم الوهابي . فكان جوابهم : وإذا نحن خلصنا من ظلم الوهابي وصرنا ممتلكين ذاتنا أحراراً في أنفسنا فما هي الفائدة لكم من ذلك . فقلت : نكون قد فعلنا خيراً معكم وعملنا جميلاً . فقالوا : هذا شيء لا أصل له . نريد أن نعرف حقيقة نيتكم التي أنتم من أجلها مهتمين بهذا الأمر كل الاهتمام . فإن رأينا الشيء مناسباً ، صرنا معكم على الخير والشر وإن لم يرضنا أطلقنا سبيلك وأرجعناك إلى محلك من غير ضرر لك كلياً . ونحن قادرون بعون الله على كسر الدريعي وطردكم[٤] من هذه الديرة . فقلت : يا جماعة ليس معي إذن أن أتكلم معكم بشيء ابداً//[٥] ، وذلك لأني رأيت عين الغدر منهم ، بوساطة عبسي ، لأنه يريد قتلي بلا شك ، وهو يعمل كل جهده لذلك ، فما رأيت مناسباً أن أتكلم معهم بحقيقة مرادنا أولاً بسبب وجود عبسي العدو الذي يعمل ما بوسعه لخرابنا ، ثانياً وجود الشيخ برجس ابن أهديب الذي هو صهر عبد

(٢) « أموتك » .

(٣) « بالمحاولات » .

(٤) « وتهجيجكم » .

(٥) قد وضع الصائغ خطاً على كل هذا المقطع الذي بين خطين // كما لو كان يريد حذفه بنوع أننا لا نعلم إذا كان المشايخ أطلقوا سراحه ثم أعادوه إلى القيود . فهل اختلق هذا الحادث أم خانته الذاكرة كما يتبادر إلى الذهن لأنه أبقى صفحة ٦٥/٢ بيضاء كما لو كان يريد إملاءها بعد مراجعة مذكراته .

الله الهدال، كيخيا الوهابي وهو المسؤول عن خراب نظامنا. ومن جهة أخرى رأيت أن

٦٦/٢ خلاصي صعب ولا بد لهم أن يقتلوني أولاً بسبب كلام عبسي[٦]/للعربان ضدي، ثانياً أن مفضي ابن عيده الذي أنا عنده [في الأسر]، محب كبير لبيت ملحم وصديق حميم للأمير مهنا الفاضل، وعنده علم بجميع ما جرى بيننا وبينهم في سورية، وعنده عبسي يفهمه ويوشي بنا. فما رأيت أحسن من الهزيمة فابتدأت أبحث عن طريقة [توصلني إلى نجاتي].

وقد تقدم الشرح أن العربان كانت تأتي لرؤيتي [بالقيود]، وكل واحد منهم يهينني أنواع الإهانة. ولكن شاباً بدوياً أتى مراراً عديدة من غير أن يقول كلمة واحدة، وكان فقط ينظر إلي ويذهب، وكان أيضاً يطرد الأولاد عني، وهم كانوا يضربوني بالحجار ويقفزون فوقي ويسخرون بي. فأتى آخر مرة قبل غياب الشمس وطرد الأولاد عني وقال: هل أنت جائع لأحضر لك شيئاً تأكله؟ فقلت له: أنا لا أريد أكلاً وشرباً وإن كنت تريد أن تفعل معي خيراً وجميلاً، وأنا لا أنسى جميلك، فتعمل طريقة لأهرب من أيدي هؤلاء الناس. فقال: سآتيك هذه الليلة وأفكك من القيد وأوصلك عند عربك. وعند نحو نصف الليل كان سرق مفتاح قفل القيد الذي في قدمي، وهو قيد فرس من زنجير[٧]وقفل ومفتاح يقيدون به الخيل ليلاً حتى لا تسرق. فأتى نحوي بكل لباقة وفتح القفل وفكني من الزنجير[٧]، وأخذ بيدي وخرج خارج النزل بكل هداوة وخفة[٨]، ولم يزل حتى اجتزنا العرب، وهو دائماً معي إلى أن وصلنا إلى عربنا، فوجدت الجميع نياماً إلا الحراس، لأن من عادة الدريعي دائماً أن يضع أربعة عبيد للحراسة عند النوم. فحين رأوني عريان ليس علي ثياب تعجبوا وذهبوا وصحوا الدريعي من النوم، فأفاق وأفاق معه الشيخ إبراهيم وكثير من الناس، وصارت ضجة

٦٧/١ في الليل وابتدأ الشيخ إبراهيم يبكي من شدة فرحه لأني نجوت من ذلك الخطر[٩]./وحكيت لهم جميع ما جرى، فشكر الله الشيخ إبراهيم وكامل المحبين على خلاصي، وأعطى الشيخ إبراهيم البدويّ مئة غرش بخشيشاً[١٠]، وكان اسمه فاعور، فعاد المذكور عند أهله. وأما الدريعي، فإنه استاء منهم كثيراً[١١]واشتد قهره منهم فكتب لهم مكتوباً يطلب البدوي الثاني

---

(٦) الصفحة ٦٥/٢ بياض والصفحة ٦٦/١ كناية عن حاشية كبيرة تأتي بعد صفحة ٦٨/٢.

(٧) «حندير».

(٨) «خفيّة».

(٩) «القطوع».

(١٠) هبة.

(١١) «أحذ على خاطره».

الذي كان ذهب معي ، لأنه لم يزل مقيداً عندهم وخاف عليه من أن يقتلوه لأنني هربت من عندهم ، وفي الوقت نفسه يقبح فعلهم الذي فعلوه معي . فكان الجواب لا نرسل الرجل[١٢] ، واستعد للحرب والقتال غداً صباحاً ، ولا تقل ما أنذرناك فكن على حذر[١٣] .

فجمع الدريعي حالاً كبار القبائل وابتدأوا بتحضير مهمام الحرب وتدبير أمورها . وثاني يوم من الصبح خرجت الجموع من الطرفين ، واصطفت الطوابير أمام بعضها ، وانفتح ميدان الحرب ، واشتد القتال بين الطرفين . وكان نهار لا يوصف شديد الحر جداً ، إلى أن غابت الشمس ، فما رجحت كفة الواحد على الآخر ولكن حصلت مقتلة عظيمة في الفريقين ، وقتلت فرس عوض جندل شيخ السوالمة التي تسوى عنده أكثر من خمسين كيساً ولا تقدر بثمن لا بكثير ولا بقليل . فتكدرنا عليها جميعنا كثيراً وأعطاه الدريعي فرساً عوضاً عنها ، ولكن دونها لا تماثل التي قتلت ، فرضي واستكثر بخيره[١٤] عليها .

وفي اليوم الثاني وقع القتال أيضاً ، وكان أشد من اليوم الأول ، وكانوا هم الراجحين علينا بسبب أنهم أكثر منا . فهم كانوا نحو ثلاثين ألف مقاتل من خيالة ورجال ومراديف ، ونحن كنا مقدار نصفهم لا غير . فأخذوا منا في هذا اليوم أربعين ممسوكاً[١٥] ، يعني أسيراً[١٦] ، تُسَمّيه العرب ممسوكاً . ونحن أخذنا أحد عشر واحداً . وكان من جملة الأحد عشر ممسوكاً عندنا ابن صقر شيخ قبيلة المضيان ، فقيدنا الجميع ، وهم كذلك/قيدوا مماسيكهم . ٢ / ٦٧

وبعد ذلك النهار قضينا ثلاثة أيام دون حرب ولا كلام بين الجانبين . ولكننا كنا متيقظين إلى بعضنا ليلاً ونهاراً . وبعد ذلك إذ حضر إلى طرفنا الشيخ صقر ابن حامد الذي كان ولده ممسوكاً عندنا ، من جملة الأحد عشر ، وبرفقته خيال واحد فقط ، لأن هذه عادة العرب إذا وقف الحرب يزورون بعضهم بعضاً ويتكلمون ويأكلون ويشربون ، وحين رجوع الحرب كل منهم ينسحب إلى فريقه . فحضر المذكور عندنا ، فرحّب به الدريعي وعمل له غاية الإكرام . وكان سبب حضوره أنه يحاول أن يفك ابنه لأنه كان غالياً عليه جداً . وكان قد

(١٢) « الذلة » .
(١٣) « صير على حضر » .
(١٤) شكره .
(١٥) « ممسلوك » ، ولكن في مكان آخر من المخطوطة يكتب الصائغ « ممسوك » ويجمعه على « مماسيك » .
(١٦) « يسير » .

جُرِحَ يوم الذي وقع أسيراً فبقي مشغول البال عليه خوفاً من أن يكون مات. ولكننا كنا داوينا جرحه كالواجب، على حسب مداواتهم للجروح، ومهتمين به جداً لأننا نعرف أنه غالي الثمن على أبيه وعلى كافة عربانهم، وهو شاب عظيم وفارس مشهور اسمه حامد باسم جده.

[ما وراء الحلف من أغراض سياسية]

ثم جلسنا للحديث مع صقر. فقال: يا جماعة نحن متعجبون منكم على فعلكم هذا، واجتهادكم بإدخال القبائل في اتحادكم وسعيكم العظيم في هذا السبيل، من غير أن نرى لكم ثمرة من ذلك تستحق اثقال هذه الحروب وهذه الأتعاب التي تتكبدونها أنتم، ويتكبدها الناس بسببكم. وإذا قلنا شفقة على العرب حتى ننقذهم من أسر ابن سعود، فما أظن أنكم شفقون على العرب إلى هذا الحد، ولا يكون لكم فائدة خاصة من ذلك. ويقول المثل: لا يصلي أحد حتى يطلب الغفران. فأنا واحد من الناس لا أدخل معكم إلا إذا أعلمتموني حقيقة غرضكم، وهكذا يرى أكثر الناس. فإن شاء خاطركم افهمتموني المادة، وأنا بعون الله معكم و واحد منكم. فكان جوابنا: أنت على حق وما تقوله هو الصواب ولكن ما هي الطريقة لنعرفك بسرنا من غير أن تضع ختمك وتقبل الشروط؛/قال هذا عين الصواب[1] فاحضروا ورقة الشروط لنسمعها. فأتينا حالاً بالورقة وقرأناها له، فسُرَّ كثيراً وقال: كنت أخمن[2] من جملة التخمينات[3] أن مرادكم أمور الديانة، فوجدت أول شرط أن لا يتكلم أحد بالأمور الدينية. وكان تخميني الثاني أن ربما أنتم من طرف العثماني سياسة، ١/٦٨

(١) «قوي مناسب».

(٢) أظنّ.

(٣) الظنون.

لأجل تدمير ابن سعود الوهابي، فوجدت كذلك من الشروط الابتعاد عن التعامل[٤] مع العثماني وحكامه، وكثير من الأشياء كنت أظنها صالحة لكم فوجدتها بعكس ذلك. وعليه فقد انفتحت علي المادة جداً وضاعت ظنوني تماماً، فبالله عليكم[٥] أن تعرفوني المادة وأنا أول من أطاع وآخر من عصى. ثم وضع ختمه واسمه بالورقة وتعاهدنا معه بكل محبة، وقلنا له: اعلم أن المراد الوصول إلى أبواب الهند، والكشف عن طريق يكون بعيداً عن المدن ومعرفته، ويكون به المياه اللازمة ومراعي للمواشي دائمة. فقال: حسناً، ولكن هذا الأمر لا يحتاج إلى كل الأعمال التي تقومون بها، فبوسعكم أن تأتوا معي، وأنا أرسلكم إلى غير قبيلة، وهكذا من قبيلة إلى أخرى تتنقلوا حتى تصلوا إلى الهند، من غير هذه الحروب والمعارك التي تصدر عنكم. وأنا لا أظن أن هذا مقصودكم، بل هو تملص مني[٦] لأنكم لا تريدون أن تعرفوني حقيقة الحال، فإن تدبيركم ومساعيكم ليست فقط لأجل كشف الطريق، ولا بدّ أن يكون لكم غايات داخلية لا تريدون أن تعرفوني بها على الوجه الصحيح، وستندمون لأنني قادر، بعون الله، على مساعدتكم إن أعلمتموني بحقيقة مرامكم. فقلنا الصحيح أن مرادنا الوصول إلى الهند، ولكن ليس نحن فقط بل أيضاً جيش كبير نحو مئة ألف. فلأجل ذلك نريد أن نجمع العرب على رأي واحد، ونجعل لهم رأساً كي يسعفوا الجيش المذكور، ويساعدوا على إيصاله إلى الهند، ويحملوا جميع لوازمه من أكل وشرب وغير ذلك من المهمات، وإركاب العساكر على الجمال والمسير معهم وإعانتهم في كل ما يلزمهم والوصول معهم/إلى الهند. قال: حسناً ولكن ما هي فائدة العرب من ذلك وما هو أملهم. فقلنا له: أولاً إن السلطان الذي سيرسل هذا الجيش سيصير لكم منه خير عظيم، ثانياً تملكون حريتكم وتخلصون من عبودية الوهابي وحكم العثماني عليكم، ثالثاً تغنمون أموالاً لا تحصى من الهند، لأن غنى الهند زائد كما هو معلوم عندكم، رابعاً من اتحادكم مع بعضكم بعضاً، وكسب مثل هذه الكميات من الأموال، ونظر مثل هذا السلطان عليكم تستطيعون أن تملكوا أنفسكم، وتعودوا ملوكاً كما كنتم سابقاً، ولا خسارة لكم من ذلك بل تكسبون صيتاً كبيراً ويحصل لكم ربح عظيم.

٢/٦٨

وصار حديث كبير في هذا المعنى ودخل الموضوع في عقله وتشرب المادة على

---

(٤) «مقارشة».

(٥) «سايق الله عليكم».

(٦) «صرفه منشاني».

جليتها ، //وتعهد لنا بإدخال كثير من القبائل معنا واتحادهم في رباطنا . ونحن وضعنا أملنا به لأنه رجل ذو عقل وتدبير ، طاعن بالسن ، مسموع الكلمة ، وعملاً بالرباط تعهدنا أن نعيد كل الأسراء[٧] ، وهو يرسل إلينا الأسراء الذين عندهم وأخذ على نفسه أن يهتم بأمورنا بكل رغبة ومحبة ثم أفهمناه مرادنا//[٨]فقال : يا جماعة إني قد فهمت المادة جيداً ، وعرفت الغاية من جميع ذلك ، إنما العداوة مع الوهابي لا معنى لها ولا علاقة لها بهذا الأمر ، لأن الرجل في بلاده ونحن في ديرتنا نفعل ما نشاء ، وهذه العداوة تؤدي إلى سفك الدماء ، وذهاب الرجال والأموال وتحميل أثقال شتى من غير فائدة لنا ، وليس هناك أمر ضروري يحوج إلى ذلك .

١/٦٦ فقلنا : يا صقر كل منا يعرف وجعه ، فاعلم أيها العزيز[٩]/أن الوهابي اليوم متقوي جداً ، وأخذ يملك البلاد وعمل نفسه ملكاً ، وإلى الآن صارت بيده بلاد اليمن والحجاز ، حتى أنه ملك مكة المكرمة والمدينة ، وهو يرسل جيوشه إلى أماكن أخرى ، حتى وصل إلى ديرة عربستان[١٠]وقرب من الشام كما هو معلوم . ونحن نرى أن العثماني غير قادر على رده ، وهو لم يزل يمتد ويملك ، فإذا ملك سورية فمن المعلوم أنه سيزحف[١١]ويملك بغداد وديرتنا هذه مع التمادي ، وإذا امتد ملكه وصارت سورية في يده وهذه الديره ، لا يعود يتم لنا أمر وتتعطل أشغالنا لأسباب كثيرة . أولاً بسبب رفضه وتمسكه بأمور الديانة وشدة بغضه للملة النصرانية ، ونحن نصارى ، والجيش الذي يريد أن يمر بهذا الطريق نصراني أيضاً ، فلا يمكن أن يتفق معنا ويسمح لنا بذلك ، ثانياً لربما افتكر أنها حيلة عليه من طرف العثماني لأجل خرابه وتدميره ، فعلى هذا الجيش النصراني أن يحارب في وسط الصحراء[١٢] ، وأنتم تكونون يومئذ معه وتحت أمره ، وإذا لم تساعدونا بالحرب وتركتونا وحدنا في البرية نهفى ونموت من الجوع والعطش ، لأن جيشنا لا يعلم كيف يسلك في البراري ، وإذا العرب لم تساعد وتعين على الركوب ، وتدل على المسالك ، وتنقل الماء والأكل والشرب ، وتمشي أمام عسكرنا ، لا يمكننا الوصول إلى الهند . ثالثاً إن سلطاننا الذي نحن في خدمته له عدو كبير ، والبحر بيد هذا

---

(٧) « اليساره » .

(٨) وضع الصائغ علامة في المخطوطة كما لو كان يريد أن يكون هذا المقطع في مكان آخر ولكن لم تظهر لنا حقيقة ذلك .

(٩) في المخطوطة إشارة إلى أن تتمة الكلام في صفحة ١/٦٦ .

(١٠) « عرب بستان » .

(١١) « يسحف » .

(١٢) « الجول » .

العدو، ويستطيع أن يصل عند الوهابي من بحر الهند، ويقوّى الوهابي ويعمل اتحاداً معه ضدنا ويخرب شغلنا ونظامنا. فلهذه الأسباب وغيرها يجب معاداة[١٣]الوهابي والإنفراد عنه ./ ١/ ٦٩

ثم تكلمنا معه كلاماً كثيراً فدخل في عقله وفهم المطلوب، واتحد معنا اتحاداً عظيماً، وأخذ على نفسه الضمان بأن يجذب إلى طرفنا كل ما يستطيع عليه من القبائل ويوفق بينها وبيننا ويكون هو المقدم في هذا العمل، وينال مكافأة على تعبه مثل الدريعي. ونحن عملنا على أن يكون مطمئن البال وأملناه بشيء كثير، و وعدناه بكل ما يسر خاطره، فأمل بالعز[١٤]والكسب من أموال الهند، وهذا شيء طبيعي في العرب لأنهم يسرون جداً من النهب[١٥]، فهذه صنعتهم[١٦]وليس لهم صنعة غيرها. فجلس صقر عندنا يومين كان حديثنا معه على هذه الأمور وأُخِذَتْ تدابير جيدة، وانتهى الكلام والوعد معه على أن يعمل كل جهده هذه السنة ليأخذ رأي القبائل ويمزجنا معها. وأما نحن، فنتابع طريقنا إلى طرف المشرق. وإن استطاع أن يفعل كل هذه الأمور هذه السنة، فإنه لا يغرّب بل يبقى بالمشرق عند القبائل التي لا تغرب ويتم العمل، بينما نحن نغرّب حسب العوايد، وحين التشريق يكون كل شيء مرتباً وحاضراً، فندخل ونتم مرغوبنا.

فأطلقنا الأسراء الذين كانوا عندنا وأهدى الدريعي فرساً عظيمة لابن صقر، وقدمنا له نحن جملة هدايا ونفقة جيب[١٧]وافرة، و ودعنا بعضنا بكل محبة وذهبوا عند أهلهم. وبعد توجههم من عندنا بنحو أربع ساعات من الزمن أرسلوا مماسيكنا، وقبل توجههم عندنا ذبحوا لهم الذبائح وصنعوا لهم غداءً عظيماً وأبدوا لهم غاية الإكرام والمحبة.

هذا وفي اليوم الثاني أتانا مكتوب منه ومن مفضي ومن ضويحي، وكان بهذه اللفظات:

من مفضي وضُوَيْحي إلى الدريعي بعد السلام عليكم والثاني حضر أخونا صقر من عندكم، والمذكور بغاية الرضى عنكم، فهو شاكر لكم وحامد حسن مزاياكم والإكرام الزائد الذي فعلتوه معه. وقد تكلم معنا بخصوص المطلوب، شيء قليل الذي كافي لنا لحد

(١٣) «ضشمنة».

(١٤) «الكبرا».

(١٥) «بينحظوا في النهايب».

(١٦) «كارهم».

(١٧) «خرجية».

الآن[١٨] ، والله يعين على كل أمر يحصل منه نفْعٌ لجيوش العرب. وقد توجه صقر عند ( )[١٩]، لأن[٢٠] /المذكوربعيد عنا نحو ثلاث ساعات ليتكلم معه، فيكون معكم علم بذلك والسلام. ٦٩/٢

فسررنا من هذا الكتاب إذ تأكدت لنا صداقة صقر. وثاني يوم رحل من أمامنا ونحن أيضاً رحلنا لأن الأرض قد امتلأت بالأوساخ ولم يبق فيها مرعى. فتقدمنا إلى الأمام نحو عشر ساعات ونزلنا بأرض يقال لها مقتل العبد على شط العرب، فأقمنا ثمانية أيام وإذ حضر عندنا صقر وابنه، وأخبرنا أنه استطاع أن يجلب بعض القبائل إلى طرفنا وأضاف أن هذا الأمر لا يتمل بالعجل، لأن أمامنا عرباناً لا تحصى ولا تعد، وكل واحد برأي وعقل يختلف عن الآخر، وإذ أردنا الدخول هذه السنة نتعب ويحصل لنا هموم وحروب وسفك دماء كثيرة، [وقال]: والرأي عندي أن أبقى بالمشرق هذه السنة، وأعدّ[٢١]لكم هذه الأمور كما يجب وحين تشرّقون من بلاد سورية يكون كل شيء جاهزاً وفق مرادكم، فتدخلون الأراضي وتصلون إلى الأماكن التي تريدونها، وتكشفون عما تريدون، وتفهمون جميع ما ترغبون، ويصير كل شيء حسب مطلوبكم إن شاء الله، ولكن بالتأنّي وطول البال، وقد بذلتُ كل جهدي لأنكم وصلتم إلى هنا، وكابدتم من المشقات والأتعاب ما لستم معتادين عليه، لتقضوا مطلوبكم وترجعوا إلى سورية وتتموا الأمور المنوطة بكم. ولكن تحقيق ذلك غير ممكن الآن، وأنا أقوم مقامكم بل أحسن منكم، إذ كما يقول المثل الشجر لا يقطعها إلا فرع منها. فاعتمدنا على رأيه وجلس عندنا نهاراً واحداً، ثم ودعناه وأفهمناه جميع الأمور اللازمة وسافر بالسلامة.

---

(١٨) كذا بالحرف الواحد، والمعنى: عرفنا القليل ولكن ما عرفناه يكفينا الآن.

(١٩) في المخطوطة: ضويحي ابن حبس (؟) إلا أن الصائغ شطب الاسم بالحبر مراراً ولم يضع مكانه اسماً آخر.

(٢٠) هنا ابتداء الكراسة نمرة ٩.

(٢١) «اطبخ».

[العودة إلى بر الشام]

أما نحن فنوينا الرجوع إلى بر الشام ، إذ كان انتهى فصل الشتاء ودخل الربيع ، ونحن لم نزل فوق البصرة بنحو ثلاثة أيام . فابتدأنا نعود إلى الغرب ، وبعد عدة مراحل قطعنا الدجلة ودخلنا الجزيرة من القرنا ، فجلسنا يومين فقط بالجزيرة ، وقطعنا الفرات من المنصورية وخرجنا إلى الصحراء[1] التي يسميها العرب الحَمَاد وهي قبلي الفرات ./ ١/٧٠

فرحلنا بعد مقطعنا ، ونزلنا أرضاً تبعد عن الفرات نحو ست ساعات ليس فيها ماء جار . فحفر العرب كلهم حفراً طول قامة الإنسان ليستقوا منها . فكل عشرة بيوت أم أكثر أم أقل عملت لها حفرة ماء . وهذه المنزلة اسمها **غَبيب الدَّرّ** : الدر يعني الحليب وغبيب يعني الشرب ، كناية عن قلة وجود الماء بهذا المكان ، يعني محل شرب الحليب عوضاً عن الماء . فما أطلنا الإقامة ، بل رحلنا ثالث يوم ، أولاً بسبب قلة الماء كما سبق الشرح ، وثانياً لأننا كنا مستعجلين لنلحق ربيع بر الشام ، إذ الوقت أدركنا وأصبحنا في منتصف الربيع[2] ، ونحن نخاف أن يحضر غيرنا من العربان ويضعوا يدهم على الأماكن الجيدة ، وخصوصاً وأن وراءنا خصومنا وهم بيت ملحم ، فلربما كانوا شدوا أزرهم ببعض القبائل كي يملكوا الديرة ويحاربونا ، كما تقدم الشرح عنهم عام الماضي قبل تشريقنا .

---

(١) « جول » .

(٢) ربيع سنة ١٨١٢ .

ثم رحلنا ونزلنا أرضاً يقال لها **الصّارعة**، مياهها كثيرة من نبوعات ومراعيها كثيرة أيضاً، ولكن :بها عشبة تسمى **الخافور**[٣] تحبها الجمال، إنما لها فعل غريب إذ يجن منها الجمال فقط، وليس لها فعل على غيرها من الدواب. فمتى أكل منها الجمل صار مجنوناً وعمي، فلا يرى بعينيه شيئاً ويهيج. فاستقمنا يومين في تعب[٤] عظيم مع الجمال لأنها تهجم على البيوت من غير أن تراها فتخرب البيوت وتدعس الأولاد وكل من كان بوجهها. فكانت الناس دائماً راكبون وراكضون خلف الجمال حتى يردونها عن البيوت. فخلال هذين اليومين لم يستطع أحد أن ينام أو يستريح بل حصل تعب[٥] عظيم أشد من معركة كبيرة مع خصم قوي. والسبب أنهم أطلقوا على هذا المكان اسم الصارعة لأنها تصرع الجمال وتجعلها كالمجانين. وثالث يوم قلت للدريعي بالله عليكم دعونا نرحل من هذه المنزلة الملعونة فكأني بكم مسرورون من هذا التعب فضحك. وفي ذلك الوقت نفسه إذ بجمل عظيم هاج وركض نحو الدريعي نفسه، فركضت حالاً ودخلت البيت واختبأت فيه. أما الدريعي، فإنه أخذ عاموداً من عواميد الخشب التي كانت أمام البيت، وضرب الجمل على رأسه، فانكسر ٢/٧٠ العامود قطعتين ولم يردّ الجمل،/واحترنا عمّن نقول أنه أكثر قوة الجمل أم الدريعي، لأن المذكور يقول: لو ثبت العامود كنت كسرت رأس الجمل وقتلته. فأنا عدلت بينهما وقلت: أظن يا دريعي، أنك والجمل بالقوة نفسها، لأنك تحتج بأن العامود قد انكسر، والجمل على ما أظن ما أحسّ بالضرب، وعليه فإنكما متقاربان لبعضكما بعضاً. فضحك كل من كان حاضراً.

ورحلنا ثاني يوم، وبينما نحن في الطريق إذ نفذ علينا مكتوب من صقر مضمونه أنه ذهب عند برجس ابن أهديب، ولكنه لم ينل فائدة، و وقع بينه وبين المذكور إغاظة. وقد حرد صقر عليه وذهب من عنده متكدراً، وإن برجس غرّب بكامل عربه ودخل الجزيرة ويريد أن يصل بسرعة إلى بر الشام، ويجتمع مع بيت ملحم ومع جيوش الوهابي، لأجل تنكيس رايتكم وخراب نظامكم وتدميركم، من حيث أولاً أنه زوج أخت عبد الله الهدال، وثانياً أنه محب لبيت ملحم، وثالثاً أن عنده عبسي القبيسي وهو يحرك الشر عليكم دائماً، فكونوا على

---

(٣) الخافور: «نَبْتٌ كالزُّوان» (القاموس المحيط مادة خفر).

(٤) «جنك»، ويريد ضنك.

(٥) «جنك».

علم بذلك وخذوا حذركم منه . فقال الدريعي : الله أكبر منه . ولم نزل نجد بالسير من مرحلة إلى أخرى .

وعلمنا أن السّلْقا(٦) ، وهي قبيلة عظيمة نازلة في منزلة يقال لها **حزملما**(٧) . فقال الدريعي : هذه قبيلة عظيمة ورجالها مشهورون بالمواقع(٨) . وأميرهم رجل طيب ، فيجب أن نجلبهم إلى طرفنا قبل وصولهم إلى الديرة الشامية . والأمير اسمه **جاسم ابن حريميس** وهو صديقي جداً . فقلت نكتب له مكتوباً ، قال الدريعي : هذا لا يناسب لأنه لا يقرأ ، فيجب أن يقرأ له أحد المكتوب ، وتصبح المادة مسموعة ، ونحن نريد أن تكون سرية . فرأى الشيخ إبراهيم أنه من المستحسن أن أتوجه أنا عنده وتم الرأي على ذلك . وثاني يوم أرسل الدريعي معي ستة أنفار ليدلوا(٩) [على الطريق] ، وأنا ركبت ذلولي وكنا سبع أنفس . وكان بيننا وبين حزملما مرحلتان ، وسرنا طالبين قبيلة السلقا . فبعد يومين وصلنا إلى المحل [المقصود] ، فما وجدنا أحد لأنهم كانوا رحلوا ولكن لا يعلم أحد إلى أي جانب توجهوا . فصرنا ندور بالبرية إلى المساء ، فبتنا بالخلا في البادية(١٠) ، من غير أكل ولا شرب لأننا لم نأخذ معنا/غير زاد يوم ١ / ٧١ فقط ، إذ كنا متأملين بالعرب . فأقمنا ثالث يوم ندور أيضاً إلى المساء ، ولكننا كنا نمشي بجد فما وجدنا أحداً ، ولم نلتق بغير عربان . فاشتد بنا العطش وخصوصاً بي أنا ، فتلاشت حواسي ويبس فمي واحترق جسدي من شدة الظمأ ، حتى كدت أغيب عن الوجود ، إذ مضى علي ثلاثة أيام من غير ماء . فصاروا يضعون في فمي حصوات صغيرة وتارة رصاصات ، وكل ذلك بدون فائدة ، ولم يزل يزداد عطشي . فاسود وجهي ، ويبس لساني وصار مثل الفحم الأسود ، وجمدت عيوني ، ورميت نفسي على الأرض كالميت ، وغاب عقلي وعدمت حواسي بالكلية . ومنذ يومين كنا نبحث عن الماء فقط ولا نسأل عن العرب . وكنا دائماً نبعد كأننا مسحورون ، فلا نستطيع أن نجد عرباً أو ماء لنشرب . فبعد ذلك رفعوني عن الأرض وأنا غير واع ، و وضعوني على ظهر ذلولي ومشوا قاصدين منزلة يقال لها جب الغنم بها ماء . وما زالوا سائرين إلى بعد الظهر ، وكان ذلك خامس نهار من غير ماء .

---

(٦) «السلقة» ، من العنزة .

(٧) «حذملما» ، إنما من عادة الصائغ أن يكتب ذالاً بدلاً من الزاي .

(٨) «بالمراجل» .

(٩) «دلالة» .

(١٠) «الجول» .

فأقبلنا على الجب فصار رفقائي يتسابقون إليه ، فرميت نفسي من على ظهر الجمل على الأرض وابتدأت أبكي ، إذ تصور بعقلي من شدة احتراقي وعطشي أنهم سيشربون كل الجب ولا يبقون لي شيئاً ، فعادوا وصاروا يضحكون من عقلي وقالوا : أنت عدمت عقلك فهذا الجب يكفي جيوش عنزة[11] وطروشها ولا يخلص ، ونحن ستة أنفار نريد أن نشرب الجب بكامله . ثم وصلنا وحين صرنا على فم الجب ركض واحد من العرب اسمه غَلْفَص ، واشهر سيفه وجلس على فم الجب وقال : كل من قرب منكم قطعت رأسه ورميته بالجب ، اقعدوا وأنا أسقيكم بمعرفتي . فأخذني أولاً و وضع رأسي عند فم الجب وقال : شم رائحة الماء فقط شماً . فابتدأت اترجاه وأسأله بإلحاح[12] أن يسقيني . فبعد حصة أخرج قليلاً من الماء قدر نصف وقية ، وصار يأتي بالواحد بعد الآخر ويدهن شفاهنا ولساننا دهناً بالماء فقط . ثم بعد حصة أخرى أخرج كمية أكبر من الماء ، وصار يعطي لكل واحد نحو نصف فنجان قهوة ماءً ، وبعد حصة قدر فنجان وبعد قليل قدرفنجانين/[13]. ولم يزل يدرجنا رويداً رويداً مقدار أربع ساعات حتى شبعنا ماء . وأخيراً قام من على الجب وقال : اشربوا قدر ما تريدون . وقال : لو لم أفعل ذلك معكم لكنتم متّم جميعكم إلى جانب الجب . وبالحقيقة كم من السواح وغيرهم الذين بلغنا عنهم أنهم ماتوا من شرب الماء بعد عطش . فبتنا تلك الليلة إلى جانب الجب من غير أكل ، فقط على الماء ، وكنا نشرب كل ربع ساعة وما كنا نروى . فأصبحنا ثاني يوم وكان أمامنا تل عال فصعدنا عليه عسانا نرى عرباً نذهب عندهم فما رأينا شيئاً إلا أن أحد رفقائنا رأى عرباً نازلة بعيداً جداً ، فصار يرينا مكان نزولهم ويعلّم لنا ، ولكن ما كنا نستطيع أن نرى النزل ، حتى أكد لنا أن بينهم بيتاً كبيراً على ستة عواميد وأمامه شيء أحمر . فاعتمدنا على كلامه إذ شهد رفقاؤه أنه حاد البصر بعيد النظر جداً ، فتوكلنا على الله ومشينا بسرعة . فبعد ثماني ساعات وصلنا عند العرب و وجدنا أن كلامه صحيح : بيت كبير على ستة عواميد ، وأمامه هودج امرأة الأمير وهو ملبس بالجوخ الأحمر . وكانوا هم عرب السَّلْقا الذين كنا نبحث عنهم ، وذلك البيت هو بيت جاسم ابن حَرَيْميس . فدخلنا وسلمنا عليه ، وأعطيناه المكتوب الذي معي وهو بخطي وقد كتبته ليكون وسيلة للوصول إليه . فأخذ

٧٣/٢

(١١) «عنازة» .

(١٢) «اتدخل عليه» .

(١٣) ورقة ٧١/٢ بياض ــ وقد أعاد الصائغ ترتيب الصفحات فجاءت ورقة ٧٣/٢ بعد ٧١/١ ، وأخّر بعض المقاطع وقدّم غيرها ، ونحن أعدنا سبكها على حسب تعليمات المؤلف .

المكتوب وفرح به وقرأه[14] وترحب بنا جداً. فحكينا له ما أصابنا فصعب عليه جداً وقال: ليتكم أرسلتم هجاناً فما كنت رحلتُ من حزملما، ولكن ما حصل إلا خير، أهلاً وسهلاً بكم. ثم سألني عن الدريعي وأحواله، وعن جميع ما حدث فحكيت له إذ معه علم بالأمور الجارية. ثم أخذت بالكلام معه وابتدأت أتحدث معه من أبواب مناسبة وملائمة له حتى جذبته رويداً رويداً إلى طرفنا واعتمد على رأينا وأعطاني كلاماً ثابتاً أنه معنا على الخير والشر، وأنه في أول اجتماع له مع الدريعي سيضع ختمة واسمه في ورقة الشروط.

(١٤) يقول الصائغ (ص ١٧٢) إن هذا الأمير لا يعرف القراءة.

[إنكلترا تبدي نواجذها]

//ثم أخبرني أن بنت سلطان الإنكليز أتت إلى تدمر، دعاها مهنا الفاضل بالشتاء، فأتت بهرج[1] عظيم وكبر زائد، وبقيت نحو عشرة أيام في تدمر، و وهبت أموالاً وأعطت بخاشيش كثيرة وقد شاع الآن خبرها[2] بالكرم في تدمر وبين القبائل. وهي بنت سلطان الإنكليز، وهذا شيء أكيد، وهي معروفة عند الحكام وكل أهالي البلاد، ومقيمة حالياً في حماة. وصار كل من يحكي عنها ويتحدث بصيت كرمها ويعظم به، لأن من عادة العرب أن يكبروا الحكاية ولو كانت وضيعة وخصوصاً بالبرية. فدخل علي الوسواس من هذا الخبر وتصدع[3] عقلي، وماعدت أصدق متى سأصل عند الشيخ إبراهيم لأطلعه على هذا الخبر//[4].

فدرنا في القبيلة ودعينا عند كبارها وهي عشيرة عظيمة تحتوي على ثلاثة آلاف بيت وأغنى فرسان، أنفسهم قنوعة جداً[5]./فأقمنا عندهم خمسة أيام، ورحلنا معهم مرحلة. ثم ١/٧٤

(١) «هرتك».

(٢) «خبرنا» [كذا].

(٣) «وانشعب».

(٤) جميع هذا المقطع ورد في المخطوطة صفحة ٧٢/١.

(٥) عبارة الصائغ غير واضحة المعنى فهو يقول: «أغنا فرسان نفسهم رضية جداً».

بعد ذلك وصلنا خبر أن الدريعي نازل في نواحي القُبَيْسَة[٦]، بعيداً عنا نحو أربعة أيام. فودعنا حالاً جاسماً وعائلته وكبار قبيلته وكامل المحبين وتوجهنا طالبين الرجوع عند الدريعي. ومن بعد مسير أربعة أيام، وصلنا بالسلامة عند عربنا، فوجدنا الشيخ إبراهيم والدريعي في وجل عظيم جداً بسبب تأخرنا. فحكينا لهم جميع ما حدث لنا، فشكروا الله على سلامتنا، وسروا جداً من مكتوب جاسم وكان بهذه اللفظات:

من جاسم إلى الدريعي بعد السلام وصلنا مكتوبكم الذي يحوي سلاماً منكم صحبة عبد الله الخطيب، وصار لنا علم بسلامتكم وحمدنا الله على هذا. وتكلم معنا عبد الله المذكور بكل ما يلزم، وأفهمنا كل ما حدث، وعلمنا منه عن مرادكم، فرأيكم عندنا حسن جداً وقبلنا شروطكم، ونحن وأنتم إن شاء الله بالحال الواحد، ليس بيننا شيء محرم غير الذي حرمه الله. وأنا معكم وعلى رأيكم بجميع ما يصدر من خير وشر. على هذا قول الله ورأي الله ورأي محمد وعلي، والخائن يخونه الله. ومتى تواجهنا معكم نضع ختمنا بالشروط، ونكون معكم أحسن من غيرنا، لأن صحبتنا معكم قديمة ومحبتنا إن شاء الله مستديمة.

ففرح الدريعي والشيخ إبراهيم بهذا المكتوب، وقالا: ما ذهب العطش والتعب سدى، بارك الله بهمتك./ثم أخبرت الشيخ إبراهيم سراً بخبر بنت السلطان، فتعجب من ١/٧٢ هذا الخبر وصار في وجل عظيم وأخبر الدريعي. فصرنا جميعنا متحيرين من هذا الخبر، وصرنا نحسب أشكالاً وأشكالاً وحسابات شتى. وكلما اقتربنا من تدمر نسمع هذا الخبر من كل شخص نلقاه وهو يزداد ويكبر. فدخل الوسواس على الشيخ إبراهيم، وقال: إنها أتت خصوصاً ضدنا لتعكس أشغالنا، ويظهر أن سرنا قد انكشف، ولكن لا نستطيع أن نفهم شيئاً إلا من تدمر.

ثم رحلنا ثاني يوم، ولم نزل نرحل بسرعة ونقرب إلى نواحي تدمر. وفي قليل من الزمن وصلنا إلى تدمر ونزلنا بعيداً عن البلد نحو ساعة على ماء أبو الفوارس. فنزلت إلى تدمر، وسلمت على الشيخ وكامل المحبين، واستخبرنا عن المادة، فأخبرني الشيخ علي أن بنت سلطان الإنكليز قد أحضرها مهنا الفاضل، وأقامت ثمانية أيام في تدمر تدور فيها وترى [آثارها]، وأعطت هدايا كثيرة لأن كرمها زائد، وهي لابسة ألبسة[٧] رجال، وتركب الخيل

---

(٦) «القبيسي».

(٧) «كسم».

مثل الرجال، وهي بنت سلطان ومرادها الإقامة في هذه البلاد لأنها، على ما أخبرني، دائماً مريضة، وقد وصف لها الأطباء[8] الإقامة بهذه الأقاليم، وهي الآن في حماة وقد كسب مهنا الفاضل منها كثيراً، وجميع العرب يشكرونها لأنها صرفت مالاً جزيلاً على العربان. وفي حماة لم يزل العرب يلفون عليها، وهي تقدم لهم الهدايا، لأنها تحب العرب كثيراً ومرادها المعرفة بهم ومحبتهم[9]. ولم تزل تهدي الحكام التحف الإنكليزية وأصبح لها صيت عظيم.

فهذا الخبر دخل علي منه الوسواس بالأكثر، وعمي قلبي وتأكدت أنها مرسلة خاصة حتى تفسد عملنا. فرجعت عند الشيخ إبراهيم وحكيت له جميع ما سمعت، فتأكدت عنده [ظنوني]، وأشتد قهره ودخل عليه الوهم والهم. وأعلمنا الدريعي أيضاً فقال المذكور: لا تفكروا بشيء، والله العظيم لا أغير نيتي نحوكم، ولا يمكن أن أدع أمرها يسلك وفي جسدي نقطة دم ولو صفت لي أكياس الذهب من أبواب حماة إلى الهند. فكونوا مطمئني البال والخاطر، فأنا أعطيتُ كلاماً ولا يمكن أن أرجع عنه حتى الموت. فابقوا أنتم على حالكم وتدبيركم ولا تغيروا شيئاً مما يجب عمله، وضعوا في عقولكم أن هذه المادة ما سمعتم بها، وثابروا على جهدكم وارفعوا كامل الوسواس من فكركم. وقال: أنا عندي الرأي أن نتوجه أولاً/ نحو بلاد حوران حتى نكشف أخبار ابن سعود، وبعد ذلك نتابع الرحيل ونذهب نواحي حماة وحمص وغيرها. فقال الشيخ إبراهيم: بما أن الأمر كذلك فانزل يا عبد الله إلى القريتين واحضر لنا ما بقي من اللبس الذي عند الخوري موسى، وخذ هذا المكتوب وأرسله مع ساع خاص إلى حلب، يكون أميناً معروفاً نصرانياً حتى يجلب لنا مصريات،/ إذ لم يبق معنا مصرية واحدة. وبما أننا سنذهب نواحي بلاد حوران فسيكون حتماً طريقنا على القريتين. فحين نكون قريبين منك نرسل لك خبراً، وأثناء ذلك يكون حضر الساعي وأتى بالدراهم فتحضر عندنا. أما أنا فرغبت في ذلك إذ كنت سئمت من البرية والتعب والعطش والجوع والرحيل والنزول والوسخ والأخذ والرد[10] والخطر. فقلت بعقلي: أنزل إلى القريتين وأقيم بها نحو خمسة عشر يوماً إلى حين رجوع الساعي، وأنام براحة في بيت الخوري وأغسل ثيابي وأغير أفكاري، لأني كابدت أتعاباً ومشقات شتى ما لا يوصف ولا يجب ذكرها.

٧٤/١ (تابع)

٧٤/٢

(٨) «الحكامة»، يريد الحكماء.

(٩) «والمحبة».

(١٠) «المعالجات».

[عبد الله يهتف باسم امرأة وينجو من الموت]

ففي اليوم التالي استعديْتُ حالاً وبكل سرعة وأخذتُ المكتوب، وركبت وركب معي عبد من عبيد الدريعي اسمه **فِضّة** ليوصلني، وجدينا بالمسير من قبل الشمس إلى ما بعد العصر، نحو عشر ساعات جداً عظيماً فكشفنا على نزل عرب كبير، نازلين في منزلة يقال لها **القمقوم**، ما بين تدمر والقريتين، ولم نعرف من هم من العرب إلى أن وصلنا إلى البيوت، وإذ هم الموايجة أكبر أعدائنا، وما عاد يمكننا الرجوع كلياً، فتقدمنا إلى بيت كبيرهم وهو بيت أميرهم برجس ابن أهديب، وكان عنده جمع عظيم أمام البيت، فحين نزلنا من على الذلول وصرنا على الأرض عرفني برجس وعرف عبد الدريعي، فحالاً أمر بتقطيعنا، فأشهروا سيوفهم وركضوا علينا وقبضوا أولاً على العبد فضة فقطعوه نحو خمسين قطعة، وأنا أرى ذلك بعيني، ثم تركوه وأتو نحوي كالغزاة[1]، والسيوف مجردة بأيديهم، فحين رأيتهم مقبلين علي ورأيت العبد قتيلاً انقطع قلبي من الخوف، وغبت عن الدينا، فما أذكر إلا أني رأيتهم جاءوا ليقتلوني فصحتُ أنا وقيع بنت هدّال[2]، وغبت عن الوجود وصرتُ مثل الميت لا أدرك شيئاً، ولا أدري إلا أني لما فتحت عيني وجدت نفسي في فراش، وعلى رأسي نحو عشرين

---

(١) «غارة».

(٢) إن الاستجارة بالنساء معروفة عند العرب في الجاهلية والإسلام، وما يقوله الصائغ لا يخرج عن المألوف المشهور.

امرأة من العرب، منهن بأيديهن بصل يشممنني إياه، وبأيدي غيرهن شرائط[٣] محروقة
٧٥/١ وصوفات محروقة، ومع غيرهن شعر محروق، وأناس ترش الماء على وجهي/و واحدة منهن ماسكة بيدي تشد عليها وتقول: لا تخف يا عبد الله، تراك عند بنت الهدال، سكن روعك وقوي قلبك، أنت عند بنت الهدال، والله لا أخلي يصيبك مطر السماء، لا تخف افتح عينيك. فصرت أسهو ولم يبق لي إدراك لأعرف أين أنا وأصبحت مهبولاً[٤]، أرى الناس بعيوني ولكنني لا أستطيع الكلام ولا أعرف نفسي عند من أنا موجود، إذ قد ذهب من عقلي كل شيء ونسيتُ وصرت مثل الطفل الذي لا يدرك شيئاً. فأخذت تسقيني زبدة مذوبة إذ يبس حلقي[٥]، ولساني مربوط وحالتي حالة الموتى. ودمت على هذه الحالة الشنيعة كل تلك الليلة، وعند الصبح وعيت نوعاً ما وصرت أتكلم رويداً. فدخل برجس حتى يراني ويتصالح معي، فحلفت امرأته بحياة رأس أخيها عبد الله الهدال أنه لا يدخل عندها حتى يشفى عبد الله ويعود كما كان. فأقمت ثلاثة أيام وثلاث ليالي عندها وهو لا يدخل البيت بل إنه كان ينام خارجاً عند الضيوف، وما دخل البيت بسبب اليمين الذي حلفته. فبعد هذه الأيام الثلاثة ركن قلبي ورجع عقلي وملكتُ حواسي فدخل برجس وغار[٦] عليَّ حتى يصالحني، فامتنعت عنه ولم أرد الصلح، فصار الحاضرون يترجوني أن أصالحه وأسمح عما مضى، فما كنت أقبل بذلك وأخيراً أتت امرأته وقالت: إكراماً لخاطري صالح برجس وتآخَ معه، فما مضى قد مضى. فلم أستطع أن أرفض طلبها لأن حياتي على يدها، فقمت وصافحته وصالحته على شرط أن يكون هو أول محب لنا، ويتحد معنا ويضرب ختمه في شروطنا ويكون معنا على الخير والشر. فقبل ذلك وتصافحنا ثانياً. وأهداني عبداً لأُقدمه للدريعي بدلاً من العبد الذي قتل، واسمه جوهر، وقال برجس: قتلت لكم فضة وعوضت عنه بجوهر وهو أغلى وأثمن. ثم خرجنا من [بيت النساء][٧] إلى مجلس الرجال فأمروا بالذبائح وابتدأوا يعدون
٧٥/٢ ضيافة الصلح، وراقت الأمور وحصل الحظ والإنشراح. وفيما نحن/على هذه الحال قبل الغداء، إذ وصل مكتوب من الدريعي إلى برجس لأن الخبر كان بلغه بأني قُتِلْتُ وأن العبد قد قتل. وكان بهذه اللفظات:

---

(٣) «شراطيط».
(٤) «مبهول مبضول (؟)».
(٥) «زلاعيمي».
(٦) أقبل.
(٧) «إلى برا».

من الدريعي ابن شعلان إلى بركز[٨]ابن اهديب ، أعلم يا بركز أن مردود عليك النقا التام ، فكن على حذر[٩] ، إن مكنني الله سأجازيك على فعلك هذا أضعافاً ، فنهار غد نحرّك جوادنا لقتالكم ، ولا أرجع عنكم حتى لا يبقى في قبيلتكم من يخبر عنكم ، يا خائن ، يا عثماني ، يا فاسخ عهود العرب ، الذي خرق رسوم عنزة ، الذي أساء بسمعة[١٠]العربان بفعاله الردية ، يا قتّال ضيوفك ، يا أسود الوجه ، إعلم أن دم عبد الله غال جداً لا أرضى نظيره كل عشيرتك فأنذرك يا خائن فكن على حذر[١١] .

فمن هذا الكلام اصفر وجه بركز والحاضرين وقالوا : لو كان عبد الله قتل كنا حَسَبْنا حساباً كبيراً ، ولكن نَحْمُدُ الله لأن عبد الله حي . و[بحسن] تدبيره و[بُعد] نظره لا يحدث إلا الخير . فقلت كونوا في برج الراحة ولا تفكروا بشيء لا يصير إلا الخير . هاتوا لنا الغداء عاجلاً كي نمشي ونلحق [بعربنا] قبل بساعة لنطفي هذه النار ، لأنهم متى رأوني حياً يهون الأمر . فحضر الغداء وبعد القهوة ودعناهم حالاً وركبت وبعد قليل وصلتُ[١٢] . فحين رآني الشيخ إبراهيم مقبلاً عليه وأنا على أحسن حال[١٣] ، وقع على الأرض وصار يبكي ويقبل الأرض ويشكر الله . وركض الدريعي علي وجميع الحاضرين وهم لا يصدقون من شدة الفرح ، فجلسنا وحكينا لهم كل ما جرى من الأول إلى الآخر ، وبرّدنا همتهم وقدمنا العبد بدلاً من العبد الذي قتل ، وعملنا على تهدئة خاطر الدريعي على بركز ورفعنا فكرة[١٤]الحرب التي كانوا مهتمين بها ، لأني وجدت العرب جميعهم حاضرين ومستعدين ، وكان مرادهم أن يركبوا في اليوم التالي على الموايجة . فتقع أمور رديئة جداً فتلافيناها[١٥] . وذهبنا ثاني يوم وبعد تلك المرحلة نزلت إلى القريتين وسلمت على الشيخ رجب وعلى الخوري وعلى موسى بن ورده/وعلى كل المحبين وفي اليوم التالي وجدنا ساعياً إلى حلب وأرسلناه ليحضر لنا الدراهم وجلسنا نستريح ونغسل شقاء جسدنا من التعب .

٧٦/١

(٨) كذا في هذه الصفحة من المخطوطة وما بعدها ، والصواب برجس كما الصفحات السابقة .

(٩) «حضر» .

(١٠) «رذّل» .

(١١) «حضر» .

(١٢) يقول الصائغ صفحة ١٧٨ أنه سار عشر ساعات سيراً حثيثاً قبل أن يكشف على نزل الموايجه ، ولعل الدريعي كان اقترب من خصومه .

(١٣) «طيب» .

(١٤) «همة» .

(١٥) «فمضت المادة» .

[غارة وهابية على تدمر]

فبعد جلوسي بقليل من الأيام، إذ وصل خبر أن غزواً كبيراً من طرف الوهابي جاء إلى الديرة الشامية، وهو يعمل على تخريب الضيع والقرى ونهبها. فخاف أهالي القريتين جداً ونبّه الشيخ سليم إلّا يتطرف أحد خارج الضيعة، وكل ليلة كانوا يحرسون[1]، وكان هذا الخبر صحيحاً، لأن ثاني يوم أتى خبر أن الغزو الوهابي ضرب تدمر ولم يستطع أن يدخلها لأن من المعلوم أن لها باباً يغلقونه فتصبح في مناعة عظيمة، فالتدامرة مقيمون في مكان مثل القلعة، وهو هيكل الشمس القديم. فلم يتمكن الوهابيون من دخول البلد، ولكنهم وجدوا بعض الأنفار خارجها فقتلوهم وأخذوا جانباً من جمالهم وذهبوا إلى أرك، وهي ضيعة تبعد عن تدمر نحو خمس ساعات، فكبسوها عند وجه الصبح وقتلوا جميع الرجال من كل جنس ذكر، ولم يبقوا إلا على النساء فقط، وأحرقوا البيوت وأخذوا طروشهم، وقد فعلوا كل ذلك نكاية بالدريعي. فخاف أهالي القريتين جداً، ولم يبق أحد له الجراءة[2] ليخرج منها أو يدخلها ليلاً أو نهاراً وهم يحرسون دائر الضيعة تحت الخوف والرعب.

فأقمت عشرين يوماً بالقريتين ولم يحضر الساعي. فكنت في وجل عظيم خوفاً من أن يكون التقى بالغزو الوهابي حين رجوعه، فقتلوا الساعي وأخذوا منه الدراهم. فكنت في

---

(١) «ينظروا بالليل».

(٢) «الجراعا».

خوف وتفكير شديد جداً إذ وصل الساعي بالسلامة وأحضر معه المطلوب. فسألناه عن سبب تأخره فقال: كنتُ في صدد منذ خمسة أيام جالساً بها خوفاً من الغزو إذ بلغني خبر ذلك. وقد منعني الشيخ عساف، شيخ صدد، عن الذهاب حتى عرف أن الطريق نظيف فأرسلني. وهو يسلم عليك. فسألته عن أهالي صدد إذا كانوا خائفين من الوهابي قال: لا لأن لهم أخاً[٣] من الوهابي ـــ وهم يقدمون له كل سنة شيئاً معلوماً ـــ يحميهم من كل ضرر يحدث من الوهابي./واستخبرت عن عربنا فأخبروني أنهم وصلوا إلى غوطة[٤] الشام، ولكن الوصول إليهم صعب لأن أهالي القريتين لا يستطيعون السفر خوفاً من أن يلتقي بهم الغزو الوهابي. فاضطررتُ أن أسافر ليلاً مع اثنين من أهالي القريتين، من النصارى، إلى صدد فوصلتُ وسلمتُ على الشيخ عساف وكامل المحبين. فسألني الشيخ عساف وأهالي صدد عن تجارتنا[٥] مع العرب، فقلت: لله الحمد نحن مسرورون جداً ورابحون، وغرشنا كسب خمسة مع العرب ولو كنا نعرف أن التجارة مع العرب فيها كل هذا الربح لكنا تعاطيناها من زمان. فدخل ذلك في عقلهم لأنهم قد عرفونا على هذه الصنعة وهذا كان كلامنا معهم منذ الابتداء. فجلست عندهم يوماً وفي اليوم التالي تزيّيتُ بزي[٦] أهالي صدد، أي لبست مثلهم، وأخذت معي اثنين من أهالي صدد لأنهم مضمونون[٧] لدى الوهابي، وسافرت من عندهم قاصداً غوطة الشام. فبعد ثلاثة أيام وصلت عند عربنا، فوجدتهم نازلين بالغوطة، ونازلاً إلى جانبهم بركز[٨] ابن اهديب بكل قبيلته، وأصبحت المحبة بينهم عظيمة. وقد وضع بركز اسمه وختمه في ورقة الشروط. وأما الأمير مهنا الفاضل فهو نازل نواحي الزرقا والبلقا، ومعه جملة قبائل من عرب جبال شمر، ويريد قتال الدريعي وأخذ ثأره السابق. وبلغنا أيضاً أنه عمل رباطاً مع حكام حمص وحماة ضد الدريعي ومن يلوذ به، واشتد أزره بقوة عظيمة من عرب وعثمانيين. فرأينا من المستحسن فسخ هذا الرباط وذلك بأمر والي البلاد، وهو وزير الشام سليمان باشا، إذ يوجد بيننا وبينه

٢/٧٦

(٣) الأخ، في العرف البدوي، شيخ عشيرة أو قبيلة، كبير السلطة يأخذ الخوة من عشيرة أو قرية ضعيفة ويحميها، ويكون أحياناً من بعض أفراد البدو.

(٤) «غوضة».

(٥) «متجرنا».

(٦) «بكسم».

(٧) «مسوكرين».

(٨) برجس.

محبة عظيمة، وبنوع خاص بيننا وبين مديره الأكبر المعلم حايم اليهودي، فأصبح من الضروري أن نركب من الغوطة وننزل إلى الشام أي الشيخ إبراهيم وأنا.

[ميلادي استانوب]

//فنزلنا في بيت المعلم حايم ، فترحب بنا بكل إكرام . وقبل كل شيء سألناه عن بنت سلطان الإنكليز . فأخبرنا أن ابنة أحد وزراء دولة الإنكليز ، يقال لها ميلادي استانوب ، تريد الإقامة بهذه الأقاليم لأن هواء بلادها لا يناسبها ، وذهبت إلى تدمر وطلبت من الباشا بولردي إلى حكام حماة وحمص . وهي الآن مقيمة [في حماة] وربطت أواصر الصداقة المتينة مع العرب ، وصاحبة كرم زائد ولا تزال تهب وتعطي ولا أحد يعرف حقيقة نيتها . فتشوشت أفكارنا من كلام المعلم حايم ، وبما أن المذكور على علم بسبب سياحتنا فإنه حرص على أن نكون مطمئنين البال وقال : لا تخافوا ، أريد منكم فقط إن شاء الله أن تربطوا شغلكم جيداً مع العرب وكما يجب ، وأنا معكم دائماً ، وأعمل كل ما أستطيعه لصالحكم . ثم اطلعنا أيضاً على أحوال مهنا الفاضل وعلى الرباط الذي أجراه مع حكام حمص وحماة//[1] ، وطلبنا منه بولردي من قبل سعادة الوزير إلى حكام حمص وحماة يفسخ رباطهم مع مهنا ، ويطلب منهم أن يكونوا مساعدين للدريعي في كل ما يلزمه من الأمور والمصالح . فأحكم المعلم حايم العمل مع سعادته وأخرج لنا بولردي عظيماً مشدداً جداً وكان مضمونه بهذه اللفظات :/ ١/٧٧

افتخار الأماجد الكرام ، أولادنا المحترمين ، وكيل متسلمنا بمحروسة حماة سليم بك ، و وكيل متسلمنا بمحروسة حمص حسن آغا مملوك ، وسائر الضباط من دالي باشا وآغة

(١) ورد هذا المقطع صفحة ٧٢/٢ و ٧٣/١.

هواسره[٢] ، وكامل خدام بابنا ، وجميع وجوه البلاد ، نحيطكم علماً أنه قد طرق إلى مسامعنا أنه حصل منكم تعاهد ورباطات باهوية أنفسكم إلى طرف مهنا الفاضل ، ضد محسوبنا وخاصتنا ، افتحار أمراء العشائر والقبائل ولدنا الدريعي ابن شعلان . فهذا شيء ضد إرادتنا وبخلاف خاطرنا ، ولا نرضى به كلياً لأنه غير مناسب لسياسة حكمنا . فالمراد أن ترجعوا عن غيكم الذي أنتم معتمدون عليه ، وتكونوا محبين ومساعدين لولدنا الأمير الدريعي في كل ما يلزم ويقتضي له من الأمور والأغراض ، حيث فوضناه في ديرتنا ، فليكن ذلك معلوماً كل العلم لديكم ، وتعتمدوا عليه غاية الاعتماد ، والحذر كل الحذر من حركات المخالفة لأمرنا هذا والسلام .

فوضعنا البولردي عندنا واشترينا لوازمنا من دمشق ، وأصبحنا جاهزين للسفر . فقال الشيخ إبراهيم : يجب أن نذهب ونسلم على الطبيب الفرنسي شاباصون قبل خروجنا ، فلربما يكون عنده أخبار من فرنسا قد نحتاج إليها . فتوجهنا عند المذكور وسلمنا عليه ، فوجدنا عنده الشيخ إبراهيم السائح الإنكليزي[٣] فسلمنا عليه . ولكن الشيخ إبراهيم استاء لأنه التقى بالإنكليزي المذكور ، لأن ذلك ضد مصالحنا وأوصاني أن أكون يقظاً لكل كلمة أقولها أمامه . وأما المذكور فإنه عمل كل جهده واحتال حتى يكشف أخبارنا ويطلع على أمورنا ويعرف أسباب سياحتنا فما استطاع ، ونحن عدنا حالاً إلى منزلنا وتوجهنا في اليوم التالي عند عربنا من غير تماهل فوجدنا الدريعي في حوران نازلاً عند الأميردوخي/ابن سمير . فأعلمناه ٢/٧٧ بالذي جرى وأعطيناه البولردي ففرح به . ثم أقمنا بعض الأيام في حوران و وصلنا خبر عن الوهابي أن قواته زادت جداً ويريد امتلاك ديرة عربستان وهو آخذ بتدبير ذلك . أما مهنا فهو بصحبة عربان كثيرة تلوذ بالوهابي ، ومراده قتال الدريعي . فدخل علينا الخوف والوسواس وفكرنا[٤] بعقولنا أن الإنكليز حضروا عند الوهابي عن طريق بحر الهند من بوغاظ[٥] باب المندب ، وارتبطوا مع الوهابي وأرسلوا ميلادي استانوب عن طريق بر الشام ، وارتبطت مع مهنا الفاضل الذي هو خصمنا ، ومرادهم خراب نظامنا ومنعنا عن متابعة مقاصدنا ، من بعد

(٢) كذا في الأصل ولم يظهر المعنى .
(٣) هو السائح السويسري بوركهارت الذي اكتشف آثار بترا .
(٤) « وكسرنا المادة » .
(٥) مضيق .

تعب ثلاث سنين[٦] ونحن بهذا العمل. فقال الدريعي: كونوا مطمئني الفكر من طرفي، إني أعطيت كلاماً ولا يمكن أن أرجع عنه، وأنا أضمن جميع الذي اتفقوا معي أنهم لا يخونون. وماذا تستطيع أن تعمل هذه البنت؟ أما الوهابي فإني لا أحسب له حساباً، لأنه في ديرته وكل ما هو قادر عليه إرسال جيش[٧] علينا، وبعون الله لا آكل همه، أولاً لأن الحكام يجب أن تساعدنا عليه، فهو عدو السلطان وعدو الديانة، ثانياً أصبحنا نحن، بعون الله، نحو عشرين قبيلة، متحدين على رأي واحد، نقاتل ملوك الروم[٨]، فكونوا أقوياء القلب ولا تفكروا بشيء أبداً. فأطمأنت قلوبنا نوعاً ما.

وثاني يوم رحلنا من حوران وابتدأنا بالتقرب من حمص وحماة. وبينما نحن بالقرب من حمص إذ وصل مكتوب من الميلادي إلى الشيخ إبراهيم تدعوه عندها بحماة، وتعلمه أنها أرسلت من يحضر حرمته مدام لاسكاريس من عكا إلى عندها بحماة، لأن الشيخ إبراهيم متزوج كرجية وذلك حين كان في مصر مع العمارة[٩]، وحين حضر من باريس إلى عربستان أتت معه وأبقاها في عكا كما تقدم الشرح سابقاً[١٠]. /ضاق صدر[١١] الشيخ ١/٧٨ إبراهيم من ذلك جداً وفهمنا أن الشيخ إبراهيم الإنكليزي هو الذي حدثها عنا حين رآنا بدمشق. فاضطر أن يكتب لها جواب مكتوبها بكل رقة واحتشام، و وعدها أن يزورها في حماة بعد عدة أيام. وكان القصد من ذلك أن يرسل علماً إلى مدام لاسكاريس ليمنعها عن الحضور عند الميلادي. فأرسل ساعياً إلى ميلادي، وكتب مكتوباً إلى امرأته بعكا يحذرها من الذهاب عند ميلادي، وأرسله مع ساع خاص. فعاد الساعي وأخبر أنه لم يرَ مدام[١٢] لاسكاريس في عكا، وأخبروه أن ميلادي أرسلت وأحضرتها عندها وهي ذهبت

(٦) كان التوقيع على الرباط في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨١١، أي بعد سنة وتسعة أشهر من مغادرة لاسكاريس والصائغ مدينة حلب. ثم تابعا رحلتهما خلال الشتاء والربيع. وعليه فالحوادث المذكورة هنا، على ما يظهر من سياق الحديث، وقعت في صيف سنة ١٨١٢.

(٧) «أرضي».

(٨) يريد العثمانيين.

(٩) الحملة الفرنسية.

(١٠) انظر أعلاه ص ١١٩.

(١١) «فانحصر».

(١٢) السيدة.

حالاً بملء إرادتها، إذ لها ثلاث سنوات من غير خبر من زوجها الخواجه لاسكاريس فتضايق جداً من هذا الخبر ونزل إلى حماة وبقيت أنا عند العرب.

وأما مهنا فإنه لم يزل يقرب إلى طرفنا مع القبائل التي معه، حتى بقي بيننا مقدار مرحلة واحدة، وأصبحنا جميعنا في طبراق حماة وحمص. فنزل سحن ابن الدريعي إلى حمص ومعه البولردي، فأقام ستة أيام ثم عاد وبصحبته الشيخ إبراهيم، وأخبرنا أنه عرض البولردي على الحاكم فأطاع للأمر، وعمل إكراماً زائداً لسحن وألبسه فروة، وتوجه من حمص إلى حماة وهناك أيضاً حصل له إكرام وهدايا من الحاكم وكامل الضباط[13] وأكابر البلد، وكذلك ألبسه المتسلم فروة و وعدوه بكل ما يلزم من المساعدة دون أي قصور، وامتثلوا أوامر الوزير. //وربط سحن رباطاً مع الحكام مقتضاه أنه متى نزل مهنا أو أحد أولاده يرمون القبض عليه بحجة أنه أحضر عرباً وهابيين، وهم أعداء سلطاننا وديانتنا ويريد أن يسلم البلاد للوهابي//[14].

أما سحن فحين كان بحماة أرسلت ميلادي تدعوه عندها. وتناول عندها طعام الغداء، وعملت له إكراماً زائداً وأعطت هدايا له ولأبيه ولزوجة أبيه لأن والدته متوفية، وهدايا أيضاً لزوجته، وألبست جميع من معه من الفداوية كل واحد عباءة وجزمة و وعدته أن تزوره.

وأما الذي جرى للشيخ إبراهيم فإنه حين نزل إلى حماة وجد مدام لاسكاريس قد وصلت ونزلت عند ميلادي. فاستاء من ذلك من غير خوف لأنه على علم أن امرأته لا تعرف شيئاً من أمورنا لتتحدث بها ميلادي. وبعد أن سلم/على المذكورة أخذت تسأله عن أمور كثيرة وعن سبب حضوره وعن نيته، ولكن بكل ظرافة تريد أن تسرق منه الكلام فلم تحصل بفائدة، فاستاءت منه وأخذت تتحدث معه بقساوة وحتّمت عليه بأمر أن يقول لها ما هو مراده من هذه السياحة بين العرب. فدخل عليه الحمق من ذلك واختلف معها إختلافاً شديداً وحرد عليها وأمر امرأته، مدام لاسكاريس أن تعود حالاً إلى عكا. وفي اليوم التالي تمكن من العودة عند عربنا مع سحن. وبعد قليل سافرت ميلادي إلى دمشق ورجعت مدام لاسكاريس إلى عكا.

٧٨/٢

---

(١٣) «الظبّط».

(١٤) ورد هذا المقطع ص ٧٣/١ منفرداً وأثبتناه هنا وفقاً لتأشيرات التي جاءت في المخطوطة.

[الصلح بين الدريعي ومهنا الفاضل]

وأما مهنا الفاضل فإنه كان يريد الحرب معنا لا سيما وقد اشتد ظهره بحكام حمص وحماة، فأرسل ابنه فارساً ليطلب منهم العساكر والمعونة علينا، فرأى الحال متغيراً جداً، وحالاً رمى حسن آغا المملوك متسلم حمص القبض عليه وعلى جميع من معه، نحو عشرة فداوية، وكبلهم بالزناجير، وأفهمه أنه يفعل ذلك على حسب أمر الوزير، لأنكم جئتم بالعرب الوهابيين الذين هم أعداؤنا، وتريدون أن يملك الوهابي عربستان[1]. فخاف فارس ابن مهنا جداً من ذلك وأرسل يخبر أباه بالذي جرى. وأما نحن، فحين بلغنا ذلك، أرسلنا حالاً مرسالاً[2] إلى مهنا ننذره أن أستعد غداً للحرب والقتال فإننا محركون عساكرنا عليك. وكان مرادنا أن نحوطه بالمصائب من كل الأطراف. فحين وصل مرسالنا إليه، وأخبره أن غداً صباحاً سيشن عليه الدريعي الهجوم، وكان عَلِمَ قبل ذلك بقليل أن ابنه فارساً قد أُلقي القبض عليه في حمص، ومن جهة أخرى رأى أن عربه قليلون وأن الدريعي أولاً أقوى، وثانياً أن الحكام والوزير من طرفه، فكبر عليه الوهم ودخل عليه باب الخوف، فتلك الليلة رحل ليلاً بكامل عربه ونزل إلى صدد، عند الشيخ عساف، يترجاه أن يمشي بالصلح ويصالحه مع الدريعي/إذ رأى أن الأمور عظمت عليه ولم يبق له ملجأ، فخاف من الأعظم ١/٧٩

(١) «عرب بستان».

(٢) رسول أو مرسل.

ودخل على الشيخ أبو إبراهيم وترجاه. فركب الشيخ المذكور ومهنا وأربعة مشايخ قبائل من الذين مع مهنا، وبصحبتهم نحو مئة خيال لاغير وحضروا عندنا، وكنا نازلين على عاصي حماة. فأبقاهم جالسين في محل بعيد عنا نحو نصف ساعة، وحضر وحده ليعلم مرادنا، خوفاً من أن لا يكون لنا رغبة في الصلح، والحال أن الصلح كان جل مرادنا.

فحضر المذكور فترحبنا به وأظهرنا له[٣] غاية الإكرام اللائق، فابتدأ يتكلم بخصوص الصلح فصار الدريعي يعتذر ويمتنع فترجيناه نحن أيضاً وقام ابنه سحن وقبّل يده وترجاه، فأعطى كلاماً بالصلح بشرط أن يضعوا أسماءهم وختومهم في ورقة الشروط. فأخذ الشيخ عساف على نفسه ضمان ذلك، وركب للإتيان بهم فحضروا جميعهم، فركضنا لملاقتهم وأنزلناهم بكل إكرام وإعزاز. فأمر الدريعي بالقهوة فقال مهنا: يا ابن شعلان لا نشرب قهوتك قبل أن نتصالح ونتصافح ونطمر الحصى[٤]. وحالاً قام مهنا والدريعي واشهرا سيفيهما وكل واحد قبّل سيف الآخر. ثم أنهما تصافحا مع بعضهما وصار كل من الحاضرين يقبل الآخر. وابتدأت النساء تهاهي وتزلغط. ثم أخذ مهنا سبع حصيات من الأرض وحفر مقدار نصف ذراع في الأرض، وأمسك الحصيات بيده وقال: يا دريعي هذا حقك وحقي طمرناه إلى الأبد. ودفن الحصيات في الحفرة وردّ التراب عليها، وداسها برجليه وتفل هو والدريعي عليها بعد الطمر ثم جلسا. وأمروا بالقهوة وما عدت تسمع كلمة واحدة مما يخص ذلك. فتعجبنا أنا والشيخ إبراهيم من ذلك لأننا ما كنا رأينا بعد هذه النكتة ولا سمعنا بها. فسألنا عن ذلك فأخبرونا أن ذلك من عاداتهم، ومعنى السبع حصيات هي السبع فتن التي صارت ضد الإمام علي بالكوفة بعد محمد. وعلامة الطمر أن الشيء مات ولا عاد يذكر، والتفل فوقه يعني/على[٥] الشيطان خزاه الله، لأنه هو محرك الشر بالعالم فهذا من جملة عاداتهم وتقاليدهم[٦]. ٢/٧٩

(٣) «وسقنا معه».

(٤) «الحصوات».

(٥) يبتدئ هنا الكرّاس رقم ١٠. أما التفل فمعناه البصاق.

(٦) «ذياتهم» (؟) ولعله يريد أزيائهم. إن عادة دفن الحصى طاعنة بالقدم وقد ذكرها شهاب الدين العمري وابن ناظر الجيش والقَلْقَشَنْدي، ونظن أنها زالت اليوم أو آخذة بالزوال. (انظر مقالتنا: رحلة فتح الله الصائغ إلى البادية، مجلة العرب ص ٧٩٦، ج ١١، ١٣، سنة ١٤٠٦ هـ كانون الثاني، شباط ١٩٨٦، رياض).

وبعد الغداء حدثت خلوة كبيرة وقرأنا عليهم ورقة الشروط فأعجبت الجميع. وحالاً وضع مهنا ختمه واسمه بالورقة وكذلك رؤساء الأربع قبائل الذين كانوا معه، وهم ذرّاك ابن فخر، شيخ قبيلة الجملان[٧]، عشيرته تحوي على مقدار ألف ومئتي بيت، وأيضاً جرّاح ابن مِعْجِل شيخ قبيلة الجَهْما، عشيرته تحوي على نحو خمس مئة بيت، وأيضاً غالب ابن رمضون، شيخ قبيلة البلاعيس[٨]، عشيرته تحوي على ألف وأربع مئة بيت، وأيضاً فارس ابن نجد شيخ قبيلة المصاليخ[٩]، عشيرته تحوي على مقدار ألفي بيت. فالجميع وضعوا ختومهم وأسماءهم وقبلوا بما شرط عليهم وأعطوا كلاماً ثابتاً وصار صلح على أتم المراد. فارتاح بالنا جداً من ذلك إذ لم يبق قبيلة في عربستان عدوة لنا بل الجميع اتحدوا معنا. ثم نزل سحن إلى حمص وفكَّ ابن مهنا من الحبس وألبسه خلعة من المتسلم وحضر عندنا. وكذلك الشيخ عساف كشف على المادة وفهمها جيداً، وعاتبنا لأننا لم نعرفه بنيتنا منذ البداية، لأنه كان أسعفنا ببعض الأمور. ثم المذكور ودعنا ورجع إلى صدد.

---

(٧) من العشائر الغنّامة المستقرة اليوم (وصفي زكريا، عشائر الشام، ج ٢، ص ٣٩ و١٥٤).

(٨) البلاعيس: فرع من الأشاجعة.

(٩) المصاليخ، من وِلْد علي، من عنزة.

[حلفة زواج في البادية]

ثم تفرقت القبائل من حدود بلاد حوران إلى شمالي حلب، جميعها عصبة واحدة قولاً وعملاً والرأس عليهم هو الدريعي، وبقينا بانتظار خلوص فصل الصيف حتى نتوجه إلى المشرق ونكمّل المقصود. وأثناء هذه المدة اتفق أن اجتمعت جملة قبائل على منزلتين كبيرتين الواحدة إلى جانب الأخرى، بالقرب من حلب، يقال لهما **تل السلطان والمتنج**. فكان من جملة القبائل الجَرْبا، ولأميرها فارس ولد [شاب] فاهتم بزواجه وأراد أن يأخذ له بنت بركز [برجس] ابن اهديب. فتاة جميلة جداً اسمها صبحة. فأتى عند الدريعي وترجاه أن يذهب معه حتى يطلبها على حسب عاداتهم./فراح الدريعي وجملة مشائخ ورؤساء قبائل وبعض الكبراء سناً[١]، وأنا من جملتهم لأجل المشاهدة[٢]لأننا ما كنا رأينا بعد عرساً منظوماً. وكان بركز بعيداً عنا نحو ساعة من الزمن.

فركبنا جميعنا وكل منا لبس أفخر ما عنده، وجاء العريس معنا إذ لا بد للعروس أن تراه. فإن أعجبها أعطت كلاماً وإن لم يعجبها ما صار شغل مثل طرائق الإفرنج. وكان اسمه جراح، وهو شاب عظيم حلو المنظر. فحين أقبلنا عليهم كان وصلهم الخبر، فما خرج أحد

(١) «اختيارية».

(٢) «الفرجة».

للقائنا ولا وقف أحد على أقدامه[٣]، وهذه عادتهم حتى لا يقال عنهم أنهم فرحون بزواج ابنتهم، بل العادة عندهم أن يظهروا أن ليس لهم رغبة[٤] ويعتذروا من الطالبين.

ثم وصلنا ونزلنا عن خيلنا وسلمنا عليهم فترحّبوا بنا وأمر بركز بالقهوة. فبعد شرب القهوة قال الدريعي: مالك يا بركز عابس الوجه بنا؟ فإن كان ذلك بسبب الغداء، فنحن لا نريده، إذ أكلنا في بيوتنا وجئنا عندك لنراك فقط. فأجابته زوجة بركز بنت هدّال التي حياتي على يدها وقالت: أهلاً وسهلاً بالدريعي وكامل من معه، مرحباً بكم، وأبشروا بالغداء والذي تريدونه حاضر أمامكم. فاستكثرنا جميعنا بخيرها وابتدأ الكلام.

وكانت العروس من خلف النساء تنظر إلى العريس فأعجبها وقالت لأمها: قد أعجبني العريس. فصار لنا علم بأن العريس قد قُبِلَ. فقال الدريعي: يا بركز أطلبْ ببنتك على حسب عوائدنا. فقام ودخل إلى الحرم وشاور امرأته وابنته وطلع وقال: أريد بصبحة مئة ناقة وخمسة رؤوس خيل نجادي[٥]، وخمس مئة نعجة، وثلاثة عبيد وثلاث عبدات، وحَسَاوية مقصبة، وشملة مقصبة وزِبّونا[٦] شامياً يعني قطنياً شامياً ومعاضد كهربا ومرجان أي أساور، وجزمة صفراء. فقال له الدريعي: إن كنت لا ترغب في زواج ابنتك فعرفنا بذلك كي لا نتعب ونتكلم، إذ يقول المثل: إذا كنت لا تريد أن تعطي بنتك فغلّ نقدها./والنتيجة، ٢/٨٠ بعد كلام كثير ورجاء شديد، انتهى الحال على خمسين ناقة ورأسي خيل ومئتي نعجة وعبد وعبدة وحَسَاوية وشَمْلة وزِبّون ومعاضِد كهربا ومرجان وجزمة صفراء، وإلى والدها حساوية وجزمة، وإلى أخيها كذلك، وإلى أمها حَسَاوية وشَمْلة. وهذه الأشياء الأخيرة من غير طلب منهم، لأن العادة أن يقدمها العريس. فقال الدريعي: أكتب يا خطيب الذي صار عليه الإتفاق. فكتبت جميع ذلك في ورقة و وضعنا بها اسماء شهود الحال، وقرأنا الفاتحة على ذلك. وبعدئذ أتوا بحليب النوق وسقوا جميع من كان حاضراً. وهذا عوضاً عن الشرابات التي يقدمها أهالي المدن، وصار الوعد إلى ثلاثة أيام لإحضار النقد جميعه. ثم بعد الغداء ركب الشباب وصار ميدان لعب خيل عظيم، والعريس من جملتهم، والعروس تنظر إلى عريسها وتتفرج على لعبه فأعجبها جداً. فباركنا لهما وتوجهنا إلى عربنا.

---

(٣) «فما حد لاقا لنا ولا قام على حيله».

(٤) «ما لهم خاطر».

(٥) خيل أصايل نجدية.

(٦) من التركية: نوع من الصدرية بأكمام موشاة.

وفي اليوم الثاني أرسلوا مرسالاً[٧] إلى حلب فأتى بالمطلوب وأعدّوا كل شيء. وفي اليوم الثالث الذي هو يوم الوعد، منذ الصباح، فرزوا خمسين ناقة بيضاء عظيمة ورأسي خيل ومئتي نعجة وجميع الذي صار القول به. ثم جمعوا حشيشاً من البرية وزينوا رؤوس الناقات بالحشيش الأخضر، وزينوا العبد والعبدة وأركبوهما على الفرسين اللذين تقدّم ذكرهما، وركب نحو خمس مئة خيال بأيديهم[٨] الرماح، وساقوا الجمال أمامهم، بالغناء الحربي والتقويصات[٩]. وكذلك نحو مئتي امرأة، جميعهن مزينات وسائقات الغنم أمامهن، والعبدة راكبة معهن، وسائر النساء ماشيات بالغناء والتهاليل[١٠] والزلاغيط. ومشى خيال أمام الجميع ناشراً على رمحه زناراً أبيض على هيئة العلم وهو ينادي هذه راية بركز ابن اهديب. ومشت امرأة أمام الغنم، وبيدها إناء من فخار[١١] فيه نار، تضع عليها بخور البان كل الطريق ونحن سائرون. وكان أمام الجميع حامل الراية البيضاء، وبعده النوق، وبعد النوق البواردية الرجّالة[١٢]،/وبعد الرجالة الخيالة، وبعد الخيالة المرأة التي بيدها البخور، وبعد المرأة الغنم، ١/٨١ وبعد الغنم العبدة راكبةً، وبعد العبدة النساء، وبعد النساء الأولاد ومعهم جمل يحمل الحوائج من غير حزم، وعلى ظهره مشلح من حد رأسه إلى ذنبه، وقد نُشِرَتْ الحوائج عليه، الحاجة بعد الحاجة، حتى الجزمات مربوطة بخيطان ومدليات على جانبي الجمل، وركب أحد الأولاد من أكابر القبيلة فوق الجمل على الحوائج [وهو يقول]: أخمد الله نيران الخصم، كسر الله قوة عدونا، نصرنا الله على من يعادينا، والأولاد ترد عليه: آمين، إلى أن وصلنا. فخرج للقائنا نحو ألف رجل وكامل نساء القبيلة، بالبخور والزلاغيط وضرب البارود والغناء الحربي ولعب الخيل، حتى طار الغبار وغطى عين الشمس من طرد الخيل وكثرة الناس. فوضعنا جميع ما جئنا به معنا في سهل أمام البيت وجلسنا. فأتوا بالقهوة وسقوا الجميع. وكانوا غلوا القهوة بالدست الكبير. ففحصنا عن ذلك فأخبرونا أنهم وضعوا في الدست راوية ماء ونحو خمسة أرطال بن. وأما الشيخ إبراهيم فإنه أملأ طاسة قهوة وشربها، حتى يقول يوماً شربت قهوة بالطاسة من الدست. وذبحوا للغداء عشرة جمال وخمساً وعشرين نعجة غنم

---

(٧) رسول أو مرسل.

(٨) عبارة المؤلف بالأصل: «وبأيدهم رماح وركبت نحو خمس مئة خيال».

(٩) «والقويصات».

(١٠) «الهلاهيل».

(١١) «شقف».

(١٢) «الزلم».

حايل[١٣]، وضعوا أرزاً ولحماً مسلوقاً وأكثروا السمن والخبز حتى أشبعوا جميع العربان وفضل من الأكل. فبعد ذلك شربنا دستاً آخر قهوة، وسلمنا النقد إلى بركز وكتبنا الكتاب على حسب عاداتهم وقرأنا الفاتحة، وصار الوعد بعد ثلاثة أيام نحضر لنأخذ العروس ويتم العرس. فدخلت أنا والشيخ إبراهيم عند زوجة بركز وباركنا لهم. واستكثر الشيخ إبراهيم بخيرها لما فعلت يوم الذي أنقذتني من القتل، لأنه ما كان رآها قبل ذلك. فكان جوابها إلى الشيخ إبراهيم أنها تريد أن تكمل معروفها معي فتزوجني عندها وتعطيني بنت أختها. فالمذكور شكر فضلها و وعدنا إلى السنة/القابلة إن شاء الله أنه سيحضر عندها ويزوجني، وكان ذلك وعداً بطالاً[١٤] حتى لا يرفض كلامها، ثم توجهنا جميعنا إلى عربنا. ٢/٨١

وقبل إنتهاء الأيام الثلاثة التي سيكون العرس بعدها، إذ وصل خبر أن غزواً عظيماً وصل من عند الوهابي إلى بر الشام، بقوة عظيمة وجيش كبير. فأرسل الدريعي حالاً إنذاراً إلى جميع العربان وأعلمهم أن يكونوا دائماً مجتمعين، كل ثلاث أو أربع قبائل معاً كي يتمكنوا من أن يدفعوا عن أنفسهم ضرر الوهابيين.

وثاني يوم بعد ذلك كانت مضت الأيام الثلاثة، فاهتموا بإحضار العروس. فركب الدريعي وكل كبار القبائل ونحو ألف خيال وخمس مئة امرأة ومشينا، إلا أن العريس لم يأتِ معنا. والسبب أنه سيحدث قتال بين أهل العروس وأهل العريس، على حسب عاداتهم. فإذا كان العريس حاضراً فقد يقتله أحد أقرباء العروس، إذ قد يكون لأحد من الشباب خاطر بها أو أنه يحب الفتاة ويريد أن يأخذها فيقتل العريس حتى تبقى العروس له. فمشينا وحين أقبلنا عليهم نفذت خيلهم علينا مثل الأسود. فنزل كل الكبار والمشايخ الذين معنا [عن خيولهم]، وكذلك جاء كبار [قبيلة أهل العروس] ومشايخها وجلسنا بعيداً عن البيوت، وابتدأ الشباب بالحرب كأنها حرب جدية مثل العادة. فدامت الحرب نحو ساعتين من الزمن حتى وقع من الطرفين نحو عشرين جريحاً[١٥]، وأخيراً تفوقت خيلنا عليهم وهجموا على بيت بركز وأخذوا البنت وسلموها إلى النساء. ثم أتى الجميع واجتمعنا كلنا جملةً وشربنا قهوة فقط، وإذ مقبل علينا نحو عشرين امرأة اللاتي يقال لهن حبّابات العروس يردن أن يذهبن

(١٣) حائل تجمع على حُول وحيال، الحيوان الذي لا يزيد عمره على السنة.

(١٤) باطل.

(١٥) «مجاريح».

معها، وبصحبتهن ثلاثة جمال، الواحد عليه هودج العروس ملبس جميعه بجوخ أحمر وشرّابات أشكال وأشكال، ومرصع بالوَدَع الأبيض وأنواع الخرز وريش النعام والمرايا الصغار، النتيجة منظر جميل جداً[١٦]، وعلى الجمل الثاني البيت والعواميد، وعلى الجمل الثالث أواعي البيت مثل السراجات والبسط والنحاس لأجل المطبخ: فهذا فقط ما يجب أن على العروس أن يكون معها. /فركبنا ومشت جميع الخيالة أماماً، والعروس راكبة في هودجها وحولها النساء، كل واحدة في هودج مزين، ومشى وراء العروس نحو عشرة خيالة من أقربائها ونحن جميعنا أمامها. وكل الدرب لعبِ خيل ومحاربة وضرب تفنك وزلاغيط وتهاليل وكلما مررنا على عرب بالبخور ذبحوا رأس غنم أمام جمل العروس. وحين وصلنا دخلنا بيت فارس أبي العريس، والتمت العربان من صدر البرية وصارت تأتي حتى اجتمع خلق لا يحصي عددها غير الله. فكل تلك الليلة لعب ماصول[١٧]ودق طبول، ورقص وإشعال النيران من كل جانب إلى أن أصبح الصباح. فابتدأوا يذبحون الذبائح لأجل أن يصنعوا الغداء، فذبحوا يومئذ عشرين جملاً وخمسين رأس غنم، وأتوا من حلب بخمسة قناطير أرز، وكانت القبائل المجتمعة لأجل العرس ثماني قبائل. فأكل الجميع وشبعوا وفضل من الأكل حتى نادوا بالنزل: «العيش يا جوعان»، إلى أن صار المساء وابتدأت الناس تعود إلى بيوتها. فذهبت امرأة فارس ومعها عدة نساء ونصبت بيتاً صغيراً على عامود واحد بعيداً عن بيتها نحو مرمى الرصاص. وكان ذلك لأجل خلوة العريس مع عروسته. ثم أنهم أخذوا[١٨]العروس وأدخلوها ذلك البيت. وقبّل العريس يد أبيه وأمه ويد الدريعي ودخل على عروسته، وكل منا ذهب إلى سبيله.

وفي اليوم التالي رحنا على حسب العادة لنبارك للعريس فأخبرونا أنه ما استطاع أن يتزوج. وهذا شيء عند العرب عار عظيم[١٩]، وكذلك في الليلة الثانية والثالثة لم يتمكن، حتى أصبح أحدوثة بين العرب، .وصار أبوه لا يكلمه ولا يدعه يقعد بين الناس ولا يأمر له بقهوة بل أنه، من جملة علامات الإحتقار، أحضر له مغزلاً مثل الذي تغزل به النساء/ الصوف لأجل حياكة البسط والعدول، ومعنى ذلك أنك امرأة. فاضطرب[٢٠]العريس وأمه

(١٦) «فرجة».

(١٧) كذا؟ ولعله يريد متواصل.

(١٨) كذا في المخطوطة ولا نعلم لمن يعود الضمير. ولعل الصائغ يريد النساء وكان الصواب أن يكتب: «ثم أنهن أخذن العروس وأدخلنها».

(١٩) «قوي رذل».

(٢٠) «ضاج».

وكل الناس من ذلك وصار سيرة وفضيحة بين العرب . فأرسلت أمه رسولاً إليّ تستدعيني ، فذهبت عندها . وحين دخولي وضعت يدها بزنّاري وقالت لي : أنا بجيرتك ، تكتب لأبني حجاباً حتى يستطيع أن يتزوج واطلب الذي تريده فهو حاضر أمامك . فضحكت في نفسي ثم قلت : مرحباً بك الآن أكتب له وبحول الله سيتزوج هذه الليلة . وفي الحال أخذت ورقة وكتبت عليها كلها أحرفاً مقطعة وأرقاماً لا معنى لها ، إنما طلبت من الله سبحانه وتعالى ألّا يخجلني أمام الناس ، وأعطيته الحجاب وقلت له : صحيح أنك كنت مربوطاً ، والآن حليتك من الرباط ، فلا تخف واذهب وتزوج بكل جراءة ، لأنك صرت الآن مطلقاً ، إذ كان يظن أنه مربوط . فتأكد عنده ذلك واعتمد على كلامي أني فككته من الربط . فذهب حالاً ومن فرحه لم يصبر ، بل أبقاني عند أمه وذهب وتزوج حالاً . فصار الخبر عند أمه وعند جميع الناس ، فابتدأوا بالزلاغيط والأفراح ، وصرتُ عندهم في عز عظيم كأحد الانبياء وشاع خبر هذه الأعجوبة بين العربان وازداد إكرامي عندهم .

[الدريعي يردّ غزواً وهابياً]

وبعد ذلك تواردت أخبار جيوش الوهابي تفيد أنها وصلت إلى الديرة وأنها الآن تحاصر تدمر، فرحلنا حالاً بكل جد وسرعة لملاقاة العدو في نواحي تدمر. فالتقينا بالوهابيين في محل يقال له **الدَّوَة**، ما بين القريتين وتدمر. وهناك علقت نيران الحرب بكل حرارة وشدة. وكان الوهابيون نحو عشرة آلاف، منهم خيالة ومنهم مراديف أي كل اثنين منهم على جمل، ومنهم مضاعف أي كل أربعة منهم على جمل بأربع بواريد فتيل، الأربعة ظهورهم إلى بعضهم فوق الجمل، الواحد من الأمام والثاني من الوراء والثالث على جانب والرابع على الجانب الآخر، وقد عملوا لهم مقاعد من عشب/مثل الكراسي مربوطة بحبال وعندهم أكل مشترك بينهم وهو ١ / ٨٣ جراب طحين وجراب تمر وعُكّة سمن. فاليوم الذي يصيبون فيه نهباً ينهبونه، وشيئاً للأكل فإنهم يأكلون على حسب العادة، واليوم الذي لا يصيبون فيه شيئاً، يأكل كل واحد منهم قبضة طحين، يجبلها بالسمن، ويعمل منهم ثلاث كُرَيّات[1]، كل واحدة بحجم الجوزة، فيأكلها ثم يأكل بعض التمرات ويشرب قليلاً من الماء أو الحليب، إذ معهم جود لأجل الماء مربوطة تحت بطن الذلول، النتيجة كأنهم في قلعة لا يحتاجون إلى شيء قط.

فوقع الحرب واشتد القتال وطار الغبار وعجت الأعفار وكان نهار من الاعمار إلى أن دخل الليل وأعتم. فارتد كل رفيق إلى محله. وكان الراجح يومها نحن، حيث أولاً كنا أكثر

(١) «دعابيل».

عدداً منهم ، وثانياً أن بيوتنا ونساءنا معنا ، وهذا شيء مجرب أن البدوي يقاتل زيادة إذا كان أهله معه ، ويكون له نخوة ومرؤة وشجاعة أضعاف عما إذا كان أجرد أي من غير أهله ، وهذا شيء قد لاحظناه عدة مرات ، وكان الوهابيون جرداً أي من غير نسائهم . وثاني [يوم] ارتدوا علينا واشتعل الحرب واشتد القتال بصرامة لا توصف . وأمر الله بالنصر فانتصرنا عليهم ، وقتل منهم عدد وأخذنا أربعة عشر فرساً كلاعة[٢] يعني كسباً ، وستين ذلولاً واثنين وعشرين ممسوكاً يعني أسيراً وأنكسر عسكر الوهابي وهج في البرية . فسار الخبر في البلاد ففرح الحكام ، وصار للدريعي صيت عظيم ، وأصبحت الديرة والقرى والعربان والحكام بيده مثل الخاتم يديرها كما يشاء ، وكان هذا مطلوبنا وغاية رغبتنا .

(٢) كذا ، ولعله يريد قلاعة .

[الاستراحة في حماة]

فبعد ذلك قال الشيخ إبراهيم أن أشغالنا والحمد لله تمشي على حسب خاطرنا وكل شيء تمّ إلى الآن بموجب مرادنا. فيقتضي الآن أن ننزل إلى حماة لأجل أشغالي، إذ علي أن أكتب مكاتيب عديدة، وأقوم بأشغال كثيرة، ويجب أيضاً أن نهتم بأمورنا إذ قربت أيام التشريق فنأخذ ما نحتاج إليه في الطريق. ثم تواعدنا مع الدريعي أنه متى قرب وقت التشريق يرسل لإحضارنا من حماة /لنتوجه إلى الشرق ونتم شغلنا. فنزلنا إلى حماة وحين دخولنا وجدنا صاحبنا نوفلاً[1]. فأخذ بنا وأنزلنا في بيت خالته، بيت يعقوب السرياني. فأبدوا لنا غاية الإكرام والإعزاز. وأما الشيخ إبراهيم فإنه من حين دخولنا قال لي: يا ولدي إنك تعبت كثيراً وتحملت أثقالاً ومتاعب فيلزمك قليل من الراحة مع إنشراح[2]، فهذه حماة بلد المنتزهات، وأنا علي كتابة مكاتيب كثيرة، فأنت اعمل لبسطك وانشراحك[3]، ودعني أتمّ أشغالي والواجب علي. فابتدأتُ أنا ونوفل وأولاد يعقوب الذي نحن نازلون عندهم بالترويح عن النفس، كل يوم في البساتين والأفراح والمقاصف والمنتزهات، مدة عشرة أيام وهو دائماً يكتب. وبعد ذلك أرسل مكاتيبه بصحبة ساع خاص إلى حلب، وعند رجوع الساعي

---

(١) انظر اعلاه ص ٤١. إلا أن نوفلاً كان يسكن حمص، فهل وُجِدَ مصادفة بحماة؟.

(٢) «شوية راحة بكيفية».

(٣) «فتش عن كيفيتك».

أحضر معه مالاً وافراً لنفقتنا(٤) . فابتدأنا نتسوق من حماة بضائع تصلح للعرب لكي نشرّق معهم ونكمل مقاصدنا . فاشترينا جميع ما يلزم لنا من الحاجات ودبرنا كل شيء وأصبحنا مستعدين وإذ وصلني كتاب من عند والدتي(٥) تخبرني فيه بوفاة أخي وليس لي غيره من الأقرباء ، ومضمون الكتاب أولاً وفاة المرحوم أخي في مدينة بيروت حيث توفي غريباً بالطاعون ، وثانياً تشكي لي حالها من ألم حزنها على أخي واحتراق قلبها علي ، لأنها بغير خبر مني ولا تعلم إذا كنت مت أو لم أزل حياً ، وتشرح لي وحدتها و وحشتها إذ لم يبق لها أي ملجأ تستأنس به ، فليس لها من طرف أهلها ولا من طرف والدي أحد على قيد الحياة(٦) ، فلم يبق من عائلتها أحد حي سواها ، كما لم يبق من عائلة أبي غيري . فمن شدة حزنها و وفاة أخي وفقدي اعتراها مرض سِرْساب(٧) ، كمثل الجنون ، وبقيتْ ساهية(٨) بالبلد . ففكر أيها القارئ في أي حال أصبحتُ حين قرأت هذا المكتوب/وأي حزن وغم أحاقا بقلبي ، فأخذتُ بالبكاء والنحيب بسبب هاتين المصيبتين ، فتارة أفكر بفقد أخي الوحيد ، وتارة أفكر بأحوال والدتي الحنونة . فأقمت ثلاثة أيام بالعويل(٩) والبكاء ليلاً نهاراً من غير أن يدخل الزاد إلى فمي كلياً ، فترجيت الشيخ إبراهيم أن يسمح لي بكتابة مكتوب إلى والدتي كي أبرد قلبها نوعاً ما فما سمح ، إذ خاف أن تحضر إلى حماة قبل سفرنا وتعطل أشغالنا . وأخيراً من بعد رجاء عظيم سمح لي أن أكتب لها مكتوباً في اليوم الذي سنذهب عند العرب لنشرق معهم ، إذ نكون عندئذ قد غادرنا حماة وذلك لكي لا تحضر عندنا ، فاعتمد رأينا على ذلك .

١/٨٤

فبعد جميع هذه الأمور ورد إلينا من عند الدريعي أربعة رجال(١٠) خيالة واثنان معهما جمال كي تحمل العفش(١١) ، وفرسان فريغان(١٢) ، الواحد للشيخ إبراهيم والآخر لي ، إذ

(٤) «خرجية» .

(٥) لا يعلمنا الصائغ كيف وصل هذا الكتاب ، مع أن والدته لم تستلم منه أي حبر ، بل أنها تجهل إذا كان ابنها حياً أو ميتاً ، كما يقول بعد أسطر قليلة .

(٦) «طيب» .

(٧) نوع من السهو والتردد والتحير في الأفكار والأعمال .

(٨) «سابحة» .

(٩) «بالجعير» .

(١٠) «أزلام» .

(١١) اللبش .

(١٢) «فرغ» ، فرس فريغ : واسع المشي ، سريع (لسان العرب) .

كان مضى فصل الصيف[١٣] واقشعرّ وجه البرية. فكتبت ذلك النهار مكتوباً إلى والدتي، وحدثتها بكل ما استطعته من أنواع التسلية والأخذ بالخاطر والاطمئنان علي، و وعدتها أني عما قريب سأحضر عندها إن شاء الله.

(١٣) صيف سنة ١٨١٢، على ما يظهر من سياق الحديث.

[عبد الله بين الحياة والموت]

ثم حزمنا رزقنا وأخذنا حوائجنا و ودعنا الأحباب وركبنا من حماة، إلا أني خلافاً لعادتي، كنت مغلق القلب ومغموماً كأني ذاهب إلى الموت. وكان الدريعي بعيداً عنا نحن عشرين ساعة. فبعد أن مشينا النهار كله قال العرب أنه من الأنسب أن نسري ليلاً كي نصل غداً صباحاً عندهم، خوفاً من أن يرحلوا ويبعدوا عنا. فبقينا جادين بالسير إلى قرب نصف الليل. وكان أمامنا دائماً اثنان من خيالتنا يسبقاننا قليلاً، احتراساً من أحد الأعداء لأن الدنيا مظلمة، والمثل عند العرب يقول: «الليل ماله صاحب». وأثناء تلك الغضون رجع الخيالة الذين هم أمامنا وقالوا افتحوا عيونكم جيداً لأن أمامنا وادياً ملعوناً يقال له وادي الهيل مقدار مسيره ربع ساعة،/طريق ضيق، فوقك جبل وتحتك واد لم ينزله أحد ولا يمكن لأحد أن يعرف قراره، والطريق عرضه نصف ذراع[1] فقط، فكونوا يقظين لأنه إذا وقع أحد فليس له خلاص. فصرنا ننبه بعضاً وابتدأت أفرك عيوني من النوم لأني كنت نعسان جداً. ثم دخلنا طريق الوادي والليل شديد الظلام ليس فيه ضوء قمر. وبينما نحن في نصف الطريق المعلوم إذ عثرت[2] بي فرسي، فأخذتُ رأسها باللجام نتراً قوياً من شدة خوفي، فرفعت يديها

٢/٨٤

(١) لا يمكن لدابة أن تمر في طريق عرضه نصف ذراع، لا سيما وأن الجمال موقرة بالبضائع والسلع. ولا شك عندنا أن الصائغ يحب المبالغة فيجمح به الخيال، ونراه عرضة لشتى الأهوال. أما الشيخ إبراهيم فوقع مرة واحدة من على ظهر الجمل.

(٢) «تعست».

الاثنتين وأنزلتهما فوقعتا على الخلاء، فما علمت إلا أني رأيتُ نفسي أهوي بالوادي أنا والفرس ثم ما عدت أدرك ماذا جرى[٣] . وقد أخبرني الشيخ إبراهيم أني لم أزل أهوي وأنا أسقط، تارة أنا فوق الفرس وتارة الفرس فوقي[٤] . وقامت الصيحة وابتدأ الشيخ إبراهيم يضرب على نفسه وينتف لحيته ويستغيث بالعرب أن ينزلوا ويطلعوني . فقالوا له : يا سيدي إنزع من عقلك هذا الفكر، لأن هذا الوادي لم ينزله ولم يطلع منه أحد، وقد أصبح الآن مئة قطعة[٥] هو والفرس، فكيف تأمل أن يكون إنسان وقع في واد مثل هذا الوادي هو والفرس؟ فصار يبكي ويستجير بهم فقالوا له : يا شيخ إبراهيم إن عبد الله غال علينا، ولكن نحن على ثقة أنه مات وشبع موتاً، فما هي فائدة من نزولنا نحن في هذا الليل المظلم إلى واد شنيع مثل هذا من غير نفع؟ لقد مات الرجل وأصبح مئة قطعة . قال : أنا راض أن تأتوا به مئة قطعة حتى أعود به وأقبره في حماة ولا أتركه لتأكله الوحوش في هذا الوادي العميق .

فبعد جهد كثير برطلهم بمئتي ربعية حتى يطلعوني . فنزل اثنان منهم وكان لاح الفجر فوجداني معلقاً بزناري بغصن شجرة، ورأسي إلى تحت ورجلاي فوق، قبل أن أصل إلى قاع الوادي بشيء قليل./وأما الفرس فوجداها في قاع الوادي مفزورة وميتة . فأخذا عدة الفرس وحملاني على أياديهما، تارة يستريحان وتارة يحملان إلى أن وصلا إلى فوق . فرمى الشيخ إبراهيم نفسه فوقي وصار يبكي ويلطم على جسده[٦] . فكان في رأسي جروح في عشر مطارح، منها بالغة ومنها [سطحية] سُلِخَ الجلدُ وبان العظم، وكذلك جميع أضلاعي تغرست وانكسر بعضها، زندي اليمين مجرد جميعه من اللحم ولم يبقَ إلا العظم، كذلك يداي مسلختان ورقبتي مجروحة وجسدي مهبّر وباطن ساقيي مسلخ ومهبّر وفي ظهري وفي بطني وجميع جسدي جروحات لا تعد ومواضع عديدة مسلوخة[٧] ، من أخمص قدميّ إلى رأسي جسمي ملآن شوكاً مثل الإبر، النتيجة حال لا توصف لا أحتاج إلا إلى الدفن

١/٨٥

---

(٣) هذه المرة السادسة التي يشرف بها الصائغ على الموت خلال رحلته.

(٤) يعلمنا الصائغ قبل هذا الكلام أن الليل كان شديد الظلام فكيف رآه الشيخ إبراهيم يهوي إلى قعر الوادي؟.

(٥) «شقفة».

(٦) «يقتل حاله».

(٧) «سلوخات».

بالأرض . وكان الشيخ إبراهيم على معرفة بأمور الطب[٨] ومعنا كل ما نحتاج إليه فيما يتعلق بالطب والأدوية ، فحالاً أخرج من صندوق الاسعاف[٨] أرواحاً و وضع منها في مناخيري ، فظهر له بعض إشارات تدل على أن فيّ روحاً ، غير أن حواسي الخمسة كانت معدومة وعيني جامدة في وجهي ، ومن كثرة الأدمية على جسدي لا يبان مكان الجرح من المكان السليم . فتأمل الشيخ إبراهيم وفرح وأعد العرب لي مكاناً على ظهر الجمل وارتدوا إلى حماة . ولم يزلوا سائرين إلى قرب نصف النهار ، فازداد الورم فيّ وأصبح رأسي بحجم الطبل وتغيرت أحوالي إلى أسوأ . فخاف الشيخ إبراهيم أن أموت قبل الوصول إلى حماة ، فاستشار العرب فقالوا له : حماة مازالت بعيدة ومن الأنسب أن نأخذه إلى زين العابدين وهي قرية تابعة لحماة ، تبعد عن حماة بالنسبة إلينا أربع ساعات ، فاعتمدوا على هذا الرأي ودخلوا بي القرية المذكورة إلى بيت الشيخ ، وهو شيخ جليل يقال له الشيخ درويش وكان بيننا معرفة سابقة . فحالاً وضعني الشيخ على فراش في محل نظيف وأرسل رسولاً إلى حماة لإحضار الشيخ خليل وهو جرّاح[٩] مشهور ، وجلس الشيخ إبراهيم جنب رأسي مع القطرات[١٠] والأدوية يعالجني . إلا أني إلى ذلك الوقت ماكنت أعي كلياً على أمور الدنيا . فعلى قول الشيخ إبراهيم/إني ٢/٨٥ أقمت تسع ساعات ميتاً ، لا أعي على شيء قطعاً ، وليس بي حاسية بالكلية . فمن كثرة الأرواح والقطرات فتحت عيني وصرت أنظر إلى الناس الذين أمامي ، وأنا في فراشي داخل غرفة[١١] ، ولكن كمثل منام ، ليس لي عقل يعي أين أنا موجود أو يعلم ماذا جرى لي ، إذ كنت كالطفل الذي لا يدرك شيئاً . وكان الشيخ إبراهيم يكلمني . وأما أنا فما كنت أرد عليه إذ كنت لا أسمع ولا أستطيع أن أتكلم أو أتحرك : قطعة حجر بالفراش . بل أني ماكنت أحس كلياً بوجع ، مرتاحاً بذاتي من غير إدراك .

فأقمت على هذه الحالة أربعاً وعشرين ساعة ، إلى مثل الوقت الذي وقعت به ، فرجع إلي شيء قليل من عقلي وصرت أفكر ما الذي أتى بي إلى هذا المكان ، إذ كنت ذاهباً مع العرب فكيف أصبحت في هذا المحل ، فهل أنا في يقظة أم منام . ثم حضر الشيخ خليل الجراح وأخذ حالاً بمسح الجروح و وضع المراهم . فحسست بالوجع في تلك الساعة

---

(٨) «الحكمة» .

(٩) «جرايحي» .

(١٠) «الاستقتارة» .

(١١) «أوضه» .

و وعيت على نفسي وفهمت القضية . فصار المسكين الشيخ إبراهيم يبكي ويسألني عن حالي ويقبل يدي ، فجعلته مطمئن البال عني ففرح فرحاً شديداً وشكر الله وقبل الأرض ، وقال للشيخ خليل الجراح : إعمل جهدك وإذا استطعت أن تشفيه أعطيك مهما طلبت . فرغب الجراح وابتدأ يعالجني بكل مهارة[١٢] . وأما العرب الذين كانوا معنا فإن الشيخ إبراهيم كان أذن لهم بالإنصراف كي يذهبوا عند الدريعي ويخبروه بما جرى . فحين وصلوا أخبروه بما جرى وكيف أطلعوني وبأي حال وأني الآن موجود في زين العابدين . فطار عقله من هذا الخبر الشنيع وركب حالاً على خيل وحضر عندنا . فرأى الحال الذي أنا به وقطع أمله من الشفاء وأصبح على يقين أننا لا نستطيع أن نشرّق معه هذه السنة وسيحصل تعطيل في أعمالنا ، فازداد غمه علي ، فصار الجرّاح[١٣] يسكن روعه فوعد الجرّاح[١٤] بهدية عظيمة إذا استطاع أن يشفيني مما أنا به . ثم أخذنا بخاطره بخصوص الفرس التي قتلتْ/فضحك وحلف بالله أنه ١/٨٦ يتمنى لو قتلت عشر أفراس مثلها وأن أكون أنا معافاً ، مع أن الفرس واسمها **العبسية** من خاص الخيل البخارية المشهورة ولو أُعْطِيَ بها خمسون كيساً لا يمكن أن يبيعها . ثم سافر الدريعي في اليوم التالي وبكى حين فارقنا ، إذ لم يكن متأكداً تماماً أني سأشفى من الجروح والأوجاع التي أنا بها ، إذ كان نوعاً ما قاطعاً أمله مني .

فأقمنا ثلاثين يوماً في زين العابدين ، والشيخ خليل يعالجني على قدر معرفته فلم يحصل على نتيجة بل بالعكس فالجروح أصبحت قروحاً ولعبت المواد بالقروح وانتنتْ ، واستحال الورم إلى ضعف عظيم . فأشار أناس أهل خبرة إلى أن الشيخ خليل لا يحسن معالجة أمر كبير مثل هذا ، ولكن يوجد في ضيعة يقال لها دير عطية ، على طريق الشام[١٥] ، وقد ذكرناها سابقاً ، معلم جراح مسلم جليل فهيم ، فهو قادر على أمور مثل هذه . فأرسل الشيخ إبراهيم رسولاً لإحضاره فلم يأتِ بل قال : إن شاؤا أحضروا العليل إلى عندي . فاستحسن الشيخ إبراهيم هذا الرأي ، وحالاً صرف الشيخ خليل وأرجعه إلى حماة ، وأعطاه أجرة وافرة ، وعمل صندوقاً من خشب و وضعني به ، ثم حُمِلْتُ على بغل وتوجهنا إلى دير عطية . وحين وصولنا نزلنا في بيت البيطار صاحبنا . فأتى الجراح ، وكان اسمه الشيخ حسن

(١٢) «معلمية» .
(١٣) كذا بالمخطوطة .
(١٤) «الجرايحي» .
(١٥) دمشق .

وعايننى، وحالاً نزع اللصقات التي علي وغسل جميع الجروح بالنبيذ و وضع مَراهِمَ من عنده وابتدأ بعلاجي.

النتيجة لا أستطيع أن أصف العذاب والأوجاع التي كابدتها إذ يقصر عن وصفها اللسان، حتى بقيت بالفراش كالخلال[16] والخيال، وتبدلت أحوالي وتغيرت صورتي، وقاسيت آلاماً مريرة و وجعاً وعذاباً وشدائد من كل الأنواع. وكنت دائماً أعتب على الشيخ إبراهيم الذي سعى في إخراجي من الوادي، لأنه لو تركني أموت كان ذلك أريح لي بكثير/ ٨٦/٢ وبالمختصر لم يبق وجع بالعالم إلا تركب على جسدي وكذلك الأدوية والوصفات التي كانت تأتينا من عند الخواجه شاباصون الطبيب الفرنسي[17] بدمشق، إذ كان بخدمتنا خيال من أهل الضيعة فقط لأجل إحضار الأدوية من عند الخواجه المذكور، لأن بيننا وبين دمشق يومين. وإن سأل القارئ[18] لأي سبب ما نزلتم إلى دمشق لكي تكونوا قريبين من الطبيب وتصبح المداراة أنسب؟ فالسبب الأول سياستنا، إذ ليس من صالحنا القعود بالشام كثيراً، ثانياً أن هواء دمشق رديء وثقيل فلا يمكن أن أحصل على الصحة بدمشق، فانتقلنا بعد شهرين من دير عطية إلى قرية يقال لها النبك، نحو ساعة ونصف بين الواحدة والثانية. والقرية المذكورة هواؤها وماؤها مشهوران بالحسن. فالغاية بعد أربعة أشهر استطعت أن أقوم على العكاكيز. وكنت أصح يومين وأعود مريضاً خمسة، حتى ذقت أنواع الموت أشكالاً وأشكالاً. وفي أثناء تلك الغضون انعزل سليمان باشا العكاوي عن إمارة الشام، وحضر من اسلامبول وزير يقال له أيضاً سليمان باشا سَلْحَدار[19] سلطان سليم، وحكم بدمشق، فهذا صَعَّبَ علينا نوعاً لأن سليمان باشا العكاوي كان يوافقنا على جميع ما نريد من الأمور. وكان انتهى فصل الشتاء وقدم الربيع[20] وابتدأت العربان تبشر بالديرة، وأزهرت الدنيا وأنا تماثلت للعافية وقمت من الفراش، وكانت جملة إقامتي بالفراش طريحاً خمسة أشهر. وبعد أن أصبحت قادراً على المشي نوعاً ما تسلط علي حال غريب وهو أني كلما رأيت فرساً أو حصاناً يصفر وجهي وأقع على الأرض مغشياً علي. وبعد ذلك، رويداً رويداً، قويت نفسي

(١٦) الألبسة البالية.

(١٧) «الحكيم الفرنساوي».

(١٨) «القادر»، كذا.

(١٩) سلاح دار، أي الذي يحمل سيف السلطان، وهو من أكابر موظفي الدولة.

(٢٠) ربيع سنة ١٨١٣.

على رؤية الخيل إذ وضعت نصب عيني أني سأحتاج إلى رؤيتها كثيراً، إلا أني حلفت يميناً عظيماً أني ما دمت حياً يحرم علي ركب الخيل إلا بسبب أمر ضروري جداً جداً. وفيما نحن على ذلك إذ ورد علينا هجان من عند الدريعي يسأل عن أحوالنا/ويبشرنا أن الدريعي قطع الفرات ودخل الشامية وهو في نواحي ديرة حلب. ففرحنا بذلك وحالاً أرسلناه في اليوم التالي يخبر الدريعي ويبشره بوجودي حياً، لأن الرسول قال لي: «إن الدريعي ما كان يظن أنك شفيت مما كنت به، وقد تكدرتْ عليك العربان جداً، وجميعهم قطعوا الأمل منك»؛ فلهذا السبب اضطررنا أن نصرفه عاجلاً. وحين وصل الرسول إليه وبشره أني على قيد الحياة وشفيت من جميع ما كان بي، طار من فرحه وأرسل رسولاً آخر يعرفننا أن لا نتحرك من النبك، بلْ هو يقربْ مننا كي لا أتعب بالطريق لأني ما كنتُ ملكتُ عافيتي مثل السابق. فقعدنا ننتظر قدومه إلى طرفنا.

87/1

[من حديث البادية: الخُوَّة]

ولكن قبل ذلك حين كنت بعد بالفراش، وقعت نكتة عجيبة وهو أنه في ذات يوم حدث أن تاجر غنم كان آتياً من ديرة الأناضول وذاهباً إلى دمشق ومعه نحو عشرة آلاف رأس غنم كبار عظام. فوصل إلى الرسْتَن الذي هو ما بين حمص وحماة. فهناك رأى ثلاثة من العرب. فقال الواحد منهم للتاجر: هل لك أن تؤاخيني؟ فضحك التاجر من عقله وقال له: آأنا خائف حتى أؤاخيك؟ معي خمسون بارودياً. فقال له البدوي: اسمع مني آخيني وأنا أرضى بشيء قليل، وتم الاتفاق على غرشين وقبضة[1] توتون. فأعطى التاجر غرشين وقبضة توتون، وظن أن البدوي عمل حيلة لأنه محتاج حتى يأخذ بعض الدراهم. أما البدوي فإنه أخذ الغرشين والتوتون و وهب الكل إلى رفيقيه الاثنين وقال لهما: اشهدا أنه صار أخي، لأن هذه العادة عند العرب: أنهم يفرقون على العرب أول شيء يأخذونه خوة ويشهدونهم، والسبب أنه إذا ادعى بدوي يريد تخليص شيء أنه أخذ من أخيه فيجب أن يكون عنده شهود يشهدون له أنه أخوه حقيقة وقد خاواه على يد شهود، وأكل الشهود وقت عقد الخوة: هكذا عادتهم.

فبعد ذلك سافر البدوي ورفيقاه وسافر التاجر قاصداً دمشق. وبينما هو في الطريق في مكان يقال له عيون العلق، بالقرب من دمشق، إذ نفذت عليه العرب وتحارب معهم

(١) «كمشة».

٨٧/٢ وكسروه وأخذوا جميع مامعه من الغنم، وشلّحوه هو/[٢] وجميع من معه وتركوهم عراة[٣] وذهبوا في حال سبيلهم. فنزل إلى دمشق وليس معه مصرية يأكل بها خبزاً، وصار يشحذ ويأكل. وشاع أمر هذه الغنيمة بين العربان حتى سمع بها البدوي أخو التاجر الغنّام. فسأل أي يوم أخذتْ الغنم وفي أي مكان، فأخبره الناس، فعرف وتأكد أنها غنم أخيه الذي أعطاه غرشين وقليلاً من التوتون. فذهب حالاً وأخذ الشهود وراح عند شيخه، وهو كان من قبيلة العُمُور، ودخل على الشيخ وحكى له المادة وشهد له الشهود. فحالاً ركب وأخذ معه أكابر القبيلة وتوجه إلى قبيلة النُّعيم. فهذه القبيلة مثل عشيرة العُمُور، تشريقها قليل وأغلب السنين لا تشرّق بل تبقى بالديرة، واسم شيخها فهد ابن صالح. فدخل عليه سلطان البَرّاق شيخ العُمُور وطلب منه الغنم بموجب عهود العرب وقدم الشهود. فما استطاع فهد أن يهرب من الحق وبالحال والسرعة سلّم الغنم إلى شطي، فهذا اسم البدوي الذي خاوى الغنّام، سلمها بتمامها من غير أن ينقص منها شيء كلياً. فقام شطي واستأجر أناساً تسوق الغنم معه، ومشت الأغنام جميعها أمامه وتوجه إلى دمشق. فأبقى الغنم خارج البلد ودخل هو يفتش عن التاجر، فوجده جالساً في قهوة، عارياً جائعاً. فدخل شطي عنده وسلم عليه. فأدار وجهه ولعنه وشتم كل العرب لأنه محروق القلب منهم. ولم يأتِ على باله أنه آخى واحداً منهم، ولا هو يصدق، والحكاية ذهبت من فكره وصار إذا رأى بدوياً كأنه رأى عزرائيل. فقال له شطي مالك يا أخي؟ أنا أخوك الذي تآخيت معه بالرستن. فقم معي واستلم غنمك جئتك بها كما هو واجب علي. فما كان يصدق. فمن بعد تأكيد صدّق، وخرج معه إلى خارج البلد، وبانت له الحقيقة، فركع على أرجل شطي وصار يقبلها ويستكثر بخيره. ثم نزلا إلى دمشق، وعمل التاجر جهده لكي يعطيه قسماً من الغنم فما رضي أن يأخذ شيئاً منه كلياً، غير أنه قبل فقط جزمة وكوفية جديدة قيمتهما نحو عشرة

٨٨/١ غروش لا غير، وثاني يوم رجع/عند أهله.

(٢) يبتدئ هنا الكراس رقم ١١.

(٣) «بالظلط».

[الاستعداد للحرب]

ثم بعد قليل من الأيام، قربت العربان من ديرة الشام وإذا بالدريعي حضر عندنا وبصحبته جملة من أكابر العرب أحبابنا. فرأونا ورأيناهم بخير، وفرحنا بهم وفرحوا بنا. وكان عرب الدريعي قد اقتربوا منا. ثم حدثنا بجميع ما وقع له مع العربان أثناء تشريقه، إذ جرت له بعض المعارك مع قبائل العرب وأخضع أربع قبائل وأدخلها في اتحادنا و وضع شيوخها أختامهم وأسماءهم. وهم **ظهران** ابن عواد، شيخ عشيرة الخُرْصَة[1]، قبيلته تحتوي على ألفي بيت، وأيضاً **نايف** ابن عابد، شيخ قبيلة المحلّق، عشيرته تحتوي على ثلاثة آلاف بيت، وأيضاً **روضان** ابن سلطان، شيخ قبيلة المَرَيْخات، عشيرته تحتوي على ألف وخمس مئة بيت، وأيضاً مطلق ابن فيحان، شيخ عشيرة الزكرد[2]، قبيلته تحتوي على ثماني مئة بيت فقط. فهذه القبائل الأربع من أعظم عشاير العرب، وأكثر أنسابها إلى عرب جبل شمر التي هي تحت حكم الوهابي.

ثم أعلمونا أن الوهابي كثير الحركة هذه السنة، ولا بدّ له أن يضرب جانباً من الأراضي التي يحكمها العثماني والأقرب إلى الظن هو بر الشام أو بغداد. فبعد هذا في اليوم التالي دبرنا أحوالنا وذهبنا مع الدريعي وباقي الجماعة عند العرب، وكانوا بعيدين عنا يوماً فقط. وأما أنا

---

(١) «الخرسا»، فرع من الفِدْعان.

(٢) لا أعرف عنها شيئاً.

فكنت راكباً حماراً، استأجرته من الضيعة وذلك خوفاً من الوقوع مرة أخرى. فبعد وصولنا بعدة أيام عند العرب، إذ وردت أخبار من طرف الوهابي أنه أرسل جيشاً[٣]عظيماً على بر الشام، ومراده أن يأخذ حماة وحمص واستملاك بر الشام. فضجت الناس من هذا الخبر وحسبت حسابات كبيرة، وصار الخبر عند الوزير ودخل عليه الوهم، وكبرت الدعوة في بر الشام و وصلت بُرُدٌ[٤]وأوامر من وزير الشام بالمحافظة ليلاً ونهاراً واليقظة واستخدام العساكر. وما زالت أخبار الوهابيين تزداد وتشيع الأخبار وتكثر حتى تعبت قلوب الناس من هيبة[٥]الوهابي، وعزم كثير من الناس على الفرار إلى ناحية ساحل/البحر ،لأن صيت الوهابي شنيع جداً، والمشهور عنه أنه دموي غدار بحاث عن أمور الدين، فسكرت الناس من هذا الخبر، حتى أن الوزير أرسل إلى الدريعي يدعوه عنده إلى دمشق لكي يدبرا هذه الأمور. إلا أن الشيخ إبراهيم لم يستحسن أن يذهب الدريعي إلى دمشق خوفاً من أحوال العثماني وخيانته، لأن الوزير جديد من اسلامبول وأطباعه غير معروفة. ولذا كتبنا جواباً للوزير من طرف الدريعي يعتذر عن الحضور لأنه لا يستطيع أن يترك الديرة ويذهب عند الوزير، خوفاً من أن يحضر الوهابي فجأة، [وجاء فيه]: «أي نعم أن أمر سعادتكم بإرسال فرقة من العسكر مُعِيْنٌ لنا، وأنا بحول الله كفاية لحفظ البلاد من غوائل الوهابيين»؛ وأرسلنا الجواب. وأما الدريعي فإنه ابتدأ بتدبير مهام الحرب لدفع غوائل عرب الوهابي وأضرارهم عن البلاد وعن نفسه. وهو أنه أحضر حالاً ناقة بيضاء وسودها بشُحّار[٦]الدست، وربط برقبتها شقة بيت شعر سوداء، وأركب فتاة عليها وهي لابسة السواد ومسودة وجهها. وأرسل معها نحو عشرة رجال من العرب، وهي تدور على القبائل وتدعوهم إلى الحضور لمعونة الدريعي. وكانت كلما وصلت إلى قبيلة تقول: «الفزاع، الفزاع، الفزاع، يا أهل الخيل أصحاب المرؤة والنخوة، يا مَن يبيض عرض هذه الناقة ويغسل سوادها، هذه شقة بيت الدريعي المهدد بالخراب[٧]، يا أهل الحشيمة والغيرة انهجوا انهجوا[٨]، ترى ربعكم ذبحهم الوهابي وعدمتموهم، يا سامعين الصوت صلوا على النبي، أولكم محمد وآخركم علي». فهذه من عاداتهم حين

٨٨/٢

(٣) «أرضي».
(٤) «برادي»، وهو يريد بُرد جمع بريد.
(٥) «رجت»، كذا، ويريد: «رجة».
(٦) «شحوار».
(٧) «المزعم يخرب».
(٨) امشوا على حسب عادات العرب.

يكون عليهم حملة[٩] كبيرة من عدو كبير أن يسودوا الناقة . ولم تزل تذهب من قبيلة إلى أخرى . ومكاتيب الدريعي أيضاً متواصلة إلى القبائل . وصار الوعد والاجتماع على عاصي حماة لأجل استقاء الماء . وصارت القبائل تتوارد علينا من كل الجهات ، المتحدة معنا وغيرها حتى اجتمع عندنا نحو ثلاثين قبيلة عرب ، جميعها في نزل واحد ، ورابطة أطناب البيوت بعضها إلى بعض وصائرة مثل القلعة أمام العاصي ، وجاعلة العاصي والبلاد وراءها ،/ومتصدية للعدو .

١ / ٨٩

ومن الطرف الثاني الوزير ، فإنه قد أرسل جيشاً[١٠] بكامل لوازمه من مدافع وزنبلاك[١١] وجَبَخانه[١٢] وخيم ، ورأس عليه ابن أخته إبراهيم باشا ، باشا بتوخين[١٣] صاري عسكر . ووجه بالجيش إلى حماة وكان عدده نحو ستة آلاف مقاتل : دالاتية وهوارة[١٤] ومغاربة وأرناؤوط . فدخل الجيش إلى حماة وأقام بها إلى أن يحضر الاسعاف من وزير عكا سليمان باشا ، لأن والي الشام كان أرسل استنجده . فبعد قليل صارت العساكر ترد من عكا وما يليها حتى حضر علي بك الأسعد . وأرسل البربر(؟) أيضاً عساكر حتى اجتمع في حماة ، الجيش مع عساكر البلد ، نحو أربعة عشر آلف عسكري .

وأما الوهابي فإن أخباره كانت تقرب حتى علمنا أنه وصل إلى تدمر ، وهرب[١٥] أهالي تدمر والقريتين وسائر الضيع التي أمامه ، فأرسل إبراهيم باشا ومتسلم حماة وكامل الضباط إلى الدريعي يرجون نزوله إلى حماة لأجل المشورة بلوازم الحرب وتدبير هذه الأمور . فاضطر أن ينزل إلى حماة ونزلت أنا الفقير معه . وصار الديوان عند الباشا ودبروا كل شيء يجب تدبيره . وآخر تدبير كان رأي الباشا أن الجيش العثماني يكون مختلطاً بنا ، فوافق الدريعي على ذلك واعتمد عليه . ثم حضر الدريعي من الديوان وأعلمني بجميع ما تقرر من الأمور والتدابير . فرأيت كل شيء مناسباً إلا مسألة واحدة ليست مناسبة ويحصل لنا منها

---

(٩) «ركبة» .

(١٠) «أرضي» .

(١١) كذا ولعله يريد زنبرك أو زنبلكات .

(١٢) قنابل وصناديق بارود .

(١٣) من التركية : طوخ ، أي ذنب الفرس ، وباشا بطوخين أعلى مرتبة من باشا بطوخ واحد .

(١٤) هوّاري جمعها هوّارة : جنود غير نظامية .

(١٥) «وهجّت» .

ضرر ، وهي اختلاط الجيش العثماني بنا . فقال الدريعي : وما هو سبب ذلك . فقلت هؤلاء ترك غشماء لا يستطيعون أن يميزوا عربنا من عرب الوهابيين . فحين اشتداد المعارك واختلاط العساكر يمكن أن يروك أنت ويتوهموا أنك من عرب الوهابي فيقتلونك ، لأن العربان جميعهم ، سواء عربنا أو عرب الوهابي ، على نفس الزي والكلام والهيئة ، لا يستطيع أحد أن يميز بعضهم عن بعض ، إنما يعرّفون أنفسهم بالتنخّي . اعلم أيها القارئ أن لكل قبيلة نخوة خاصة تنتخي بهاوقت/الحرب ،وينادي البدوي باسم قبيلته . فكل واحد من الرولة مثلاً يقول : خيّال العليا رويلي ، ومن قبيلة الحِسَنَة يقول : خيال البيوضا حسيني ، ومن الضفير يقول : خيال الحمرا ضفيري ، وهلم جرا جميع القبائل . وكل واحد من المشايخ والأمراء يتنخّى باسم أخته وقت الحرب أو غيره . فالدريعي مثلاً يقول أنا أخو ربدا ، إذ كان له أخت اسمها ربدا بديعة في الحسن ، ومهنا يقول أنا أخو فضة ، إذ كان له أخت اسمها فضة محسنة ، وهلما جرا كل الأمراء والمشايخ ، وهذه من جملة عاداتهم . [ثم قلت للدريعي : إن هذا الاختلاط يضر بنا] على الخصوص إذا لا سمح الله وصارت كسرة ، فإنهم يقتلون من عربنا أكثر من عرب العدو . فقال : هذا صحيح ويحصل لنا منه ضرر على أي وجه كان . فرجع إلى عند الباشا وقال له : يكون الجيش بعيداً عنا نصف ساعة . فتضايق الباشا من هذا الكلام، ولكن ما كان يمكنه أن يغضب الدريعي واضطر أن يخضع لأمره .

٢/ ٨٩

ثم خرج الجيش العثماني بكل نظام وتدبير وركب الباشا ودقت النوبة وضربت المدافع على حسب هرج[١٦] العثماني . فحضر ونزل الجيش بعيداً عنا نحو نصف ساعة ، بكل نظام وخيم معتبرة وصيوانات وعساكر مثل التراب من خيل ورجال . فامتلأت أعين الناس من هذه الرؤية ، واطمأنوا على أرواحهم من خطر الوهابي ، وأمنّوا على أحوالهم وشدوا ظهورهم . وأما الدريعي وبقية عرباننا فإنهم كانوا يضحكون منهم[١٧] إذ تبين لهم أنهم ليسوا على قدر المادة .

وفي اليوم الثاني من خروج الجيش قام غبار من صدر البرية واعتم الجو من الغبار وظهرت غمامة سوداء كأنها الضِبّان[١٨] تمشي على وجه الأرض . وفي قليل من الزمن إذ أقبل شيء يغطي عين الشمس ويجفف النظر . وابتدأ القادمون بنصب البيوت أمامنا ، بعيداً عنا

(١٦) « وهرة » .

(١٧) أي من الأتراك .

(١٨) ضِبّان ج ضبّ : دويبة تشبه الورل ، « وهو أحرش الذنب ، خشنة ، مفقّره ، ولونه إلى الصُّحْمَة ، وهي غُبْرة مشربة سواداً » (لسان العرب ، مادة ضبب) أو لعله يريد الذبّان أي الذباب .

نحو ساعة، لأنهم أتوا بأهلهم، وكان عدد قبائلهم نحو خمسين قبيلة، على حسب ما استنتجنا من البيوت، وكانوا بالحقيقة خمسة وثمانين آلف بيت. واعلم أيها القارئ أن كل

١/٩٠ بيت/الأصغر منها فيه عشرون جملاً[١٩] ومن الغنم ما لا يحسب، ومن الخيل والأولاد والنساء والرجال عدد كبير. النتيجة جاء منهم ما يدهش العقل، مليونات، شيء لا يعرف أوله من آخره. فارتج قلب الوزير وكامل من معه من هذه الرؤية المبهرة وأرسل الباشا يدعو الدريعي ليشرب القهوة عنده. فراح المذكور ورأى أن حال الباشا متبدلة وهو خائف. فسكن روعه وشرب القهوة ورجع حالاً وأمر بجمع كامل الجمال. فجمعوها حالاً وربطوها من أياديها وركبها بالحبال وبرّكوها أمام جيشنا كالمتاريس. وفعلت هكذا كل العربان من عربنا ومن عرب العدو إذ هذه عادتهم، وحفروا ممرات[٢٠] بالأرض لأجل أن يختبئوا بها ويحاربوا، مثل[٢١] المتاريس. ثم بعد ذلك عملوا ناقة العطفة[٢٢] وزوقوها، و وضعوا عليها هودجاً مزوقاً بالجوخ والقطني والحرير الأحمر والشراريب والمرايا والوَدَع، وأدخلوا فيه فتاة محسنة جداً يقال لها أريكة وفصيحة متكلمة، لأن التي تقعد في العطفة يجب أن تكون أجمل جميع بنات العربان الموجودين وأفصحهن، فالكلام وجميع الحركة منوطان بها. فهي التي تنخّي الرجال وتشجعهم على الحرب. إلا أن المسكينة تكون في خطر عظيم لأن جميع الضربات والحملات عليها. إذ متى تمكن العدو من أخذ العطفة إنكسر العسكر. ولذا يجب أن يكون الرجال دائماً حولها يحمونها في وسط العسكر.

---

(١٩) لا شك أن هذه الأرقام خيالية، إذ يبلغ عندئذ عدد الجمال وحدها نحو مليون وسبع مئة ألف جمل!.

(٢٠) «مرور»، أي خنادق.

(٢١) «نعت».

(٢٢) العطْفة (بكسر العين وفتحها وضمها): «ناقة متميزة في شكلها تركبها ابنة الزعيم في أيام الحرب لكي تشجع الفرسان» (العزيزي، قاموس العادات، ج ٢، ص ٣١٢). وتطلق أيضاً هذه الكلمة على الهودج الخاص الذي تركب فيه هذه الفتاة. «وهذه العطفة لا توضع إلا في بيت أشجع العشيرة وأفرسها» (وصفي زكريا، عشائر الشام، ج ٢، ص ٢٤). وقد رأيتها في الكويت، عند آل صباح، سنة ١٩٥٦.

[المعركة الكبرى]

ثم أُخِذَتْ التدابير في كل الأمور ، والخَصْمُ أيضاً دبّر حاله وحفر متاريس ونوّخ[1] جماعته وعمل عطفة وقسم حاله إلى قسمين : الفرقة الكبرى أمامنا لأجل محاربتنا والفرقة الصغرى أمام جيش الباشا ، وابتدأ الحرب بكل حرارة من الجميع . ومن عادات العرب أنهم يبتدئون الحرب كمثل اللعب ، بفتور عظيم ، وبعد ذلك تشتد همتهم وقوتهم ويصبحون مثل السباع . وأما العثماني فهو بضد ذلك : أول نزوله بحرارة ثم يفتر . فسُرّ الباشا من هذه الرؤية وظن أنه يكسر عرب الوهابيين بعسكره فقط . وبعد ذلك اشتدت حرارة العرب ،

٢ / ٩٠ وصار نهار يقف عن وصفه اللسان/منا ومنهم إلى غروب الشمس ، فانفك الحرب بعد أن وقعت مقتلة وافرة من الفريقين . ثم في اليوم الثاني أتت نجدة من قبيلة يقال لها الحَديديّة وشيخها حمود آل إبراهيم[2] . فهؤلاء العربان من سكان طبراق حلب ، لا يشرّقون مثل العرب ، بل هم دائماً مقيمون في نواحي ديرة حلب وسرمين والمعرة ، وعليهم شيء مثل الراتب للوزير . وكلهم بواردية ، يركبون الحمير فقط ، ولكن بعض كبرائهم فقط يركبون الخيل . فكانوا نحو أربعة آلاف بارودي[3] .

---

(١) أي نخّى ، أثارَ النخوة في رؤوس الرجال وحثهم على الحرب .

(٢) « البراهيم » .

(٣) « بواردي » .

فعملنا حسابنا: كانت عربنا نحو ثمانين آلف مقاتل من غير جيش الباشا، وأما الوهابيون فكانوا نحو مئة وخمسين آلف مقاتل، ولكن بالحرب والمعارك عربنا أشد حرباً وقوة. وذلك على رأي الشيخ إبراهيم، له علاقة بالأقاليم. فهو يقول: إن الأقاليم الحارة لا يكون أهلها أشداء بالقتال، بل إن سكان الأقاليم الباردة أشد حرباً وقوة، وبما أن الوهابيين من سكان ناحية الجنوب فنحن أشد منهم قوة. وفي اليوم الثاني صار حرب وظهر فعل كبير من الوهابيين رجت منه قلوب الناس وخصوصاً أهالي حماة. وشاع الخبر أن الدريعي إنكسر والباشا أيضاً، وعزمت الناس على الهرب إلى نواحي البحر. ولم يزل الحرب والقتال معقودين[٤] مدة عشرين يوماً، حتى ضجت الناس وكرهت حالها، وعلى الخصوص أن الجوع ابتدأ ينتشر، لأن كل لوازمنا ولوازم الباشا من حماة، حتى افتقرت وتعرت من جميع المآكل، وحصل الغلاء وعدم وجود الشيء بالمدينة المذكورة. فابتدأ الحكام باستيراد الحنطة من غير أماكن، وأعطى أناس من مؤونتهم لأجل تقوية الدريعي خيفة من الوهابيين. أما نحن فلم نزل كل يوم في حرب، ونَقَصَ عسكرُ الباشا إذ قُتِلَ منه كثير، وابتدأت الناس من عرباننا تنسل وتهرب من شدة الجوع، حتى أن الجمال التي وضعناها كالمتاريس صارت تأكل بعضها من الجوع، إذ كان لا يمكننا أن نتركها ترعى أولاً لأن نار العدو تعمل بنا ما تريد إذ نبقى من غير وقاية، وثانياً لأنه لم يبق في الأرض شيء لترعاه/بل ولا للأوادم. ١/٩١

ولم يزل الحرب متواصلاً يومياً حتى أنه في بعض الأيام كان يتصل ليلاً نهاراً. وأما أركية التي كانت جالسة بالعطفة، فإنها كانت تنخي الرجال وتهيجهم على الهوشة[٥] والحرب. وأكثر الذين يقتلون من طرفنا تكون هي السبب بكلامها المهيج للحرب. وكانت دائماً تعد الشباب أن الذي يأتيها برأس عبد الله الهدال تتزوجه، لأن المذكور صاري[٦] عسكر العرب الذي يقاتلوننا، وأبو نقطة صاري عسكر العرب الذين أمام جيش الباشا. فهذان الاثنان صواري عسكر الوهابيين. وبسبب رغبة الشباب في أركية كانوا يرمون بأنفسهم إلى الموت. حتى أن من جملة من تقدم وزاحم الناس شاب عظيم وفارس عنتري، وصل عند أركية وقال: أريني وجهك يا زين الملاح، إذ ما كان رآها بعد. فأخرجت رأسها من وراء ستار

(٤) «ولم يذل كل حرب ومقاتل».

(٥) «الهوش».

(٦) رئيس.

العطفة وقالت : أتعرف يا شاب ما هو نقدي[7] ؟ هو رأس ابن هدال عبد الله . فهز رمحه تحت العطفة وانتخى ورمى بنفسه في وسط العدو فما عاد من نزوله لأنه قتل . فكنت ، أنا الفقير ، قريباً منها فقلت لها : يا أركية يسلم رأسك بالرجل ، فقالت : مثله كثيرون ذهبوا وما عادوا .

---

(٧) مهري .

[المبارزة]

ثم وفي تلك الغضون، إذ نزل إلى الميدان فارس من فرسان العدو مدرع، في رأسه خوذة من البولاذ، وأنف نازل على وجهه من البولاذ، وعكس صفائح البولاذ، وقميص زرد بولاذ وجزمة بولاذ، والفرس مدرعة أيضاً. فهذا اسمه مدرّع. وكان عندهم من هذا الشكل عشرون واحداً وكان عندنا أثنا عشر فقط. فنزل الفارس المدرع المذكور إلى الميدان وطلب الدريعي. وهذه عادة قديمة عندهم كان من ينزل الميدان يطلب الشخص الذي يريده. وعلى المطلوب أن ينزل وإن لم ينزل يكون ذلك عاراً عظيماً عليه. فحين سمع الدريعي ذلك الطلب نهض قائماً حتى ينزل إلى الميدان. فما استصوبنا نزوله خوفاً من خطر ما يحصل له لا سمح الله، فيخرب شغلنا جميعه. فقمنا كلنا ضده ومنعناه عن النزول لحرب ذلك الفارس الذي يطلبه، بينما هو كان يعمل/كل جهده ليتخلص من أيدينا ويريد أن ينزل الميدان، حتى اضطررنا أن نربطه بالحبال وندق له سككاً مثل الخيل ونقعد فوق السكك خوفاً من أن يقلع السكك ويذهب. ولم يزل الفارس المدرع يصيح ويصرخ[1] ويقول للدريعي: يا من عاين اليوم يومه، أود أن أراه في هذا الميدان حتى أعدمه حياته. وكلما سمع الدريعي ذلك يهيج مثل الجمال وتحمر عيناه ويشد على السكك حتى يقلعها ويروح. ونحن نعمل كل جهدنا حتى لا ندعه ينزل إذ يحصل لنا ضرر عظيم في الحاضر والمستقبل إن حدث له أمر لا سمح الله.

٢/٩١

(١) «يعيط».

وبينما نحن في اعتلاج معه نشده ويشدنا ، وإذ حضر خيال من الشرارات يقال له **طعَيْسان** راكباً على فرس شقراء ، ليس عليه إلا القميص ، وبيده رمح فقط لا غير . فرأى الحال الذي نحن به ، والفارس لم يزل بالميدان يطلب الدريعي . وكان اشترى في ذلك اليوم الفرس التي تحته ، من عرب الحديدية . وكان له امرأة اسمها شامة بنت جديد . ثم زاحمنا ودخل أمام الدريعي وقال هذا الشعر :

يومي أنا شريْت جواد الحديدي | شريتها يوم صار لي بها شف
اشتريتها وأبغـي عليها الحميـدة | وأكف طراد الخيـل من فوقهـا كف
وأطعن لعيـون شامـة جديـدة | بنت الذي لا طالع الزول ما خف[٢]

وفرّ من بيننا إلى حومة الميدان مقابل ذلك الخيال ، وابتدأ بينهما الحرب بكل قساوة حتى تعجبت الناس . وبقينا جميعنا ننظر إليهما وهما لم يزلا مع بعضهما بالأخذ والرد نحو ساعة من الزمان ، من غير أن يرجح أحد على الآخر . ثم أخيراً تمكن خيالنا منه فضربه برمح في حلقه[٣] ، إذ ليس في جسمه مكان خال من الدرع يتحكم به غير شيء قليل عند حلقه فقط ، فضربه بالرمح الأجرد وإذ لمع سنان الرمح من الجانب الثاني فقتل ، إلا أنه بقي على ظهر الفرس ، والرمح عالق في رقبته ، فعادت به الفرس إلى بيته ، وذلك من عاداتهم[٤] ./ ١/٩٢

فرجع طعَيْسان عندنا . فقام الدريعي وكل من كان حاضراً عندنا وصافحناه وحمده الناس على شجاعته ورجولته ، وأهداه الدريعي فرساً ورمحاً والشيخ إبراهيم قنبازاً جديداً من الحرير .

(٢) يقول : في هذا اليوم اشتريت جواد الحديدي إذ شغفت بها . وإني اشتريتها أريد بها الأعمال الحميدة وطرد الخيل من فوقها كما يعمل الخياط عندما يكف الثوب ، وأطعن إكراماً لعيون شامة بنت جديد ، بنت الذي لا يخاف وقت النزال .

(٣) « زلعومه » .

(٤) يريد أن العرب قد علّمتْ الخيل أن تعود إلى البيوت متى جرح الفارس أو قتل .

[إنكسار الجيش العثماني]

ثم لم تزل الحرب متصلة والجوع يكثر ، حتى ضجت الناس عندنا وعند أهالي حماة ، لأن البلدة تعرت تماماً من الحبوب والمآكل ، حتى أن بيت الدريعي بقي يومين من غير أكل . وفي اليوم الثالث أتى من عند الملا اسماعيل دالي ، باش عظيم مقيم دائماً في حماة ، ثلاث قفف أرز ، فأمر الدريعي بطحنها جميعاً دفعة واحدة حتى يأخذ كل واحد من الناس شيئاً قليلاً . أما سحن ابن الدريعي فما رضي أن يأكل مع أنه كان على ظهر فرسه منذ أربع وعشرين ساعة من غير أكل ولا شرب . فبذلنا كل جهدنا حتى يأكل فلم نفز بفائدة . وأخيراً قال : اعطوني ما تريدون أن تطعموني . فأعطوه حالاً من السفرة لحماً وأرزاً وخبزاً . فخلط الجميع بعضها ببعض و وضعها في العليق وأطعم الفرس ، وهو قاعد جائع ، وقال : خير لي أن تكون فرسي شبعانة وأنا جائع .

ولم نزل على هذا الحال سبعة وثلاثين نهاراً ، والحرب متواصلة يومياً ، فقتل من الفريقين شيء كثير . ثم نهار الثامن والثلاثين اشتد الحرب من كل الأطراف فانكسر جيش الباشا وتعطل بكامله ودخلته العربان وغنمت جميع ما فيه من الخيم والأسلحة والخيل . فانهزم الباشا إلى حماة ، وكل العساكر التي استطاعت الركوب ركبتْ ، إلا أن أكثرها ما لحقت خيلها . ودخل العسكر مكسوراً إلى حماة . فارتجت المدينة وخافت الأهالي عند رؤية العسكر المكسور ، وفيه من القتلى والجرحى شيء لا يعد . وهرب كثير من أهالي حماة وحمص إلى

الجبال واقترب غيرهم من ساحل البحر. وأما الدريعي فقد صعب عليه ذلك جداً أولاً بسبب عار الكسرة، وثانياً لأن جيش أبو نقطة الذي كان أمام/جيش الباشا ارتدّ علينا ٩٢/٢ وكثر عدونا وزادت قوته واشتد الحرب وزاد قساوة، وانعقد الغبار إلى الجو الأعلى وانخلط العربان بعضهم ببعض، وعقد ضرب السيف فيما بينهم حتى تصبغت الأراضي بالدماء وجرت مثل سيول المياه، وصار نهار وملحمة ما جرى قط نظيرهما.

وأقمنا على هذا الحال ثمانية أيام بعد إنكسار الباشا ونحن ثابتون أمام العدو. وأما أهالي حماة فإنهم قطعوا مواردهم عنا، وجلسوا في البلد بكل تحفظ، وكانوا يدورون بالبلد ليلاً نهاراً، بينما كان أهالي القرى يواصلونهم دائماً بالأخبار الرديئة عنا. وكانوا يسمعون كل يوم، مرتين أو ثلاث مرات أن الدريعي قد انكسر، وصار الخبر أيضاً بدمشق وخاف أهاليها أيضاً من هذا الخبر الشنيع.

[انتصار الدريعي على الوهابيين]

فبعد ذلك رأى الدريعي أن أمورنا تتأخر كل يوم وأننا صائرون عما قريب إلى العدم، فتحسن عنده رأي [به النجاة] كما سنوضحه لمسامعكم. وهو أنه جمع كامل رؤساء القبائل وعمل ديواناً عظيماً وقال: أريد منكم أن تفعلوا ما أقوله، وأنا نهار غد، إن أراد الله وإن ما أراد[1]، أكسر الوهابيين. فضحك أناس وقال غيرهم: كَفَرْتَ يا دريعي، قلْ ما هو المتحسن عندك. قال: أريد منكم في هذه الليلة أن تُرَحِّلوا كاملَ بيوتكم ونسائكم وأولادكم وحوائجكم غربي العاصي من غير أن يبقى بيت واحد، إنما يفضل هنا جميعكم: الرجال والخيل والركب والزلم[2]، لا غير، ولكن بدون ضوضاء ولا ضجة ولا تدعوا العدو يعرف ذلك، أريد أن نهار غد، قبل طلوع الشمس، أن لا أرى بيتاً منصوباً في هذا النزل بشكل من الأشكال. فحالاً انفرط الديوان وكل من راح ونبّه عربه بالرحيل. وفي الليل، من غير غوغاء رحل جميع عرباننا وقطعوا غربي عاصي حماة ولم يبق بيت ولا ولد ولا امرأة إلا فقط رجال وفرسان. فقسمهم الدريعي أربعة أقسام، ورتبهم من أربعة أطراف/جيش الوهابي، وأمر الأقسام الأربعة أن يهجموا هجمة واحدة. فدخلوا في الجيش الوهابي وابتدأ ضرب السيف

٩٣/١

(١) «وإنما راد».

(٢) الزلم، جمع زلمة، أي الرجال. وهذا التكرار يفيد أن الصائغ يعني أولاً أصحاب الخيل، ثم أصحاب الأبل والمشاة.

وانعقد دخان البارود وانكسر الوهابيون وفروا هاربين وإلى النجاة طالبين وأبقوا جميع أرزاقهم وبيوتهم منصوبة. وأما الدريعي فكان أمر أن لا يأخذ أحد شيئاً من الكسب كي لا يلتهوا عن العدو بل يطلبونه ويسعون في أثره، وظلوا وراءه حتى قطع تدمر وارتد على أعقابه، فغنموا جميع أرزاقه وبيوته وجماله.

وأما الشيخ إبراهيم وأنا، فبعد أن انكسر جيش الوهابي وركض عربنا وراءه نزلنا إلى حماة وتكلمنا بالذي جرى فما كان يصدق أحد بذلك حتى الباشا نفسه. وخرج الناس إلى الأماكن المرتفعة، فكنا نرى البرية كمثل الضبان[٣] الأحمر وهو من الرمل والغبار المتصاعد من أقدام الخيل، وظل الحَمَار ظاهراً بالجو بعد ثماني ساعات. ومع ذلك ما يصدق أحد أن الدريعي كسر الوهابي حتى أتت أناس من القرى وشهدت بذلك ونحن أكدناه لهم. فصار الفرح عندهم وأرسل الباشا حالاً تاتار[٤] يبشر والي الشام. وصارت الناس تدعو للدريعي بالنصر، وامتلأ العالم من البهجة والسرور[٥].

وأما الدريعي وعربنا فقد كفوا عن الوهابيين، وعَدوا على أرزاقهم وبيوتهم، وغنموا شيئاً لا يوصف من أموال وجمال وبيوت وحوائج وأمتعة. ونزل الدريعي وأولاده وكثيرون من كبار العشائر، فخرج المتسلم والكيخيا وكل الضباط وكبار حماة لاستقباله وأدخلوه البلد بزفة عظيمة وعُراضَة[٦]، والناس من نساء ورجال تدعو له وتحمد فعله. ثم إن الباشا عمل له غاية الإكرام والواجب، وأهداه تحفاً وذخائر. وكذلك وزير الشام أرسل إليه بولردي يحمده ويشكره على فعله، وأرسل إليه أيضاً بسيف عظيم، وفروة سمور، وخمسين كيساً، وأربعين حملاً من القمح./وشاع خبر ذلك في جميع بلاد العرب[٧]، عند الخاص والعام. ٢/٩٣

---

(٣) ضبان ج ضب وقد سبق تفسيره (انظر صفحة ٢١٣ حاشية ١٨).

(٤) كذا.

(٥) يظهر من سياق الحديث أن موقعة حماة بين الدريعي والوهابيين كانت خلال صيف سنة ١٨١٣. ولكن هل جرت هذه المعركة حقاً أم أنها من نسج الخيال؟ إننا نميل إلى تصديق الصائغ وإن كان بالغ جداً في عدد المتحاربين. وقد ذكر هذه الموقعة أوغست دي نرسيا في كتيب طُبِعَ سنة ١٨١٨، إلا أنها حدثت، على ما يقول، سنة ١٨١٢.

(٦) مظاهرة شعبية للسرور والابتهاج.

(٧) «في كامل بلاد عرابيا»، كذا. فهل يريد الصائغ جميع البلاد العربية أو جميع بلاد الجزيرة العربية؟.

[الحلف الأكبر]

ثم بعد ذلك كان مضى فصل الصيف، وقربت أيام التوجه إلى نواحي المشرق. فأخذنا جميع لوازمنا من حماة وخرجنا نحن والدريعي وكامل كبار قبائلنا من حماة بكل عز وإكرام واجتمعنا مع عربنا وقصدنا التشريق على حسب العادة، ولكننا دائماً كنا لا نتخلى عن عشر[1]قبائل تكون معنا، خوفاً من رجوع الوهابيين علينا، لأن هذا الأمر مشهور، ويقال أن العرب لها ردّات. فرحنا ونزلنا في محل يقال له تل الذهب بالقرب من طبراق حلب. فهناك كانت نازلة عدة قبائل، البعض منها كانت معنا وقبلت شروطنا و وضعت أختامها بالورقة. وهم أربعة مشايخ: فراس[2]ابن عجيب، شيخ قبيلة البشاكنة، عشيرته تحتوي على خمس مئة بيت، وأيضاً قاسم الوكبان، شيخ قبيلة الشمسي، عشيرته تحتوي على ألف بيت، كذلك سلامة النعسان، شيخ قبيلة الفواعرة، عشيرته تحتوي على ست مئة بيت، وأيضاً مهنا الصانع، شيخ قبيلة الصُّلْبة، عشيرته تحتوي على ثمان مئة بيت.

ثم رحلنا وتوجهنا رويداً رويداً إلى الزور، وهناك تواجهنا مع حبيبنا الأمير فحل الخليل شيخ قبيلة بني سعيد وهي تحتوي على اثني عشر ألف بيت. فحصل لنا غاية الإكرام

(١) «لا نتخلا من عشرة قبايل معنا»: المعنى غير واضح، فهل يريد المؤلف معاشرة القبائل وصحبتها أو يريد عدداً من القبائل، وفي هذه الحالة يقتضي تذكير العدد، بموجب قواعد النحو.

(٢) في مكان آخر: فارس.

والهدايا، وقطعنا الفرات من عنده ودخلنا الجزيرة نحن وجملة قبائل. وتوجهت غير قبائل من المتحدة من قبلي نهر الفرات قاصدة الحماد وبرية[3] البصرة. وبعد قليل من الأيام وصلنا مكتوب للدريعي من الأمير فارس الجربا، لأن المذكور لم يقطع الجزيرة معنا ولكنه ذهب مع جملة قبائل من أحبابنا على طريق الحماد. ومضمون الكتاب:

١/٩٤ نخبركم أن عدة قبائل من/ربع الوهابي قد انفصلوا عنه[4] بعد أن فرّوا عند حماة، لا يلوون على أمر[5]، وهم الآن نازلون بالعباسية بالقرب من مسجد علي. وهي القبائل التالية: الفدعان، السُّبَعَة، الفَكاكا، والمساعيد[6]، والسَّلْقا[7] وبني وَهْب: ست قبائل كبيرة، وقد بلغني أن لهم فكراً بالصلح والاتحاد معكم، لأنهم كرهوا أحوال الوهابي وخصوصاً بعد الذي جرى عليهم في هذه الأثناء أمام حماة، فقطعوا أملهم من الوهابي، والآن قد لانت أنفسهم إلى الصلح معكم، فإن تحسن عندكم أن ترسلوا إلي عبد الله الخطيب، وترسلوا معه بورقة الشروط وأنا أتوجه بنفسي[8] معه إلى عندهم، وإن شاء الله يأخذهم إلى طرفنا ويتم الصلح معهم، وبذلك نزداد قوة جداً ونضعف عدونا. ولا تفكروا بأي خطر يقع لعبد الله، نحن نكفله مالاً، ودمنا دمه، [ونكفل] كلَ ما يجري عليه من الأمور المخالفة.

فاعتمد رأينا على ذلك، لأنها فرحة عظيمة وعشائر مشهورة لا تقع بيدنا في كل وقت. فدبرت أحوالي وأخذت ورقة الشروط معي وتوكلت على الله تعالى وتوجهت. وكان بصحبتي خادم بدوي، والشخص الذي أتى بالمكتوب للدريعي رجع معنا. وبعد ستة أيام وصلنا عند فارس، وكان نازلاً على القُبَيْسَة، فرحب بنا، وعمل لنا غاية الإكرام، وتكلمنا بخصوص الصلح مع الفدعان وبقية القبائل. وفي اليوم الثاني أمر بالرحيل لنكون قريبين منها. ولم نزل نرحل حتى لم يبق بيننا وبينها إلا مرحلة فقط. فكتب الأمير فارس مكتوباً إلى ضُوَيْحي ابن آغْبَيْن أمير الفِدعان، لأنه هو الأكبر بين القبائل المتقدم ذكرها، وبينه وبين فارس قرابة

(٣) «جول».

(٤) «قد فسخوا».

(٥) «بعد هجيجهم من على حماة».

(٦) المَسَاعِدَة؟.

(٧) «السلقة»: من العمارات، من عنزة.

(٨) «بالأجر»، يريد بالرجل.

من طرف النساء . ومضمون الكتاب أنه يشور عليه بالصلح مع الدريعي وينصحه بترك العناد والعداوة ويتعهد له من طرف الدريعي ، بالصفح عن جميع ما مضى ، وعرّفه : « أن عبد الله الخطيب قد حضر عندي/لأجل غير أشغال ، ولكن بما أنه عندي صدفة ، فمن المستحسن أن نكسب الفرصة ونجري الصلح على يده ، والصلح أوفق لك ولعربانك » . وأرسلنا بالمكتوب حالاً .

٩٤/٢

وعشية اليوم الثاني إذ أقبل ضويحي وبصحبته بعض الخيالة من أقربائه . فاستقبلناهم بكل إكرام وأخذنا نتكلم بالصلح . فكان جواب ضويحي أنا قابل الصلح ، وأعطي كلاماً به عن عشيرتي ، ولكني لا أستطيع أن أعطي كلاماً عن غير عشائر ، إذ لا يخفى عليكم أحوال العرب وحريتهم ، كل واحد يقود قبيلته . والرأي عندي أن تتفضلوا عندي نهار غد ، ونجمع كافة كبار قبائلنا ونتكلم معهم بما يجب ، وإن شاء الله تعالى يتم الصلح . فاعتمدنا على هذا الرأي .

وركبنا صباح اليوم التالي وسرنا مع ضويحي إلى بيته . فوصلنا إلى نزلهم وكان المنظر يؤلم القلب ، وذلك لأن جميع العربان بالشمس ، من غير بيوت ولا جمال ولا حوائج ، رؤية شنيعة جداً : فراشهم الأرض وغطاؤهم السماء ، وفي النهار يحترقون بالشمس ، ومنهم نحو عشرين رجلاً ، وضعوا مشلحاً على العصا ، وأدخلوا رؤوسهم فقط في ظله من حرارة الشمس . والنساء والأولاد وكثير من الرجال ومن الأكابر مرتمون بالشمس مثل الحجار ، حتى أن ما كان عندهم شيء يأكلونه ولا يتقوتون به . وكانوا نحو ثلاثين ألف نسمة . فالنتيجة أن قلبي تألم عليهم وكنت مقهوراً جداً .

وفي اليوم الثاني أرسل ضويحي يدعو كامل كبار القبائل عنده ، فحضر الجميع وصار مجلس عظيم يضم نحو خمس مئة نفر من رجال طاعنين بالسن ومشايخ وأمراء ومشيرين ، أشكال وأشكال . وكل من يبدي رأياً . فالبعض يريدون الصلح والبعض يريدون أن يتوجهوا إلى نجد ، والبعض يريدون الذهاب إلى جبال شمّر . وكل واحد في هواه يخالف الآخر . فرأيت من الأنسب أن أتكلم معهم بالمليح والكلام اللين عساني أستطيع أن أجذبهم جميعاً إلى طرفنا[٩] . فابتدأت وقلت : اعلموا يا معاشر الناس أنكم الآن ، كما هو معلوم ، قد خرجتم من حزب الوهابي ، ولا بد أن يكون خاطره قد تغلظ لكم ، إذ لم تذهبوا مع جيشه برفقة صاري/

٩٥/١

(٩) « حوفنا » .

عسكره الأمير عبد الله الهدال ، لأنكم انفصلتم عن المذكور وتركتوه يذهب وحده . فهذا لا بدّ له أن يمشي بكم إلى ابن سعود ، ويبتدئ معكم بالمكايد والقصاص ، وخصوصاً أنكم تريدون التوجه إلى نجد وجبال شمر ، وهي تحت حكمه وبقبضة يده ، فيخشى عليكم من بغيه وظلمه المشهور ، فيستعبدكم ويفعل بكم ما يشاء ، حسب عادته مع الذين هو راض عنهم ، ولكن كيف تكون حالكم أنتم الذين خرجتم الآن من رضاه[10] وعاديتم[11] كيخياته عبد الله ، فعلى أي شكل يريد أن يقاصصكم ؟ ولكن أنتم مثل الطير الذي فرّ من فخ الصياد ، ولكن بسبب عدم معرفته وتمييزه عاد ورمى نفسه بالفخ ثانية ، و وقع بالمهالك . فارفضوا هذا الرأي الفاسد من عقولكم واعلموا أن نهر الفرات في مبتدأه نبع صغير ، وأثناء جريانه تصب فيه غير أعين ، فيزداد ويكثر ولا يزال يكبر ويزداد عرضه ويقوى حتى صار بحراً طامياً يجري بكل قوة وعزم ولا يستطيع أحد أن يمنعه عن مسيره ، حتى ولا جميع ملوك الأرض . فأنتم أيضاً إذا اتحدتم مع بعضكم تصيرون كنهر الفرات الطامي الغدار . وأيضاً تشبيه آخر يا إخواننا ، اصبروا حتى أريكم شيئاً بعيونكم . ثم نهضت من الجمْع وابتدأت أجمع العصي التي بأيدي الناس ، حتى جمعت نحو ثلاثين أو أربعين عصاً . فأعطيت إلى أحد الشباب كان قريباً مني واحدة وقلت له : اكسرها فكسرها ، ثم أعطيته اثنتين فكسرهما ، ثم ثلاثاً فكسرها أيضاً ، ثم حزمت الجميع وأعطيته وقلت له : اكسر هذه ، قال : هذا شيء لا يمكن . فقلت له : أنت ما لك قوة فاعط إلى غيرك . فأعطى إلى الذي جانبه حتى دارت العصي على كل واحد . ثم قالوا : هذا شيء غير ممكن ، لا يستطيع أحد أن يكسرها . فقلت لهم : وأنتم كذلك ، إن كنتم قبيلة أو ثلاثاً أو خمساً تنكسروا . ولكن إذا كنتم مجتمعين مثل هذه الحزمة ومرتبطين بحبل الشروط لا يستطيع أحد أن يسطوا عليكم أو يقهركم أو يستعبدكم ، بل أنتم تقهرون الجميع وتسودون على الدنيا كافة . وإذاً شدوا قلوبكم ، وقوّوا عزائمكم ، وارفضوا العبودية ، واقبلوا الحرية ، والتحموا مع إخوانكم أصحاب الخير ،/[12] بموجب هذه الشروط . وأخرجت صورة الشروط وقرأتها عليهم ، وعند نهايتها قلت : اعلموا يا إخواننا ، من بعد جميع ما قلته لكم ، إني لا أريد إلا صلاحكم ، بل إني أتعهد لكم أيضاً برد جميع ما أخذه منكم الدريعي عند حماة

٢/٩٥

(١٠) « خاطره » .

(١١) « وضشمنتوا » .

(١٢) ابتداء الكراس رقم ١٢ .

من بيوت وسائمة[١٣] وغير ذلك، فكونوا مطمئني القلب والخاطر واصرخوا: نحن قابلون، إننا مع المتحدين على الخير والشر حتى الموت. فقامت ضجة عظيمة وصيحة هائلة من فم واحد: نحن مع المتحدين وقابلون بهذه الشروط على الخير والشر حتى الموت.

فللوقت صافحنا بعضنا بعضاً جميعنا، وحصل الفرح والسرور لكامل الناس، وصرت عندهم بأعلى منزلة. ولكن النهار كان متعباً جداً لي إلى درجة لا توصف. ثم اعتمد رأينا وتواعدنا على أن يرحلوا وينزلوا إلى الحلة، وأنا أعود حالاً عند الدريعي وآتي به إلى الحلة أيضاً لأنها مقطع جيد، كي يستلموا بيوتهم وجمالهم، ويتصالحوا مع الدريعي، ويضعوا ختومهم بورقة الشروط. فتم الرأي على ذلك. وفي اليوم التالي من الصبح ركبت وتوجهت عند الدريعي، وقطعت الفرات من الحلة، وبعد خمسة أيام وصلت عنده. وكان بالهم مشغولاً جداً بسببي، فحكيت لهم جميع ما جرى، فسرّوا جداً وحمدوني على ذلك. وبالحال أمر الدريعي بالرحيل والتقدم إلى حلة. وبعد قليل من الأيام نزلنا نواحي الحلة. وحين رأونا[١٤] قطعوا نهر الفرات. وحضر عندنا كل كبار قبائلهم مع فارس الجربا. فنهضنا للقائهم واستقبلناهم بكل إكرام وعز، واجتمعوا كلهم مع كبار قبائلنا في بيت الدريعي. وكان مجلساً عظيماً. فابتدأ بعض الحاضرين يتكلم ويعتب عما مضى. فقال ضويحي: يا جماعتنا، العتاب للنساء ليس للرجال. ثم نهض[١٥] قائماً وأخذ سبع حصوات وطمرها في الأرض، وفعل كما ذكرنا سابقاً عن عاداتهم، حين تصالح مهنا مع الدريعي وطمر الحصوات. فصار الفرح وأيقنوا بالصلح الأكيد لأنهم متى طمروا الحصوات كان صلح حقيقي من غير/انتقاض قطعاً. /٩٦

ثم حضر الطعام فتغدينا وتحالفنا على الخبز والملح. وبعد الغداء صارت خلوة خارج البيت مع رؤساء قبائلهم وقبائلنا، وقرأنا لهم ورقة الشروط الأصلية مرة ثانية، فقبلوا بها وازدادوا رغبة حين رأوا العدد الكبير من الختوم الموضوعة بها فضربوا جميعهم ختومهم وأسماءهم بها. وهم ضويحي ابن آغَبَيْن أمير قبيلة الفدعان، عشيرته تحوي على خمسة آلاف بيت، جميعهم فرسان مجربون بالحرب والقتال ومشهورون. وأيضاً علي ابن حريميس، شيخ قبيلة

(١٣) «وسيحة»، (؟) كذا.

(١٤) أي ضويحي والقبائل التي معه.

(١٥) «فزّ».

السلقا[١٦] ، عشيرته تحتوي على ثلاثة آلاف بيت ، وأيضاً **نعيمان** ابن فهد ، شيخ قبيلة المساعيد ، عشيرتة تحتوي على ثلاثة آلاف وخمس مئة بيت ، وأيضاً **امعضي** ابن عيده ، أمير السبعة ، عشيرته تحتوي على أربعة آلاف بيت ، وأيضاً شطي ابن عرب ، أمير قبيلة بني وهْب[١٧] ، عشيرته تحتوي على خمسة آلاف بيت ، وأيضاً اشتيوى[١٨]ابن طيار ، شيخ قبيلة الفكاكا ، عشيرته تحتوي على ألف وخمس مئة بيت .

ثم بعد ذلك قال لهم الدريعي ابشروا ياأحبابنا ، إن جميع ما راح لكم من بيوت وسائمة وغير وغير تفضلوا استلموها ، لأن عبد الله الخطيب تعهد لكم بردها ، وقوله من قولنا وقولنا من قوله . فجميع ما تعرفونه أنه حقيقة لكم خذوه من غير ممانعة . فشكروا فضله واستكثروا بخيره[١٩] . وبالحال ابتدأ عربانهم يجتازون إلى الجزيرة من مقطع الحلة ، لأن هناك أشياء كثيرة مخلوطة في بعضها لا يمكن للرجال أن تفرق بينها ، بل يجب حضور النساء حتى تعرف كل واحدة منهن بيتها وحوائجها وجمالها . فالنتيجة حضر الجميع وأخذوا يستلموا ما هو لهم . وكثرت العربان في الحلة حتى اضطر سكان الحلة أن يهربوا من كثرة العربان وضجيجهم . فأقمنا خمسة أيام في تعب عظيم حتى عرف كل واحد رزقه وأخذ ماله ، وانفصلوا عن بعضهم بعد غوشة وعياط وضجيج وقتال صغار العربان مع بعضهم ، بسبب اختلاط الجمال والغنم بعضها ببعض . وعلى كل جمل/وغنمة كان يقع العياط . ٢/٩٦

والنتيجة أنه حصل لنا تعب كبير بسبب هذه الشعوب ، وهي تقدّر ، ما بين عربنا وعربهم ، بنحو مئتي ألف نسمة من رجال ونساء وأولاد . أما الجمال والأغنام فلا يعرف عددها سوى ربنا . وهي مختلطة بعضها ببعض . والشيء الذي سهّل الأمور نوعاً ما ، أن لكل قبيلة وسماً أي علامة[٢٠] ، يكوى بالنار على أفخاذ الجمال : لكل قبيلة علامة عامة تسمى وسم العشيرة ، وإلى جانب وسم العشيرة العام وسم ثان خاص بصاحب الجمال . ولكن من كثرة هذه الوسوم تتقارب العلامات وتشبه بعضها بعضاً ، فيحدث القتال لأجل ذلك .

---

(١٦) « السلكة » ، من عنزة .

(١٧) بني وَهْب : من ضنا مسلم ، فرع من عنزة .

(١٨) اشتيوي أم أسطوي ؟ .

(١٩) أي قالوا له : « الله يكثر خيرك » .

(٢٠) « نيشان » .

[من حوادث البادية]

ومختصر الكلام أنه حصل تعب لا يوصف بشفة ولا لسان ، حتى استطعنا أن نوفق بينهم وبقوا جميعهم معنا بالجزيرة ثم توجهنا جملة . وكان بالجزيرة غير قبائل أيضاً ، وأتت أيضاً عدة قبائل من نواحي نجد ، حتى تغطى وجه الأرض بالعربان وضاقت الطرق والمسالك بهم . وبوقته كان قفل قادماً من بغداد إلى الشام ، فغارت الفدعان والسبعة عليه ونهبوا جميع ما فيه ، وشلّحوا الناس الذين فيه ، وكسبوا أموالاً لا توصف . وكان محملاً من قماش الهند وقهوة ونيل وقرفة وقرنفل وشال وسجادات[1] وبياض بغدادي وجانب من المعادن وشال كشمير وغير ذلك ، النتيجة بألوف الأكياس . فنهبوا الجميع وغنموه . فشاع خبر ذلك فصارت تحضر الناس من أهالي القرى والقُبَيْسَة وأهل شتاته (؟) وغيرهم ، حتى من جهة الموصل ، واشتروا من الأرزاق . فكان يباع شال الكشمير الذي يسوى ألفي غرش بمشلح أسود ، وثوب البياض الهندي الذي يسوى مئة غرش يباع بجزمة صفراء . والقرنفل والقهوة بالكيل ، كل كيل من القهوة أو القرنفل بكيل تمر . وباع واحد من البدو صندوق نيل بقنباز خام ، وباع آخر فردة محزوم بياض هندي بخمسين غرشاً ، وبدوي آخر باع قرفة وفردة بياض هندي ونصف صندوق نيل وساعة إنكليزية/إلى واحد موصلي ، كل ذلك بمشلح وجزمة وقميص قز ورطلين توتون ولبادة فرس . فبلغ ثمن جميع ما أعطي نحو مئة غرش ، وأخذ أشياء بعشرين ألف غرش . وقس على هذا النحو جميع ما باعوا من الأرزاق . وأما القرفة السيلانية من الصنف العالي فما

١/٩٧

(١) «سداجات» .

صار لها راغب يشتريها ، فكنت ترى منها حزماً حزماً بين أرجل الخيل والجمال . وكذلك بلغنا عن واحد بدوي باع خاتم الماس كبيراً عظيماً برطل توتون . فالغاية أن الذين اشتروا غنموا ، وأما نحن فلم نتدنس بشيء كلياً لأن الشيخ إبراهيم ما رضي بذلك .

أما بخصوص القبائل التي ذكرنا أنها أتت من نجد إلى الجزيرة فهي القبائل الخمس التالية : الحماميد[٢] والضُّفير والعجاجرة والخزاعل وبني طي . وسبب حضورها هو أن لأمير بني طي بنتاً جميلة جداً اسمها قمر . فعشقها شاب ابن أمير من عرب نجد وهي عشقته بالأكثر . وهذا الشاب نسيب الوهابي من طرف الحريم . فاشتد عشقهما الواحد للآخر حتى انكشفت حكايتهما . فمنعها أبوها عنه ونبهه بعدم الحضور عندهم . فصار المنع من الطرفين واشتدت المحبة أكثر كما هو معلوم . وكان لها ابن عم يريد أن يتزوجها ، وهي لا تحبه بل تريد ذلك الشاب الذي تحبه ، وكان اسمه فهراب . فالمذكور من شدة حبه ، حَسُنَ لديه أن يخطفها ليلاً وارتبط معها بوساطة امرأة عجوز ، وهي رغبة في ذلك وأخذت تنتظره . وأما ابن عمها فمن غيرته ومحبته لها كان دائماً يراقبها ليلاً نهاراً ، حاسباً هذا الحساب ، حتى أنه في الليل أيضاً كان دائماً راكباً فرسه ودائراً بالنزل ، مفكراً باللذي هما مفكرين به . وأما الشاب فهراب ٩٧/٢ فإنه تزيا بزي فقير ودخل النزل نهاراً ، وراح إلى بيت قمر ، وعرّفها بحاله واتفق/معها . ولما انتصف الليل خرجت من البيت وهو كان يترقبها . فسرقت فرس أبيها وركباها وطلبا الفرار . فبعد خروجهما بقليل من النزل ، بمقدار ساعة ، تصادفا مع ابن عمها عرضاً ، فعرفهما وصار الطلب . ولم يزلا راكضين وابن العم وراءهما ، نحو ست ساعات ، ركضة واحدة . وأخيراً وقعت الحرب بين الرجلين بشدة عظيمة حتى هلكا من التعب وهي واقفة تنظر إليهما . ثم غُلِبَ فهراب و وقع من على ظهر الفرس مجروحاً على الأرض . فنزل تامر هذا اسم ابن عم البنت ، حالاً وذبح فهراب وأخذ يعاتب قمر بالكلام اللين جداً لأنه كان يحبها كثيراً ، ثم سارا إلى أن قربا من النزل . فنزل تامر كي يستريح إذ كان تعباً ونعسان جداً ، فغفل واستسلم للنوم . فقامت قمر وقطعت رأس تامر ابن عمها وأخذت حربة رمحه وضربت بها قلبها وماتت هي أيضاً ، إذ وجد الناس ، فيما بعد ، فهراب بعيداً عنهما نحو خمس ساعات ، و وجدوا تامراً مقطوع الرأس وقمر والحربة لا تزال مغروزة في صدرها ، ففهموا أن قمر قطعت رأس تامر من حبها لفهراب وأخيراً قتلت نفسها بيدها .

---

(٢) الحمايدة .

فبسبب قتل فهراب تحركت عدة قبائل ضد بني طي ، والوهّابي نفسه تصدى لهم ، وكثرت الأعداء وتواصلت الحروب وسُفِكَتْ دماء كثيرة ، وابتدأ الوهابي بالكيد لهم والغارات عليهم وعلى من يلوذ بهم من القبائل ، وحصل لهم ضيق[3] شديد وتعب كثير وحروب ، حتى اضطروا أن يهربوا ويأتوا عند الدريعي كي يحموا حالهم من نار الوهابي ، لأنهم كانوا سمعوا بالنظام الجديد وبأحوال الدريعي . فحالاً جمعناهم وقرأنا عليهم ورقة الشروط فقبلوا بها ورضوا ، و وضعوا ختومهم وأسماءهم بكل قبول ورضى . وهم شطي ابن فارس ، شيخ قبيلة الحمايد[4] ، عشيرته تحتوي على ألف وخمس مئة بيت ، عوض ابن مطلق ، أمير قبيلة الضفير ، عشيرته تحتوي على ألفين وثلاث مئة بيت ، وأيضاً سلامة ابن براق شيخ قبيلة/ ٩٨/١ العجاجرة ، عشيرته تحتوي على ثمان مئة بيت وأيضاً خُنْكار العُلَيْمي ، أمير قبيلة الخزاعل[5] ، قبيلته تحتوي على ثلاثة آلاف بيت ، وأيضاً الحميدي ابن تامر ، أمير قبيلة بني طي ، عشيرته تحتوي على أربعة آلاف بيت .

ومن بعد هذا رحلنا ، وابتدأ التقدم إلى نواحي المشرق بكل قوة ، إذ صار حزبنا كبيراً وازداد جداً ، وتحققنا عندئذ بنجاح أمورنا وإتمام مقاصدنا . ثم قبل وصولنا قريباً من بغداد ضرب العرب قافلة آتية من حلب إلى بغداد ، جميعها من أموال حلب وأموال بلاد الإفرنج ، من جوخ وطربوش ودوده ومرجان وكهربا وخرز وغير وغير . كذلك باعوها للمشترين بأرخص ثمن ، كما باعوا أرزاق القافلة التي نهبوها سابقاً . فبسبب نهب هاتين القافلتين قد تحرك وزير بغداد في طلب الأرزاق من العرب ، وأرسل بولردي إلى ضويحي ، شيخ مشايخ فدعان يطلب الأرزاق منه لأن المذكور وعشائره هم الذين ضربوا القافلتين . فحضر المذكور عندنا واستشار الدريعي بذلك ، فكان جواب المذكور : لا تخف وأجب الوزير بكل شجاعة وقساوة . ففعل ذلك وأرسل الجواب . فتغير خاطر الوزير وأراد أن يجهز عساكره على العربان فمنعه المدبّرون ، وأعلموه أن الدريعي تصالح[6] مع ضويحي ، وهو الآن موجود بالقرب من بغداد ، وبصحبته عربان لا تعد ولا تحصى تضيق بها الأرض لكثرتها ويخشى منها على العسكر الذي سيطلع . فمن هذا الخبر ارتجّ قلب الوزير وما حرّك بعد ذلك ساكناً .

---

(٣) « ديق » .

(٤) ويكتب الصايغ أيضاً : الحماميد ويريد الحمايدة .

(٥) « الخذاعل » .

(٦) « طيّب على ضويحي » ، طيّب على الفلان ، بالاصطلاح البدوي ، معناه تصالح معه .

[مع عرب العجم والهند]

أما نحن فلم نزل سائرين وقطعنا الدجلة من مقطع يقال له **أبو علي** ودخلنا طبراق العجم. وكان معنا نحن عشرين قبيلة من العرب. ولم يزل يزداد عدد القبائل، إذ صارت المسألة غيرة بين العربان وأصبحوا يأتون ويطلبون الاتفاق معنا من غير أن ندعوهم. ولم نزل بالتقدم في تخوم العجم حتى بلغنا/أرضاً يقال لها التعلبية، واسعة عظيمة من طبراق العجم، ٢/٩٨ فنزلنا بها. وهنا حضر صاحبنا صقر ابن حامد، شيخ قبيلة المُضَيَّان الذي كنا ذكرناه سابقاً. فهذا [الأمير] لم يغرّب، كما قلناه، خلال كل هذا الوقت، إذ رأى من **الأفضل**، حين افتراقه عنا، أن يتقدم إلى أواخر طبراق العجم ويصل عند الأمير الأعظم **سعد** البخاري، رئيس قبائل عرب الهند، الذي يقيم دائماً في أواخر طبراق العجم على حدود الهند الشرقي[1]، وتسمى بين القبائل عرب الهند. فهذا الأمير الأعظم من طائفة قديمة جداً، وقد أعلمنا العرب أنه إلى الآن يوجد في بلاد الأندلس (يعني اسبانيا) عرب بالبر يسمون عرب البخاري، من سلالة[2] هذا الأمير، وذلك من الزمن الذي أخذ ملوك بني العباس بلاد اسبانيا. وعلى قولهم لم يزل إلى يومنا هذا موجود من سلالتهم في برية اسبانيا.

وأعلمنا [الشيخ صقر] أنه وصل إلى عنده وأفهمه المادة سراً لذاته فقط، وربط معه

---

(١) كذا، ومن الواضح أن الصواب: الغربي.

(٢) «سليلة».

رابطة متينة جداً وأثار محبة بينه وبين الدريعي عن بعد ، وبقي سعد باشتياق لرؤية الدريعي وانتظار قدومه عنده . فسررنا[٣] جداً من هذا الخبر ، إذ كنا نفكر جداً بهذا الأمر ومهتمين به ، لعدم معرفتنا إذا كان سعد وقبائله سينجذب إلى طرفنا ، فليس هناك معرفة سابقة بينه وبين الدريعي ، ولا حدثت مكاتبة بينهما قط . وكان الناس يقولون عن سعد وتلك العربان أنهم جماعة غليظو العقل والفهم ، سمجو الأطباع ، وكانت هذه الفكرة تقلقنا جداً ، لأننا إذا لم نستطع أن نجذبهم إلى طرفنا ونضمهم إلى اتحادنا يحصل لنا تعب ، ويصبح الدخول إلى أرضهم عسيراً جداً علينا ، ويحيجنا[٤] إلى حروب ومخاصمات وأمور كثيرة . ولكن شكرنا الباري تعالى على هذا التوفيق الرباني ، وتسهيله الأمور معنا من كل الأطراف ، إذ قد هانت المادة جداً باكتساب محبة عرب الهند وصحبتهم . فتحسن الرأي عندنا وعند بعض كبار القبائل أن نتقدم بعض المرحلات[٥] إلى المشرق ، ونرسل إليه بمكتوب مع هجانة ، ونرى جوابه وعلى أي معنى ستكون مكاتبته معنا . فاعتمدنا على هذا الرأي ، وثاني يوم رحلنا بكامل/عرباننا وتقدمنا ١/٩٩ ونزلنا بأرض يقال لها **منزلة صالح** ، بها الماء والمرعى متوفران جداً . فأقمنا بها ثلاثة أيام ورحلنا ونزلنا منزلة يقال لها رِيخ[٦] ، ليس بها ماء جارية بل في حفر . فحفر العرب حفائر بالأرض نحو ذراعين فقط فخرجت ماء عظيمة حلوة باردة . فكل سبعة أو ثمانية بيوت عملوا لهم حفيرة يستقون منها . فأقمنا أربعة أيام ورحلنا ونزلنا بأرض يقال لها **المعدنية** بها مجاري ماء وافرة . ولكن بعد هذه المنزلة ، مدة ثلاثة أيام ، لا يوجد ماء إلى **رام صالح** . فبعد أن أقمنا خمسة أيام في المعدنية نبّه الدريعي أن يأخذوا معهم فائضاً[٧] من الماء ، فملأت جميع العربان رواياها وقربها وأجوادها[٨] ورحلنا . فأول يوم سرنا إلى المساء ونزلنا بأرض يقال لها **الحُرْبَة** ، من غير نصب بيوت ، لأن مرادنا أن نبكّر ونرحل بسبب عدم وجود الماء . وكان بتلك الأرض شكل حيوان صغير بقدر الطبوع أو أكبر قليلاً ولكن يدخل **بالأذنين**[٩] وإذا دخل في أذن[٩] أحد ولم

(٣) « فانبسطنا » .
(٤) « يتكلف » .
(٥) « كم مرحلة » .
(٦) رِيْخ : موضع بخُراسان (معجم البلدان) .
(٧) « أفاذة ماء » .
(٨) جود تجمع على أجودة .
(٩) « دان » والمثنى « دانين » .

يخرجه[١٠] فإنه يتسع، وإن أقام أربعاً وعشرين ساعة يسد الأذن ويطرش الإنسان. فالعربان كانوا يعرفون ذلك الحيوان فنبهوا كل من ينام أن يسد أذنيه. ولكن الشيخ إبراهيم استهتر بذلك ولم يصدق. فدخلت واحدة من [تلك الحشرات] في أذنه وأحس بها، فحصل تعب عظيم حتى أخرجناها بالملاقيط و()[١١]، حتى خرج الدم من أذنه وتعذب كثيراً إلى أن طلعت.

فثاني يوم رحلنا حالاً إلى المساء ونزلنا أيضاً من غير نصب بيوت لأن الماء أوشكت أن تخلص، وعند الصباح لم يبقَ عندنا ماء كلياً. وفي اليوم التالي كان رأي الدريعي أن ينبه على العربان أن يرسل كل بيت جملاً وراويتين يملأهما ماء، من مكان بعيد عنا ست ساعات إلى ناحية الشمال، يقال له ـــــ[١٢]، به جباب ماء. فقال الشيخ ابراهيم أن رأيه، قبل أن يذهب الناس لأجل جلب الماء، أن يحفروا هنا لعل تخرج المياه. فما قنع أحد بذلك. أما الشيخ إبراهيم فإنه بنى استناده [على المشاهدة]، إذ تبين له أن كل أرض التي يكون فيها عشب أخضر، أو فيها عشب كوم متجمعة صغار من عشب يقال له الرَّوْثة[١٣]، /يطلع بها ماء، لأنه تأكد ذلك من الأماكن التي حفروا بها حفراً وخرج الماء منها مثل منزلة ريخ التي ذكرناها سابقاً، قبل منزلة الخربة، لأن عشبها كان مثل عشب تلك الأرض[١٤] وشكل التراب واحد. ثم قال الدريعي: جربوا، لعل في الشيخ إبراهيم روح نبوة، لأن العرب ما كانت قط جربت هذا المحل، فحفروا وبالأمر الذي يريده الله طلعت الماء. ففرح العربان وشكروا للشيخ إبراهيم فضله وفطنته وعقله. وأقمنا بذلك المحل ثلاثة أيام. ولم نزل نرحل وننزل ونمرّ بأراض متعددة الأشكال من صحراء و وعر وجبال وسهل...[١٥] حتى قطعنا بلاد كرمان و وصلنا إلى نهر خرسان، وهو نهر عظيم غدار كبير، بمقدار نصف الفرات. إلا أننا أرجعنا كثيراً من القبائل إلى الوراء لأن لا لزوم لحضورها معنا، فنحن مرادنا التقرب لأجل المكاتبة، وإذا أمكن المقابلة، مع الأمير سعد البخاري. ولم نزل نرحل وننزل ونواجه أثناء سيرنا قبائل عرب التي تقيم دائماً في طبراق عجم استان، وتحت تدبير الأمير سعد وأوامره، في نواحي

٢/٩٩

(١٠) «وما طالعه».

(١١) كلمة غير مقرؤة لأنها مخيطة بجلد المخطوطة.

(١٢) كذا في المخطوطة، أغفل المؤلف ذكر اسم هذا المكان.

(١٣) نوع من العشب يستخرج منه أحسن أنواع القِلْي أو الصودا.

(١٤) «كانت من قماش تلك الأرض بالعشب».

(١٥) عبارة في الهامش لا يمكن قراءتها لأنها مخيطة في جلد الكتاب.

سواحل البحر حيث يكون السهل . ونحن كان مسيرنا بالقرب من ساحل بحر الهند ، لأن جبال العجم أكثرها وأكبرها في وسط الطبراق ، ولأن السواحل سهلة أكثر وإن كان مرعاها أقل من الداخل ، فلأجل سير الجمال يجب أن نلحق السهل .

فمن بعد مسيرنا في طبراق العجم اثنتين وأربعين مرحلة كبيرة ، نزلنا بأرض يقال لها **الهِنْدُوان**(١٦) ، وهناك كان نازلاً أمير يقال له هَبَش ابن معدن ، رجل من كبار عرب ديرتهم ، له قرابة ونسب من الأمير سعد . فحين بلغه قدوم الدريعي ركب وحضر إلى عندنا لأنه كان سامعاً بصيته . فخرجنا للقائه ورحبنا به وصارت المحبة بيننا وبينه . وأما هو فإنه رجل أنيس جداً . فأقام عندنا كل ذلك اليوم ، واستخبر منا عن أحوال ديرة بغداد والجزيرة والحماد والوهابي وعربستان(١٧) . وكذلك نحن استخبرنا منه عن أحوالهم ، وعن الأمير سعد ، فقال لنا : أن الأمير سعد نازل الآن في محل بالقرب / من حدود الهند ، يقال له مِراح **طِهْماز** ، وبيننا ١٠٠/١ وبينه تسع مراحل كبيرة ، فإن شاء خاطركم الوصول إليه ، أرسل معكم دليلاً يوصلكم إليه لأنكم قط ما جئتم إلى ديرتنا ، وتجهلون الأراضي والمياه ، فقبلنا ذلك . وبعد يومين توجهنا برفقة دليل ، وأتى معنا قليل من القبائل لأنه ليس من الضروري أن تحضر معنا ، وكان قَرُبَ انتهاء فصل الشتاء وقادمٌ فصل الربيع(١٨) ، ويجب أن نكون وقتئذ في نواحي العراق وبلاد سورية . ولهذا السبب لم ندعها تحضر معنا ، بل توجهنا فقط مع خمس قبائل ، منها قبيلة المُضَيَّان التي شيخها صاحبنا صقر ، وقد صار له معنا تعب كثير .

ثم جدينا بالسير ، وكل يوم مرحلة ، البعض منها فيها مياه والبعض منها خالية من المياه . فكل مرحلة نحن قادمون عليها ليس فيها ماء ، تحمّل العربُ الجمالَ ماء ، ما يكفينا ويزيد عن حاجتنا . وكان بوسعنا أن نجد دائماً الطرق التي فيها ماء ، لأن العرب تعرف دروباً كثيرة يوجد فيها الماء يومياً ، ولكن أولاً إنها بعيدة ، وثانياً لا يوجد فيها مرعى للجمال ، ويجب أن تكون الدروب موافقة من الطرفين ، أي أن تكون صالحة للماء والمرعى ، والألزم عند العرب وعند الجميع المرعى ، لأن الماء يحمل وأما المرعى فلا يحمل . وحين بقي لنا ثلاث مراحل ،

---

(١٦) الهِنْدُوان : نهر بين خوزستان وأرّجان عليه ولاية . (معجم البلدان) .

(١٧) « عرب بستان » .

(١٨) شتاء سنة ١٨١٤ بمقتضى سياق الحديث ولكن إذا سلمنا أن موقعة حماة جرت سنة ١٨١٢ استناداً إلى ما جاء في كتاب اوغُسْتُ دي نرسيا ، عامل نابوليون ، كما ذكرناه في المقدمة ، فإن الصايغ يتكلم عن شتاء سنة ١٨١٣ .

أرسلنا مع هجان ، من عرب ديرتهم ، بمكتوب للأمير سعد من طرف الدريعي ، للسؤال عن خاطره والسلام عليه ، ومضمونه أننا جئنا من بلادنا خصوصاً لأجل رؤيتك ، وربط المحبة والصحبة والمعرفة معك . ثم رحلنا أول يوم وثاني يوم ، وفي الثالث ، وهو اليوم الذي سنصل فيه عنده ، في منتصف النهار ، إذ بالغبار معقود من صدر البرية كأنه غمامة ممطرة . واسود وجه الأرض من جهامة العربان المقبلة علينا . فحسبنا لذلك حساباً كبيراً وظننا أن قوماً أعداء قد أتوا لقتالنا . فاستعدينا للحرب ، إلا أننا كنا قليلين فندم الدريعي عندئذ كل الندم ، لأنه طلب من القبائل أن تعود ، ولم يدعها تحضر معنا ، لأنها كانت تعيننا إذا حدث لنا أمر .

٢ / ١٠٠ فوقفنا في محلنا والتمت عرباننا بعضها على بعض ، ولم يبق لنا/جراءة[١٩] على التقدم إلى الأمام ولو خطوة واحدة . فقال الدليل الذي جاء معنا من طرف الأمير هبش : أنا أذهب وأكشف لكم خبر هذا القوم . وبالحال غار من بيننا كأنه الصاعقة فوصل عندهم وبعد قليل ارتد وقال : « ابشروا تراه الأمير سعد بعربانه آتياً للقائكم » . ففرحنا بذلك واطمأن قلبنا ، وحالاً ركض الدريعي وأولاده وكثير من كبار قبائلنا والشيخ إبراهيم وأنا للقائهم . وكذلك سعد وكبار قبائله ركضوا لملاقاتنا ، واجتمعنا مع بعضنا بين الصفين ، وسلمنا على بعضنا ، وأمر سعد بنصب البيوت في تلك الأرض لأنها منزلة متسعة للجميع ، وهي على نهر عظيم يسميه العرب جيستان يبعد عن حدود الهند نحو عشرين ساعة فقط ، بالقرب من بلد هي آخر بلاد العجم يسمونها المنونا . فنزلنا جميعنا هناك ، ودُعِينا عند الأمير سعد نحن وكامل من معنا من أمراء ومشايخ وكبار القبائل ، مدة ثلاثة أيام على تشقرة الأمير سعد . وأما المذكور فهو رجل بلغ من العمر نحو خمسين سنة ، وله أربعة أولاد شباب وبنت واحدة فقط . وأما بالرجولية[٢٠] فهو مشكور جداً بين العربان ولكن بالكرم[٢١] . وهو من بيت قديم وطائفة كبيرة مشهورة بالكبر والحكم والإمارة ، وذلك من قبل دولة العباسيين في بغداد ، وصوته مسموع من قبائل كثيرة ، حتى عرب الهند تتبع صوته ، وله عندهم اسم كبير مشهور من قديم الزمن .

ثم كل يوم كنا نعمل معه خلوة ونتكلم ، حتى فهم المادة جيداً ودخل في عقله مطلوبنا ، فوافق على ذلك وسُرَّ جداً إذ قال : على ما أعلم أن جميع أهالي بلاد الهند غير راضين على حكامهم اليوم ، ويتمنون أن تحدث أمور مثل هذه لأنهم مظلومون . وأما أنتم فلا تفكروا

---

(١٩) « جرعا » .

(٢٠) « المراجل » .

(٢١) كذا ، والعبارة غير كاملة .

بشيء فإني أقدم للجيش[٢٢] جميع ما يلزم ، وإذا اقتضى الأمر فإني أرسل من عندي أناساً وجمالاً وذخائر لملاقات الجيش[٢٢] . فأنا معكم على كل ما تريدونه من العمل . ثم قرأنا ورقة الشروط ، فسُرّ منها جداً . ولكنه ما وضع اسمه ولا ختمه بها ، بل عمل لنا ورقة ثانية خاصة به لنا ، ووضع اسمه وختمه بها وكانت بهذه الألفاظ/: ١٠١/١

بسم الله الرحمن الرحيم ، أقول أنا سعد بن بدر بن عبد الله بن بركات بن علي البخاري رضي الله عنه ، هو أني قد رهنت لساني بقول ثابت لدى حافظين هذه الورقة ، بأن أكون موافقاً لهم ومتحداً معهم وقابلاً بشروطهم المرقومة في ورقة عمومية غير هذه ، وأكون مساعداً ومعيناً لهم في جميع ما يريدونه ويبغونه ، وأكون حافظاً لسرهم وعدواً لعدوهم وصاحباً لصاحبهم . وقد أعطيت هذه الورقة حتى يكونوا مطمأنين من طرفي ، ومتأكدين من كلامي ، والسلام على سيدنا ومولانا الأعظم ، فحل الرجال ، الإمام الغالب علي بن أبي طالب رضي الله عنه والسلام. ثم وضع توقيعه وختمه ودفعها لنا .

فأقمنا مع بعضنا ستة أيام بإكرام زائد ، ونحن دائماً معه ومع كبار قومه في حديث ومحبة ودعوات . النتيجة حصل لنا منه جبران خاطر عظيم . وأما بخصوص طباعهم فهي تختلف عن مزايا عربنا ، وذلك حاصل من اختلاف المناخ والمياه . ومن ذلك ، على سبيل المثال ، إن أكلهم أقل من عرب ديرتنا ، وطباعهم ألين من طباع عربنا . وأما من حيث الشجاعة والفروسية والخيولية[٢٣] فإن عربنا أنشط منهم . وأما من حيث الكرم ، فإن عربنا ، على وجه العموم ، أكرم منهم ، ولكنهم أكثر طمعاً منهم . إذ ليس عند رجالهم طمع على الإطلاق . وأما تعاملهم مع أهالي بلادهم فهو قليل جداً ، لأنهم يحبون أن يتجنبوا المدن ، ويرغبون عن معاشرة أبناء البلاد . وأما سلاحهم فالرمح والسيف والكلنك[٢٤] الحديد والترس مثل عربنا ، غير أن بارودهم بقداحات وليس بفتيل مثل عربنا وعرب الوهابي .

ثم ودعناهم وصافحنا جميع الأكابر ، وتواعدنا أننا عن قريب إن شاء الله سوف نرى بعضنا ، ورجعنا إلى بيوتنا . وإذا بالأمير سعد يرسل رأسي خيل عظيمين ، مع عبدين ، كل واحد منهما يجر فرساً ، والخيل والعبيد هدية للدريعي . فوجب على المذكور أن يعود عنده

---

(٢٢) «الأرضي» .

(٢٣) يريد ركوب الخيل أو الفروسية .

(٢٤) الكَلَنْك ويقال أيضاً الكَرَنْك سلاح يشبه المطرقة من جهة ومعكوف من الجهة الأخرى .

ويستكثر بخيره ، لأن الهدية عظيمة الثمن ، ثم رجع من عنده وثاني يوم أرسل الدريعي إلى
سعد فرساً/نجدية عظيمة من الخيول المشهورة ، اسمها العدبية ، وهجيناً أملح أي أسود ، ٢/١٠١
مشهوراً بالسير ، أصله من هجن عرب شمر ، لأن هجن شمر مشكورة جداً لسرعة سيرها ،
وكمية من الكهربا والمرجان والخرز وأساور من الزجاج للحريم ، وهذا شيء مقبول عندهم
جداً .

وفي اليوم الثاني نادى بالرحيل وقمنا وطلبنا الرجوع إلى ديرتنا . وما زلنا نرحل يومياً
لأننا نريد أن نلحق جانباً من فصل الصيف في بلاد سورية ، إذ كان مضى الوقت وانتهى
فصل الربيع(٢٥) . ثم نزلنا بعض المنازل ، و وجدنا هناك محبنا الأمير هَبَش ، فاجتمعنا به
وسألنا عن أحوال سعد فأخبرناه بالذي جرى وأريناه الورقة ، فسُرَّ جداً وقبل بشروطنا
و وضع اسمه وختمه بالورقة العامة . وقبيلته يقال لها الهوارج تحتوي على مقادر ثلاثة آلاف
بيت ، من القبائل المشهورة بالغنى والاسم .

---

(٢٥) ربيع سنة ١٨١٤ بمقتضى سياق الحديث ، ولكن الأقرب إلى الصواب أن المؤلف يريد ربيع سنة ١٨١٣ ، أي الفصل المعتدل من السنة ، لا الربيع على حسب التقسيم السوي ، أما الأشهر الحارة فتبدئ ، في هذه الأقاليم ، منذ شهر نيسان .

[كبير أمراء عرب العجم]

وكان أخبرنا بعض العربان ، قبل رحيلنا ، أن في ديرة كَرْمان يوجد أمير عظيم من العرب يقال له الرُّدَيْني ابن خُنْكار ، رجل معروف من طوائف العرب والعجم ، لأن له صلة بحكّام بلاد كرمان وحتى مع الشاهات ، وهو دائماً مقيم في بريّة كرمان مثل المحافظ لساحل بحر بوغاظ العجم . فقال الشيخ إبراهيم : نحن بحاجة لهذا الرجل ولا بدّ لنا منه ، لأن دربنا عليه وليس لنا غير طريق ، وإذا ما كان متحداً معنا ، فلربما يستطيع أن يمنعنا بوساطة الشاهات والعساكر ، أو يحصل اتفاق بينه وبين أعدائنا المعلومين سكان الهند[1] . وعلى كل حال من الأصلح أن يكون متحداً معنا من أن نبقيه هكذا خارجاً عنا ، ولكن كيف الطريقة . فقال الأمير هبش : ليس هناك إلا طريقة واحدة . فاعلموا أن الرديني لا شيء يفزعه على وجه الأرض غير الأمير سعد ، ولا يمكن أن يقبل رأي أحد أو يطيع لأحد ويتّحد مع أحد ، لأنه أولاً جبار وليس بين العربان من هو أكثر تجبراً منه[2] ، ثانياً عنيد ، ثالثاً دموي . فهذا ما له طريقة إلا بوساطة الأمير سعد البخاري لا غير ، اللهم إلا إذا أردتم أن تتركوه وشأنه الآن إلى أن تعودوا فيدبر الله الأمور/. فقال الشيخ إبراهيم : لا يمكنني أن أغادر هذه الديار وأُبقي أميراً ١٠٢/١

---

(١) كذا والمعنى غير واضح ، فهل يريد الصائغ أن يقول : وبين أعدائنا الذين يعرفهم ساكنو الهند ، أو يريد أن يقول : وبين أعدائنا الذين يسكنون الهند ، أي الإنكليز ؟ .

(٢) « ما بين العربان أجبر منه » .

مثل هذا بالطريق عدواً[٣] ، بعد أن فهمت صفاته وصارت طباعه عندي معروفة . فرجل مثل هذا يجب اكتساب محبته قبل كل شيء . ففكرنا بالأمر ولم نجد طريقة إلا باحضار رسالة من الأمير سعد ، كي يصير واسطة للتعرف به . فكان رأي الشيخ إبراهيم أن أرجع أنا عند سعد . ولكن الدريعي لم يستصوب هذا الرأي ، خوفاً عليّ من عربان تلك الديرة غير المعروفين منا أن يقتلوني . فلزم أن أحرر مكتوباً إلى سعد من طرف الدريعي وطرفنا ، مضمونه السؤال عن خاطره ومدحه وأسفنا على فراقه[٤]وعرفناه بعد ذلك مادة الرديني ، وطلبنا منه مكتوباً إلى المذكور ، على حسب حسن معرفته ، لكي يصير واسطة المحبة وعقد الصحبة معه . وأرسلنا المكتوب مع هجان شاطر من عرب الأمير هبش ، وتواعدنا مع الهجان إلى محل معلوم . وثاني يوم رحل هبش بكامل عربه . فودعناه واستكثرنا بخيره على تعبه معنا . وابتدأنا نحن نرحل رويداً رويداً منتظرين قدوم الهجان . وكان مضى على ذهابه ثمانية أيام ، وكنا دخلنا في طبراق بلاد كرمان ، وإذ وقع الصوت[٥] ، فركبت الخيل وطلبت صوت[٥]الرعيان . وكانت غارة علينا من عرب الرديني يريدون أخذ طرشنا[٦] . فوصلت خيلنا وصارت الحرب بشدة نحو ساعتين من الزمن ، فما استطاعوا أن يأخذوا شيئاً بل انكسروا وارتدوا و وقعت الدماء من الطرفين . فغمنا ذلك ، لأن هذا الأمر يصعب معه الوفق والمحبة فيما بيننا ويبعد الصلح . وبعد يومين وإذ بَرَكْب عظيم مقبل علينا ، وشنّ الغارة على طروشنا لأجل فتح الشر . فركبت فرساننا وركضت رجالنا وتصاعد العفار . وكانوا أكثر منا إلا أن عربنا أشد حرباً منهم وأفرس من فرسانهم . وظهر ذلك اليوم فعل من الدريعي بذاته ما فعله عنتر . وكنا دائماً خائفين أن تأتي عربان ملبية نداءه[٧] ، لأنه يقود قبائل كثيرة ، والمدن قريبة منه ./ ١٠٢/٢

فرجحنا عليهم بالحرب ، ولكننا حسبنا له حساباً كبيراً ، لأنه يستطيع أن يأتي بعربان وعساكر ويضرنا لأننا قليلون . ثم وفّق الباري تعالى إذ نفذ علينا الهجان حين انكسروا ، وانفصلنا عن بعضنا ، ومعه كتاب عظيم من عند الأمير سعد إلى الرديني وكان بهذه اللفظات :

---

(٣) « ضشمان » .

(٤) « وتمجيد له على فراقه » .

(٥) « صوط » .

(٦) الماشية .

(٧) أي نداء الرديني .

بسم الله الرحمن الرحيم، رب الخلق أجمعين، والصلاة والسلام وأعظم التحيات والإكرام على شرف الأئمة وأجملهم، وأكبر الأبناء وأعرفهم، وأحسن الخلفاء وأفرسهم، الإمام الأكبر، الكبريت الأحمر، سيدنا ومرشدنا الإمام علي الأعلى صاحب سيف ذي الفقار، لعن الله من عاداه والويل ثم الويل لمن آذاه وطوبى لم أجاب دعاه وبعد، هذا كتاب من أسعد[٨] البخاري، نسيب الجدين، وأصيل[٩] النسبتين، إلى أخينا الأمير الدريني ابن خنكار، والثاني نعرفكم أنه حضر إلى بلادنا وداس ترابنا أخونا الأمير الدريعي ابن شعلان، من سكان ديرة بغداد والشام، فحضر من بلاده إلى عندنا، يقصد صحبتنا ومعرفتنا، ويريد محبتنا. فحل ضيفاً علينا[١٠] وأكل خبزنا وأجرى المحبة معنا. ونحن أكدنا له [محبتنا]، وصحبناه وأعطيناه كلاماً وثيقاً وصار كواحد منا. فكما استحسنتُ هذا الأمر الذي سيؤول فيما بعد إلى نجاحنا، كذلك أريد منك أن تفعل معه كما فعلتُ أنا، وترى الورقة التي بيده منا، وتعمل بموجبها، وإياك الخلاف فتخرج من خاطرنا، وتكون خالفتَ قول سيدنا الإمام الأعظم كما هو معلوم، وقوله تعالى في الجفر الجامع والنور اللامع لا تكرهون شيئاً فعسى هو خير لكم[١١]. فأنا أعرف أن الاتحاد مع هؤلاء الناس به خير لكم وللعرب أجمعين والسلام.

فأرسلنا بالكتاب حالاً مع الهجان الذي جاء به للرديني، وكان المذكور بعيداً عنا نحو عشر ساعات فقط. وكان معه مكتوب آخر من سعد للدريعي، مضمونه محبة وسؤال عن خاطر وجواب مكتوبنا، وبه يعرفنا بمزايا الرديني، وأنه يحب المكسب والبراطيل. فقال الدريعي: سبحان الله، من جملة مزاياه الرديئة أنه يحب البرطيل ويقبل الرشوة/فالله يعيننا عليه. وقد كنا تأكدنا من مكتوب سعد أن الجماعة روافض[١٢] لأن الإمام علي مكرم عندهم إلى هذا الحد، وهذا شيء معلوم أنهم يحبون الإمام علي كما يحبون الله. وسعد من هذه الملة. والشيء الذي جعله يحبنا ويرضى بالشروط فهو الشرط الأول المكتوب في ورقة الشروط لأنه يشعر بعدم البحث والكلام بأمور الديانة. وقد لاحظنا حين قرأنا له الشروط أنه سُرّ

١٠٣/١

(٨) أسعد، كذا.

(٩) «واصلين».

(١٠) «فانصاف عندنا».

(١١) الآية: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾.

(١٢) «أرفاض».

جداً من الشرط الأول وقال هذا ألزم من جميع الشروط ، لأن هؤلاء الناس لا يحبون من يفتح لهم سيرة ديانتهم ، بل مرادهم دائماً كتمانها ويظنون أن ليس هناك من يعرف أنهم روافض .

ثم بعد ذهاب الهجان بيومين ، وإذ أرسل الرديني خبراً قبل وصوله إلى عندنا أنه آت ليضيفنا . فركب الدريعي وجميع الكبار وأولاد الدريعي والشيخ إبراهيم وأنا ، وكنا نحو ثلاث مئة خيال وركضنا لملاقاتهم . وإذ وصل إلينا الأمير الرديني وكان ركبه من نحو خمس مئة خيال ، كلهم بألبسة مفتخرة وسلاح عظيم وتفنك مفضضة وسيوف ثمينة ورماح رؤوسها مفضضة ، عظام ، أكابر . فاستقبلناه وترحبنا به وجلس . وهو رجل شاب ، عمره نحو أربعين سنة فقط ، لأن والده كان توفي من مدة قصيرة ، وهو ورث الحكم من بعده . وأراد الدريعي أن يعد له غداء ، فما قبل إلا بشرب القهوة . ثم طلب خلوة ، من بعد كلام كثير عن أحوال البلاد وغيرها من الأديار ، وأمور الوهابي ومادة حماة مع المذكور ، وشكر الدريعي على فعله . ثم اختلينا ، وكان بالخلوة هو وابن عمه واثنان آخران من مدبري قبيلته . فقال الرديني : يا إخواننا ليس من الضروري أن أعرف أموراً كثيرة ، أطلعوني على الورقة التي عملها لكم الأمير سعد وأنا على موجبها أعطيكم واحدة نظيرها . فأريناه إياها وقرأنا له الشروط ، فأعجبه ذلك ، وبالحال كتب بيده ورقة مثل ورقة سعد كلمة بكلمة وختمها وقدمها لنا . فقمنا بعد/[13] ذلك لشرب القهوة ، وصار بيننا وبينه محبة وكلام ثابت . فقال الدريعي : يا أمير ، ٢/١٠٣ يجب أن يصير بيننا خبز وملح . فامتنع لأنه رافضي جداً ، لا يأكل من أكلنا . ففهم الشيخ إبراهيم ذلك ، فذهب حالاً وأتى برغيف خبز وقليل من الملح وقال للرديني والدريعي : تحالفوا واعقدا الحلف على هذا الخبز والملح وكُلاهما[14] . فتحالفا عليهما وأكلا الرغيف والملح وحدهما فقط . ثم طلب الرديني الذهاب ، فقدم له الدريعي فرساً من أحسن خيول قبائلنا ، أخذها الدريعي من أحد عرباننا ، وأعطاه بدلاً منها فرساً من عنده وأربعين جملاً حتى رضي . فسر منها الرديني جداً إذ ليس بين خيله نظيرها ، لأن خيلهم ليست مشكورة لا بالحسن ولا بالفعل مثل خيلنا . ثم ودعناه وركبنا معه نحو ساعة من الزمن ثم رجعنا . وكنا استخبرنا عن قبيلته فعرفونا أنها تحتوي على ستة آلاف بيت ويقال لها المَعَازِز ، بارودهم أكثر من رماحهم .

---

(١٣) ابتداء الكراس رقم ١٣ .

(١٤) « وكلوه » .

[العودة إلى بر الشام]

وفي اليوم التالي نبّه الدريعي إلى الرحيل بكل سرعة ، إذ كان دخل فصل الصيف[(١)] ولم يبق لنا عمل يعوقنا في ديار العجم ، لأن كبار قبائلهم التي تجب صحبتها قد اكتسبناها وحصلنا على مطلوبنا . فجدينا بالرحيل يومياً ، والمرحلة كانت من اثنتي عشرة ساعة إلى خمس عشرة ساعة ، ولم نزل على هذا الحال حتى دخلنا طبراق بغداد ، وقطعنا الدجلة وصرنا بالجزيرة . فنزل الشيخ إبراهيم إلى بغداد وجاء لنا بدراهم إذ لم يبق معنا مصرية واحدة[(٢)] . فابتدأت تتوارد علينا أخبار الوهابي ، وبلغنا أن الأمير عبد الله الهدّال رجع عنده مكسوراً ومنهوباً ، وأخبره بالذي جرى عليه من الدريعي عند حماة . فدخله الغيظ والحمق وقرّ رأيه على إرسال جيش عظيم بقيادة ابنه ورؤساء عساكر غير الأمير عبد الله ، لتدمير الدريعي ونهب سورية وربح أهلها ، فمنعه أكابر ديوانه من ذلك ، وأشار عليه واحد من مدبريه يقال له أبو محسن قائلاً : إن كان يمكن أن تعمل طريقة لجذب الدريعي /إلى طرفك واكتساب محبته ١/١٠٤

---

(١) يريد الفصل الحار ، وهو يبتدئ ، في هذه الأقاليم ، منذ أواسط نيسان .

(٢) هل قام الصايغ بهذه الرحلة إلى إيران أم هي من نسج خياله كما يتبادر إلى الذهن عند قراءتها؟ إننا نطعن بصحتها ، إلا أن لاسكاريس نفسه ، في مقال له صدر بعد وفاته ، تحدث عن جولته في البادية وسفره إلى بغداد ثم إلى الممونا (كذا) على حدود الهند الشرقية (كذا) . ويظهر أن العودة من إيران كان خلال ربيع ١٨١٣ ، أي قبيل سقوط نابوليون وبعد انكسار جيوشه في روسيا . ولكن أخبار هذه الحوادث السياسية الهامة ما كانت وصلت إلى السفارات النائية بسبب بطء المواصلات في ذلك التاريخ .

[فيكون ذلك أفضل] ، ولا سيما أن الدريعي أصبح الآن قوياً جداً ، وأنت لك عدو كبير من طرف العثماني ، إذ كان يُشْتَمّ من الأخبار أن محمد علي باشا في على وشك السفر لأجل أخذ مكة والمدينة ، ورد الوهابي إلى بلاده[3] .

فانشرحنا من هذا الخبر وصرنا مطمئنين من طرف الوهابي . ولم نزل سائرين حتى نزلنا منزلة يقال لها مقتل **العبد** وكان نازلاً هناك قبيلتان يقال لهما النّعيم والبَقّارة[4] . فحضر مشايخهما عندنا ، ويقال لشيخ قبيلة النعيم فهد ابن صالح ، عشيرته تحتوي على ثلاث مئة بيت فقط ، عشيرة صغيرة ، كذلك [يقال لشيخ قبيلة البَقّارة] سعدون ابن والي ، عشيرته تحتوي على ألف ومائتي بيت . كذلك بعد مرحلتين حضر عندنا عليان ابن نجد شيخ قبيلة بو حربا ، ودخل بالاتحاد و وضع ختمه واسمه ، وعشيرته تحتوي على خمس مئة بيت .

---

(٣) من المعلوم أن الجيش المصري احتل المدينة المنورة في شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٢ .

(٤) « البكارة » .

[رسالة من عبد الله بن سعود]

ثم رحلنا وقطعنا الفرات من مقطع بالقرب من بلد يقال لها **هيت**، وصرنا بالحمّاد، قاصدين تدمر وبر الشام، وإذ مقبل علينا هجان وبصحبته مكتوب إلى الدريعي من عند الوهّابي من غير ختم، هذا من جملة عاداتهم[1] أنهم يبقون مكاتيبهم مفتوحة من غير ختم. وكان طول المكتوب نحو شبر وعرضه ثلاث أصابع، وهذا من جملة نظام الوهّابي أن يصغر مكاتيبه حتى تكون بضد مكاتيب العثماني وفرماناته الكبار. وكان بهذه الألفاظ لا غير:

بسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد، خالقك ومفرق أصابعك، من بعد أن نقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له. من عبد الله ابن عبد العزيز ابن عبد الوهاب ابن سعود[2] القائم بسيف الله على القوم المشركين، لإشهار حقيقة الدين[3]، إلى ولدنا الدريعي ابن شعلان أهداه الله إلى الصراط المستقيم أمين. نعلمك يا ابن شعلان إن كنت تؤمن بالله وحده ولا تشرك به أن تطيع أمر عبد الله، القائم بأمر الله، وتحضر حالاً إلى عندنا وترفع من بالك كامل الوساوس، وأنت عندنا بأعز منزلة وقبول،/فقد صفحنا عن جميع زلاتك، وغفرنا وسامحنا كامل سيآتك[4]. فإن حضرت إلى عندنا جعلناك واحداً منا. وإياك والعناد فإنه ٢/١٠٤

(١) أي عادات الوهابيين.

(٢) كذا والنسب خطأ، والصواب: عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود.

(٣) «لاشتهار حقيقة والدين».

(٤) «سيادتك».

من أعظم الكفر ، والسلام على من أجاب المطلوب وجُعِلَ من أهل الجنة محسوب ، والامضاء الرهوب(٥) من الله ابن سعود عبد الله(٦) .

فابتدأنا نتشاور ورأينا من المستحسن أن يذهب الدريعي عنده لعدة أسباب : أولاً لأجل الكشف عن أخباره ورؤية بلاده والاستفهام عن أحواله ، ثانياً ربما نستطيع أن نبرم الصلح معه لأن الصلح معه يومئذ أحسن بكثير من عداوته ، لأننا أصبحنا أقوياء وصرنا حزباً كبيراً ، لذلك تأكد عندنا أنه يرضى بالصلح معنا مثل قِرْنين مع بعضهما ، ولكنه ما كان في أول الأمر يرضى بهذه الصفة لأننا كنا ضعفاء ، بل كان مراده أن نكون من جملة رعاياه بإعطاء الجزية(٧) ، وتحت أمره في كل ما يريد ، فما كان بإمكاننا أن نفعل أدنى حركة من مطلوبنا ، ثالثاً لكي نريح القبائل التي تبعتنا من شره ، إذ يوجد دائماً قبائل متفرقة ، كما هي عادتهم بالبادية(٨) ، فيقوم بعمل أذيات لها ، [وبالصلح] تكون آمنة على نفسها من طرفه ، وغير ذلك من أسباب سياستنا وهي عديدة . فاعتمد رأي الدريعي على الذهاب عند الوهابي فقال الشيخ إبراهيم : ما هي نيتك يا ولدي ، هل لك جراءة على التوجه مع الدريعي عند هذا الرافضي ورؤيته الغريبة ؟ فقلت : نعم أتوكل على الله وأذهب ، وإن هي إلا موتة في سبيل الله ، إذ من المعلوم عندي أنه يبغض جنس النصارى ، وإذا لم يفعل شيئاً مع الدريعي فإنه يقتلني أنا ، أولاً لأن قلبه ملآن مني بسبب ما بلغه عني ، وثانياً لأني نصراني عدو الدين . ولكن لا بد لي من الذهاب ولو فاحت من ذلك رائحة الموت ، فإني أحسب نفسي قد متّ وأن [هذه السفرة] من جملة الأخطار(٩) المميتة التي جرت على رأسي . فقال الدريعي : لك بسعري ، لا يحدث لك شيء إلا بعد أن يقتلني أنا . فاعتمد رأينا على ذلك وشاع الخبر فأتى كبار القبائل و ودعونا ، وجهزنا لوازمنا ، ودبرت أموري مع الشيخ إبراهيم و ودعته وداعاً كبيراً وطلبت منه الدعاء ، وأوصيته بوالدتي إن جرى علي شيء يكون نظره عليها . وقبل ركوبنا أمر الدريعي ابنه أن يرحل بالعربان ويذهب إلى حوران إلى أن نحضر عن طريق الحجاز .

---

(٥) « المرهوب » .

(٦) تسنّم عبد الله بن سعود العرش الوهابي ، بعد وفاة أبيه في أيار سنة ١٨١٤ . ولكن جرت العادة أن يشارك ولي العهد والده في الحكم ، لاسيما وأن الحروب كانت ترغم الملك على أن يكون على رأس جيوشه لمجابهة العدو ، فكان يسند أمور الدولة وإدارة العاصمة إلى ابنه عبد الله . ومن البديهي أن الرسالة الأصلية قد بقيت في حوزة الدريعي وأن الصايغ قد أعاد سبكها بأسلوبه العامي البدوي .

(٧) كذا ، ويريد الزكاة .

(٨) « الجول » .

(٩) « قطوعات » .

[السفر إلى الدِرْعِيّة]

١٠٥/١ وركبنا وكان عددنا اثني عشر نفراً لاغير ،/وهم الدريعي ، وابنه سعدون ، وابن أخيه الأمير هجري ، وابن عمه جبل الدريعي ، واثنان آخران من وجوه العرب ، وأنا ، لله عبد ، وخمسة عبيد لاغير كل واحد على هجين . فأول ليلة وصلنا عند عرب يقال لهم بني صلوب[١] الذين صنعتهم[٢] صيد النعام لأجل ريشه ، ويأتون به إلى القرى حيث يبيعونه ، وأهالي القرى يأخذونه إلى بغداد وحلب ودمشق ويبيعونه إلى تجار الإفرنج . وهؤلاء الناس مساكين جداً وفقراء ليس عندهم جمال ولا غنم بل حمير فقط . مأكولهم من لحم الغزلان وملبوسهم جلودها يفصلونها مثل أثواب البادرية[٣] ، بأكام عريضة جداً ، [والثوب] مغلق من الأمام طويل ، يحنو على الأرض ، رؤيتهم تُفْزِع إذ يظن الإنسان أنهم وحوش ، وبيوتهم صغار حقيرة جداً . أما زواجهم فهو مع بعضهم بالمراضاة : متى العريس رضي بالعروس وهي رضيت به . وتقدم العروس إلى أهلها من عريسها نصف ما يصطاده من الغزلان مدة سنة كاملة . وهؤلاء العرب يدّعون أنهم من أصل بني عبس قبيلة عنتر . فلم نتأكد من ذلك ، بل اعتمدنا على أن نحقق ونبحث عنه .

---

(١) الصُّلَبَة أو صُلَيْب (زكريا ، عشائر الشام ، ٢ ص ١١٢ وما بعدها) .

(٢) « كارهم » .

(٣) أي الرهبان الفرنسيسكان ، من كلمة بادري أي بادره Padre ، أبٌ .

ثم سافرنا في اليوم الثاني، ولم نزل جادين بالسير على اطلاق الهجن إلى غروب الشمس. فوصلنا إلى منزلة عرب عظيمة يقال لها رام[٤] بني هلال، بها رام كبير من نبع ماء منحدر من جبل صغير فعمل راماً أمام الجبل. وبعضهم يسمى هذا المكان المذبنة[٥] يعني الحامية، ليس بمعنى السخن ولكن بمعنى الذي يحمي من العدو.

وفي اليوم الثاني جدينا بالمسير أيضاً. وفيما نحن سائرون إذ أقبلنا على بقعة من الأرض صغيرة، نابت بها من شجر الطَرَفة كمثل حرش صغير. فحين اقتربنا منها وقفت الهجن عن مسيرها، فتعجبنا من ذلك ولم ندرِ ما هو السبب، وكل الهجن كانت تنظر إلى ذلك الحرش.

٢/١٠٥ فنزل واحد من العبيد وتقدم/إلى قرب الأشجار وصاح[٦] قائلاً: انزلوا وانظروا إلى أثواب الحيات. فنزلنا عن الهجن وتقدمنا فرأينا أن الأرض والأشجار مغطاة بأثواب الحيات، شيء لا يعد ولا يحصى، أشكال وأشكال، كبار وصغار من جميع الألوان، ألوف ألوف، ربوات ربوات، ولكن ليس بينها واحدة طيبة[٧]، ولكن توجد فقط أثوابها. فظننتُ أنه لم يبق في الدنيا أفعى إلا أتت وخلعت[٨] ثوبها في هذا المحل. وشكرنا الله لأننا ما رأيناها طيبة لأنها كانت بالحقيقة أكلتنا، إذ كان بين الأثواب أثواب حيات كبيرة جداً بقدر ثخن غنمة (؟)[٩] المركب.

ثم رجعنا ركبنا وجدينا بالمسير إلى المساء، فما وجدنا عرباً، فنمنا بالخلاء، وأكلنا مما معنا من الزاد إلى الصبح. وفي اليوم التالي جدينا بالسير، وقبل العصر أقبلنا على نزل عرب عظيم لا يعرف أوله من آخره، فاستخبرنا من الرعيان عنه فقالوا هؤلاء عرب شمّر، وأميرهم اسمه نجم الضرغام. فوصلنا إليهم ونزلنا في بيت المذكور، فاستقبلنا بالترحيب والإكرام، وكل أنس و وداعة. وهذه كانت أول قبيلة نراها من أتباع الوهابي، وهم وهابيون أيضاً. فقبل كل شيء أخفينا غليون التوتون لأن التوتون، كما هو معلوم، محرم عندهم جداً، ومنعه الوهابي بكل شدة وصرامة، والذي يلاحظون عنه أو يرونه يشرب التوتون فليس له مغفرة ولا رجاء ولا سماح،

---

(٤) الرام نوع من الشجر، والظاهر من كلام الصائغ أنه يعني الواحة أو الحرش.

(٥) كذا، ولعله يريد المذيبة.

(٦) «عيّط».

(٧) على قيد الحياة.

(٨) «شَلَحتْ».

(٩) لعله يريد صاري المركب.

وقصاصه القتل والموت السريع ، وهذا كان عندنا معلوماً من السابق . ونحن أربعة من ركبنا نشرب التوتون ، ومعنا غليون واحد صغير لأننا كنا حاسبين هذا الحساب . فاستخبرنا تلك الليلة من الأمير نجم عن أحوال الوهابي ، وفهمنا منه برمز العين أن أرواحنا عنده في عين ١٠٦/١ الخطر لأنه غَدّار ، ويستعمل الخيانة بعض الأحيان./فمن هذا الخبر قد ارتجت قلوبنا وندمنا على الحضور عنده . ولكن قال الدريعي : لا بد من الوصول إلى عنده ولو كان منتهى حياتي على يده ، لا يمكن أن أرجع من غير الوصول إلى عنده .

ومشينا في اليوم التالي إلى المساء وتقابلنا مع قبائل عرب كثيرة لأننا دخلنا في أراضي نجد ، وهي وديان وجبال وسهول ومياه ، وبها قرى لم تزل مسكونة ، والعرب المقيمون بها يزرعون ويفلحون . وبها أيضاً بلاد قديمة متهدمة ، كانت في السابقة عامرة ومملكة عظيمة في زمن بني هلال الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، وأراضيها جيدة ، وبها فواكه ، وأكثر ما يوجد فيها البلح وله لفة عظيمة ، [وبها أيضاً] قبائل عربان أشكال وأشكال لا يعلم عددها غير رب السماء . فالجميع من أتباع الوهابي وعلى مذهبه . وكنا دائماً نسمع عن مزاياه الرديئة ، وظلمه لعربانه ، ورداءته وترفضه وقلة الوداد له في خواطر عربانه ، لأنه غير محبوب عندهم من ظلمه لهم .

فمن بعد أربعة عشر يوماً من حين خروجنا من عند أهلنا ، إذ أقبلنا على نخل الدرعية ، ودمنا نمشي نحو أربع ساعات بين النخل الملتحم بعضه ببعض وحامي البلد ، وهو نافع جداً لها لمنع العدو . فلم نزل نمشي إلى أن وصلنا إلى باب البلد فوجدنا دائر البلد تلالاً سوداء صارت على نعت السور ، وكان ذلك جميعه من العجوة القديمة التي تتكدّس[١٠] من سنة إلى سنة ، يرمونها خارج البلد على بعضها ، ومع المداومة فإنها كثرت وتراصّت على بعضها وصارت حصناً للبلد كمثل النسياج . فدخلنا البلد وهي مركزة على جانب واد ولها أبواب تغلق كل ليلة مساءً وتفتح عند الصباح[١١] . ولم نزل سائرين إلى السرايا فدخلناها فإذا هي سرايا واسعة جداً ، حجرية على طابقين .

---

(١٠) «تنعكس» .

(١١) «بكرا» .

[بين يدي ابن سعود]

ثم حالاً أخبر [الحرس][1] ابن سعود أن الدريعي قد حضر، فأمر بقُناق[2] داخل السرايا فأدخلونا إلى محل نظيف مفروش وأتوا لنا حالاً بالغداء. وقريباً من العصر طلب الدريعي عن يد واحد [أن يستأذن لمواجهة ابن سعود فكان الجواب أن]/يتوجه الدريعي ومن معه لمواجهته من غير طلب إذن، إذ لم تجر العادة بذلك. فدخلنا إلى المكان الذي كان جالساً فيه، وكان عنده جمع كبير من خواصه. فسلمنا عليه، كل واحد منا وحده، من غير أخذ يده ولا تقبيل أذياله على حسب عادات العثماني، بل حين دخولنا يؤشر كل واحد بيده عليه ويقول السلام عليك يا ابن سعود ويجلس، والعبيد فقط قائمون على أرجلهم. وهو جالس في صدر المحل، عمره نحو خمس وأربعين سنة بلحية سوداء، وعليه قنباز أبيض من القطن، وزنار شاش أبيض من القطن أيضاً، ومشلح حساوي[3] أسود غطش[4] من غير قصب، وعلى رأسه كوفية ولفة من القطن، قلم أبيض وقلم أحمر رفيع يسمونه دسمان، وبيده محجلات من شجر المحلب. فهذا ملبوسه دائماً لا غير، إذ حرام عنده اقتناء الحرير والأشياء

٢/١٠٦

(١) «أخبروا».

(٢) شِقة؛ نزل.

(٣) «حصاوي».

(٤) غامق السواد.

المفتخرة الملونة. وأما المحل الذي هو الديوان، فهو مفروش بالحصر، وسجادات الصوف، ومخدات وجوهها صوف، من شغل اليمن لا غير.

فبعدما جلس الدريعي ابتدأ يسلم عليه بهذا الكلام. عساك طيب يا ابن سعود، عساك عدل، لعلك مبسوط[٥] وهو يرد عليه: لله الحمد طيب يا ابن شعلان، ولكن بوجه عبوس يرد السلام. ثم جلسنا نحو نصف ساعة، فما أمر بالقهوة ولا تكلم، فهذه علامة الغضب.

فبعد ذلك قال له الدريعي: ما لي أراك يا ابن سعود عابساً فينا ولا تتكلم معنا؟ نحن وطأنا محلك والآن عندك، فتكلم بالذي في قلبك علينا. فردّ عليه الوهابي قائلاً: أنت عليك ذنوب كثيرة، وأفعالك لا تغفر، أولاً عصيتَ علي، ثانياً ضربت قبيلة بني صخر التي في بلاد الجليل مع علمك الأكيد أنها تلوذ بي، ثالثاً أفسدت العربان علي وجعلتَ لك حزباً ضدي، رابعاً/ كم وكم من الغزوات التي أرسلتها أنا فطلعت ضدها وضربتها وسفكت دماءها وعطلتها عن أوامري، خامساً قوّيت الروم يعني العثمانيين عليّ في مادة حماة، وكسرت عرباني وأخذت أموالها وسفكت دماءها حباً بخاطر العثماني، الذي هو أكبر عدو لله من القوم المشركين، شرابي المنكر، لوطيين[٦]، وغير وغير أشياء لا تعد من التي فعلتها ضدي وقصدْتَ بها تدميري وخرابي. فإذن مالك عندي سماح أذهب إلى قُناقك.

١٠٧/١

فاحمرت عيون الدريعي، ودخل عليه الغيظ والحمق، ونهض قائماً وتوجهنا جميعنا إلى قناقنا، وجلسنا في تفكير و وسواس أشكال وأشكال. وتجنبنا جميع الناس الذين كانوا عرفونا، ولم يبقَ أحد يقترب مننا، ودخل علينا باب الخوف و وقع بنا الندم على رمي أرواحنا بيده، وصرنا نلوم بعضنا بعضاً على ما فعلنا، وصارت الناس تتحدث بقلة عقولنا وحضورنا إلى عنده، لأن الجميع كانوا على يقين وتأكدوا أننا مقتولون من كل بد، ودون أقل شك، لمعرفتهم بطبع السلطان، [فهو] غدار، مكار، خائن، دموي، مترفض. فأقمنا تلك الليلة وذلك النهار من غير أكل ولا شرب، ولم يدخل أحد علينا خشيةً، لأننا صرنا من المغضوب عليهم، حتى أننا ما كنا نجرأ أن نخرج خارج المنزل[٧]، وحرم علينا النوم من شدة الفكر

---

(٥) مسرور.

(٦) «لواطية».

(٧) «المنذول».

والوهم. وما كنا نندم على ما مضى إذ ما كان ينفع الندم، بل صارت أفكارنا إلى الوسيلة التي تمكننا من الخلاص من يد هذا الظالم. فثالث يوم، أرسل الدريعي واستدعى رجلاً يقال له أبو السلام، من أحد مدبري الوهابي. فحضر المذكور، وهو رجل طاعن بالسن حسن الأخلاق، فترجاه الدريعي أن يذهب من طرفه عند ابن سعود ويقول له هكذا: «يقول لك الدريعي: الذي في خاطرك افعله عاجلاً، ولا لوم عليك إذ ما لك ذنب، فهو باختياره رمى

١٠٧/٢ بروحه بيدك». فتوجه أبو السلام/وتكلم بذلك. فما ردّ جواباً بل أرسل خمسة وعشرين عبداً مسلحين يرصدوننا على باب المنزل لئلا نهرب. فصرنا تحت الحوطة[٨]. فاشتد علينا الوسواس إذ كنا دائماً منتظرين الموت. فأخذت ألوم نفسي على حضوري، ورميي حالي في مثل هذه المهالك الملعونة التي لا لزوم ولا حاجة لها، فقط لأجل البحث وكثرة الغلبة. فأقمنا يومين تحت الحوطة والأفكار المتنوعة، فكثر الغم على الدريعي وضاقت أخلاقه وكاد يقتل نفسه من شدة قهره، إذ هذا شيء ما قط ذاقه ولا جرى عليه، من بعد حريته وإمارته وكبره[٩] يصبح تحت الحوطة محبوساً مهدداً بالموت، فيئس من روحه وقال: إنه من المستحسن عندي أن يكون تدبير هذه المادة مع ابن سعود بالكلام القاسي الصارم، وخرق الحجاب معه وكسر الجرة، ومن المؤكد عندي أن بالمعروف [لا تصلح أمورنا] ويتأتى عنه قتلنا[١٠]. فبسبب ذلك، الكلام اللين والرجاء لا تنجينا، وإن هي إلا موتة في سبيل الله، لكم بسعري، فإن متنا نمت كلنا، وإن خلصنا نخلص كلنا. فقلت له: يا أبو سحن، جميع ما قلته صحيح، ورأيك فيه الصواب، ولكن يا عزيزي على ظني أنه يمكن أن تخلصوا أنتم ولكن أنا غير ممكن أن أخلص من يده، أولاً لأن قلبه محروق مني بسبب ما سمع عني، ثانياً إني نصراني عدوه الأكبر فكيف يمكن خلاصي؟ فقال: يا عبد الله وحق باسط الأرض ورافع السماء إن قتلنا لا أدع أحداً يقتلك إلا بعد أن يقتلني أنا وكل من معي، وإن خلصنا لا يكون أحد أمامنا حين خروجنا من هذه البلد إلا أنت، وثق بكلامي والله شاهد على ما أقول. فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله، بالرغم عني أقول افعل يا أمير ما تراه مناسباً

١٠٨/١ لخلاصنا»./.

وبالحال أرسل واحداً من العبيد الذين يحرسوننا ليحضر أبو السلام. فأتى المذكور.

(٨) «اليَسَق»، كلمة تركية، أي الحفظ والمنع والحراسة.

(٩) «كبرته».

(١٠) عبارة الصائغ: «لأن عندي ماكد [=مؤكد] بالمعروف لا تمضي معه إلا تقتلنا».

فقال له الدريعي : يا أبو السلام ، أريد منك ، بحق ذمة[11] العرب ، أن تروح عند ابن سعود وتقول له : الدريعي يريد أن يكلمك خمس كلمات وبعدها افعل الذي تريده يدك ولا تتوانَ[12] . فذهب أبو السلام وقال له ذلك بحضور جمع كبير كان موجوداً عنده . فصار الحاضرون يشيرون عليه أن أرسل وأحضر الدريعي واسمع ما هو كلامه . وإن كنت تريد قتله فيمكنك أن تقتله في أي وقت أردت . فأذن بمواجهته . فحضر أبو السلام مرة ثانية وتوجهنا معه جميعنا ، فدخلنا وسلمنا حسب العادة وجلسنا بآخر الناس . فقال ابن سعود : « ما هو الكلام الذي تريد أن تقوله لي ، تكلم به » . فقال : اعلم يا ابن سعود أنني الآن بيدك ، وليس معي غير أحد عشر نفراً وأنا ، ومن المؤكد أنه لا يمكنني أن أقاتلك بهم إذ من المعلوم عندي أن عندك [مثلهم] ألوفاً وربوات ، فإن نفخت علينا تعملنا رماداً ، وهذا شيء مؤكد . ولكن كن على حذر ، وحياة الله الذي لا يعبد سواه ، من حد أبواب الهند الشرقي[13] إلى العجم والجزيرة والبصرة والحماد وعربستان و[من] بلاد حوران إلى حد أبواب نجد ، كل من لبس على رأسه كوفية يطالب بدمي منك ويأخذ ثأري[14] . فإن كنت سلطاناً حقاً وتدعي بالعروبة ، فمن العيب عليك أولاً الخيانة التي هي صنعة العثماني المشهور بها ، وثانياً الغدر فهو ليس من شأن الملوك الأقوياء[15] بل للعاجزين . فجيوشك كثيرة وسيفك طويل . فإن كنتَ حقاً أنت الوهابي سلطان العرب والحجاز واليمن ، ردني إلى مكاني وخذني بقائم سيفك ، فيكون لك الفخر بذلك . وإن قتلتني بالغدر والخيانة يكون ذلك سقوطاً لفخرك ، وحقارة لشأنك ، وخراباً لملكك وتدميرك للأبد . وأكثر من ذلك ليس عندي ما أقول . فافعل ما تريد يا خاين عهود العرب وبوّاق[16] في من يدعس بساطك ، وسوف تندم ، فما أنا إلا واحد من جملة ٢/١٠٨ ألوف/وصفوف ، إن قتلتُ لا أنقص وإن بقيت حياً لا أكثر ، تسلم طائفة بيت شعلان

---

(١١) إن الحلف بذمّة العرب من أعظم الأقسام ، وأغلظها استناداً إلى الأعراف البدوية ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر المخضرم متمم أبو نويرة :

أدَعوتَــه بالله ثُـــمَّ قَتَلْتَـــه ... لَـوْ هُوْ دعـاك بـذمّـةٍ لَـمْ يَغدُرِ

(انظر كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٥٥ ، .بيروت ، دار الحياة ، ١٩٥٧) .

(١٢) « وما تطوّل » .

(١٣) كذا ، والصواب الغربي .

(١٤) الدريعي يتكلم بهذا الكلام لأن جميع العرب الدين دكرهم دحلوا معه بالرباط وأصبح رئيسهم .

(١٥) « الطايلة » .

(١٦) الخائن ؛ في مصطلح أهل البادية البَوّاق هو الضيف الدي يخون صاحب البيت الذي أضافه .

وسحن أميرهم، و وراءه عدة قبائل وعشائر لا تعد، جميعها تطالب بدمي، فكن على بصيرتك وافتح عينيك ولا تقل ما أنذرتك على فعلك الرديء معي. فتبسم بضحكة خفيفة وصار يلعب بذقنه[١٧] ثم قال: قم ارجع إلى محلك واسترح، لا يصير إلا الخير. وأمر العبيد إلا يعودوا إلى الحوطة علينا. فرجعنا إلى منزلنا وحالاً[١٨] وصلنا الغداء من بيت أبو السلام. فاطمأنينا نوعاً ما وسكن روعنا. ولما كان الغد استدعانا عنده فحضرنا وأظهر البشاشة والميل إلينا، وأمر بالقهوة لأننا إلى الآن لم نكن قد شربنا قهوته. وبعد ذلك سلم على الدريعي سلام المحبين، وسأله عن الذين معه كل واحد بمفرده، إلى أن صار الدور لي، فقال له: هذا عبد الله الخطيب. فالتفت إلي وقال: أنت عبد الله الخطيب النصراني؟ قلت: نعم أنا هو. قال: يظهر أن فعلك أكبر منك. قلت: نعم يا ابن سعود، وما هذا بعجيب فالرصاصة صغيرة، وتقتل سلطاناً كبيراً. فضحك وقال: قد حققتَ جميع ما قيل لي عنك. ولا أريد منك سوى سؤال واحد أريد أن تجيبني عليه بالصواب وتقنعني. قلت: وما هو؟ قال: هذا الرباط الذي لكم خمس سنوات تشتغلون به ما هي الغاية منه؟ فقلت: يا سيدي هذا شيء واضح كالشمس فنحن بوساطة الحرية عملنا على اتحاد القبائل، وجعلناها روقاً[١٩] واحداً مع بعضها، وجعلنا على رأسها الدريعي ابن شعلان وذلك لامتلاك عربستان كي نكون حصناً لك في وجه الأتراك[٢٠]. قال: قوي مناسب، ولكن لماذا حين حضر الجيش من طرفي منعتوه عن أخذ حماة وبذلتم جهدكم في تدميره/وكسره؟ قلت: صحيح لأن مرادنا أن نملكها نحن لا أن تملكها أنت. وبعد امتلاك عربستان[٢١] وتدبيره وترتيب حكمه كما يجب، فعندئذ نعمل الاتحاد معك ونكون على سوية لأننا جميعنا عرب، وجنس واحد، وحاشا أنك تقسو علينا أو نقسو عليك. ونحن لم تزل هذه نيتنا، وما حضرنا عندك، يا ابن سعود، إلا لأجل إتمام ذلك وربطه، وعقد الشروط الواجبة فيما بيننا، لتقويتنا وتقويتك واتحادنا معك. وبما أن هذه غايتنا فإن الدريعي تكدر جداً نهار أمس وتكلم بكلام غير لائق، لأنه يريد هو تقويتك

١٠٩/١

(١٧) لحيته.

(١٨) وصول الغداء بهذه السرعة إلى عدد كبير من الأشخاص يدل على أن ابن سعود كان أعطى الأوامر بهذا الخصوص قبل أن يتكلم الدريعي معه.

(١٩) «روك»؛ والرَّوْق: القرن.

(٢٠) «في وجه باب الأتراك».

(٢١) في المخطوطة: «بعد امتلاك عرب»، وهذه العبارة لا معنى لها.

ورفع شأنك وأنت قصدت أن تنزل من شأنه وتكسر شيمته أمام الناس. فصدق المغرور[٢٢] هذه الحيلة[٢٣] وسرّ جداً، وصرت عنده في عين القبول وأصبحت مطمئناً على نفسي من ضرره لي فيما يتعلق بأمور الديانة. وما كان هناك واسطة لإقناعه غير هذه الطريقة، أو لنخلص من يده ويجعلنا مقبولين عنده. ثم أمر بالقهوة أولاً وثانياً وثالثاً، وهذا عندهم كرم زائد، وفناجينه كبيرة تطفح بالقهوة الممتازة لأنه هو سلطان اليمن[٢٤]. ولكنني كنت مقهوراً جداً إذ ما كنت أستطيع أن أشرب التوتون، لأن هذا محرم عنده جداً جداً، والذي يشربه ما له قصاص إلا القتل.

ثم توجهنا إلى قناقنا مسرورين. وتلك الليلة دعينا إلى العشاء عند واحد من رجال ديوان الوهابي يقال الحضرموتي[٢٥]، وكان حديثنا تلك الليلة مع المذكور عن أحوال ابن سعود وحكمه، فتبين لنا أن باطناً لا يوجد أحد يرضى به، ولكن بالظاهر فقط. ثم أخبرنا المذكور على تحف وأموال أخذها الوهابي من على قبر الرسول بمكة[٢٦]: شيء لا يوصف، أربعون جملاً محملة ذهباً، وجواهرَ، وقطعَ سلاح مجوهرة، وأشياءَ ثمينة التي تجمعت من حين دفن محمد إلى الآن، [هدايا] من سائر ملوك الإسلام والعرب والأعاجم، فتجمعت التحف والأموال والقطع الثمينة في ذلك المكان. النتيجة شيء لا يثمن، ومن الجملة كرسي مرسل من العجم، مرصع بالجواهر الكبيرة داخلاً وخارجاً لا يستطيع أحد أن يثمنه، ونحو مئتي قنديل/من الذهب ومجوهرات، شماعدين ذهب مرصعة بالجوهر واللؤلؤ الثمين، صناديق من ذهب ملآنة ذهباً، عقيق، وتيجان مجوهرات، وأيضاً جوهر، قطعة واحدة بحجم الجوزة التي كانت معلقة على قبر محمد، النتيجة شيء ما له ثمن ولا يدخل بعقل. فجميع ذلك في خزينة الوهابي سوى الغروش التي يجمعها من الجزية، والأموال من خيل وجمال وغنم وغير ذلك، من البلاد التي تحت حكمه، مثل الحجاز واليمن، وحتى المكان الذي يخرج منه اللؤلؤ هو تحت حكمه، وأماكن أخرى يجمع أموالها ويضع في خزينته بالدرعية. فتأكد لنا أنه أغنى من كافة الملوك، لسبب واحد أن ليس عليه مصروف كلياً. لأن أكثر مصاريف الملوك، كما هو معلوم،

٢/١٠٩

(٢٢) «التيس».

(٢٣) «النصبة».

(٢٤) امتد الحكم الوهابي إلى تهامة اليمن.

(٢٥) «الاضراموطي».

(٢٦) من المعلوم أن قبر الرسول بالمدينة.

على العساكر والسخاير[٢٧](؟) والكسوة والعلف والأكل والجبخانات وخصوصاً في أيام الحروب، فهذه الأشياء جميعها لا تكلفه أي مال[٢٨]، وعلاوة على أنه لا ينفق على رعاياه ولا يخصر مصرية واحدة، فإنه يأخذ منهم الجزية ويكثّر خزائنه.

(٢٧) السُّخْرَة عمل يقوم به الناس دون أجرة.

(٢٨) «ببلاش».

[وصف الدرعية]

ثم ثاني يوم درنا بالبلد. وهي بلدة صغيرة بها مياه وافرة داخل البلد. عماراتها من الحجر الأبيض، تحتوي على سبعة آلاف نسمة، أكثرهم من أقربائه وأتباعه ومدبريه وعقّاده ورؤساء عساكره ومن يلوذ به أيضاً. ولا يوجد فيها سوق للبيع من نوع أكل وشرب، بل كل واحد يأكل من بيته، والغريب يضيفونه عندهم ويتسابقون عليه بالدعوات[١]. وأما صنائعهم فحياكة الخام وشغل المشالح السود والبيض، والدسمانات، والزنانير المقلمات بأبيض وأحمر. وهناك أيضاً دكاكين سيوفية وقندقلجية لأجل شغل التفنك. ودكاكين بياطرة ودكاكين صناع حوائج الجمال ومرجلات[٢](؟) الخيل من لباد/لأنهم يصنعون كثيراً من اللباد[٣]في بلدهم. ١١٠/١

مرؤتهم قليلة، وليس لهم قوة للاستطاعة على الشغل والتعب، بل إنهم يحبون الراحة وقلة العمل ويحبون أيضاً الجمعيات والحديث الكثير ولو كان من غير فائدة، فقط للحكي وتقطيع الوقت. نساؤهم لَسْنَ محسنات كثيراً، وأكثرهن سمر غامقات، والبيضاء كمثل السمراء في بلادنا، يخرجن للطريق وهن مغطيات بمشالح سود إلى فوق رؤوسهن، [واسعة

(١) «عزائم».
(٢) كتابة الكلمة غير واضحة، ولعله يريد سروج أو مسروجات.
(٣) «لأن يشتغلوا لبابيد كتير».

بنوع أن المشلح الواحد يكفي لامرأتين][4] . وهن حافيات بلا نعال[5] ، مثل نساء عرب البادية ، إلا أنهن يزدن عليهن الغطاء[6] ، وملابسهن كملابس نساء العرب إلا أنهن لا يقتنين الحرير ، لأنه محرم عندهن. يشككن في عراقياتهن[7] ذهباً ، وفي طرف شملاتهن أيضاً .

عندهم بساتين خارج البلد ، في الوادي ، بها أنواع الفواكه ، مثل الموز والتين والرمان والبلح والليمون والبردقان وقصب المص والبطيخ الأصفر والعجور وجوز الهند ، ومأكولهم لحم الجمل وحليب النوق ولحم الضأن[8] قليلاً ، ويزرعون الحنطة سقياً ، وأكثر ما عندهم الذرة البيضاء والصفراء ويستعملونها للخبز والطبخ أيضاً ، ويكثر عندهم الدجاج . وأكلهم قليل جداً وهم يشبعون بأقل شيء. ومصروفهم قليل جداً أيضاً لأنهم جميعاً يزرعون على نفقتهم[9] ذرة وحنطة ، ولهم مواشي وخيل ، وملبوسهم متواضع لا يكلف دراهم كثيرة ، وأكلهم كذلك لا يقتضي له نفقة كبيرة ، وكل شيء بأرخص الأثمان[10] ، وليس هناك ما يباع من لبس أو أكل ويحوج إلى صرف الدراهم . والشيء الذي ينقصهم مهما كان يجلبه لهم أهالي ينبع بحراً إلى مكا[11] ، كرسي اليمن المحل الذي يخرج منه كميات القهوة ، لا مكة التي بها قبر محمد ، بل إلى مكا ، بلد عظيم ، من تُخْم[12] صنعاء اليمن بالقرب إلى ديرة الجوف ، التي بينها[13] وبين باب المندب ستة أيام لا غير ، وهي تابعة لليمن ولكن مالكها الوهابي/، بلدة كبيرة جداً بقدر مدينة حلب ، يعطي سكانها الجزية للوهابي ويخافون منه ٢/١١٠ كثيراً . فأهالي مكا يأتون باللوازم للدرعية ويبيعونها ويشترون منها غنماً وجمالاً ومشالح وخيلاً وما يلزمهم ، لأن كل نهار أربعاء يوجد سوق[14] بالدرعية للبيع والشراء من مواشي ولباد

---

(٤) يقول الصايغ: «مرتين في مشلح واحد».

(٥) «لبّاسات».

(٦) «فقط ذايدين بالغضا [= بالغطاء] عليهم».

(٧) «عراقيهم».

(٨) «الضان».

(٩) «كيسهم».

(١٠) «ببلاش».

(١١) يريد الصائغ مدينة مَخا على ساحل البحر الأحمر.

(١٢) تُخْم ج تخوم: حدود.

(١٣) أي مخا.

(١٤) «بازار».

ومشالح وشملات. وأهالي الدرعية يبيعون أيضاً إلى قرى بلاد الحضرموت[١٥]، وقد بقي منها شيء قليل إلا أن أكثرها خراب، والحضرموت، كما هو معلوم، كانت بالسابق بلاداً عامرة عظيمة، وأما الآن فأكثرها خراب، وهناك بعض القرى تابعة للوهابي، أهلها فقراء جداً يعطون الجزية تحت رق العبودية. وأما عملة الدرعية فالريال الفرنجي، وذهب مَشْخَص[١٦]، وذهب مجر، ونصف ريال وربع ريال، وذهب جنزرلي صنع مصر قديم، وذهب أبو ورده قديم ومصريات فرط، وأما عملة العثماني فلا يتعامل بها قط. ثم عند المساء رجعنا إلى المنزل وقيدت جميع ما رأيته وسمعته في اليومية.

(١٥) «الاضرموط».

(١٦) عملة ذهبية كبيرة (اسماعيل الأكوع، المدارس الإسلامية في اليمن، ص ١٩٤).

[حديث مع ابن سعود]

وثاني يوم ذهبنا عند ابن سعود فدخلنا وسلمنا عليه فرحب بنا وعمل لنا غاية الإكرام . فابتدأ الحديث بخصوص الممالك الفرنجية وأحوال بونابارته ، لأنه كان سامعاً بأخباره فاستقصى مني على سيرته ، فأخبرته على قدر معرفتي ، فسُرّ جداً وكان يتعجب من أفعاله وانتصاراته على غير ملوك ، وقال : هذا ، لا شك فيه ، قائم بأمر الله تعالى ، وربما كان بداخل باطنه مع الله ولا يشرك به أحداً حتى أعطاه مثل هذه القوة والانتصارات . فضحكت في قلبي وقلت في عقلي : يا مسكين إن قوى بونابارته بعيدة عن ظنك فيه .

ثم غيّر الحديث وقال : يا عبد الله ، أريد منك أن تعرفني ما هو قواعد دين النصرانية . فهذا السؤال عصّ قلبي منه جداً فقلت : يا ابن سعود ، قاعدة جميع الملل والمذاهب/هوالله تعالى وحده ولا شريك له ، وهو الديان فقط ، فاعتقاد النصارى بالله تعالى سبحانه وجل شأنه ، إنه هو الخالق ، والرازق ، والمحيي ، والمميت ، والرافع ، والخافض ، والمقاصص[1] ، والمسامح والعاطي والقابض ، إلّه مكنون وأمره بين الكاف والنون . قال : قوي مناسب ، ولأي شيء خلقنا ؟ قلت : حتى نعرفه ونعبده ، ونكرمه ونحبه ونرث جنته . فانشرح من ذلك جداً وقال : وكيف يا عبد الله تصلون ؟ وماذا تقولون في صلاتكم . قلت : يا سيدي ، صلاة ربانية وهي أبانا الذي في السموات الخ . فسرّ وحالاً أمر أحد الكتاب وكتبها في ورقة ، وأخذها

١١١/١

(١) «المقاقص» .

و وضعها في عبه. وقال: وغير ذلك ماذا تقولون؟ قلت: وصايا الله العشر التي كتبها بإصبعه وأنزلها على سيدنا موسى عليه السلام في اللوح المحفوظ. قال وما هي؟ قلت: أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إلّه غيري، لا تحلف باسم الله بالباطل، إكرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، ولا تشهد بالزور، ولا تشتهِ امرأة قريبك، [لا تشتهِ] مقتنى غيرك[٢].

قال: وإلى أي جهة تتجهون في الصلاة؟ قلت: ياعزيز، نصلي إلى أي جهة كان لأن الله موجود في كل مكان، في أعلى السموات وعلى الأرض. قال: وبأي نوع تعرفون سيدنا عيسى. قلت: روح الله. قال: عندكم صلب عيسى. قلت: استغفر الله العظيم ولا نكون من الكافرين، إن روح الله يظلل ويصلب ولكن شبّه به[٣]. قال عفاك. ثم قال: والإنجيل أهو محفوظ عندكم كما أنزل على قلب سيدنا عيسى عليه أشرف السلام؟ قلت: نعم، ولا يمكن أن يبدل أحد حرفاً واحداً منه. قال: وهل تعملون بموجبه؟ قلت: وكيف لا. قال: الإسلام لا يزال يعاملكم بموجب عهد رسول الله الذي أعطاه لكم. قلت: خيراً يا ابن سعود، إنهم لا يتمسكون بحرف واحد منه. وما كفى أنهم لا يعاملوننا بموجبه بل يعاملوننا بضده. قال: لعن الله القوم المشركين/[٤]الناكسين عهد نبيهم، حلّ ضرب السيف فيهم. ثم قال: وكيف تتزوجون؟ قلت: بموجب كتاب عند قاضي الإسلام ورضاء الفريقين أي أهل العروس والعريس، والنقد للعروس على حسب ما أمر الحق سبحانه وتعالى عن يد سيدنا عيسى: ثلاثة وثلاثون غرشاً لا غير. قال: وكيف تستحلون شرب المنكر ولحم الخنزير. قلت: خيراً، هذا شيء محرم عندنا جداً ومنهى عنه في كتابنا. وأما العصاة الذين يستحلونه فلا قياس عليهم، لأنهم من المغضوب عليهم[٥]يفعلونه سراً وإن عرفناهم لرتبنا قصاصهم. قال: والتوتون الذي هو مكروه جداً وحرام، أي فائدة تجدون من استعماله؟ قلت: يا سيدي أنا عمري ما ارتكبت هذه المعصية حتى أجاوب عن الفائدة من ارتكابها. فضحك الدريعي وانشرح لعلمه الأكيد أن عقلي قد طار من عدم شرب توتون، وعلى الخصوص أننا كنا قد شربنا نحو

٢/١١١

---

(٢) نسي الصائغ الوصية الثالثة: إكرمْ يوم الرّب.

(٣) كذا، والآية تقول: ﴿ولكن شبه لهم﴾. أما قول الصائغ: «روح الله يظلل ويصلب» فمن الصعب تفسيره وفهمه، اللهم إلا إذا كان وقع خطأ في الكتابة، كما عهدناه مراراً، وكان الصواب: «يظلل ولا يصلب»، فيستقيم المعنى.

(٤) ابتداء الكراس رقم ١٤.

(٥) «مغاضيب».

عشر مرات قهوة وماتت في فمي من غير توتون. النتيجة سؤالات كثيرة، وكانت أجوبتي له دائماً مما يناسبه ويقرب إلى طريقته. فانشرح من ذلك جداً وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كنت أظن أن النصارى كفار ومشركون بالله مثل غير ملل وأكثر، وأما الآن فقد تأكد لي أنهم جماعة على الحقيقة وقريبون جداً من طريقتنا. فقلت في بالي يا مسكين، لو تعرف أحوالنا، وقديسينا، وأعيادنا، وصيامنا، وشركنا بالله، واعترافاتنا، وقرابيننا، وأمور الديانة عندنا، لكنت ما تركت دمي يلحق الأرض ولكن دبر الله الأمور. وهو لا شك فهم أني كذبت عليه في بعض المواد، ولكن الذي جعله يتغاضى عن ذلك هو أمله بالاتحاد معنا وارتباطه بعصبتنا، لأن رأى أن سياستنا تناسبه جداً. وثانياً أن من طبع العرب أن يصدقوا مهما قلت لهم، وقلّ أن يراجعوا أحداً بالكلام.

[أحوال ابن سعود والدعوة الوهابية]

وأما بخصوص ابن سعود فهو فصيح جداً متكلم، ديوان حكي، وعنده علماء عارفون بأمور ديانتهم، وربما بلغك أيها القارئ أن الوهابي كان أرسل قديماً عالماً مجادلاً للشام/ ١١٢/١ وغلب علماء الشام جميعهم، وهذا شيء مشهور عند كافة الناس. وحين كان يتكلم معي ويسألني كان عنده بعض العلماء، فما فتح أحد منهم فمه ليقول كلمة واحدة، وبما أنه هو الذي كان يتكلم فلم يجرُؤ أحد من الحاضرين أن يتكلم بشيء ما من غير إذنه. فبعد ذلك انفرط الديوان وذهب كل واحد إلى محله.

وثاني يوم قطعنا نهارنا بالفحص عن أحواله، وترتيب حكمه ونظامه، فقد فهمنا جيداً أن أولاً له ولدين قد زوجهما وبنتاً لم تزل عزباء. وله امرأة واحدة أم البنت وصبي واحد، وله جارية سرية، له منها ولد كبير. وأما بخصوص ترتيب حكمه فإنه يستند في كل أموره إلى الدين. حتى أنه حين ينصّب حاكماً من طرفه إلى بعض الأماكن الخاضعة لحكمه، يأكل معه، ثم يتوضأن ويصليان سوية، وبعد ذلك يقلده سيفاً، ويقول له هكذا: «قد اقمتك بأمر الله على عباد الله، فاعدل في الرعية وأفصل في القضية واقسم بالسوية، واقبض الجزية واضرب أعناق السنّية[1] ولا تدع مشركاً يستقر في حكمك ( )[2]». ثم يعطيه ورقة مختومة

(١) كذا، وهو يريد أهل السنة.

(٢) كلمة غير مقرؤة لأنها مخيطة في جلد الكتاب.

وممضية باسمه مذكوراً بها : « قد ولّي واليكم عبد الله ، القائم بأمر الله ، فلاناً حاكماً عليكم فأطيعوه ، ولا تكونوا من الفاجرين فنعاملكم بسيف الدين ، والسلام على من اتبع هدانا ، وأجاب دعانا ، وأحب ما نحب ، ورفض ما نرفض ، فهو من أهل التقوى والدين ، ومن خالف فكان عندنا من القوم المشركين والسلام » . وهكذا هي صورة فرامينه لا غير ، في ورقة صغيرة طولها شبر وعرضها ثلاث أصابع فقط . وعنده أيضاً ثلاثة أو أربعة كتّاب من أجل الأوراق والمكاتيب لا غير . وليس عنده دفاتر حسابات للداخل والخارج ، فهو يرسل المزكي إلى القبائل والعشائر والمدن والقرى يجمع الأموال والأرزاق ، ثم يعود إلى عنده ، فيأخذ الأموال ويضعها في خزينته بيده . وأما الأرزاق مثل الجمال والخيل والعبيد والغنم ، فما أعجبه منه يدعه ، وما بقي يبيعه إلى أهالي مكا[٣] وغيرها من حكمه ويضع ثمنها بالخزينة أيضاً . عنده ٢/١١٢ من العبيد ألف/دائماً سرمدياً تحت السلاح بالسرايا . وحين ينام بالليل مئة عبد يحرسونه على باب حجرته التي ينام فيها .

أما بخصوص صلاته فهو يتوضأ ويصلي مثل المسلمين : الكلام والفرض والسند والركوع والوضوء شيء واحد لا يخالف المسلمين ، غير أنه لا يستقبل جهة مكة كمثل المسلمين ، بل على أي جهة كان تجوز عنده الصلاة . والإمام الذي يصلي به يدعو ، في آخر الصلاة[٤] ، الحقّ سبحانه وتعالى أن ينصر القوم الموحدين على القوم المشركين . فالموحدون هم المستقرون في وحدانية الحق والمشركون المسلمون . وأما بخصوص محمد فهو لا يبغضه ولا يحبه ويقول عنه أنه إنسان صالح عمل الخير[٥] وقرب الناس إلى الله بوساطة فصاحته وسعده وتقواه ، وما عمله فهو شيء مقبول ، وكل من عمل خيراً يشكر على فعل الخير ويُكرّم نوعاً ما عن غيره ، ولكن لا يعبد ولا يزار قبره ويُصلّى عليه ويصير له هذا العدد من الاحتفالات الإلهية ، لأن كل من أراد يستطيع أن يكون إنساناً صالحاً ويُشْكَر بين الناس ويسمى مهدياً[٦] ، إذ أن كل من أصلح فهو مهدي وكل من أفسد فهو دجال .

---

(٣) أي مخا .

(٤) « يعمل دعا في آخر الصلا » .

(٥) « مليح » .

(٦) إن هذه الأقوال عن الوهابية كانت شائعة في أوائل القرن التاسع عشر ، مع أن لا صحة لها . بل إن روسّو ، وكان قنصل فرنسا في بغداد ، رعم « أن الوهابيين ينفون عن محمد صفة النبوة . وهم ينظرون إليه نظرهم إلى رجل عادل وصالح ، استحق ، بسبب تقواه ، أن يكون محبوباً من الله والمنفذ لأحكامه . بنوع أنهم وإن كانوا

ثم ثاني يوم حضر المزكي الذي كان أرسله إلى بعض قبائل عرب، نواحي ديرة الحضرموت(٧)، وأحضر معه الزكاة يعني الجزية فأدخل الجميع للسرايا، فذهبنا لنراه، وكان

يقتدون بالمسلمين فيما يتعلق بالشهادة، فهم يحذفون منها الكلمات الأخيرة فتصبح فقط «لا إله إلا الله». فمن الممكن أن نعتبرهم موحدين [=إلهيين] بتمام معنى الكلمة» (وصف ولاية بغداد، باريس، ١٨٠٨).

وكان من جراء هذه الدعاية الكاذبة، أن الأتراك كانوا يقولون عن أتباع محمد بن عبد الوهاب أنهم أعداء الدين. وبعد أن اطلع العلامة الشيخ حمد الجاسر، صاحب مجلة العرب الغراء، على ما ذكّره الصايغ، كتب مشكوراً إلى محقق هذه المخطوطة ما نصه:

«هذا الكلام مملوء بالأخطاء الشنيعة»:

١ ــ القول بأنه لا يستقبل جهة مكة، وهذا غير صحيح فأتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب حنابل المذهب ويرون استقبال القبلة (الكعبة) من أركان الصلاة إذا لم يستقبل المصلي القبلة بطلت صلاته وهذا أمر لا شك فيه ويعرفه حتى المبتدئ من طلبة العلم.

٢ ــ الدعاء في آخر الصلاة وفي كل وقت مشروع بأن يعز الله الموحدين ويذل المشركين، والمشركون ليسوا المسلمين ولكنهم الذين يصرفون شيئاً من أنوع العبادة لغير الله، وأنواع العبادة كثيرة وهي كل الأمور المحمودة شرعاً التي أمر الله بها مثل الصلاة والدعاء والاستغاثة، فهم لا يجيزون دعاء أحد من الأموات سواء كان نبياً أو عبداً صالحاً بل يحبون الأنبياء كلهم ويتبعون ما شرعه الله ولكن لا يصرفون لهم شيئاً من أنواع العبادة.

٣ ــ وأما قوله عن محمد ﷺ لا يبغضه ولا يحبه، فهذا كلام باطل، فمن أصول عقيدة أتباع الشيخ محمد كغيرهم من المسلمين محبة الرسول محمد ﷺ وطاعته وتقديم أمره على أمر أي إنسان مهما كان، ولكن طاعته ومحبته لا تجيز أن يصرف له شيء من العبادة بأن يدعى أو يستغاث به، فالدعاء والاستغاثة لله القادر على ذلك، ومن لم يحب الرسول محمداً فإسلامه غير صحيح، ويعتبر كافراً يجب قتله عندهم.

وأما زيارة قبره فهي من الأمور المحبوبة ولكن لا لدعائه هو بل لِيُدْعَى له ويسلم عليه سلاماً شرعياً ويصلى عليه.

فأتباع الشيخ محمد يفرقون بين حق الله وحق رسوله محمد، فحق الله العبادة وحق الرسول الطاعة وامتثال الأمر وفق الشريعة الثابتة في القرآن وفيما صح عن الرسول ﷺ.

والموضوع يحتاج إلى تفصيل لا تتسع لها هذه الرسالة وكثير من الأمور المنسوبة إلى الوهابيين هي كما يعتقد الأستاذ لا صحة لها وهي من تأثير الدعاية في ذلك العصر.

(٧) (الأضراموط).

انصافاً لفتح الله الصايغ نضيف إلى تعليق الأستاذ حمد الجاسر ما جاء في كتاب حافظ وهبة [الجزيرة العربية في القرن العشرين] تحت عنوان «ما ينسب إلى النجديين وهم أبرياء منه».

«وقد نُسِبَ إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب والآخذين بدعوته كراهيته النبي ﷺ، والحط من شأنه وشأن الأنبياء والأولياء والصالحين»...

«ونسبوا إليهم القول بإن العصا خير من النبي... ولقد سمعتُ في نجد أن حكّام نجد الشمالية أثناء

جاء بمئة وثلاثة عشر جملاً وتسعة رؤوس خيل عظيمة جداً وعبد وعبدة ومبلغ من المال. فحضر هو بنفسه إلى أرض السرايا، واختار منها أربعة رؤوس خيل مفتخرة جداً، وأدخلها ورُبطت مع خيله، وانتقى أيضاً عشرين جملاً أحسن الموجود وسلمها إلى الراعي، وأخذ العبد والعبدة وأدخلهما إلى البيت، وأخذ جانباً من الغنم وسلمها أيضاً إلى راعيه لأجل الذبح لمطبخه، لأنه يذبح سرمدياً كل يوم نحو عشرين رأس غنم بالسرايا، تعييناً يفرق منها وكيلُ الخَرْج لحماً نيئاً على بعض الأكابر الذين عيّن لهم، هو ذلك كمثل الخَرْج[8]، ١١٣/١ والباقي يطبخ بالسرايا للحاضرين/وللضيوف الواردين والشاردين. وما يبقى من جمال وخيل وغنم يسلمها إلى الأمين، وهو واحد من خواصه يقال له الأمين، حتى يبيعها ويأتي له بقيمتها كما جرت العادة دائماً. وأكثر البيع يكون إلى أصحاب الأرزاق ذاتهم الذين أخذت منهم، لأن كثيراً منهم يلحقون بالمزكي إلى الدرعية، ويوم الأربعاء، حين يصير السوق، يأتون ليشتروا رزقهم مرة ثانية من الأمين، لأنه يتهاود معهم بالثمن أكثر مما إذا اشتراه أحد غريب.

وأما بخصوص عيشته فهي معذبة من غير راحة فكر، لأنه أولاً يأكل بالحرم عند النساء ولا يأكل من أكل السرايا ولا من يد أحد، يأكل من يد امرأته فقط خوفاً من التسميم، لعلمه أن أعداءه أكثر من محبيه حتى من بين عربه وخواصه، والسبب في ذلك من أمرين

← خصومتهم مع آل سعود كانو يكتبون إلى الأتراك أن آل سعود اتخذوا راية شعارها: لا إله إلا الله محمّد (بحذف ميم محمد) أي لا أحد رسول الله...

«ولقدْ حضر إلى مكة أثناء الحرب الحجازية النجدية ١٩٢٥م بعض أفاضل السغاليين وتِطْوان وأخبرونا أنهم سمعوا في الأسكندرية... أن الوهابيين... في الأذان يقولون أشهد أن لا إله إلا الله فقط ولا يقولون وأشهد أن محمداً رسول الله»...

«ومما ينسب إلى أهل نجد تكفيرهم من عاداهم»...

«وإنما نقتبس ما كتبه العلامة الشيخ حَمَد بن عَتيق من رسالته التي وضعها عن مكة: هل هي بلاد كفر أو بلاد إسلام؟... إذا كان الشرك فاشياً مثل دعاء الكعبة والمقام ودعاء الأنبياء والصالحين... وصارت الدعوة إلى غير القرآن والسنة. فلا شك أن هذا البلد يعتبر بلاد كفر ولا عبرة بالصلاة والحج والصوم والصدقة».

«إن التوحيد قد تقرر في مكة بدعوة اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، واستمر أهل مكة عليه ردحاً من الزمن، ثم فشا فيهم الشرك فصاروا مشركين وصارت بلادهم بلاد شرك»... (الجزيرة العربية في القرن العشرين ص ٣٠٠ إلى ٣٠٣).

(٨) المصروف والنفقة.

فقط[٩] اللذين هما ضد طبع العرب واصطلاحهم : أولاً أنه يأخذ منهم الجزية رغماً عنهم كما ذكرنا سابقاً ، وثانياً أنه يغصبهم على الصلاة خمس مرات كل يوم غصباً سيفياً[١٠] ، وأقام عليهم أناساً ترصدهم وترغمهم على الصلاة ، والذي لا يصلي يقتلـه ويقطـع خصيتيـه ويضعهما فوق أنفه . وقد فعل ذلك مراراً عديدة مع شعبه . فهذان السببان قد زرعا عداوة وحقداً[١١] في قلوب الشعب عليه وحصل لهم فتور وملل من محبته ومالت قلوبهم إلى بغضه ، ولولا هذه الأسباب لما كان يوجد أقوى منه ، لأن شعوبه كثيرة لا تحصى وأماكنه بعيدة لا يتطاول إليها أحد ، ولا مصاريف عليه كما ذكرنا سابقاً ، ولذا كان يستطيع أن يتقدم ويملك أماكن كثيرة ، ويصبح سلطان الجزيرة العربية[١٢] كافة براً ومدناً .

ثم دخلنا إلى القسم الداخلي من السرايا[١٣] ، لتمتع نظرنا برؤية خيلها . فيا له من منظر للخيل لمن يحب الخيل ، وليس لي لأني / من بعد وقوعي الذي تكلمت عنه[١٤] ، ما عاد قلبي يتحمل رؤية جنس الخيل ولا يطاوعني على ركوبها . وبالنتيجة شيء يأخذ العقل ، فموجود نحو مئتي فرس كأنها تصوير على ورق ، لأنك مهما كنت عارفاً بأمور الخيل لا تستطيع أن تميز الواحد عن الأخرى بالجمال ، فجميعها كأنها صنعت من عجين ، على يد معلم واحد ، [إذ أنها متساوية] بالقد والعلو والهيئة[١٥] والضعف والحسن والمزايا . فمنها ثمانون واحدة بيضاء ، وأثوابها مثل الثلج ، لا يمكن تمييز الواحدة عن الثانية باللون[١٦] ، والباقي مشكلات على حسب ألوان الخيل : شيء مفتخر لا يمكن وجود نظيره عند غير ملوك .

١١٣/٢

ثم رجعنا إلى منزلنا ، ودُعينا تلك الليلة على العشاء عند الأمير عبد الله الهدَّال الذي كان متولياً جيش الوهابي . فعمل لنا غاية الإكرام والحشمة وتذكرنا أيام حربنا معه أمام حماة وتلك الأمور التي جرت ، وسامح الدريعي وعبد الله بعضهما من جميع ما جرى وصارا بوفق ومحبة زائدة . وثاني يوم توجهنا عند ابن سعود وبعد شرب القهوة طلبنا منه خلوة لأجل تأكيد

(٩) «لأجل بوعين فقط» .

(١٠) «بحتم سيفلي» ، أي بالسيف .

(١١) «غي» .

(١٢) «عرابيا» .

(١٣) «السرايا الحوانية» .

(١٤) «وقعتي المعلومة» .

(١٥) «الكسم» .

(١٦) اسقطنا هنا سطراً وضعه الصائغ في هامش الصفحة ، فلم نتمكن من قراءته لأنه مخيط في جلد الكتاب .

حيلتنا[17] عليه، فأمر بذلك. وكان بالخلوة هو وعبد الله الهدال كاخيته والدريعي وأنا لا غير. فصار رباط عظيم، بقول وثيق، وأقسام عظيمة، أننا نحن وهو بالحال واحد: العرض واحد، والدم واحد، والمال واحد، والله الشاهد والرقيب على من يتعدى وينقض رباطنا هذا، وإن حين يستدعي أحد من الفريقين الآخر إلى معونته يحضر سريعاً من غير تماهل كلياً. وما يضره يضرنا، وما ينفعه ينفعنا، والصاحب صاحب جميعنا، والعدو عدو جميعنا، وأن نبذل جهدنا لندافع ونمانع جميع غوائل الأتراك الذين يقدمون من اسلامبول[18]، لأنه كان حاسباً حساباً كبيراً للسلطان ويخشى أن يرسل إليه جيشاً عن طريق الحج، كما وجهَهُ إلى مصر أيام الحملة الفرنسية، فجعلناه يطمئن من هذه الناحية/وأرحنا باله من هذا القبيل، لأنه ما كان حاسباً حساباً لوالي مصر ابداً بل كان حسابه الأكبر للسلطان، مع أن أخبار استعدادات محمد علي وصلت إليه جيداً، ولكنه كان لا يفكر بها ثقل حبة خردل.

١١٤/١

فتمّ هذا الاتحاد فيما بيننا وتحالفنا على السيف والمصحف وتعهد لنا أن مهما لزم لنا لأجل إعانتنا على استملاك عربستان من إمداد بالرجال أم بالمال، يكون جاهزاً ويرسل إلينا، ويصير الدريعي سلطان الشمال وهو سلطان القبلة ويكونان روحين في جسد واحد، وقرأنا الفاتحة على ذلك وخرجنا من الخلوة إلى حجرة ثانية، فأمر بالغداء فأُخرج الغداء من الحرم وكان شيئاً منظوماً من لحم وأرز ودجاج ومحاشي وحلويات لأن العسل كثير بالدرعية وغير أماكن. فغسلنا أيدينا وجلسنا للغداء. فمد يده هو قبل الجميع وقال: «بسم الله خالقك ومفرق أصابعك». فأكل من كل صحن لقمة ثم قال: تفضلوا، والمعنى أنه يرفع الشك عن مادة السم، لأن هذا الوسواس شديد عنده. فابتدأنا وهو يأكل معنا بيده من غير معلقة. فقال له الدريعي: الإفرنج يأكلون بالمعالق الفضة والملاقيط الفضة والسكاكين، من غير أن يمسوا بأيديهم شيئاً. فقال: وكيف يصير ذلك؟ فقلت له: الآن أريك. وقمت حالاً وأخذت قصبة فارسية وصنعت معلقة وشوكة[19] من القصب، ووضعت سكيناً وأخذت صحناً فارغاً ووضعته أمامي، وأخرجت محرمتي وجعلتها سلونية[20]، وابتدأت آكل بكل

---

(١٧) «نصبتنا».

(١٨) استنبول.

(١٩) «فرتيكه».

(٢٠) كذا، وقد تكون الكلمة مشتقة من صالون: غرفة الاستقبال.

ظرافة على فرانكا[٢١] . فتعجب من ذلك وضحك حتى شبع ضحكاً وسُرَّ من هذه [الفرجة][٢٢] الفريدة وابتدأ يوحد الله ويقول : سبحان الذي أرضى الناس بعقولها ، كل من يعجبه عقله ودينه وأزياؤه أكثر من غيره . فبعد الأكل خرجنا إلى الخارج[٢٣] وشربنا القهوة بالديوان وتوجهنا إلى محلنا . وتلك الليلة دعينا عند أبو نقطة[٢٤] ، عقيد خارجي مشهور كنا

١١٥/٢ ذكرناه في مادة حماة . وحين رجوعنا إلى منزلنا اعتمدنا أن[٢٥] نطلب الأذن بالسفر نهار غد .

ولما كان الغد توجهنا إلى الديوان . وبعد مواجهته وشرب القهوة قال له الدريعي : يا ابن سعود إن قدّر الله نهار غد نسلم عليك ونستأذنك بالرحيل . فقال له : يا ابن شعلانْ كأنك مَلَلْتَ منا سريعاً[٢٦] ؟ قال : استغفر الله لا يمل أحد من رؤيتكم ، ولكن لا بد من رجوع الغريب إلى وطنه . فقال له : حاشا ، أنت لم تبق غريباً ، فنحن وأنت بالحال واحد . فإن كان مرادك ذلك فليكن كما تريد . فجلسنا حصة من الزمن عنده ، وقمنا إلى المنزل كي نعد أمورنا للسفر . وبعد وصولنا بوقت قليل وإذ أرسل لنا سبعة رؤوس خيل ، أفراساً لا ثمن لها ، لكل واحد منا فرس وعبد يقودها ، وسبعة هجن للسبعة عبيد حتى يركبوها حين يتوجهون معنا . وكان قسمهم هو بنفسه وأفهم العبيد ذلك [وقالْ لهم] : أنت يا فلان وفرسك وهجينك تقدم حالك لفلان . وكذلك [أهدى] للدريعي سيفاً ثوبه جلد أسود إذ عندهم حرام اقتناء سلاح من الفضة والذهب ، إنما حديده شيء مفتخر جوهر عظيم من أفخر سيوف العجم ، وأيضاً مع كل عبد مشلح حَسَاوي أسود ، وسيف ضبان[٢٧] عظيم ، ومئة ريال فرنجي . فقبلنا جميع ذلك ، وكل منّا عرف عبده وهجينه وفرسه . ولكن يا لها من سبعة رؤوس خيل لا يمكن أن يوجد نظيرها ولا ثمن لها . ففرحنا بها جداً وأخذنا نعدّ أمورنا للسفر . وثاني يوم توجهنا إلى عنده حتى نستكثر بخيره ونودعه ونسافر إذ حضر عنده هجان ، من عرب الينبع ، يخبره أن (٢٨)

١١٥/١ جيش محمد علي والي مصر/خرج من الينبع بكل نظام وقوة متوجهاً نحو المدينة

---

(٢١) أي على طريقة الإفرنج.

(٢٢) كلمة غير مقرؤة .

(٢٣) « برا » .

(٢٤) هذا أيضاً من ترهات الصايغ ، لأن أبا نقطة قُتِل سنة ١٨٠٩ .

(٢٥) ص ١١٤/٢ بيضاء. وأما صفحة ١١٥/١ فتأتي بعد صفحة ١١٥/٢ وفي نهايتها .

(٢٦) « قوام » .

(٢٧) كذا ؛ ولم يظهر لنا المعنى . وقد سبق تفسير هذه الكلمة .

(٢٨) ورقة صغيرة أضافها المؤلف .

لامتلاكها[٢٩] . فضحك وقال إن شاء الله سيصير بهم أكثر مما صار سابقاً ، جعلهم الله غنيمة للموحدين ، هؤلاء الكفار والقوم المشركين . وإني بعون الله وحده لاأحسب لهم حساباً ولو بثقل حبة خردل . فدعونا له بالنصر والظفر على أعدائه وخرجنا من عنده . وقلت للدريعي : الله يستر ابن سعود ، لاأظنه يستطيع أن يجابه[٣٠] محمد علي في خصامه معه . فقال : وكيف ذلك ، فعلى ما شاهدنا أن عرشه كبير وجيشه كثير ، فمن يستطيع عليه . قلت : صحيح ولكن الأمر الذي ينقصه هو حب الرعية له ، لأن أكثر شعبه غير راض عنه ومظلوم معه . ومن المعلوم أن المظلوم يبحث عن خلاصه وخراب ظالمه . وفي أقرب وقت سيخونه شعبه ، لا سيما وأن العثماني يحرك عليه ، ويعمل على ذلك ، وعلى التفخيذ والخيانة ، كما هي عادته .

(٢٩) كانت الحملة المصرية على المدينة سنة ١٨١٢ ، ومن الواضح أن الصائغ لايراعي الأمانة التاريخية .

(٣٠) « بيطلع راس » .

[ريح السَّمُوم]

١١٦/١ ثم ودعناه وخرجنا/من البلد ومعنا العبيد، كل واحد راكب على هجين، يقود فرس معلمه معه، وكذلك طلع معنا جملة من الناس من الأكابر وذوي المناصب رافقونا نحو ساعة من الزمن و ودعونا ثم رجعوا[١]. وأما نحن فأخذنا الطريق الحجازي وقصدنا التوجه بالسلامة إلى بلاد حوران، حسب الوعد مع عرباننا. فجدينا بالمسير، وكل ليلة نبيت عند عرب، لأن العربان في تلك الأماكن كثيرون جداً بسبب قربهم من الدرعية. ثم خامس يوم من سفرنا كنا نائمين عند قبيلة عرب يقال لها **الهنادي**[٢]، فقمنا ثاني يوم لنسافر فوجدنا جميع الجمال طامرة رؤوسها بالرمل، فعرفنا أن ريح السموم قادمة ويسمونها أيضاً السنبلة[٣]. فهذه الريح تحصل في البادية الحارة جداً. وقبل أن يعرف بها أحد تشعر بها الجمال أكثر من الجميع. وبسبب حكمتها كي لا يصيبها ضرر منها وتموت فإنها تطمر رؤوسها بالرمل وتدير أقفيتها لملاقاة الهواء. وهي تشم رائحة ذلك الهواء قبل وصوله بساعتين أو ثلاث ساعات. وسبب طمر رؤوسها بالرمل فكي لا يدخل هذا الهواء الرديء الجهنمي في مناخيرها. فإذا قتلت

---

(١) جاء في ترجمة فرنيل: «فلما وصلنا إلى باب المدينة وقف الدريعي والتفت إلي وقال: تفضل واخرج أولاً، فإني واف بعهدي»... ويلاحظ أن كل هذا المقطع لا وجود له في الأصل العربي، وهو من مبتدعات لامرتين.

(٢) الهنادية، من بني محمد من بني عَمْرٍو، من حرب (الجاسر، معجم القبائل، ٢، ص ٨٨٨).

(٣) ولعله يريد الصُّنْبل أي الخبيث المنكر، ومن عادة الصايغ أن يبدل الصاد بالسين.

الجمل وقرمت لحمه لا يمكن أن يرفع رأسه حتى يخلص الهواء ولو دام يومين . فحالاً أعد العرب المواقع التي يمكن أن يحتموا بها من ذلك الهواء. وحالاً أغلقوا بيوتهم من أطرافها الأربعة ، وأدخلوا الماء إلى داخل البيوت وسدوا آذان الخيل كلها لأن الخيل يصيبها الضرر من هذا الريح في أذانها . وحالاً كل واحد غطّى رأسه بمشلحه وقعد في ناحية . ثم وصل الهواء المسم الشنيع الناري ، فكأن أبواب جهنم قد فتحت : نار لا توصف وترى البراري تلتهب من النار والغبرات الحمر والزوابع متصلة والأرياح العاصفة غير منفصلة ، وتسمع هدير الجمال وصهيل الخيل وعويل الكلاب ، شيء يفزع الأسد . والذي يريد أن يشرب يمشي على يديه ورجليه ويذهب ليشرب من قربة الماء وقد أصبحت بالحقيقة أسخن من ماء الحمام الغالية . النتيجة أن الدنيا قد اشتعلت ناراً . ودامت هذه الحالة عشر ساعات متواصلة حتى كادت تخرج أرواحنا/وبعد ذلك ابتدأ الهواء يخف رويداً رويداً إلى أن انقطع تماماً ، وجملة ما دام ست عشرة ساعة . فخرجنا من البيوت وخرج الناس كافة ، ولكن كنت ترى وجوه العربان سوداء كأنهم خرجوا من حريق . ومن ذلك الهواء مات في نزلنا ثمانية أنفار ، منهم خمسة أولاد وامرأتان ورجل واحد . والموتة بهذا الهواء سريعة جداً مثل الرمي[٤] بالرصاص ، لأن الإنسان حين يشم هذا الهواء المسم يبتدئ الدم حالاً يخرج من مناخيره وفمه بكثرة ، وخلال ساعة من الزمن يصبح أسود مثل الفحم وييبس ويموت موتة رديئة أنجس من الطاعون . فشكرنا الله تعالى الذي أنقذنا من هذا الخطر المحدق[٥] العظيم . وسافرنا في اليوم الثاني وكنت دائماً أفكر بخوف شديد بهذا الهواء ، خشية من أن يحصل مرة ثانية ونكون سائرين وحدنا بالطريق من غير بيوت عرب نأوي إليها فنهلك حالاً بلا شك[٦] .

١١٦/٢

---

(٤) « قويص » .

(٥) « القطوع » .

(٦) نصف الصفحة ١١٦/٢ بياض ، وكذلك الورقة ١١٧ و١١٨ والصفحة الأولى من الورقة ١١٩ . وهذه الصفحات البيضاء تدل على أن الصايغ كان يريد أن يضيف بعض المعلومات ، ثم لم يتمكن من ذلك لأسباب نجهلها .

[تقاليد العرب وعاداتهم ومعتقداتهم]

١١٩/٢

نقول أن بعد ظهور الوهابي في بلاد الدرعية، تبعت طريقته السهلة المعلومة جميع القبائل والعشائر التي كانت قريبة منه، مثل بلاد نجد واليمن وجبال شمر والحجاز. فالبعض منها خوفاً من شره والبعض منها استحسنت مذهبه وصارت معه، والبعض منها أملاً بالكسب، لأنه قادم على حروب وفتح بلاد وضرب قبائل، فطمعاً بالنهب والسلب تبعوه. وأما عرباننا الذين نحن عندهم، وهم عربان الهند والبصرة وبغداد والعراق وسورية وحوران وبلاد الجليل وغير وغير، فهؤلاء ظلوا على حالهم لعدة أسباب: أولاً لأنهم بعيدون عن الوهابي، ثانياً ليوفروا على أنفسهم الجزية، ثالثاً لأنهم يدخلون دائماً إلى بلاد الإسلام [كذا][1] بسبب ما يحتاجون إليه من لوازمهم مثل فروات وكوفيات وخام ومشالح وغير أشياء تلزمهم، رابعاً لأجل وارداتهم وجعائلهم[2] من تغفير الحج إلى مكة، خامساً لأجل خوّاتهم[3] التي لهم على القرى. فلهذه الأسباب فرزوا أنفسهم من الوهابي، مع أن[4] جميع العربان قريبون إلى طريقة الوهابي، وكذلك عرباننا. لا يوجد غير الله ومحمد، وهم يكرمون الإمام علي أكثر من غير أصحابه. وأكثر أيْمانهم [على الحشيش]، فهم يقطعون الحشيش ويحلفون: «وحق من خلق

(١) راجع تعليقنا ص ٢٦٥ حاشية ٦.

(٢) «مداخيلهم ومعتاداتهم».

(٣) خوات ج. خوة.

(٤) «خوش».

هذه [الحشيشة]»، سواء كانت المادة هامة أو طفيفة[٥]. كذلك يحلفون برأس الإمام

١٢٠/١ علي، وإذا ضاع لهم شيء ينادون عليه هكذا/[٦]:«يا سامعين الصوت صلوا على النبي، أولكم محمد وتاليكم علي، يا من شاف[٧] لنا الحاجة الفلانية». فينتج من ذلك أن المكرّمين أكثر من الكل الله ومحمد وعلي. وكذلك يحلفون، في الأمور الهامة، بعواميد بيوت الأمراء، مثل بيت فاضل، وبيت شعلان، وبيت عبده، وبيت تامر، وغيرهم. فيقولون: «وحق عامود هذا البيت وما أطعم من العيش». فهذا عندهم يمين قاطع كبير، ويعتقدون به كثيراً.

ثم أنهم يصدقون المنامات ويعتقدون بها جداً. ويعتقدون بالسحر وهم على يقين أن للسحر فعلاً عجيباً وأن القلم يعمل في المحبة والبغضاء والزواج والفراق والاجتماع. وعندهم كل من عرف الكتابة يستطيع أن يعمل كل أمر يريده، حتى أنني كنت عندهم بمنزلة سيمون الساحر[٨]، لأني ما أكثر ما جَمَعْتُ وفرقتُ، وزوجتُ وحببتُ وبغضتُ، مع أن ليس عندي أثر العلم بذلك ولا يقين بمثل هذه الأمور. فكنت أضحك منهم واكتب لهم أحرفاً مقطعة وخربشات وأحرفاً فرنجية وأعطيهم إياها، ولكن أكون فهمت منهم المادة جيداً، وبعد ما أعطيهم الورقة أدبرهم على الطريقة والظروف التي توصلهم إلى المطلوب، فأكثر الأمور تأتي وفق مطلوبهم. ومن كثرة ثقتهم بالسحر يتوهمون أن الفعل من الكتابة والورقة التي

١٢٠/٢ أعطيتهم إياها/مع أن الفعل كان من التدبير كما هو معلوم.

وكذلك هم جماعة سريعو الإجابة، يصدقون ما تقوله لهم ولا يراجعونك مثل غير شعوب، لأن قلوبهم سليمة، ولا يغشون أحداً ولا يظنون أن أحداً يغشهم. فهذه الطباع كانت تريحنا جداً معهم. وكثير من الأوقات كنا نحتاج إلى أمر لأجل مصلحتنا، مثل الرحيل من المحل الذي نحن فيه، أو الإقامة به، أو العداوة مع إحدى القبائل، أو الصلح أو الاقتراب من إحدى المدن أو الابتعاد عن المدن، النتيجة الأمر الذي نحن بحاجة إليه وقتئذ، فأزعم أني رأيتُ مناماً أعده في عقلي بالليل، وأقوم ثاني يوم أجمع كبار العربان وأقص عليهم منامي. فمن المعلوم أنهم يسألوني ما هو تفسير هذا الحلم العجيب يا خطيب؟ فأفسره بما يناسبني وأختم التفسير بمطلوبي ويتم مقصودنا من ذلك المنام. وهذا الأمر حدث معنا مراراً.

---

(٥) «مادة كلية أم جزئية».

(٦) نلاحظ أن عدد الأسطر والكلمات في الصفحات قد نقص جداً إعتباراً من الورقة رقم ١١٩.

(٧) رأى.

(٨) أحد المتطرفين من اليهود أشتهر بالسحر وكان معاصراً للمسيح.

أما بخصوص شريعتهم فهي مثل الشريعة المحمدية ولا فرق بينهما كلياً[9] . ولكن أين من يصغي أو يفهم منهم؟ فهم جماعة مثل وحوش البرية، ولهم مثل يرددونه دائماً : « دفتر البرية مشقق» ، أي أن ليس عندهم شرع ولا كتاب . وإذا حدث واحتاجوا إلى أمر يقتضي

١٢١/١ له الشرع ، فإنهم يذهبون عند أحد الأمراء أو مشايخ الحكم لأن ليس عندهم مشايخ دين . وهذا الشيخ أو هذا الأمير ينهي الدعوى بينهم على أساس الوفق والصلح ، لا على قياس الشرع . والسبب بذلك أنك إذا أنهيت الدعوى على حسب الشرع ، لا بد من أن يكون أحد الخصمين مفشولاً ، كما هي العادة . وإذا كان مفشولاً لا يقنع بل يذهب ويثير حمولته ، يعني طائفته وأصحابه ، ويغير على طرش عدوه ، وتحدث فتن وخصومات ويأخذ حقه بيده من غير قاض ولا مفتي . فلعلم الأمراء والمشايخ بذلك ، فإنهم ينهون الأمور بالمصالحة ، لكي لا تكثر الفتن والعداوة فيما بينهم . وحدث أن شابين من قبيلتين مختلفتين كان لأحدهما بنت عم جميلة الصورة ، فوضع عينه عليها ليأخذها ، وهي تحق له شرعاً كما هو معلوم ، إلا أن الشاب الغريب وضع عينه عليها أيضاً ويريد أن يأخذها . فدخل حبها في قلب الاثنين ، وابتدأت المشاجرات والجدالات والقتال بينهما . فكان ثلاثة أرباع العربان [مع ابن العم ، وكذلك] كل الأمراء والمشايخ حتى أنا من الجملة ، أولاً لأن ابن عمها شرعاً أحق من الغريب ، ثانياً لأنه رجل لائق عاقل إنساني[10] كريم ، معروف بين العربان ، طعّام عيش ، جميع صفاته محمودة[11] . أما الثاني فغريب ، من طائفة وضيعة معلول النسب ، غير أنه فارس عظيم

١٢١/٢ مشهور بين العربان وله أقرباء وأخوة فرسان يهابهم العرب/بسبب فروسيتهم . [وكانت تحدث] كل يوم اجتمعات عند الأمراء ، وجدالات[12] وقتال وعداوات . وفي كل اجتماع يحكمون أن البنت لابن عمها ، وهذا الحل أفضل وأحسن شرعاً بالنظر إلى شريعتهم . وكان آخر اجتماع عند أميرنا الدريعي ، بحضور جملة مشايخ وأمراء وكبار العرب . فالجمهور جميعه حكم وجزم أن ابن عمها يأخذها ولا يكون غير ذلك . فحين رأى الشاب أنه قد خسر ، وأن البنت قد راحت من يده ، قام من المجلس بكل حمق وغيظ ، وركب على ظهر جواده ، وأخذ رمحه بيده وهزّه أمام بيت الدريعي وقال : هذا القاضي وهذا الشرع (يعني رمحه) ، والتفت إلى

(٩) مايقوله الصائغ عن القضاء البدوي يجب إعادة النظر فيه على ضوء الأبحاث الحديثة .

(١٠) « آدمي » .

(١١) « من جميعه مليح » .

(١٢) معالجات .

ابن عم البنت الذي هو غريمه وقال له : يا فلان خذ حذرك مني ، إن شاء الله لا أدعك تتهنى بها ولا ليلة واحدة ، وساق فرسه وتوجه إلى بيته . فاصفر وجه الشاب ابن عم البنت من هذا الكلام وأيقن بالموت من يد خصمه ، وجميع الناس تكدروا وصاروا في حيرة لأنهم تأكدوا أنه سيقتله ، لأنه قادر على قتله وقتل خمسين رجل مثله . ثم انفض المجلس وبقي الشاب وأبوه

١٢٢/١ تلك الليلة عندنا ، أولاً من الخوف وثانياً لكي ندبرهم/بطريقة حسنة . فاجتمعنا بعد العشاء بخلوة ، مع الدريعي والخواجه لاسكاريس والشاب وأبيه وأنا . فقال الدريعي : يا جماعة هذا الشاب سيقتل لأن خصمه رديء جداً ، وبسبب قتل هذا الشاب ستتحرك العربان ، وتحدث فتنة كبيرة وسفك دماء وغارات ، وتنقسم العرب شطرين ويحصل لنا تعب . والعربان يريدون مثل هذه الأمور ، ليجعلوها وسيلة للكسب والنهب من بعضهم ، لأن هذه صنعتهم[١٣] ومقصودهم ، قبح الله هذه المادة والله ينهيها على خير . فبعد أن انتهى الدريعي من كلامه قال الشاب : أنا عدلت عن البنت ، فاعملوا الذي يريحني ويريحكم ويريح العرب ويطفئ نار هذا الشر . فقال الدريعي : يا جماعة إذا أحضرنا الشاب وأعطيناه البنت ، نكون منكوسين ونظهر بمظهر الفاشل ونبدو وكأننا خفنا منه ، ويبقى العار علينا ، وعليَّ بادئ بدء ، لأنني أول من حكم وجزم أن البنت لابن عمها ، ولكن نريد طريقة حسنة كي لا نطلع بالخجل . فقال أبو الشاب : دبرنا يا معلم إبراهيم (يعني الخواجه لاسكاريس) . فقال المذكور : هذا شيء سهل ، وهو أن تتكلموا مع الفتاة وتفهموها الواقع ، وهي تقول : لا أريد

١٢٢/٢ ابن عمي بل أريد فلاناً ، فيبقى القول لها والذنب/عليها . وأما أنتم فلا يقع عليكم لوم ولا خجل . فاستحسن الجميع هذا الرأي وثاني يوم تكلموا مع الفتاة ورضيت غصباً عنها ، وأرسلوا خبراً إلى الشاب فحضر ليأخذها ، وتم له النصيب وأخذها قهراً ورغماً عن الشرع وعن جميع الناس .

فبما أن هذه حالهم فأية شريعة عندهم ؟ فهم جماعة يعيشون في البرية بحرية عظيمة ، لا ينقادون لشرع ولا يعرفون ما هو الشرع[١٤] .

وأما بخصوص زواجهم فإن العريس يعطي العروس نقداً على قدر إمكانه ، أما جملاً أو ناقة أو نعجات أو فرساً ، على حسب الرضى وعلى قدر إمكانه . وإن وجد في القبيلة أحد

---

(١٣) « كارهم » .

(١٤) يعيش البدو على الأعراف وينقادون لها ، كما بيناه في كتابنا : « الحقوق في المجتمع البدوي » .

يعرف الكتابة ، يذهبون عنده ليكتب لهم كتاباً ، على قدر معرفته ويشهد الحاضرون . وإن لم يكن هناك من يكتب فإنهم يذبحون ذبيحة[١٥] ويتعشون ، ويشهد من كان حاضراً ، ويدخل العريس على عروسته . وقد زوجت أنا كثيراً منهم وكنت أكتب لهم ورقة : قد أذنت لفلان وأجريت نكاحه على فلانة بنت فلان بنقد هو كذا كذا . وأضع أسماء الشهود الحاضرين . فيقوم العريس ويقبل يدي ويذهب ليأخذ عروسته . وعلى هذه الصفة زوجتُ كثيراً من العرب .

ثم بخصوص الوراثة فهم على موجب الشريعة المحمدية كل ابنتين بذكر . إلا أنهم لا يُوَرِّثونَ البنات الخيل بل يعطونهن حصتهن من غير صنف وتبقى الخيل/للذكور . ١٢٣/١
وأما ذلك[١٦] فنادر الوقوع ، لأنهم لا يقتسمون إلا بالصدق ، ولأنهم ليسوا مثل الحضر ، سكان المدن ، أصحاب أرزاق وبساتين وكروم وتجارة ودور ملك . فليس لهم شيء من هذا فقط جمال لأجل تحميل البيت والحوائج حين الرحيل ، وبعض الناقات لأجل أن يشربوا[١٧] حليبها ، ورأس أو رأسا خيل على حَسَب البيت . فهؤلاء هم المتوسطو الحال . وأما الأكابر والأمراء فإنهم لا يقسمون قط ، بل يبقى البيت دائماً من الأجداد إلى أولاد الأولاد ، وذلك لكي لا يكثر اسم هذا البيت ، لأن ، كما ذكرنا سابقاً ، أعظم يمين عندهم في بيوت الأكابر . وإذا قسّموا كثر اسم هذا البيت فلا يبقى موقراً وعزيزاً ، إذ كما هو معلوم كل شيء إذا كثر لا يسمى عزيزاً ولا يكون محترماً .

وعندهم أيضاً الطلاق ، ولكنهم لا يطلقون نساءهم أبداً ، لأن عندهم الطلاق عيب ورذالة كبيرة . ودائماً يُعَيِّرُونَ أهل المدن بمسألة الطلاق ، ويقولون أن أصحاب المدن ليس لهم ناموس ، فكيف يرضى الإنسان أن حرمته ، التي نامت معه عدداً كبيراً من الأيام تكون الآن مع غيره ينام معها . واعجباه كيف لا يخجل الرجل حين يرى زوج امرأته الجديد بالسوق . / ١٢٣/٢
وخلال كل إقامتنا عند العرب لم نرَ أحداً طلق امرأته . ولكننا سمعنا أن واحداً كان طلق امرأته لأجل مادة جسيمة . فمن كثرة ضحك العربان منه واستهزائهم به بقولهم : امرأتك يا فلان يفتعل بها اليوم فلان . فاضطر أن يترك بيته وأهله ورزقه ونزل إلى حماة وخدم عند آغا غريب كيته (؟) ومات في حماة غريباً .

(١٥) الذبيحة لا تقوم مقام الكتاب إلا أنهم يكتفون عندئذ بها.

(١٦) كذا ولا نعلم ما هو المقصود بهذه الكلمة.

(١٧) «يأكلوا».

فالمكروه عند العرب : الطلاق ، والضراط ، وكلام السفه[١٨] ، والخاين ، والذي ليس له قول ، والبخيل ، والجبان بالحرب . فأصحاب هذه الخصال يكونون سخرية العربان ، ويشهرونهم ويجعلونهم مهزأة لهم ولا يسمحون لهم بالقعود في مجالس الكبار . وأما السارق ، فمقبول عندهم لأن أكثر معيشتهم من السرقة . لأنهم لا يسمون سرقة الشيء الذي يأخذونه بالقوة ويزعمون أن كل شيء أخذوه بعد قتال لا يسمى سرقة ، لأن القافلة أو القرية أو القبيلة المعادية لا تسلم نفسها من غير حرب ، وكل شيء يحدث بسببه حرب يسمى كسب قوة لا سرقة . وعندهم هذا شيء حلال ، وكم من مرة اعترضنا عليهم وقلنا لهم أن تشليح القوافل والغارات على أرزاق الناس حرام . فكان جوابهم أن مال أبينا آدم لم يقسم بل بقي مشاعاً ، ونحن أولاد آدم وحواء ./ ١٢٤/١

ليكون معلوماً عندك أيها القارئ ، إن الأحوال والأمور التي شاهدناها عند العرب ، خلال سبع سنوات من السياحة ، لم يرها أحد من السواح غيرنا . فهم جماعة سريعو الغضب وسريعو الرضى ، أقل حركة تغضبهم وأقل كلمة ترضيهم . قوم يحبون الفتن والحروب والمعارك والغارات سواء على بعضهم أو على الطوائف الغريبة ، أولاً لأجل تمرهمهم[١٩] بالحرب ، ثانياً لأجل المكسب لأن هذه تسليتهم وأسباب معيشتهم[٢٠] ، ولهم موارد أخرى ، فالأمراء والشيوخ الذين عندهم طروش جمال وخيل ، يطلع كل سنة أناس ليشتروا منهم الخيل الذكور والجمال ، لأنهم لا يبيعون الخيل الإناث ولا النوق بل تبقى عندهم لأجل التولّد[٢١] ، والنوق أيضاً لأجل التولد أولاً ولأجل حليبها ثانياً ؛ لأن حليب النوق أكبر قوت لهم . وكذلك التمر والتُمَّن[٢٢] الذي يطلع في بلاد العراق والبصرة وبغداد مثل الأرز . وأما اللحم فإنهم يأكلونه قليلاً . فهم أناس قنوعون بالمأكل جداً ، أقل شيء يشبعهم ، ولهم صبر[٢٣] على الجوع والعطش والحر والبرد والتعب شيء لا يوصف . فبعضهم يستطيع أن يركض مثل الحصان طول النهار بالحر ، كذلك يستطيع بعضهم أن يصبر على الجوع والعطش ثلاثة أو أربعة أيام .

---

(١٨) يريد : الكلام السافل .

(١٩) كذا ، فهل يريد تمرنهم أو مهارتهم ؟ .

(٢٠) « تسلايتهم وسببهم » .

(٢١) « الخلفة » .

(٢٢) التُمَّن : الأرز على لغة أهل العراق .

(٢٣) « ضَبَّان » .

٢/١٢٤ ولكل واحد زنار من قدّ[٢٤] مضفور رفيع ملفوف على بطنه/نحو عشرين دوراً. وحين يجوع يشد هذا الزنار ويشرب قليلاً من الماء ويقول الحمد لله شبعتُ، وليس عندهم شراهة بالأكل. وكذلك كسوتهم وضيعة سواء كان واحدهم أميراً أو صعلوكاً[٢٥]: قميص من الخام، وزنار من الجلد، وعباءة أو فروة من جلد الغنم[٢٦]، وفي رأسه كوفية وعقال صوف مجدول تشتغله النساء وتهديه للرجال، وهم حفاة من غير شيء بأرجلهم كلياً، إلا الأمراء والمشايخ والأكابر منهم فلهم جزمات يلبسونها حين يركبون أو حين يزورهم أحد من كبار الناس أو حين يذهبون لعمل الزيارات[٢٧] إلى بعضهم. وأما في باقي الأوقات فهم حفاة. وصدف أن واحداً من العرب نزل لدمشق ليشتري له جزمة، فدخل إلى أحد الدكاكين وطلب من البائع جزمة تدوم دهراً[٢٨] ولا تتمزق. فأعطاه جزمة وشرط عليه أن لا يلبسها إلا حين يركب ومتى نزل يخلعها ويخبئها، فحفظ البدوي تلك الوصية ودامت الجزمة عنده نحو عشرين سنة، وكان يمدح الذي باعها ويدعو له لأنه نصحه وأشار عليه شوراً حسناً. النتيجة مصروفهم قليل جداً إذ ليس هناك سبب للمصروف، وكما ذكرنا مأكولهم وضيع وملبوسهم وضيع أيضاً،

١/١٢٥ وغناهم وفقرهم من بعضهم، لأن الغارات/مستمرة، ومهما عملتَ من صلح بينهم فإن هناك دائماً قبائل تشن غارات على بعضها بسبب كثرتها. وفي اجتماعاتهم مع بعضهم لا يتكلمون إلا عن الحروب، والمعارك، وملحمة القبيلة الفلانية، والكسب الذي حصل اليوم الفلاني، وعن أمور سياستهم، وما شابه ذلك، لأنهم لا يعرفون إلا الأمور التي ذكرناها. وليس عندهم تجارة ولا مهن[٢٩] ولا فلاحة، [ولا يعرفون] غير أمور الحروب، ومدح[٣٠] الرجال الشجعان، وذم الرجال الجبناء، ومواقعهم مع العثماني ومثل هذه الأمور.

ثم بيعهم وشرائهم من بعضهم البعض قليل جداً، وجميعه بالمقايضة[٣١]، دون إعطاء دراهم، مثلاً يعطي فروة ويأخذ مشلحك ويعطي فرسه ويأخذ فرسك وجملاً، يعطيك ناقة

---

(٢٤) جلد.

(٢٥) «امير ام صغير».

(٢٦) «غنامية».

(٢٧) «فيذيتات».

(٢٨) «ضيان».

(٢٩) «كارات».

(٣٠) «الانشاد».

(٣١) «بالدواكيش»، أي بالتبادل.

ويأخذ نعجات ، الخلاصة أن الحاجة التي تكون أثمن يأخذ صاحبها من الثاني زيادة ، ليس من الدراهم بل من الأمتعة ، لأن الدراهم قليلة جداً لا تكون إلا عند الكبار ، لأن لهم خوّات وعندهم طروش يبيعون منها ، وللبعض صرة معلومة من الحج . أما الرعايا فبوسعي أن أؤكد أن من العرب من لا يعرف حتى شكل الدراهم .

أما بخصوص نسائهم ، فإنهن يتعبن أكثر من الرجال ، لأن كل التعب على الحريم ، مثل جلب الماء والحطب ، والطبخ ، وحلب النوق ، وتحميل البيوت عند الرحيل ، ونصبها وقت النزول . وأما في المسير فإن جميع النساء تركب ، فلا ترى حرمة ماشية ، لأن ذلك عندهم عيب كبير ، ولكن ترى كثيراً من الرجال مشاة إذ بينهم كثير من الفقراء ليس عندهم مركوب . وبالحقيقة إن كل التعب على الحريم إلا أنهن موتّرات وكلامهن مسموع مثل نساء بلاد الإفرنج . وكثير من الأمور ، من كلية وجزئية ، تجد النساء لها حلاً ، لأن الكثير منهن لهن قوانين[٣٢] وعادات[٣٣] مثل الإفرنج ، بضد طرائق الإسلام الحضر . أولاً ليس عندهم خباء ، لا من بعضهم ولا من الغريب . ثانياً أن جميع تدبير البيت بيد الحريم ، ثالثاً لا يبت أحد بأمر إلا بعد أن يستشير حرمته ، فإن استحسنت تدبيره عمله وإن لم تستحسنه لا يعمل به ، رابعاً دماؤهم حامية من أدنى سبب يثورون وتقع الفتن سواء مع بعضهم أو مع الغريب ، كذلك لا يتعشون في القيظ الشديد[٣٤] ، فيتناولون طعام العشاء أحياناً قرب منتصف الليل ، خامساً لا يتزوج أحد بامرأة إلا بعد عِشْرة معها . سادساً لا يبول أحد وهو قاعد مثل الإسلام بل وهو واقف ، واعترضنا عليهم مراراً بذلك فكان الجواب من الأنسب أن نلوث[٣٥] أرجلنا من أن نلوث وجوهنا[٣٦] ، فرأينا ذلك عين الصواب ، سابعاً منذ أن يخلق الولد إلى أن يموت لا يحلق رأسه بل إن شعورهم دائماً مرسلة مثل الإفرنج[٣٧] . ثم عندهم أن الذي يموت على فراشه رذيل[٣٨] ، ويقولون عنه فطس ولا يقولون مات ، وأما الذي/يموت ١٢٦/١ بالحرب فإنهم يقولون عنه مات بعزه شهيداً ، ويترحمون عليه ويقومون الصدقات على روحه ،

---

(٣٢) يريد عادات .

(٣٣) « وذيات » (؟) .

(٣٤) عبارة الصائغ مبهمة جداً فهو يقول : « كذلك لا ينعشوا إلا لقيذ كثير » .

(٣٥) « نطرطش » .

(٣٦) لم أرَ قط بدوياً يبول واقفاً .

(٣٧) البدو يقصون شعورهم ويحلقون رؤوسهم ولكن أقل بكثير من الحضر .

(٣٨) قال خالد بن الوليد عند وفاته : « ها أنا أموت على فراشي مثل اللئيم » .

لا سيما إذا قتل بمعركة مع الروم (يعني العثماني)، فذاك مرحوم ومغفورة ذنوبه، لأن العثماني، إذا استطاع، يدخل ويقتل ويسبي الحريم. فلهذا السبب، مَنْ قُتِلَ في حرب مع العثماني يكون عندهم مقبولاً لأنه حامى عن عرضه وماله، وقتل بشرفه أمام عياله، ولا يحزنون عليه. وعندهم البكاء على الميت حرام والحزن حرام. والبكاء على الميت لا يكون قط أمام الرجال، ولكن إذا كان الميت عزيزاً على أهله فإن النساء يعملن نياحاً عليه وحدهن، فيخرجن خارج البيوت حتى لا يراهن الرجال، إلى مكان بعيد عن البيوت ويعملن نياحة ويقلن القصائد ويبكين. وأما الصراخ مثل أهل المدن فغير موجود عندهم. وهذا الشيء يحصل نادراً لبعض الأمراء ومشايخ مناصب فقط.

[نهاية الرحلة]

ثم من الآن وبعده سنتكلم على ختم السيرة لكي يكون مربوطاً بالكراس الرابع عشر، حتى يعلم القارئ كيف كان منتهى سياحتنا.

○

فمن بعد وصولنا إلى جبال شمّر والجوف، أصابتنا تلك ريح السموم كما مرّ في الكراس ٢/١٢٦ الرابع عشر، ثم لم نزل نتنقل مع العربان إلى بلاد حوران ونزلنا إلى دمشق./وسرنا إلى حلب، ومن هناك أردنا الذهاب براً إلى اسلامبول إذ كان بلغنا حضور بونابارته بالجيش العظيم إلى بلاد المسكوب[1]. ثم لم نزل نتنقل من بلد إلى بلد وحدنا، من غير مرافقة قفل، إذ لم يتيسر لنا قافلة وقتئذ، فقط الخواجه لاسكاريس وأنا وخادم أرمني، وكان فصل الشتاء، وقد انقطعت الطرق من الثلج والبرد الشديد وأثناء مسيرنا في إحدى القرى ماتت فرسي النجدية العظيمة التي كان أهدانيها الوهابي، وكنت مزمعاً على إعطائها إلى اللاجي[2] واستنفع

(١) يخبط الصائغ بالتاريخ خبط عشواء، لأن نابليون احتل موسكو في ١٥ أيلول سنة ١٨١٢. ومن سياق الحديث يستدل على أن الذهاب إلى اسلامبول كان سنة ١٨١٤ أو شتاء سنة ١٨١٣.

(٢) كذا ولعله يريد الألجي أي السفير.

بثمنها، لأنها كانت تساوي مبلغاً وافراً من المال، فمن جملة النحوس أنها ماتت. فصرت تارة أمشي وتارة أركب قليلاً مع الخادم إلى أن دخلنا اسلامبول، وأقمنا بالطريق ثلاثة أشهر ونحن بعذاب شديد. فحين وصولنا بلغتنا الأحوال التي جرت على الجيوش الفرنسية في مدينة موسكو ونواحيها فغمنا ذلك جداً، وزاد الغم علينا إذ حدث وقتئذ طاعون في اسلامبول، فاضطر حضرة الجنرال اندريوسي[(٣)]، الذي كان السفير[(٤)] يومئذ، أن يرسلنا إلى محل خارج البلد يقال له **كاغة خانه**، فأقمنا هناك ثلاثة أشهر إلى أن انتهى الطاعون. وكانت تواردت ١٢٧/١ الأخبار بانكسار الجيش الفرنسي وتراجعه وتلك الأحوال/التي حصلت المعروفة، فصعب علينا ذالك جداً وأصابنا غم شديد، وأصبحنا لا نعرف ماذا نفعل، وكنا مثل المجانين. وبعد أن أقمنا خمسة أشهر في اسلامبول قال الخواجه لاسكاريس: أنا الرأي عندي أن نتنقل بحراً من جزيرة إلى جزيرة إلى أن نعود إلى بر الشام، وفي مسيرنا نستنشق أولاً أخبار فرنسا، ثم أريك جزر ارشيبيلاكو[(٥)] ونرى كيف الله تعالى يدبرنا. فاعتمدنا على هذا الرأي، وسافرنا من اسلامبول مع قايق أروام، ودرنا بعدة جزر، وكانت الأخبار تأتينا بعكس ما نتمناه.

ثم سافرنا من جزيرة الساموس، مع مركب آتٍ من اسلامبول يشحن قمحاً إلى جزيرة الساقظ، فسافرنا معه تلك الليلة، وبعد منتصف الليل ابتدأت عاصفة عظيمة وإعصار شديد جداً، فذهب بعدد من البحارة وأخذ بعض الركاب من على ظهر المركب، فرمينا الحنطة بالبحر، ولم يبق برميل ولا صار ولا شراع [إلا ذهبت به الرياح]، فدخلنا جزيرة الساقظ ونحن على آخر رمق، فوجدنا بالجزيرة الطاعون فظللنا شهرين في دار صغيرة في حصار من الطاعون تحت اشراف الخواجه بورفيلو[(٦)] الذي كان عندئذ قنصلاً. وخلال هذه المدة توسخت ثيابنا وأصبح من اللازم غسلها غير أننا كنا لا نستطيع أن نعطي حوائجنا ١٢٧/٢ خارج البيت خوفاً من الطاعون، فوجدتُ من المستحسن أن أقوم أنا بغسلها، وكنتُ رأيتُ/ النساء تغلي الحوائج فتنظف عاجلاً من غير تعب الأيادي. فأخذت من عند بيت القنصل دستاً كبيراً جداً من النحاس، وصبرت إلى الليل لكي أضع فيه الحوائج التي علينا وأغسل الجميع غسلة واحدة، وحين كان وقت النوم وضعت جميع حوائجنا في ذلك الماعون،

(٣) Andréossy كان سفيراً من ١٨١٢/٥/٢٦ إلى ١٨١٤/٨/١٣.

(٤) (إلْجِيّ).

(٥) Archipielago.

(٦) Bourville.

وأشعلتُ النار وذهبنا للنوم. فقمت قرب الصباح فوجدتُ دخاناً ورائحة حريق، فركضت نحو الدست فإذا بالحوائج مثل الفحم محترقة عديمة النفع لأن الماء قد نشف من طول الليل واحترقت الحوائج، فصرنا تارة نضحك وتارة نتحسّر، واضطررنا أن نبقى نحو ثلاثين يوماً بطاق القمصان التي نمنا فيها ليلة الغسيل وما كان عندنا غيرها إلى أن انتهى الطاعون فطلعنا واشترينا حوائج وكسينا حالنا، وهذا من جملة المصائب.

ثم بعد ذلك نوينا على التوجه إلى بر الشام، وإذ وصل كتاب إلى الخواجه لاسكاريس من قنصل أزمير يطلب منه أن يحضر عنده بشغل، فاقتضى أن يرسلني مع قايق ذاهب إلى اسكندرية، لكي أتوجه إلى بر الشام وانتظره في حماة، وأعطاني مكتوب توصيه إلى حبيبه وهمشريّه[7] الخواجه دروفيتي[8]، وذهب الخواجه لاسكاريس إلى أزمير. فوصلت أنا إلى اسكندرية فوجدت الطاعون أيضاً/بالاسكندرية، فواجهت الخواجة دروفيتي من غير ملامسة، وبعد أربعة أيام سافرتُ إلى بيروت ومن هناك توجهت إلى حماة أنتظر الخواجه لاسكاريس، فأقمتُ أربعة أشهر أنتظره في حماة، وبعد ذلك حضر عندي وأخبرني أن الذين طلبوه إلى أزمير، بوساطة القنصل، هما الجنرالان الشهيران لالمان وسافاري[9]. ثم بعد اجتماعه مع الجنرالين المذكورين رأوا أنه من المستحسن، لأجل عدم كشف المادة، أن يأخذ حماية الإنكليز، فاضطر أن يعود إلى اسلامبول ويدخل عند إلْجي[10] الإنكليز ويطلب حمايته. فقبل الإلجي طلبه، وحالاً أخرج له فرماناً سلطانياً فيه توصية مشددة إلى كامل [الأراضي الخاضعة] للحكم العثماني بإعطاء كل حماية وصيانة له ولترجمانه وأتباعه ومن يلوذ به. فأخذ الفرمان والبوظابرة[11] وحضر إلى عندي لحماة، وأخبرني بالذي جرى، وأعطاني الفرمان. فقلت له: يا سيدي قد غلطتَ، فهذه الحماية ستضرنا، ولكن قد تم الأمر وما عاد ينفع الندم.

١٢٨/١

ثم في أثناء تلك الغضون حضرت والدتي من اللاذقية إلى عندي، لأنها كانت أخذت

(٧) همشري: الرجل الكريم العصامي.

(٨) Drovetti، وكان قنصل فرنسا في الاسكندرية على عهد نابليون الأولى، ثم عزل وقت سقوط الامبراطورية وعاد إلى منصبه بعد ذلك.

(٩) Lallemand, Savary، والواقع أن لاسكاريس قابل هذين الجنرالين في ازمير خلال ربيع سنة ١٨١٦.

(١٠) سفير.

(١١) جواز السفر.

خبراً بمجيء إلى حماة . فبعد فراق سبع سنوات من غير خبر ولا مكتوب كانت قطعت أملها منى . فحين رأتني طار عقلها من الفرح ، وأخذت تعانقني وتبكي ،/ولا تصدق أنها تراني ١٢٨/٢
باليقظة بل تقول هذا منام . ثم بعد قليل من الأيام تم الاعتماد على التوجه إلى مصر القاهرة عند الخواجه دروفيتي[١٢] لأنه يحب كثيراً الخواجه لاسكاريس وهمشري ، وهناك ندبر حالنا ، لأننا رأينا أن الرجوع عند العرب أصبح غير ضروري ودون فائدة . فالتزمنا أن نسافر من حماة و والدتي معنا . فبعد وصولنا إلى طرابلس اتفق أن مركباً كان مقلعاً إلى دمياط فأراد الخواجه لاسكاريس أن يسافر به . فترجته والدتي ، لأنها ما كانت امتلأت من رؤيتي ، أن يسمح لي بالتوجه معها[١٣] للاذقية مدة قليلة ، وبعدها أروح عنده إلى مصر . فبعد رجاء كبير سمح لي أن أتوجه معها[١٤] وأقيم عندها مدة ثلاثة أشهر ، أرى أهلي وأحبابي ، ثم أعود إلى مصر .

---

(١٢) « درويتي » .
(١٣) « معنا » (؟) .
(١٤)

[وفاة لاسكاريس والحجز على أوراقه]

فودعنا بعضنا وهو ذهب إلى دمياط، ونحن رحنا إلى اللاذقية. وفي اليوم الثاني من وصولنا، أول عمل قمت به أني حلقت لحيتي التي كان عمرها سبع سنوات، و وضعتها بورقة وكنت أهدي منها كل محب أو محبة بعض شعرات، حتى فرقّتُ لحيتي على كل أحبابي، وجلست بكل راحة أتمتع بمشاهدة الإخوان، إلى أن مضت الأشهر الثلاثة الموعودة، ونويت ١٢٩/١ على السفر، وكنت أترقب فرصة الذهاب إلى مصر/وإذ حضر مركب بيليك[1] فرنساوي من الاسكندرية، وأخبرنا بوفاة المرحوم لاسكاريس في مدينة مصر بمرض الظلطارية[2] فحين بلغني هذا الخبر المشؤوم، لا يتصور أحد حالتي مما أصابني من الغم والحزن والكدر، لأنني أولاً كنت أحبه جداً وأصبح عندي مثل والدي، ثانياً تأكدت أن سياحتنا خلال سبع سنوات[3] وتعبنا ذهبت سدى من غير ثمرة، ثالثاً تيقنتُ أن أجرتي مدة سبع سنوات، عن كل سنة ألف غرش، بموجب الشرط الذي بيننا، ما عدت أستفيد منها بمصرية واحد. فجلستُ باللاذقية حزيناً مكسور القلب والخاطر. ثم بعد مدة أرسل الخواجه دروفيتي بمكتوب يطلب حضوري عنده، لندبر مادة المرحوم لاسكاريس. ففرحت نوعاً ما وبالحال،

---

(١) brick، سفينة.

(٢) كذا ويريد الظنطارية أو الزُحار. والواقع أن لاسكاريس توفي سنة ١٨١٧ وقد يكون مات مسموماً.

(٣) مدة الرحلة مبالغ بها لأن ابتداءها كان في ١٨ شباط ١٨١٠ ونهايتها بعد رجوع الصائغ من الدرعية أو بعد سفره مع لاسكاريس إلى استنبول أي شتاء سنة ١٨١٣.

عند أول فرصة، توجهت إلى القاهرة[٤]، فما وجدته بها، ولكن أخبرني الخواجه دوساب، الطبيب[٥] الفرنساوي، أنه في بلاد الصعيد، ذهب ليبحث عن العاديّات[٦]، فاضطررتُ أن أذهب إلى الصعيد، فوجدته في بلد يقال له أسيوط. وهناك أخبرني أن قنصل الإنكليز، مستر سالط[٧]، أخذ جميع ما كان مع لاسكاريس وحجز عليه، من آلة هندسة عظيمة، وكتب، وأوراق، وقطع/عاديّات، وكل ما وجد معه، وسبب ذلك لأنه مات تحت حماية الإنكليز. فالآن الرأي عندي، حين تصل إلى مصر، أن تذهب عند قنصل الإنكليز، وتطلب كتب معلمك لاسكاريس وأوراقه وتترجاه لكي يعمل لك طريقة لتحصل على نتاج علوفتك[٨]، وأكثر الأمل أنك تستطيع الحصول على كتاب سيرة سياحتكم، المأخوذ من اليومية بخطه باللغة الفرنسية، فأنا اشتريه منك بالمبلغ الذي تريده. فكن رجلاً شجاعاً ولا تخف. ١٢٩/٢

ثم حين كنا بالقاهرة، ذهبت عند القنصل وطلبت جميع ما ذكرنا. فعبس وجهه وقال: أنا أعرف من علمك وأرسلك عندي تطلب ذلك، فجميع ما تطلبه لا تستفيد منه بشيء، لأن [الرجل] مات تحت حماية إنكلترا، فهو من رعايانا وليس له وارث. فبموجب أمر الدولة حجزتُ على موجوداته، وأرسلتُ بها إلى لوندره.

فرجعت وأخبرت الخواجه دروفيتي فقال: كذب، لم يرسل بشيء، وحفظ بالجميع عنده. فعدتُ ثاني يوم عنده بكل جراءة وطلبت منه جميع حوائج لاسكاريس. فعبس بوجهي واغتاظ جداً وشرّدني من بيته بكل حماقة وأرسل إلى كتخداي بك محمد علي باشا وترجاه أن ينفيني[٩] من البلد، ليخلص مني بالكلية. ولولا جاه دروفيتي ومحبته مع الباشا، لكان حصل لي أذية وكسر خاطر./ ١٢٩/١

ثم بعد ذلك سافر الخواجه دروفيتي، وبقيت أنا بعد ذلك مدة في القاهرة[١٠]، ثم

(٤) «توجهت لمصر».
(٥) «الحكيم».
(٦) «يحوش انتيكات».
(٧) Salt استلم مهام وظيفته سنة ١٨١٦.
(٨) علوفة، مرتب شهري أو سنوي، والصايغ يريد ما يستحق له من أجرة.
(٩) «يسركلني».
(١٠) «مصر».

توجهت إلى دمياط، ومن هناك رجعت إلى اللاذقية من غير فائدة كلياً، وخسرت جميع مصاريف سفرة مصر من مالي، وراح التعب والشقاء باطلاً، ودخلت اللاذقية وصرت أبحث لي عن عمل أعيش منه.

وهكذا كان منتهى سياحتنا سيئاً جداً: مات المعلم وذهب سدى تعب التلميذ وأجرته، ورجع إلى حضن أمه كما كان خرج من عندها والسلام.

ملحق

رحلة الصايغ إلى الدرعية (مترجمة من الفرنسية) وتعليق الشيخ الحنبلي عليها، وملاحظاتنا

نقلاً عن مخطوط تحت رقم ٢٢٩٩، محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس.

« أقول، وأنا الفقير إلى الله تعالى، فلج أنس فرسنل[١] الفرنساوي، هذه نكتة أخذتها من رحلة مسيو الفونص دلامارتين الشاعر الفرنساوي، وكان أصلها كتاباً عربياً لفتح الله الصائغ الحلبي، ولم يمكني تحصيل هذا الأصل، فرجّعْتُ القصة من الفرنساوية إلى العربية، لكي أطلع عليها أرباب الخبرة من العرب، وأعلم من شهادتهم هل صدق فتح الله أم لا، فالمرجو ممن نظر في هذه الترجمة، وشاهد هذه الحادثة أو وصله علمها أن يخبر بصحته الموافق وكذلك بالمخالف. حرر بجدة في شعبان سنة ١٢٥٣[٢] ».

ولما اطلع عليها العلامة العمدة الشيخ الحنبلي[٣]، كتب عليها ما نصه:

« نظر فيها الفقير إلى مولاه العلي، أحمد بن رُشَيْد الحَنبلي، فوجد صاحبها لم يصدق

---

(١) Fulgence Fresnel.

(٢) ١٨٣٦.

(٣) بعد أن استولى إبراهيم باشا على الدرعية سنة ١٢٣٣/١٨١٨، ألقى القبض على الشيخ أحمد بن حسن بن رُشَيْد وأمر بقلع أسنانه. ثم ذهب به إلى القاهرة حيث أحسن والي مصر معاملته وأسند إليه التدريس في القلعة وفي الأزهر إلى وفاته سنة ١٢٥٧/١٨٤١.

في شي مما أخبر عنه، لا في وصف سعود ولا كلامه ولا أفعاله، ولا صدق من جهة وصف الدرعية ولا عادات جماعات سعود وعزائمهم، ولا أسماء الوزراء، ولا أبو مسلم ولا الحضرموتي ولا هيدل[٤]، ولا في عدد أقارب سعود[٥] ولا أولاده، ولا في طعامه ولا في مال الحجرة ــ أربعين جمل تحمل الجواهر خاصة ــ ولا في قوله أن أهل المدينة وأهل مكة[٦] واليمن يأتون إلى الدرعية في كل أربعاء للسوق وخروج النسوة، ولا أرى هذا الرجل إلا كذاب مزور أشِر بَطِر.

ولنا صاحب من أكبر أهل الدرعية، ابن للشيخ الوهابي، موجود الآن تحت سفرية أفندينا الخديوي، اسمه إبراهيم ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، من المشايخ الركع العبّاد العلماء، لما عرضت عليه كلام هذا النصراني، رأى مثل ما رأيتُ، وكذبه مثل ما كذبته، وأخبر أن الدريعي ما قدم الدرعية، لا في أيام سعود، ولا في أيام أبيه عبد العزيز ولا في أيام ابنه، وقد أشرتُ في الكتابة بتكذيبه باختصار، وهذه إشارة بالإجمال، وحَسبُنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم». هذا كلامه بحروفه[٧].

قال الفقير إلى ربه تعالى فتح الله الصايغ النصراني الشامي في كتاب رحلته ما معناه:

«ثم وصلنا إلى كرسي مملكة الوهابية، بعد أربعة عشر يوماً من سفرنا من الشام[٨]، ونحن راكبون على الهجن، فالمسافة كلها قدر أربعين يوماً من سفر القوافل ومشي الجمال، والمسافرون ــ غير الفقير ــ أحد عشر وهم: الدريعي بن شعلان، شيخ الرولة، وكان يحكم على القبائل الشمالية والشرقية جميعها من حدود الهند إلى البصرة وحد نجد، ومن العراق والجزيرة والحماد إلى الشامين وحوران والجليل»[٩].

(٤) الصايغ يكتب: أبو السلام وعبد الله المدّال.

(٥) وصف الصايغ عبد الله بن سعود، أما الشيخ الحنبلي فيتكلم عن سعود.

(٦) الصايغ تكلم عن أهل مخا.

(٧) من الجدير بالتنبيه إليه أن الشيخ الحنبلي، عندما كتب هذا التعليق، كان عمره زاد على تسعين سنة، وكان مضى على مغادرته الدرعية نحو خمس عشرة سنة.

(٨) كان السفر من الصحراء المعروفة بالحَمّاد، قُرْبَ هيت، على الفرات.

(٩) هذا الوصف لسطوة الدريعي غير موجود في الرحلة.

كتب الشيخ الحنبلي ما نصه:

« الدريعي شيخ عرب من عرب الشام، ولا يحكم على جميع عربان الشام، كيف يحكم على ما ذكره هذا الكذاب، وفي قبائل الشمالية والشرقية والشامية نحو من سبعين حاكماً مثل الدريعي ».

وكان قد جرى الحرب بينه وبين ابن سعود الوهابي، فغلب الدريعي في بعض الوقائع، ثم دعاه ابن سعود للاصطلاح والمحادثة في شروط الصلح، فذهب إلى نجد ومعه ابنه سعدون وابن أخيه، واثنان من رؤساء جنوده وخمسة عبيد من السودان، وجميعنا راكبون على هجن.

كتب الشيخ الحنبلي:

« لا نعرف أن سعود غزا الدريعي فغلبه، إن كان بعض العرب من أتباع الوهابي غزا على الدريعي فغلبه الدريعي ربما. وأما سعود فغزا ستاً وخمسين غزوة، صغيرة وكبيرة، لا يُعرف أنه غُلِبَ وهُزِمَ في واحدة ».

فوصلنا الدرعية بالسلامة، وتلك المدينة يحيط بها نخل كثير، وهي متقاربة ببعض، لا يكاد يفوت الفرس بين جذوعها، فتستتر البلدة وراء ذلك السور الأخضر، وسموه نخل الدرعية. ولما عبرنا النخل المذكور وجدنا تلالاً كأنها سور ثان من نوى التمر، وهي تشبه سدود حصى، ووراءها سور المدينة الحقيقي، فسرنا بجانبه حتى وصلنا إلى باب، ومن ذلك الباب إلى قصر سعود.

كتب الشيخ الحنبلي:

« النخيل لا يحيط بالدرعية، وهذه صورة الدرعية مع النخيل:

نخيل

نصف الدرعية

نصفها الثاني

نخيل

وبين النخيل واد مفتوح ، يُدْخَل منه إلى الدرعية من غير سور ولا أبواب ، قدر ربعها ، يقال له باب سمحان ، ولا يدخل من ذلك أحد من المسافرين»[١٠] .

وقصره واسع ذو دورين ، وهو مبني من حجر أبيض منحوت جيداً . فلما بلغ ابن سعود خبر وصولنا أمر بإدخالنا إلى محل من محال قصره ، منظوم ظريف الأثاث فجلسنا فيه ، ثم جيء بطعام وافر فأكلنا ، وتفاءلنا بالخير وشكرنا الله تعالى ، حيث لم نُطِعْ مَنْ خَوَّفنا من السفر . ولما جاء المساء نظمنا ملابسنا وتزينا ثم حضرنا لمقابلة الملك ، فرأينا رجلاً كان عمره خمساً وأربعين سنة ، في عينيه عبوس واتساع ، وجلده أسمر ، ولحيته في غاية السواد ، عليه قباء مشدود في وسطه بحزام أبيض ، وعلى رأسه عمامة مخططة خطوطاً حمراء وبيضاء ، وعلى كتفه اليسرى مشلح أسود ، وفي يده اليمنى قضيب ملك ، كأنه علامة ملكه[١١] .

كتب الشيخ الحنبلي :

«[لحيته] في غاية البياض[١٢] . [وهم] يلبسون القبا ولا تحزم الأحزام السلاح . [وفي يده] ليس بقضيب بل مشعاب ، وليس علامة على الملك ، بل ينقله العام والخاص» .

وكان جالساً في صدر قاعة مفروشة بالحصر والبسط الفاخرة ، وأكابر مملكته

---

(١٠) إن عبارة الشيخ الحنبلي من الإبهام بمكان ، فكيف يدْخَل إلى الدرعية من واد مفتوح ، وكيف لا يدخل من ذلك أحد من المسافرين؟ ويستنتج من كلامه أن الدرعية ما كان لها سور ولا أبواب ، وكرر مرتين قوله : ليس للدرعية باب (انظر ص ٢٩٨ و٣٠٥)، مما يحملنا على الظن أنها كانت مدينة مفتوحة ، مع أنها كانت محاطة بوسائل دفاعية هامة ، لأن عاصمة الوهابيين كانت مهددة بالحروب والغزوات . ويعلمنا المؤرخ الفرنسي مانجان أن الدرعية كانت مكونة من خمس بليدات : هي شبه أحياء ، وكان لكل واحدة منها سور وأبراج ، وهي غَصيبَة وطُرَفيّة وسَهلْ وقَسَيْرين وطُرَيْف . وكانت غصيبة وطرفية مبنيتين قرب جبل وكانت تحميهما قلعة حصينة (مانجان ، تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص١١٨) . وعندما هاجم إبراهيم باشا الدرعية ، صمدت له القوات الوهابية ، وسدّت بعض العناصر (بوابة سمحان في الطرف الشمالي من القلعة حيث تمركز عبد الله نفسه داخل الأسوار . وفي الخامس من تشرين الثاني ، شن إبراهيم باشا هجوماً شديداً مركزاً على حصون المدينة من جميع الجهات) (عبد الله فيلبي ، تاريخ نجد ، ص١٥٣ و١٥٩) .
فمن الواضح الجلي بعد هذه الشواهد أن قول الشيخ الحنبلي أن الدرعية ما كان لها سور ولا أبواب لا معنى له ، لأنها كانت مقسمة إلى خمسة أحياء ، وكل حي منها كان محاطاً بالأسوار والأبراج ويدخل إليه من باب حصين . ولم يغادر إبراهيم باشا الدرعية إلا بعد أن دمرها ودمر حصونها وأبراجها .

(١١) لم يقل الصائغ أن القضيب علامة ملك ابن سعود .

(١٢) الحنبلي يتكلم عن سعود والصايغ عن ابنه عبد الله .

واقفون[١٣] بين يديه، وكان الديوان والمخدات وملابس الرجال جميعها من القطن والصوف اليماني، حيث أن الحرير محرم في بلاد حكمه، وكذلك جميع الأشياء التي لها رائحة من زهو الترك وعوائدهم كانت محرمة عنده وفي مملكته[١٤].

كتب الشيخ الحنبلي:

«لايرون الوقوف بين أيديهم وعلى رؤوسهم، بل خادمهم ومخدومهم سواء في الجلوس. وسعود لا يحرم عادة الترك ولا غيرهم، بل يحرم ما حرمه الله ورسوله، على قدر معرفته، وهو وأهل مملكته يلبسون الكشمير وجبب الجوخ والبابوج وكثير مما يلبسه الترك».

ولما سلم الدريعي على ابن سعود ردّ عليه السلام بعبوس وانقباض، فجلسنا ساكتين منتظرين كلامه. فبعد نصف ساعة، لما رأى ابن شعلان غضبه وأنه لم يأمر بتقديم قهوة، بدأ بالكلام وقال له: أراك يا ابن سعود لا تقبلنا مع ما نستحقه من الإكرام والفضل، وكنا نتوقع منك غير ذلك. فإنك دعوتنا إلى بلادك ومنزلك فجئنا، فإن نويت على الشر فاظهره ولا تخْفِهِ.

فقال ابن سعود والشرار متطاير من عينيه: أي والله، أي والله، الشر بيننا وبينك، ولنا عليك كثير من الجنايات، وذنوبك أكثر من أن تغفر. فإنك قمت عليّ وخالفتني وأبيت طاعتي، وأغَرْتَ على بني صخر بالشام، وخرَّبْتَ بيوتهم مع معرفتك أنهم تحت حمايتي وحكمي، وأفسدت عليّ أهل الوبر ورشوتهم على مخالفتي، وصيرتهم قائمين على حكمي وكسرتَ جنودي ونهبت مالها وساعدت أعدائي الزرق، وهم الترك المشركون الفاسقون الفاجرون المنجسون.

وبالغ في الغيظ والشتم إلى النهاية، حتى أمرنا بالذهاب عن حضوره والاستنظار إلى صفح خاطره.

---

(١٣) يقول الصايغ: «فقط العبيد قايمين على أرجلهم».

(١٤) يقول حافظ وهبه: «وأمر [سعود] ... بترك لبس الحرير والذهب» (الجزيرة العربية في القرن العشرين، ص ٢١٦). ويظهر أن هذا التحريم كان يجري فقط على الرعية، إذ قال مؤلف «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب»: «وكان [سعود] يحمل السيف دائماً، وسيفه عليه من الفضة والذهب والجواهر، مرصع غلافه بها على صفحات الذهب من جانب أعلاه وأسفله ... وأما لباس نسائه ... فغالبه من الحرير الهندي المصنوع بالذهب ... وقد جملهن من الحلي شيء عظيم من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة» (ص ١٧٦).

قال النصراني : وكنت أنظر إلى الدريعي بن شعلان فأرى عينيه تشتعلان ، ومناخيره تنتفخ ، وأخاف كل لحظة من تلك اللحظات المنحوسة أنه لا يستطيع كظم غيظه فيرد كلام الملك بكلام أشد من كلامه فيهيج غضب الملك أكثر ، ولكنه مع اضطراب فؤاده رأى نفسه بلا نصرة ولا حماية من طرف الملك الذي يلومه ، فامتنع من التكلم وكظم غيظه ، ثم قام بغاية الوقار والهيبة وانصرف بالتؤدة ليشاور نفسه في أمره .

وكانت نجد ترتعد من هيجان ابن سعود لا أحد يتجاسر على مخالفة مراده . فجلسنا في محلنا مدة يومين بلياليها مانسمع شيئاً من أخبار الدولة ، إذ لا يرغب أحد في معاشرتنا . والذين كانوا يكرموننا غاية الإكرام عند وصولنا اجتنبونا الآن ، واستهزأوا باعتمادنا على ذمة رجل قد اشتهر بالخيانة وسفك الدماء ، فكنا في كل وقت نترقب مجيْء أعوان الظالم لقتلنا ، ونتفكر بغير منفعة في كيفية خلاصنا من مخالبه ، ثم في اليوم الثالث قال الدريعي : إن الموت أحسن من التحير والارتياب ، فبعث خلف أحد من وزراء الوهابي كان يسمى أبا السلم[١٥] فقال له : ابلغ سيدك كلامي هذا : كلما تريد أن تفعله فافعله حالاً ، لا أذمك بل أذم نفسي التي ركنت إليك وصدقتك .

فانصرف أبو السلم ولم يرجع ، وما جاءنا من الملك إلا خمسة وعشرون عبداً أسود ، وقفوا ببابنا ، ففهمنا أننا أسراء لا محالة .

كتب الشيخ الحنبلي :

« لا نعرف أبا السلم ولا سمعنا بوزير له يسمى بهذا الاسم ، فمدة مملكة سعود اثنتا عشرة سنة ، ومملكة عبد الله أربع وكسور ، ومدة مملكة أبيه عبد العزيز أربعون سنة ، ومدة مملكة جده نحو ثلاثين سنة ، وما سمعنا لأحد منهم وزيراً يقال له أبو سلم »[١٥] .

قال النصراني : فعندما شاهدت ذلك صرت ألعن الرغبة المنحوسة التي أوقعتني في الخطر ، وهي الرغبة في الإغتراب من خواص النصارى الطبيعية ، وأما الدريعي فلم يكن يخاف من الموت ، ولكنه كان لا يصبر على الحبس والغصب ، وكان يتمشى في سجنه طولاً وعرضاً ، كما يتمشى الأسد الأسير أمام حدائد قفصه ، ثم قال : والله لقد طالت هذه الحال ،

---

(١٥) عبارة الصايغ : «أبو السلام ، من أحد مدبّري الوهّابي» .

أريد أن أخلص ، أريد أن أخاطب ابن سعود وألومه بخيانته وغدره ، فإني أرى الصبر لا منفعة فيه ، وعلى كل حال إن مُتُّ مُتُّ موتَ الشريف الأنيف .

فبعث خلف أبي السلم ولما دخل إليه قال له : ارجع إلى سيدك وقل له : أني أقسم عليك بذمة العرب أن تسمع كلامي ، ثم بعد ذلك افعل ما شئت .

فأذن له في المقابلة ، فأدخلنا أبو السلم عليه ، فعند ذلك لم يأمرنا بالجلوس ، بل استمررنا على الوقوف(١٦) . ولما سلم الدريعي عليه لم يرد السلام ، بل قال له بغلظة : ما تبغي ؟

فاستقام الدريعي استقامة الأنيف وقال : جئتك يا ابن سعود معتمداً على وفاء عهدك وصدق مواعيدك ولم آخذ معي إلا عشرة رجال ، وأنا أحكم على ألوف من الناس . وقد صرت الآن بلا حماية في يديك وأنت داخل مملكتك ، فإن شئت سحقتنا ودققتنا تحت الرحا ، لكن اعلم أنه ما من لابس كوفية من حدود الهند إلى حدود نجد ، ومن بلاد العجم والبصرة والعراق والجزيرة إلى الحماد والشامَيْن وحوران والجليل إلا ويطلب منك دمي ويأخذ منك ثأري ، وإن كنت ملك العرب كما تدعي ، فكيف هانت نفسك وملت إلى الخيانة والغدر وهما من صفات الترك لا من صفات العرب . فإن القوي الشجاع تكبر نفسه وتستنكف عن الغدر ، وإنما يستعمله الضعيف الجبان ، ثم أنك تفتخر بجنودك وجيوشك وتزعم أن مملكتك من عند الله ، فإن كان حسبما تقول . وتحب محافظة مجدك ، فَدَعْني أذهب إلى بلادي ثم قاتلني ، وإن كان الله مع جيشك فلا بدّ أن يقهر جيشي ، ولكنك إنْ غدرت بي فنصيبيك العار ، ونتيجة العار استخفاف الناس ونتيجة استخفاف الناس انقراض الملك . هذا ما لزم ذكره لك ، والآن افعل ما شئت ، ثم تندم حيث لا ينفع الندم ، فلست أنا إلا واحداً من ألف ، لا ينقص فقدي قبيلتي ولا يغيب من الدنيا آل شعلان ، فيخلفني ابني سهن(١٧) ، وهو الذي سيجيء ليأخذ حق دمي ، وحق دمي دم ، فقد انذرتك فافتح عينيك .

وبينما يخاطبه بهذا الكلام كان يكرم لحيته ويهدي غضبه ، ثم قال للدريعي بعد سكون : اذهب بسلام لا يعتريك إلّا خير ، فانصرفنا .

---

(١٦) عبارة الصايغ : «فحضر ثاني أبو السلام وتوجهنا معه جميعنا فدخلنا وسلمنا حسب العوايد وجلسنا بآخر الناس» .

(١٧) الصايغ يكتب «سحن» .

ولم يزل الحراس يحرسوننا. وكان أهل الدولة لما سمعوا كلام الدريعي ورأوا جسارته، ارتعدوا من خوفهم عليه، وتعجبوا بعد ذلك من صبر الوهابي وحلمه، فجعلوا يطلبون معاشرتنا، ودعانا أبو السلم إلى وليمة ببيته.

كتب الشيخ الحنبلي:

«لا يتكلم الدريعي بهذا الكلام لأنه كذب، ويكذبه كل واحد، فلو تكلم عند سعود بأنه يطلب دمه مَنْ ذكر كذبه، وإن تكلم... أكثر ما يحمل عليه أنه حشاش. وهو لا يملك إلا على طائفة من العرب تبلغ خيلهم ثلاثة آلاف خيال، ورجالهم عشرة آلاف، نهاية ما بين هجان وقراب وخيال خمسة عشرة ألف، وعند البصرة طائفة من العرب يقال لهم المنتفق يبلغون ثلاثين ألفاً، وطائفة يقال لهم الخزاعل يبلغون خمسين ألفاً، لا هم في ملك سعود حتى يكونوا في ملك الدريعي، والدريعي من عنزة، وبقية طوائف عنزة في حكم غير الدريعي، ولو وقعوا في الدريعي قتلوه أعظم من سعود وهم يزيدون على ستين ألف، قدر جماعة الدريعي أربع مرات، فهذا النصراني تكلم بما لا ينقل وبما لا يعقل. ومن عادة الوهابي سعود وابنه عبد الله وأبيه لا يرضون للرعايا بعزائم الدريعي وأمثاله من أكابر العرب[18]، بل دار الضيافة عنده ولا يعرفها أحد لا أبو السلم ولا حضرموتي، مع أن المذكورين لا وجود لهم».

وأما الفقير فما كنت مطمئناً بالكلية من جهة نفسي واعلم أن ابن سعود لا يجسر أن يقتل ابن شعلان أو يحبسه ويجعله أسيراً، ولكنني أخاف أن ينسب إلي ذنب الحروب التي جرت بينهما، إذ كان الدريعي منذ سنين لا يعمل شيئاً إلا بمشاورتي ومشاورة الشيخ إبراهيم، وهو مسيو لاسكاريس الإفرنجي. فقلت للدريعي: تسلم أنت لأن الوهابي يخاف من جنودك، وأما أنا فأقاصص لأجلكم وأكون الذبيحة التي تتصالحون عليها وتتحالفون.

فلما سمع الدريعي كلامي حلف لي أنك لا يوصل إليك إلا بالدوس علي، وأنك لتكون أول من يخرج من باب الدرعية.

---

(١٨) جاء في كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب»: كان سعود، في أول حكمه، يجيب من دعاه إلى غداء ولو كان فقيراً. وكان من عادة الشيخ ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي تولى القضاء بعد موت أبيه أن «لا يضيف أحداً قط إلا أهل رأس الخيمة، فإنهم إذا وفدوا على سعود لم يأكلوا إلا عنده وهو يرضى بهم ويكرمهم». (ص١٧٦، ١٧٧).

كتب الشيخ الحنبلي:

« ليس للدرعية باب، كما ذكرنا ».

ثم في اليوم التالي دعانا الوهابي إلى حضوره، وقبلنا ألطف قبول وأمر بالقهوة، وبعد مدة قليلة سأل الدريعي عن أتباعه ومَنْ معه، فقلت في نفسي ها هو جاء دوري أنا، وخفق قلبي بعض الخفقان، ولكني أفقت من ذلك التحير بعد مدة يسيرة، ولما سمّاني له ابن شعلان باسمي، التفت إليّ وقال: هل أنت فتح الله النصراني الشهير؟

كتب الشيخ الحنبلي:

« مادح نفسه يقريك السلام ».

قلت: نعم.

قال: أرى أفعالك أعظم منك.

فقلت: رصاصة البندقية صغيرة، وتقتل رجالاً عظاماً.

فتبسم وقال: ما أكاد أصدق الذي اسمعه من أخبارك. فأريد أن ترد على سؤالي جواباً مطلقاً خالصاً: ما هي غاية التحالف بين القبائل الذي أنت ساع به منذ سنين؟.

فقلت: هي واضحة، إنا أردنا أن نجمع عرب الشام تحت حكم الدريعي لكي نمتنع عن الترك ونخالفهم، فكنا بينك وبين أعدائك حاجزاً لا يوصل منه إليك.

فقال الوهابي: فإن كان الأمر كما تقول، فلماذا قصدتم كسر جيوشي بقرب حماة؟.

كتب الشيخ الحنبلي:

« هذا كلام غير معقول، ما كسرت جيوش الوهابي عند حماة. إن كان العرب بعضها مع بعض، اللهم: والدريعي من جملة أتباع الوهابي أيام هذه الحكاية. ولكن الرجل لا يدري ما يقول ».

فقلت: لأنك حينئذ كنت مانعاً لأمرنا، فإننا لم نكن نجتهد في سبيلك، بل في سبيل الدريعي. فكما أنك تحب أن تجمع العرب تحت طاعتك، ثم تحارب الترك وتطردهم من بلاد العرب، كذلك نحن جامعون لهم تحت طاعة الدريعي، فإذا ثبت حكمه في الشام والجزيرة والعراق وبلاد العجم انقلبنا إليك وعاهدناك، وكنا منيعين حصينين لا يقدر علينا إلا الله، ومما

يليق بنا وبك أن نجتهد في سبيل واحد ، ولم نجئك إلا بنية المعاهدة الوثيقة ، فقابلتنا أولاً بكلام ناقص في عرضنا ، فعاتبك الدريعي بكلام ناقص بعرضك . وأمّا نيتنا فهي خالصة ، ومما يدل على ذلك أننا جئناك بغير سلاح وسلمنا أنفسنا لذمتك وهمتك .

يقول الحنبلي :

« وإذا جاء أحد عشر رجلاً بسلاح ماذا يصير في الوهابي ؟ » .

فكنت أرى في أثناء مخاطبتي له إنحلال أثر الغم من وجهه شيئاً فشيئاً . فلما انتهى خطابي قال : مليح ، ثم التفت إلى عبيده وأمر بثلاث قهوات . فشكرت الله في قلبي على إلهامه إياي . وما كان باقي جلوسنا عند الملك إلا معروفاً وإكراماً ، فانصرفنا بانشراح وانبساط . ثم في العشاء دعينا إلى وليمة عظيمة عند أحد الوزراء يقال له الحضرموتي[19] . فلما خلونا به حدثنا سراً بقساوة مولاه وظلمه العظيم وكراهية جميع الناس له . وذكر أيضاً غناه الوافر ، فإن المال الذي ظفر به عند نهب مكة والمدينة شيء لا يحصى ، لأنه قد كان أمراء المسلمين وملوكهم وخلفاؤهم وسلاطينهم في أوائل الإسلام إلى أيام الوهابي يهدون في كل سنة إلى بيت الله وحرم الرسول هدايا ثمينة من الجواهر والقناديل التي من ذهب وغير ذلك . وزيادة على ما تهديه العامة من عبيد الله . وكان في المدينة كرسي أهداه ملك من ملوك العجم . فهذا الكرسي وحده لا تثمن قيمته ، فإنه كان من ذهب صب ، وفيه لآلىءُ وألماس . وكان كل أمير يرسل تاجاً من ذهب مفضضاً بالجواهر ، يعلق في سقف الحجرة بمقام الرسول . وعندما سلبها الوهابي كان عدد التيجان أكثر من أن يحصى . وكان على قبر النبي جوهرة حمراء لا تعلم قيمتها[20] . وإذ افتكرتَ فيما حازت الأعصر من المال على هاتين البقعتين لا تتعجب من أن الملك الظالم ساق برجوعه أربعين جملاً محملة بمجرد الجواهر ، زيادة على خالص النقدين . وإذا

---

(١٩) في المخطوطة : « من رجال ديوان الوهابي » .

(٢٠) يعلمنا السائح بوركهارت الذي كان اعتنق الإسلام وزار مكة والمدينة سنة ١٨١٤ أن سعوداً عندما فتح المدينة المنورة نهب مال الحجرة . ومن جملة الجواهر النادرة التي أخذها « نجمة رائعة مرصعة بالماس ، كانت معلقة على قبر النبي ، وكثيراً ما يتحدث العرب عن هذه الجوهرة وهم يسمونها الكوكب الدري » . (رحلة إلى الجزيرة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٢ من الترجمة الفرنسية) . ويذكر مانجان أن عبد الله بن سعود ، عند مقابلته مع محمد علي ، كان يحمل صندوقاً صغيراً من العاج ، فيه ثلاث مخطوطات فاخرة للقرآن الكريم جلدها مرصع بالياقوت ، وثلاث مئة لؤلؤة كبيرة الحجم وزمردة معلقة بسلسلة من الذهب ، وكل ذلك مما أخذه سعود من الحجرة (مانجان ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

حسبت هذا كله ثم الزكاة التي يأخذها الوهابي من حلفائهم وهي عشْرُ أموالهم فلا بدّ أن تجعله أغنى ملوك الأرض، وخصوصاً إن اعتبرت قلة مصروفه وأنه يحرم الزهو وفخر الملابس وتنعمات الدنيا غاية التحريم، وأنه عند حروبه تتجهز كل قبيلة بمالها، وعليها المصروف والخسارة، ولا تعويض لها.

كتب الشيخ الحنبلي:

«لم ينهب مكة، وأما المدينة فأخذ مال الحجرة اسماً له وحقيقته لغيره. لم يوجد في الحجرة ولا تاج إلا تاج السلطان سليم رحمه الله وحزامه، وبيع الحزام بأربعة آلاف بندقي. قبر النبي لم يعلق عليه شيء ولا يتوصل إليه أحد[٢٠]. ما أخذ سعود من الحجرة لم يذهب منه إلى الدرعية إلا بستة سحاحير ما بين مذهب مرصع بجواهر وذهب خالص. وأما جوهر مجرد من الذهب فكيس فيه زمرد أخضر ألف واحدة قدر بيض الحمام، وأربعة آلاف دون ذلك. وأرسل الكيس للشريف غالب وقال له: بعه على خواجات مكة وجدة وخذ بثمنه رزاً وقمحاً وسمناً لعسكره الذي في المدينة، فأخذه الشريف غالب بثمن بخس وأرسل ببعض الثمن ما ذكر للعسكر الذي في المدينة».

ثم أنه في اليوم التالي، حملني السرور الحاصل من إطلاقي على أن ذهبت أتنزه طول نهاري وأتفرج على كل شيء مما يوجد في الدرعية وصحرائها. وتلك البلدة مبنية بالحجارة البيض[٢١]، وتحتوي على سبعة آلاف نفس[٢٢]، وأغلبهم أقارب سعود أو وزراؤه أو رؤساء جنوده. لا صنائعية فيهم إلا القندقلية والبياطرة وهم قليلون. ولا شيء للبيع حتى مما يؤكل، وكل واحد من سكان البلد يعيش من ملكه كغيط أو روضة تنبت قمحاً وبقلاً وفواكه. وفيها دجاج كثير، ولهم غنم وأبل كثيرة ترعى في الصحراء.

وفي كل يوم أربعاء تجيء أهل مكة[٢٣] واليمن ويقايضونهم على المتاجر بابلهم وغنمهم وليس لهم متجر سوى هذا السوق.

(٢١) يقول روسّو، قنصل فرنسا في بغداد، إن دور درعية كانت مبنية بالحجارة، بينما البيوت في الأحساء وبصورة عامة في جميع بلاد الجزيرة العربية كانت من الطين والقصب (روسو، وصف ولاية بغداد، ص١٣٥، باريس ١٨٠٨).

(٢٢) يذكر حسين خزعل أن الدرعية كانت تضم قوات عسكرية نحو أربعة آلاف مقاتل (حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص٢٤٩، دار الكتب، بيروت، ١٩٦٨).

(٢٣) في المخطوطة: «مكا، كرسي اليمن، المحل الذي تخرج منه كميات القهوة، لا مكة...».

وتخرج النساء في الأزقة بغير براقع، إلا أنهن يغطين رؤوسهن بالمشلح الأسود(٢٤)، وهذا غير مليح، وأغلبهن قبيح في غاية السمرة.

وأما البساتين التي هي في واد نَزِهٍ شرح بقرب البلد، تجاه الجانب المقابل لجانب دخولنا(٢٥)، فهي تنبت الفواكه أحسن من غيرها وذلك بالموز والنارنج والرمان والتين والتفاح والقاوون... وبين الأشجار الشعير والدخن، ويجتهدون في سقيها.

ثم في اليوم التالي دعانا الملك إلى حضرته وقابلنا بلطف، ثم سألنا سؤالات كثيرة عن سلاطين الفرنج المتفرقة ولا سيما في شأن نابوليون بنابارته، فكان الوهابي يعظمه جداً وينبسط من أخبار فتوحه، وكان من بختي أنني سمعت كثيراً من تلك الأخبار عند محادثتي مسيو لاسكاريس، فيمكنني أن أحكيها على وجهها. وكان ابن سعود كلما سمع حكاية مني في شأن بنابارته قال: إن هذا الرجل بعثه الله، ولا بد أنه ملهم من الله حيث نصره وفضّله على غيره من السلاطين.

ثم زاد ابن سعود في الملاطفة وقال: أريد أن تخبرني خبراً صحيحاً في أمر من الأمور، ما هو أساس النصرانية وما هي قاعدتها؟

قال النصراني: فلما سمعت هذه المسألة ارتعدتُ ارتعاداً شديداً، فإني كنت أعرف غيرة الوهابي في أمور الدين، فطلبت من الله أن يلهمني جواباً موافقاً للحق ولا يغضبه، ثم قلت: إن قاعدة كل دين، يا ابن سعود، الإيمان بالله، فيعتقد النصارى أنه لا إله إلا الله، وأنه يعاقب الظالمين ويعفو عن التائبين ويجزي بالخير الصالحين، وأنه عظيم رحيم قادر على كل شيء، كما أنك تعتقد ذلك. فقال الملك: مليح، فكيف تصلون؟ فقرأت له الباتر(٢٦)، فأمر كاتبه بكتابته مني، فلما فرغ من الكتابة قرأه الملك ثم وضعه في جيبه واستمر في سؤالاته فقال: إلى أي ناحية من نواحي السماء تتلفتون إذا صليتم؟ فقلت: إلى أي ناحية كانت، حيث الله في كل مكان. فقال الوهابي: أمدحكم على ذلك. وهل فرض عليكم غير الصلاة؟

---

(٢٤) في المخطوطة: «يخرجن في الطريق وهن مغطيات بمشالح سود إلى فوق رؤوسهن».

(٢٥) في المخطوطة: «عندهم بساتين خارج البلد في الوادي».

(٢٦) Pater: يا أبانا الذي في السموات...

فقرأتُ له الوصايا العشر التي وصى بها موسى، فظهر منه أنه كان يعرفها. واستمر في سؤالاته فقال: وكيف تعتبرون المسيح، ابن مريم؟.

فقلت: هو كلمة الله المتجسدة.

فقال: ولكنه صلب.

قلت: نعم، وبحيث أنه كلمة لم يمت، وبحيث أنه بشر قاسى عذاباً من الظالمين(٢٧).

قال: عظيم. وأما الكتاب الذي أُوحي به إليه، فهل هو معظم عندكم وتعملون به؟

قلت: منا صلحاء ومنا فاسقون، فالصلحاء يعظمونه ويعملون به، والفاسقون يخالفون وصاياه.

فقال: جعل الترك نبيهم إلهاً يصلون على مقامه، لعن الله من يشركه، فليضربنهم السيف. ثم بالغ في شتم الترك على عادته، واستحرم شرب الدخان والنبيذ وأكل اللحوم غير الطاهرة.

وأما أنا فشكرتُ الله حيث خلصني من مسائل صعبة خطرة في اعتقادي. وفي هذا الوقت ما كنت أخالف الملك في أمور مثل شرب الدخان، بل وافقته في الجميع ولُمْتُ معه ذلك الحشيش الملعون على تسميته إيّاه. فتبسم الدريعي الذي كان يعلم أنه لا يمكنني الإمتناع عن شرب الدخان. ولقد كنتُ كلما أخلو به أخرج عودي العزيز علي من كيسه فأشرب، وكانت تشتد بي شهوة الدخان حيث كان الحديث، وشربنا قهوة ثقيلة، فتبين أن الملك انبسط من حديثنا فقال لي: أرى أن الإنسان يتعلم طول عمره، فإني كنت من قبل أظن أن النصارى يتوهمون في مسائل الدين أقصى التوهم، والآن أراهم أقرب إلى الحق من جنس الترك بكثير.

وبالجملة فيكون ابن سعود عالماً فصيحاً بالنسبة لغيره من العرب، ولكنه شديد الغيرة على الدين، حتى أنه يطلب دم من يخرج من اعتقاده ويخالف إيمانه.

وله زوجة وأَمَة وابنان متزوجان وابنة لم تبلغ بعد. ولا يأكل إلا ما طبخت له نسوته خوفاً من السم.

---

(٢٧) في المخطوطة: «استغفر الله العظيم ولا نكون من الكافرين، إن روح الله يظلل و[لا] يصلب، ولكن شبه به».

كتب الشيخ الحنبلي:

«الرجل النصراني كذاب، فلعنة الله على الكاذبين، سعود[28] له أكثر من زوجة وأكثر من عشرين أمَة، وله أحد عشر ابناً وثمان بنات، وثمانية من ابنائه متزوجون، ولهم أولاد وبنات، أكثر من خمسين بين ولد وبنت. والطبخ لا يطبخه نسوته بل طبخه وطبخ أهل بيته سواء».

وحراس قصره ألف عبد أسود، لهم أسلحة جيدة، ويقدر الوهابي على أن يجمع في مملكته ألف ألف وخمس مئة ألف رجل يصلحون للحرب[29].

كتب الشيخ الحنبلي:

«أكثر ما جمع الوهابي لما غزا الشام سبعين ألف رجل، وهذا الرجل كذاب في كل هذه الأوراق».

وإذا أراد أن يولي محافظاً، أي حاكماً، في إقليم من الأقاليم يدعو الذي يحب أن يوليه إلى مائدته فيأكل معه، ثم يتوضآن ويصليان جميعاً، ثم يقلده السيف ويقول له: وليتك بأمر الله حاكماً على عبيده، فكن حليماً، وأجب الزكاة بغاية الضبط، واضرب عنق الترك والكفار والذين يقولون أن الله له شريك، ولا تُخَلِّ أحداً منهم يستوطن بلادك والله ينصر من يوحده.

ثم بعد ذلك الخطاب يعطيه مكتوباً صغيراً يأمر فيه كل رعيته من سكان إيالته أن يطيعوا الحاكم وإلا فيقاصصون قصاصاً شديداً.

هذا، ثم أنه في اليوم التالي تفرجنا على اصطبل الملك، ولا أظن أنه يوجد في الدنيا فرجة أغرب منها وأحب إلى مَنْ يعرف الأفراس الأصايل ومزية الخيل الكحائل، فرأيت ثمانين فرساً أبيض، على صف واحد، لا نظير لها في الحسن، متشابهة حتى لا تُمَيَّز من بعضها،

---

(٢٨) الصايغ يتكلم عن عبد الله بن سعود، وذكر صاحب «لمع الشهاب» أن لعبد الله أربعة نسوة لا غير (ص ١٧٨).

(٢٩) ما جاء في الترجمة عن عدد المقاتلين الذين تحت حكم الوهابي لا أثر له في مخطوطة الصايغ.

وشعرها لامع كالفضة يخطف البصر، ثم دخلنا في اصطبل آخر فوجدنا فيه مئة وعشرين فرساً جميلة كالأول، إلا أنه مختلفة الألوان، فتعجبت كثيراً من جمالها مع عددها.

ثم في المساء، تعشينا عند رئيس الجنود المسمى هيدل[٣٠] وكان الدريعي كسر جيشه في بعض المواقع واصطلحا، وممن كان يحضر ذلك العشاء أبو نقطة[٣١] الشهير، فخاطب الدريعي خطاب المحب ولم يظهر حقداً من كسر جيشه.

ثم بعد ذلك اجتمعنا مراراً مع الوهابي، نخلو به لنتحدث في أمورنا وشروط التحالف بين القبائل جميعها، ويطول تفصيلها، فلنقتصر على أن نقول أن الوهابي والدريعي اتفقا على معاهدة ترضيهما، حتى قال الملك للدريعي: الآن جسمان تحركهما روح واحدة وإرادة واحدة.

ولما اتفقا على كل شيء، دعانا الملك للأكل معه، ولم يكن فعل هذا من قبل. ولما جلسنا للأكل ذاق هو كل واحد من الطعام قبل أن يقدمه إلينا. ثم أنه كأن الوهابي لم يرَ أحداً ينقل الطعام من صحن إلى فمه إلا بأصابعه فصنعتُ لي شوكة ومعلقة من خشب وفرشت منديلي بمنزلة السفرة وجعلت آكل بين يديه على كيفية الفرنج، فشرح هذا خاطره فقال: كل أمة من الأمم، والحمد لله، تحسب عوائدها أحسن من غيرها، فكلٍ يرضى بحاله.

كتب الشيخ الحنبلي:

«ما كان سعود يأكل ألواناً إلا صحفة فيها الفتة والرز واللحم سواء، أو فاكهة كل فاكهة في إناء»[٣٢].

ثم أنه قد حان وقت رجوعنا فعزمنا على السفر من الدرعية في اليوم التالي، فبعث إلينا

(٣٠) في المخطوطة: «عبد الله الهدّال».

(٣١) قُتِلَ أبو نقطة قبل عدة سنوات من الرحلة إلى الدرعية، ومن العجيب أن الشيخ الحنبلي لم يشرْ إلى هذا الخطأ التاريخي الفادح.

(٣٢) يناقض هذا الكلام ما جاء في «لمع الشهاب»، «وكان سعود يترف في المأكول كما يترف في الملبوس... واتخذ له أناساً من أهل الأحساء أو القطيف يصنعون له الأطعمه الحسنة من اللحوم المقلية والطيور المحشية والحلويات الخبيصة بالسكر والبلوج. هذا في بيته، وأما في المجلس العام... فأكله مع ذلك اللحم والثريد (ص١٧٦)». وأما عبد الله فمشى على خطوات أبيه في اللبس والأكل: «إلا أنه كان يظهر الأطعمة الفاخرة في مجلسه للخاص والعام». (ص١٧٨).

الملك بهدية وهي سبع من أفضل أفراسه، بجانبها سبعة عبيد يركبون الهجن، ولما اختار كل واحد منا الفرس التي يحبها أعطونا سيوفاً نصالها عظيمة، غير أن أغمادها لا زينة فيها، وأمر الملك أيضاً كل واحد من أتباعنا يأخذ سيفاً، إلا أنه لا تبلغ قيمته قيمة سيوفنا، وأعطاهم أيضاً مئة ريال ومشالح، ثم ودعنا على موجب التشريف وشيعنا أرباب الدولة كلهم إلى خارج السور، فلما وصلنا إلى باب المدينة وقف الدريعي والتفت إلي وقال: تفضل وأخرج أولاً، فإني واف بعهدي، وكان يبتسم.

كتب الشيخ الحنبلي:

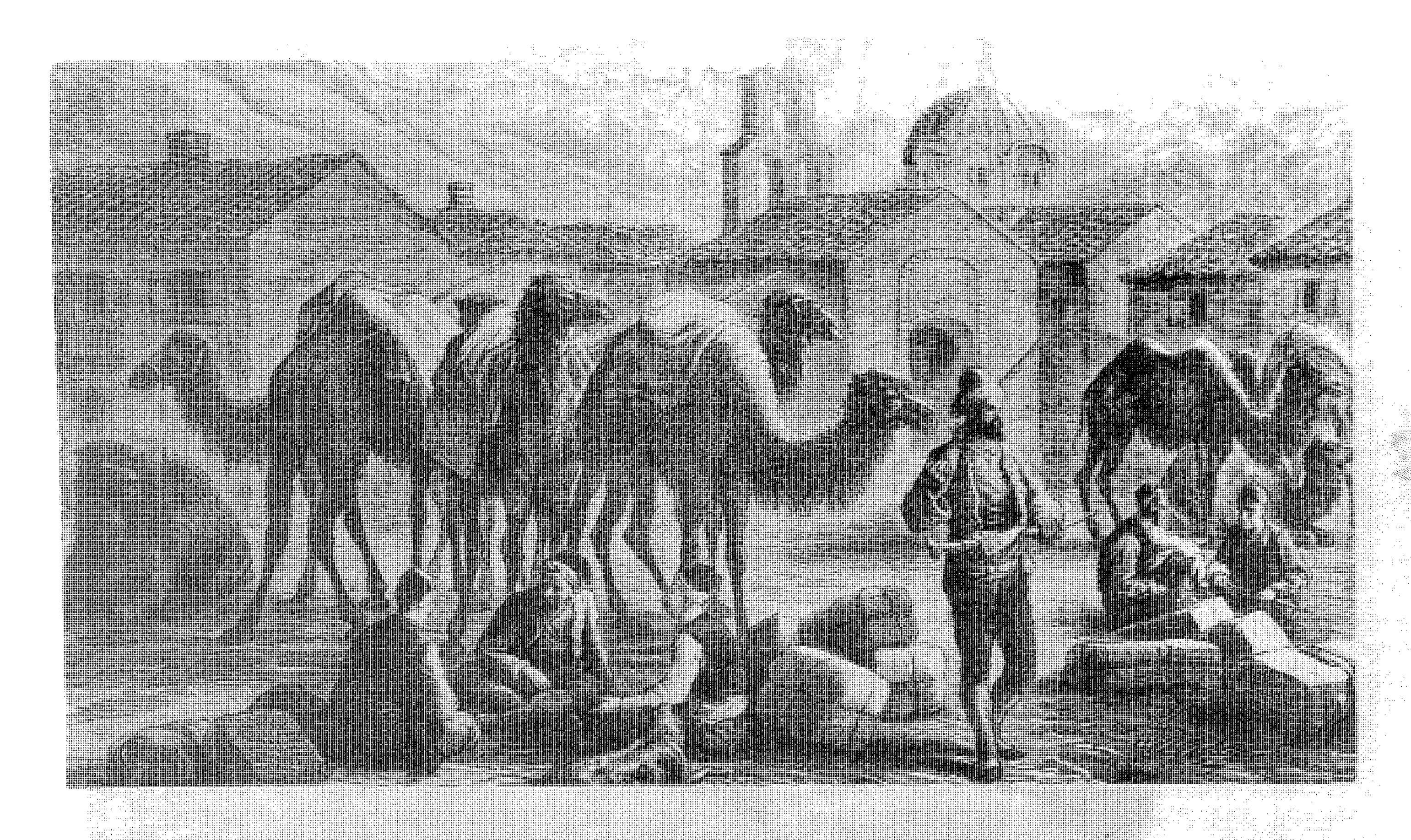
«ليس للدرعية باب كما ذكرنا»[٣٣].

واعترف بأني تجاوزت العتبة بغاية الإنبساط، بسبب كل المعروف الذي عاملنا به الملك، ولكن كان الضيق الذي قاسيناه أولاً قد أثّر فيّ تأثيراً شديداً فنسيته، حتى لم يكن خروجي من الدرعية إلا بسرور[٣٤].

---

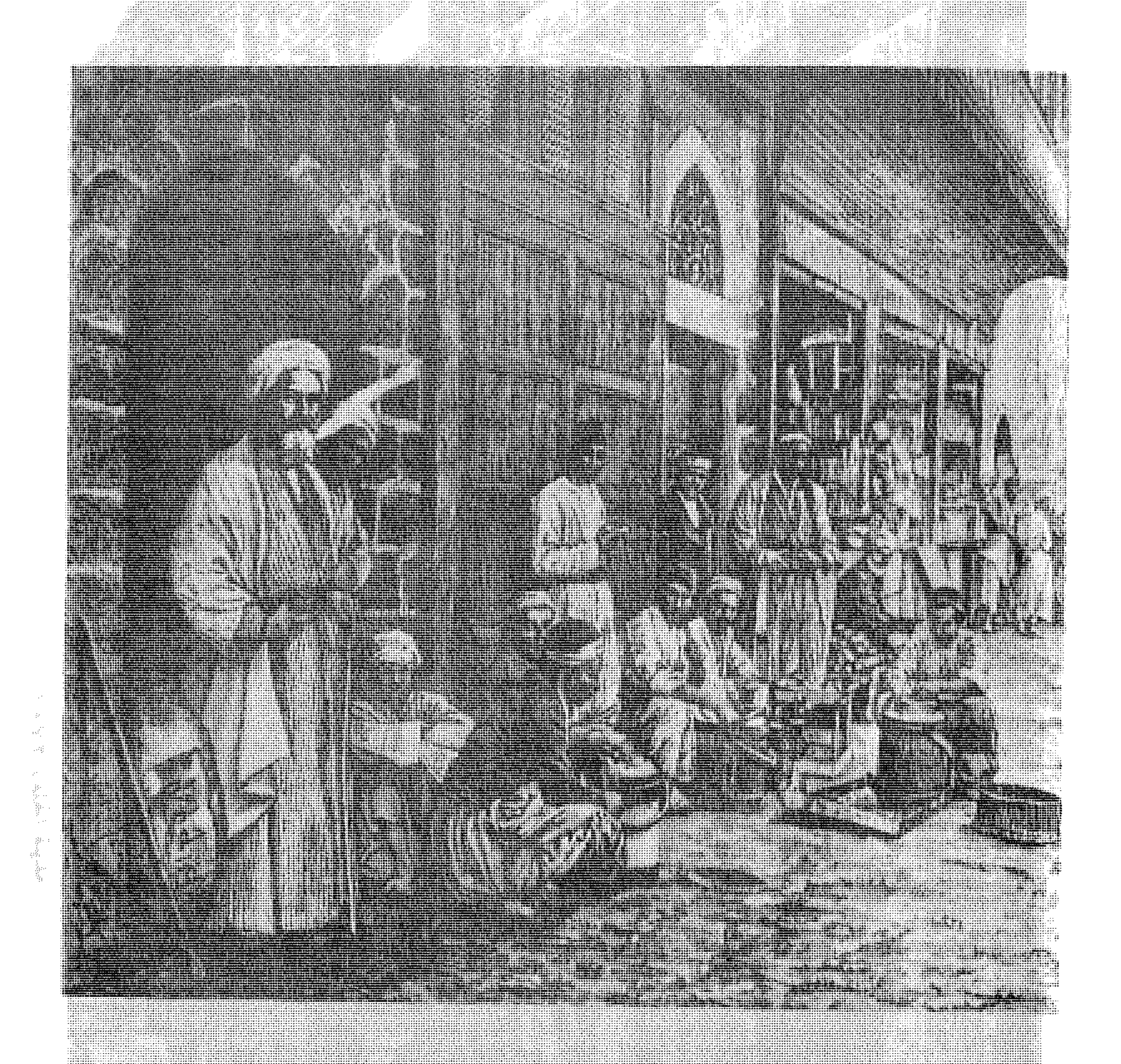
(٣٣) هذا آخر الهوامش المنقولة من خط العلامة الشيخ الحنبلي، على يد الفقير محمد عياد الطنطاوي.

(٣٤) كل هذا الحديث عن كيفية مغادرة الوفد لعاصمة الوهابيين، وخروج الصائغ من الباب قبل الجميع، لا أثر له في الأصل العربي. ولحن لم نشر هنا إلا إلى أخطاء الترجمة التي بنى عليها الشيخ الحنبلي أحكامه الصارمة. وهناك أخطاء كثيرة غيرها لم نعلق عليها، إذ يكفي الرجوع إلى النص الأول ليظهر الصحيح من الخطأ. ويبدو لنا، بعد هذا العرض وبعد مراجعة المصادر التاريخية أن فتح الله الصايغ، على الرغم من مبالغاته وأخطائه أحياناً، كان صادقاً، وأن الشيخ الحنبلي، وإن كان على صواب بسبب سوء الترجمة، فإنه أخطأ بدوره إذ تكلم عن أحوال سعود بينما الصايغ يتحدث عن ابنه عبد الله، وأخطأ أيضاً في كلامه عن أسوار الدرعية وأبوابها وعن الأموال التي أخذها سعود من الحجرة وعن طعامه.

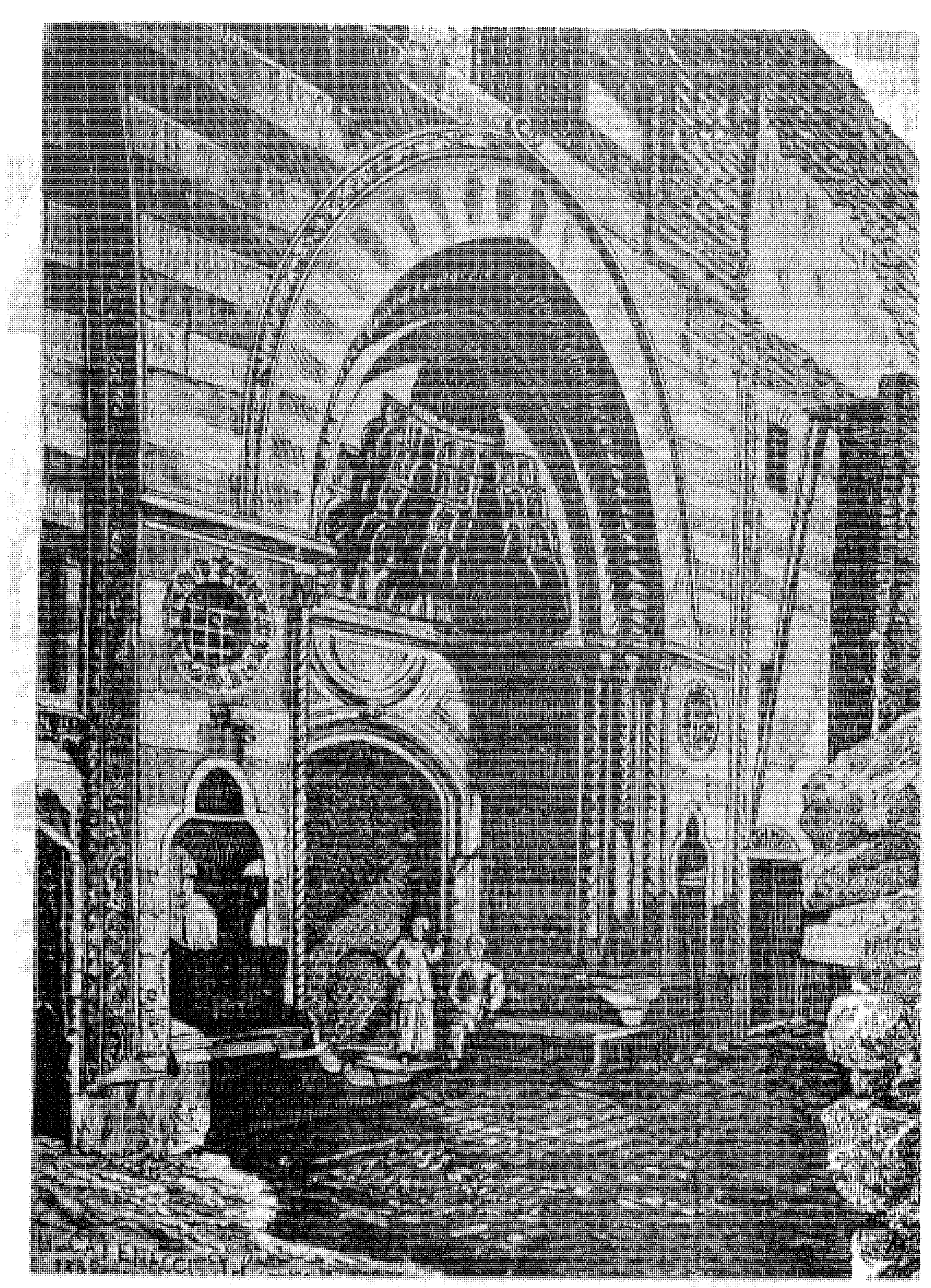


القافلة وقت الاستراحة، نقلاً عن رسم منقوش سنة ١٨٧٧

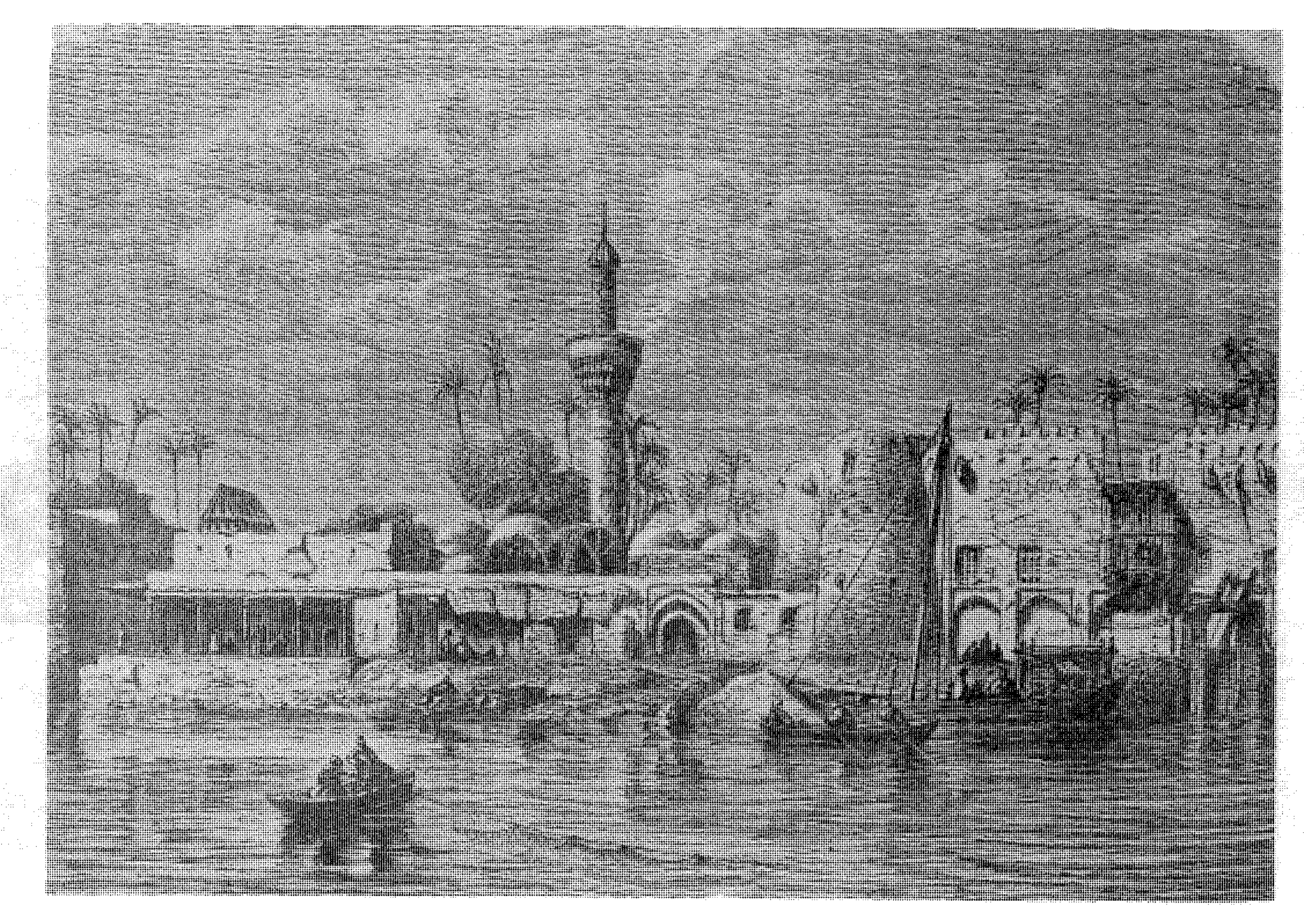
منظر داخلي لإحدى دور حماة، سنة ١٨٦٣



بازار دمشق، سنة ١٨٨٢



باب خان أسعد باشا في دمشق، سنة ١٨٨٢



مدينة الحلة، ١٨٧٢



هودج إحدى الأميرات العربية، عن لوحة زيمشت سنة ١٨٣٩



الإمام الوهابي عبد الله بن سعود الذي قطع الأتراك رأسه في استنبول سنة ١٨١٩ ، نقلاً عن طبعة حجرية



محمد علي باشا الكبير ، نقلاً عن طبعة حجرية سنة ١٨١٨



سيدة سورية في ألبستها التقليدية وفي رجليها القبقاب، سنة ١٨٦٣

اقول انا الفقير الى الله فتح الله ولد انطون كمابخ اللوبني من قطان محروسة
حلب الشهباء قد بلغت من العمر غاية عشرين سنة فصدق انماط البيع
والشرا وارباح المتجر فاخذت جانب رزق من حلب وتوجهت الى
جزيرة قبرص وابتديت ابيع واشتري مع تجار قبرص وذلك في ابتدا
الى ابتدا سنة ١٨٠٢ فتحسن عندي ان ابعث ارساليه الى ليورنه من بضائع
قبرص بذلك واستاجرت مركب قبطان توماذو جنا الى ليورنه
والبضاعة من بنبه كنداري وقطن وحرير واسفنج وحنظل وسافر المركب
في شهر ادار سنة ١٨٠٢ فاصدرت نيتي الى زيارتي فبعد سفر بقليل
من الايام تصادف مع مركب انكليز وحيث كان بوقتها اشتداد حرب
فاخذه غنيمة وسحبه الى مالطه فحين بلغني ذلك انقهرت جدا وقويه
حساباتي وجدت احوالي تاخرت جدا فلذلك رجعت من جزيرة قبرص وتوجهت
الى بلدي حلب وبعد دخولي الى بلدي بقليل من الايام انعزمت عند
احد الاصحاب الفرنج للعشا وكان جملة اناس [illegible] وكان
من جملتهم واحد [illegible] فرنجي العيرة وهو بالكسم زري [illegible] بعد
العشا [illegible] والمزاح وحديث لاجل تمضاي السهرة فكان
دائما هذا [illegible] غريب الزاي جالسا جانبي ويحب ان يسمع
حديثي [illegible] منه انا قصودي ما هذا الرجل اجابوا ان
ان هذا [illegible] الكابر بلاد الفرنج بغاية الحوايج ينودور [illegible]
لي [illegible] لاي مالطه سابق فانا بعد سمعي ذلك اعتمدت
[illegible] علم الي احب الموسقة واطرب في الالحان
[illegible] بني وجاب لي كنجه وهداني اياها وقال يا حبيبي
[illegible] واضربها ولي وبلغني انك تحب الموسيقة
بهذه الكمنجه ارجو تقبلها مني

في بلدهم مرة نهر قليله لو قوي لهم استطاعم للشغل والتعب بل يحبو
الراحة وقلت فهمل يحبوا الحبيات والحديث الكثير ولوكان من
اغاره بالحيف يحكو ويقطعوا الزمان ناهم ماهم قوي حسنا
اكثر سمر ما متقات وابيض كمثل السمر في بلادنا عندهم بساتين
خارج البلد بالوادي بها فواكه مثل موز وتين ورمان وبلح
وليمون وبردقان وقصب مصة وبطيخ اصفر وخوخ وجوز
الهند يجيبها للطريق مغطايين بمناديل سود الا فوق راسهم واحد
مرتين في شهر واحد حفيانين بل دبليات في نعت ناس
الحول قصة زايدين بالقضا عليهم ملابسهم كما يبس ناس
من غير يقتلوا الحر حيث ان الحرم عندهم يبسكوا في قراقهم
وفي طرف شماله اما اكولهم لحم الجمال وحليب الغنم ولحم الاغنام
قليل ويندر بها حنطة شي واكثرها عندهم الذرا بيضه وحمر
يستعملوها الخبز والطبيخ ابضا جاج عندهم كثير اكلهم قليل
باقل شي يشبعوا واما مصروفهم قوي دني حبة جسمهم نغدر يجوا
كيسهم دراو حنطة ولهم مواشي وخيل ملبوسهم دني لا يكلفوه
الى دراهم كثير واكلهم دني كذلك لا يقتضي الى مصاريف كثيرة
وكل شي ببلادهم ماله شي للبيع من ملابس وما اكل يحوج
صرف مصريات فالشي الذي ينقصهم من جهته ما يكون يجلبوا
لهم اهالي الينبع يجوا الى مكا او مكه الذي بها فخر بلد الحجاز
مكا بلد عظيم من خمس ضعف الينبع بالقرب الى دير الجوف الذي بينه
وبين باب المندب ستة ايام لا فيه نسيم الا ... وكله ماكلها الـ

في بلد كبيره جدًا بقدر مدينة حلب ويعطوا الجزية للوهابي ويخافوا
قوي فاهالي مكة يجيبوا لوازم الناقصة للدرعية ويبعوهم ويشتروا
منهم غنم وجمال ومسالي وخيل ومايلزمهم لان كل نهار اربعة
باذار بالدرعية للبيع والشراء مواشي ولبابيد ومسالي وجلود
بلوز الاضروط
في باقي شهر شي قليل بل الاكثر خراب حيث بلوز الاضروط
معلوم كانت بالسابق بلد دعمار عظيم واما الان اكثرها خراب
كم صار حرب بين الوهابي وشراجة فقراجة يعطوا الجزية
رق المبدو واما علمهم زياك فرنجي ودهب مخصوص ودهب
والصف ريال وربع ريال ودهب جندرلي ستقل وص قديم
دهب ابو ورق قديم ومصريات خرط واما معاملة الصاغي له
ابدا . ثم المار رحنا الى المنزول و فيه حتى انفتت وسمعت
ونامنا بيم رحنا الى عند ابن سعود فدخلنا سلمنا عليه فترحب
وحل لنا بعد ذاك الكلام فابتدا يحدث بخصوص الفرنجي
حوال بونا بارته حيث كان سامع باخباره فاستفهم مني عليه
فاخبرته عليه قدر معرفتي فانبسط جدًا وكان يتعجب من
عال وانتصاراته على بحر ملوكه وقال هذا لاشك فيه الا انه
الله وربما بالاسرار باطني مع الله ولا مشرك به احدهم عاطيه
لهذا قوه وانتصارات فضحكت في بالي وقلت في عقلي يا مسكين قوي
بونا بارته بعيد عن ما ظنك فيه . ثم بحر الحديث وقال يا عبدالله اريد
منك تعرفني ما هي قواعد دين النصرانية فهذا السوال قد عصص
قلبي جدًا فقلت يا ابن سعود قاعدة كامل الملل والمذاهب

* خرج من النبي بكل نظام وقوه متوجه
المدينه لو منذ كنها فضحك وقال ان زد
بيصير فيهم اكثر ما صار سابق جعلهم ا
نحن الموحدين هولاي الكفار قوم المش
ولا احسب لهم حساب بعون الله وحـ
نتل حبة خردل فدعينا له بالنصر والظ
على اعدايه وذهبنا عنه فقلت للدر
الله يستر ابن سعود ما اظن انه يبطح
راسي [illegible] في هذه محمد علي قال كيف ذا
على ما شاهدنا ان عسكره كبير وجيشه
كثير من يقدر عليه قلت صحيح ولكن ا
له ماهو موجود عنده وهي محبة الرجال
له [illegible] اكثر شعبه غير راضي هو ظالم
معه ومن المعلوم ان المظلوم يفتش على
خلاصه وخراب ظالمه وقوي قريبا ان ا
شعبه يكون ... عليه لاسيما العساكر بحكم

ويشتغل بين ذلك باب الخفيه ويكون الذي هو ... عوايده

ورقة ١١٥/٢

ارغدم نطلب الوزن للسفر ولما كان لغد توجهنا الى الديوان وبعد
الجهة وشرب القهوة قال لي الدربعي يا ابن سعود ان قدر الله تعالى
ان نسلم عليك ونستاذنك للرحيل فقال لي يا ابن سعدون كانك
علينا قوام قال استغفر الله لو ينذعل من شوفتكم ولاكن لو بد من رجوع
غريب الى وطنه قال لي حاشا انت ما نيت غريب نحن وانتو بحال
واحد فانها ان مرادك ذلك كذلك يكون نجلسنا حصه زمانيه. عندها
قمنا الى المنزول كي نوجه امورنا للسفر وبعد وصولنا بقليل من الزمان
اذ وصل لنا سبعة روس خيل فراس اولهم ثمن واحد للدربعي وواحد
لكل واحد واحد
وعبد قايد حاهي والعبد ومقسهم هو بذاته ومنهم
عبيد انت يا فلان وفراسك تستلم حالك لفلان كذلك سيوف
زرجي نود اسود جلد حبيد عندهم دوام تقلدت سل حج الفضي المذهب
كل حديه صبي مقدم من عظم من افخر سيوف العجم ايضا لكل عبد
شلح حدادي اسود وسيوف ضان عظم ومايه ريال فرنجي فقبلنا جميع
ذلك وكل من يرى عبيد وجنبه وفراسك ولكن يا الله من سبعة روس
خيل لو يمكن يجد نظيرهم ولو لهم ثمن فخرجنا ووجهنا امورنا
للسفر وثاني يوم توجهنا الى عنده حتى نستكتر بخيره ونودعه ونسافر
اذ حضر هجان من طرف البنيع بخبره بان ارضى محمد علي والى مصر
~~...~~
~~...~~
~~...~~
~~...~~
~~...~~ الكفار المشركين ثم ودعناه وخرجنا ~~...~~

من البلد ومعنا كعبيد كل واحد راكب على هجين وقايد فرس حمل جمر
وكذلك طلع معنا جملة اناس من الاكابر وذوي المناصب اخذ
نحو عشر زمان واودعونا ثم رجعوا ونحن سلكنا طريق الجاذي تجهز
التوجه بالسلامة الى بلد حوران حسب الوعد بعد وبايننا نجد بنا بالسير
وكل ليلة نبات عند عرب لدن كبروان في تلك الحادث معصوم كل حج
بالقرب للاشجار ثم خامس يوم من سفرنا اذ كنا نايمين عند قبيلة من
ينادي لها الجنادي فقمنا ثاني يوم حتى نسافر وجدنا جميع الجمال طار
ريشهم بالدول فعرفنا ان جابه ريح السموم الذي يسمونه ايضا الد
ثم ان الريح يحصل بالحول المنسوب جدا وقبل ان احد يعرف شي
جمال اكبر الجمال والاحمال حكتها كي لا تنتفض وتموت نزلوا رؤوسهم
بالرمل حتى لا يدخل هذا الهوا الذي لجنوبي في مناخيرهم فاذا تنشقوا
ابدا لا قدرة كل لا يمكن برفع راس الوجه تحاذي الهوا ولو ابسط
يوميا فحالا دبروا كرب موانع الذي يقدموا يحتمون من ذلك
الهوا وحالا اسكروا بيوتهم من الدربة اطراف وادخلوا الما
الى داخل كبيت ويسدو دانيت الخيل جميعهم لان الخيل تنتفض من هذا الر
من دانيها وحالا كل من غطا راسه في مشلح وقعد في جب فخرج
الهوا الاسم النسيم الناري فكان باب جهنم قد فتح نار لا تتوص
تا البراري تلهب من النار وغدات الحر والزوابع منصلة دار بالـ
العاصفة في منفصلة ونسمع هدير الجمال وصهيل الخيل وعويل الكلاب
شي يفزع الاسد والذي يده بشرب يمشي على اياديه ورجليه
ويروح يشرب من قربة الما الذي هي صابرا بالحقيقة اسخن
من ما الحمام الغالية النبح دنيه وشاوية بنار فاستقام ذلك
نحو عشرة ساعات متواليات حتى كاد تخرج ارواحنا منا

بعد ذلك ابتدا نحن رويدًا رويدًا الى ان خلصت كليًا فالحمل التقام
ت عن سما فخجا من كيوت وخرجت الناس كافتهم ولكن تشوف 116
جوه كغربان سود كانهم طالعين من حريق ومن ذلك الهوا تعد
ات في منزلنا ثمانية انفار منهم خمسة اولاد وتنتين نسوان ورجل
احد واما موتت هذا الهوا سريع جدًا كحمل قويصة الرصاص
ن حين الانسان يشم هذا الهوا المسم يصير حالًا تخرج الدم
منا خيره وفم بكثرة في مدة ستة زمان يصير اسود مثل الفحم
بيبس وتموت موتًا رديًا انجس من الطاعون فشكرنا الله الذي
نا من هذه القطوع العظيم دنا في يوم سافرنا وكنت دايمًا في فكر
ف عظيم من هذا الهوا كيلا يحصل لنا امرًا ونكون سايرين بالطريق
عدنا من [illegible] بيروت ورب يتاوي عندهم كلك بلا شك
11

ثم بعد ذلك سافر بخواجه دريني وانا بقيت مده بعد
في مصر وبعد ذلك توجهت الى دمياط ومن هناك
رجعت الى اللادقيه من بعد افاده كليا وخسرت جميع
مصارف ستة سنين كبيره وراح التعب وكشفا
باطلا ودخلت للادقيه حتى افتش على شي شغله حتى
اعيش منها بسنا وهكذا كان نصيبها سيا حسنا
بعد ان قدر باقي رديه المعاملات والتلبيس راح
تعبه وايراده ورجع الى فرنسا اما كما الان ذكرنا
من عندها والسلام

قائمة بالقبائل التي وَقّعت على الرباط

Noms des Tribus	Noms des Commandants des Tribus	Nombre des Tentes composant chaque Tribu.	Nombre approxi. des âmes dans chaque Tribu.
العمور El-Ammour.......	سلطان البراق Soultan El break....	500.	5,000
الحسنة El-hasenné	محمد الفاضل ابن ملحم Mehamed el faâil Eben melhy	1,500	15,000
ولد علي Woulâ Ali	دوخي ابن سمير Douchi Eben samir	5000	50,000
السرحان El-sirhaan	ادغم ابن علي Adghum Eben Ali	1,200	12,000
السرديه El Sardie	فدغم ابن سراج Fedghem Eben Sarraag	1,800	18,000
بني صخر Benni Sakhar.	سلامه ابن فخر Sellamé Eben Sakhar	2,700	27,000
الدولة El Doualla	الدريعي ابن شعلان Draghy Eben Chahllan	5,000	50000
حربا El harba	فارس حربا Fares el harba	4000	40000
السوالمه El Swallemé	عوض ابن جندل Auad Eben Giandal	1500	15000
العلما El Ollama	طيفان ابن سراج Taffaghan Eben Serrage	1400	14000
عبدالد Abdelle	سلام ابن محيل Selam Eben Mehgeil	1200	12000
الرفاشا El Refacha	ذراك Zarrak	800	8000
الوالده El Wualdé	جندل المهيدي Giandal el Mehiedi	1600	16000
المنفخ El mofanfakhr	حمود التامر Hammoud el Tammer	5000	50000
الشراره El Cherarah	عابد ابن صبح Abed Eben Sobach	2300	23000
الشعجا El achgaha	دهاس ابن علي Dehaps Eben Ali	2000	20000
[illegible] El Salaba	جلعان ابن جويس Giadan Eben Geraines	3000	30000
الجلاس El Jimllan	زراك ابن فخر Zarak Eben Sakhar	1200	12000
الجهما El Giahma	جراح ابن مجل Garah Eben Mezigel	1500	15000
ابا الكليس El Ballakis	غالب ابن رمضون Ghaleb Eben Ramdoun	1400	14000
المشيخ El Mashakh	فارس ابن نجد Fares Eben Nadjed	2000	20000
الفرسا El Ferassa	زهيران ابن عواد Zehayran Eben Awad	2000	20000
الخلق El Mahlag	نابق ابن عابد Naba Eben Abed	3000	30000
المخات El Merachdat	روضان ابن سلطان Roudan Eben Abed	1500	15000
الذكر El Zeker	[illegible] ابن فيحان Mallac Eben Fayhan	800	8000
الباكز El Becharhy	فارس ابن عجيب Fares Eben Aggib	500	5000
الشمس El Chamsi	قاسم الكوسان Cassem El Kouchan	1000	10000
القواهر El Quaher	سلام النفاس Selame El Nakhsan	600	6000
الصبا El Salba	[illegible] Mehamed el Sanck	800	8000
الفدغان El Fedghan	[illegible] ابن غبين Souackhry Eben Ghabin	5000	50000
السكه El Salkeh	علي ابن جريس Ali Eben Giraines	3000	30000
المساعيد El Messaied	نحيمان ابن فهد Nehaiman Eben Fahed	3500	35000
السبعه El Sabha	مهدي ابن عيد Mahdi Eben Aïd	4000	40000
بني دهب Benni Dehabb	سطي ابن وهب Chatti Eben harab	5000	50000
الفكاكا El Fekaka	مطوي ابن طيار Matoui Eben Tayar	1500	15000
الحاميد El Hamamied	مطي ابن فارس Chalti Eben Fareg	1500	15000
الفنفير El Daffir	عوض ابن طلق Auad Eben Mattac	2300	23000
الحاجر El Hegiagar	سلام ابن براك Selame Eben Barac	800	8000
الخوامل El Khaouadel	خنكار العليمي Khrenkiar el Aliny	3000	30000
بني طي Beny Taij	حمدي ابن تامر Hamdi Eben Tamer	4000	40000
الهوارج El Huareg	[illegible] ابن مهدي Habac Eben Mahdan	3500	35000
المعايز El Meaziz	رديني ابن خنكار Redaini Eben Khrenkiar	6000	60000
البركانه El Berkana	سعدون ابن والي Sahdoun Eben Wuali	1300	13000
النعيم El Naimm.	فهد ابن صالح Fahed Eben Saleh	300	3000
بو حربا Bou harba	عليان ابن نجد Aliyan Eben Nadjed	500	5000
		102,000	1,020,000

الفهارس[1]

فهرس الصور

صفحة

(١) ذكرنا فقط أهم المقاطع التي وردت فيها الكلمات المُفَهْرَسَة.

فهرس الأعلام

آ

ب

ج

ح

فهرس القبائل والأمم

فهرس البلدان والمنازل والمياه

آ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ن

هـ

و

ي

فهرس الكلمات الفنية والأجنبية

(حيث جاء شرحها)

فهرس الكتاب[1]

الصفحة

(١) تبويب الكتاب والعناوين من المحقق.

المراجع: اتينا على ذكر أهم المراجع في الهوامش فلم نرَ من حاجة إلى تكرارها.

الفهارس:

يوسف شلحد
في سطور

بقلم الأستاذ حمد الجاسر
صاحب (مجلة العرب) ــ الرياض

ذكرت وأنا أطالع في إحدى صحفنا وهي جريدة «البلاد» ع ٧٨١٦ تاريخ ١٤٠٥/٣/١٢هـ (١٩٨٤/١٢/٤م) خبراً نصه: أصدرت دار نشر (ميزونوف ولاروز) في باريس التي يديرها (جوزيف شيلهود) المتخصص في علم الاجتماع وعرقيات الشرق الأوسط والأستاذ بجامعة باريس ورئيس قسم الأبحاث في المركز القومي للبحث العلمي، مؤلفاً شاملاً مكوناً من عدة أجزاء حول اليمن، أو كما تطلق عليه الكتب الكلاسيكية اليمن السعيد باسم «عرب الجنوب تاريخ وحضارة».

تمنيتُ أنني أحسن اللغة الفرنسية لأعرف شيئاً عن هذا الكتاب، وما أدركت أنه قد أُهدي إلي منه مجلدان بتاريخ ١٩٨٤/٦/٢٧م ــ أي قبل نشر الخبر بما يقرب من ستة شهور.

وأنَّ اسم مؤلفه الفاضل الذي ورد في الصحيفة (جوزيف شيلهود) هو من أصدقائي منذ سنين، وأن وقوع الخطأ في كتابة اسمه حال بيني وبين معرفته، وهذا ما يشكو منه الأستاذ نفسه حيث ذكر لي في أحد كتبه أنَّ بعض المنشورات العربية تشوه اسمه تشويهاً قبيحاً ظناً منها أنه من المستشرقين.

وهو عربيٌّ منشأً وهوىً وثقافةً، فهو من أسرة سورية تدعى (شلحت) والكلمة سريانية معناها (رسول)، وقد ولد في مدينة حلب الشهباء في ١٩١٩/١٢/٦م وتلقى دراسته في المدارس الخاصة التي أجاد فيها اللغة الفرنسية، ولكن أسرته كان لها تأثيراً في توجهه لدراسة اللغة العربية دراسة عميقة، فقرأ كتاب سيبويه، قبل أن يكمل العقد الثاني من عمره ونال الجائزة الأولى في مسابقة شعرية أجرتها مجلة «الأمل» بين جميع طلاب سورية ولبنان وحاز شهادة (البكالوريا) في العلوم سنة ١٩٣٨م ولكنه بسبب قيام الحرب العالمية الثانية لم يتمكن من متابعة دراسته العليا، فاشتغل في التعليم، ونشر عدداً من المقالات في مجلتي «الحديث» و«الضاد» وفي جريدة «برق الشمال» وكلها تصدر في مدينة حلب.

وفي سنة ١٩٤٦م صدر له أول كتاب باللغة العربية بعنوان: «علم الاجتماع الديني».

وسافر بعد ذلك إلى فرنسا للدراسة، فنال شهادة (الليسانس) في العلوم الاجتماعية من جامعة السربون، ثم (دكتوراه الدولة) بدرجة شرف الممتازة من الجامعة نفسها سنة ١٩٥٢م.

ثم عاد إلى سورية للعمل في الجامعة فلم يتيسر له ذلك، فعاد إلى فرنسا حيث عُيِّنَ باحثاً في (المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي) ثم مدير أبحاث في قسم العلوم الانتولوجية.

وقد قام بعدد من الرحلات إلى البلاد العربية لدراسة أوضاعها الاجتماعية موفداً من قبل المركز الفرنسي الذي أسنَدَ إليه شؤون البحث العلمي التعاوني عن اليمن وعن الجزيرة العربية مدة عشر سنوات.

وقام بتدريس العلوم الاجتماعية في معهد العلوم العليا، وفي جامعة السربون، وفي جامعة السربون الجديدة.

وقد اعتزل التعليم ليتفرغ للبحث والدراسة والكتابة.

وله أبحاث علمية عديدة نشرت في المجلات الفرنسية والألمانية والأمريكية وفي الموسوعة الإسلامية الدولية.

وقد قام بتحقيق كتاب «بغية المستفيد وذيله الفضل المزيد» لابن الديبع ونشره المعهد اليمني للدراسات التاريخية، ونشرت له مجلة «العرب» أبحاثاً تاريخية.

بعض مؤلفات يوسف شُلْحُد

باللغة العربية:

علم الاجتماع الديني — حلب، ١٩٤٦.

حقق كتاب «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» وذيله «الفضل المزيد» لابن الديبع، منشورات المركز اليمني للدراسات والبحوث، صنعاء، ١٩٨٣.

باللغة الفرنسية:

حدود الموضوعية في علم الاجتماع.
المدخل لسوسيولوجيا الإسلام.
الذبائح عند العرب.
أسس الحرام عند العرب.
الحقوق في المجتمع البدوي.
اليمن تاريخاً وحضارة.

رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية/تحقيق يوسف شلحد. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٠. ــ ٣٤٨ ص ؛ ٢٤ سم.

١ ــ ٩١٥ ص ا ي ر ٢ ــ العنوان ٣ ــ الصايغ ٤ ــ شلحد

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٩٠/١٠/٨٥٩

رقم الإصدار ــ ٥١٣

هـذا الكتـاب

شاب عربي سوري يدعى فتح الله الصايغ، ولد بحلب في حدود سنة ١٧٩٠م، قام برحلة نحو عام ١٨١٠ واستغرقت سبع سنوات، تجول خلالها في بادية الشام وصحاري العراق والعجم وتجاوزها إلى حدود الإيران الشرقية، حيث قابل الأمير سعد البخاري، رئيس قبائل عرب الهند، ثم قطع الحَماد وزار الدِّرعيّة عاصمة الوهابيين يومئذٍ. هذا الكتاب هو مذكرات هذا الشاب أثناء سياحته، فيتحدث عن بداية معرفته وعلاقته بتيودور لاسكارس، ثم يصف لنا وبدقة العادات والأعراف البدوية، وعن القبائل التي اتصل بها، وذكر أسماء شيوخها وعدد مقاتليها، وتكلم عن الوهابيين وحروبهم وغزواتهم. كما وصف لنا وببراعة عدداً من البلدان والقرى السورية مثل معرة النعمان، حماة، حمص، القريتين، صدد، الرستن، تدمر، وقصر الحير الغربي. وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن هذه المذكرات ترجمت إلى الفرنسية على يد الشاعر الرومانتيكي لامرتين والتي اشتراها عام ١٨٣٢ وصدرت عام ١٨٣٥.

